الطبعة 4

6 إنش

رواية

بعض الأخطاء خلقت للخلود

أحمد حسين

الدار المصرية اللبنانية


6
رواية
إنش
بعض الأخطاء خلقت للخلود

أبو الرجال، أحمد حسين.
6 إنش: رواية / أحمد حسين أبو الرجال.- ط4.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2015.
560ص؛ 20سم.
تدمك: 7 - 957 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ- العنوان. 813
رقم الإيداع: 1717 /2015

---

16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: ربيع آخر 1436 هـ - يناير 2015م
الطبعة الثانية: ربيع آخر 1436 هـ - فبراير 2015م
الطبعة الثالثة: رجب 1436 هـ - مايو 2015م
الطبعة الرابعة: 2015م



أحمد حسين

الدار المصرية اللبنانية

ليست الزهاب لفيلمك المفضل منفردًا

ولا الجلوس وحيدًا في وضح النهار..

الوحدة هي اللغة التي لا يتقنها أحدٌ مثلك.

(1)

جلست كطفلة تملَّكها اليأس بعد أن فقدتها الحافلة، تضم ساقيها المتجمدتين لصدرها في رعب، تحرك يديها المكبلتين باحثة عن شيء.. أي شيء.

كان شعورٌ بالغثيان يقذفها في دوائر لا تنتهي، حرب ضارية بينها وبين مخدر احتل قلاعًا شاهقة بين جنبات عقلها، وخوف يملأها كما ملأ الهواء المكتوم ذلك القبر المعتم.. لا شيء هنا سوى الصمت، والحائط، ولسعة برد ظالمة تطعن ظهرها وقدميها مرارًا.

اتسعت حدقتا عينيها، كانت محاولة غريزية يائسة لرؤية أي شيء ممكن، محاولة أجهضها ظلام لون محيطها، تقاطعت شهقات الرعب مع نبضاتها المتسارعة عندما اكتملت الصدمة..

في تلك اللحظة راودها إحساس قوي بأن ما يمنعها عن الرؤية ليس الظلام فحسب، بل شيء أكثر سادية وقتامة، مرَّرت أصابعها المرتعشة فوق جفنيها بترقب لتطلق صرخة ذعر نصف مكتملة.. كانت تعلم.. ولذلك استندت برأسها إلى الحائط البارد، صديقها الوحيد الذي يشاطرها الصمت.. وقتها أيقنت أنها لن ترى مهما حاولت، وشقت دمعة

يأس مختلطة بدماء متخثرة طريقها فوق وجهها.. سقطت ككرة جليد باردة الإحساس.. مسحتها بكفها الصغيرة لترسم لوحة سريالية سوداء.. كونها الدم والكحل والألم، صرخت صرخة غضب، ولكمت الحائط بهيستيريا ويد مرتعشة، هدأت ثورتها بعدما علمت أن مصيرها محتوم.. أنه دورها..

وصوت ما.. يضيف بُعدًا جديدًا من أبعاد الخوف، صوت أفاقها من ذلك الكابوس الحقيقي، أشبه بصوت راديو يتنقل صاحبه بين محطاته المشوشة، موسيقى ثم حوار ثم نشرة، كلمات متلعثمة تشابكت كبيت عنكبوت مكتمل لتنتهي بأغنية عتيقة مبهمة، لحنها الناعم يحمل كثيرًا من الرعب..

ثم ضجيج..بدا كعراك، جذبها زحفًا للباب، ألصقت أذنها به لتنصت، تعالى صوت نبضاتها حينما سمعت صوته، فهي تعرفه جيدًا..

صوته لها كصوت الخلاص.

قبلها بسبعة أشهر..

مستشفى القصر العيني

- العقل الباطن، أو الـ (Subconscious)، كلها أسامٍ مختلفة لأكبر لغز عرفه الإنسان عن نفسه.

قالها الدكتور عبد الرؤوف بصوته الأجش ذي الطابع «الأمريكي» لطلابه في غرفة «السيمينار» المزرية في مستشفى القصر العيني، رمق مقعدًا شاغرًا في الصف الأول ثم تجاهله، تحرك متكئًا على عكازه الخشبي الداكن تجاه الباب واستقر مواجهًا شاشة العرض، بدا في نهاية العقد الخامس من عمره، متوسط الطول، يمتلك جسدًا نحيفًا وشعرًا أجعدَ قصيرًا اشتعل شيبًا منذ أمد، يرتدي بدلة رمادية حديثة النوع، كان أنفه ذا نهاية مدببة واضحة.

تكونت الغرفة من كراسي خشبية قديمة وتكييف معطل وباب مفتوح لا يغلق أبدًا، استرسل دكتور رؤوف - كما يلقبه أصدقاؤه - في تمعن وثقة مخاطبًا أطباء المستقبل:

- علماء الطب النفسي شبهوا العقل الباطن بكاميرا بتسجل أي حاجة بتحصل، مهما كانت غير مهمة أو حتى معقدة، مش بس كده.. بتتفاعل معاها بالتأييد أو الرفض.. أرشيف فيه كمية لا نهائية من المعلومات المفصلة، السؤال اللي دايمًا بسأله لنفسي: مين يقدر يفتح الأرشيف؟

قالها وأغلق زر جاكيت البدلة الخاص به باحثًا عن بعض الدفء في يوم بارد، فحص المقعد مجددًا بترقب، انتظر ثانية وضغط على زر في ريموت كنترول أخرجه من جيبه ليغطي الـ (Projector) الحائط بأضوائه المتداخلة، مرت ثانية وبدأ فيديو صامت ذو ألوان باهتة في العمل، بدا أنه صُوِّرَ بكاميرا بدائية في ثمانينيات القرن الماضي، طفل أشقر يركب دراجته الأولى بمساعدة أبيه المبتسم، تنساب موسيقى هادئة في خلفية المشهد لتضيف مذاقًا غامضًا للأحداث التي تسارعت، الطفل يلهو بحشرة كبيرة الحجم في حديقة المنزل، ونفس الطفل بعد عدة سنوات يلهو بكرة القدم مع أقرانه بالمدرسة، ومراهق أشقر يخفي شيئًا خلف ظهره يبدو كمسدس ويقترب من سيارة في ظلام الليل بشوارع كاليفورنيا المميزة.. ويطلق النار.

أضاف عبد الرؤوف:

- العقل الباطن..أو اللا وعي زي ما سماه فرويد، هو محرك غير مباشر لرغباتنا السلوكية أو حتى الجنسية، تراكمات من مواقف وذكريات بتحدد رد فعل أي حد فينا وسط اختيارات الحياة اللي مابتنتهيش..أنا عارف انكم لسه طلبة جداد بس عايز أسأل، حد يعرف تحديدًا الإدراك أو الوعي بيمثل قد إيه من المخ البشري؟

- 50٪!.

قالتها طالبة.

- 80 ٪..

قالها آخر بثقة.

- متهيألي 70٪!

أضاف ثالث بتردد.

ابتسم عبد الرؤوف وأجاب بهدوئه المعتاد:

- الإدراك في العقل البشري بيمثل 12 ٪ من المخ.

تعالت الهمسات بينهم ليضيف عبد الرؤوف:

- ماحدش عارف الذكريات الخاصة بالعقل الباطن بتتخزن فين، لكن الأكيد إنها مابتتخزنش في الذاكرة الطبيعية.. الـ (Mermer Memory)، الأبحاث الحديثة بتحاول تجاوب عن سؤال واحد، إيه هي وظيفة تمانية وتمانين في المية من المخ؟ النهارده مناقشة مفتوحة عن العقل الباطن بكل تفسيراته.. في نهاية المناقشة هنتكلم عن كتابي الأخير في علم النفس اللي موضوعه هو نفس موضوعنا النهارده...

قالها ورمق ساعته بقلق.

محيط القصر العيني في نفس اللحظة

تابعت قدماه سباقهما الهادئ، حذاءان جلديان نحيفان كبيرا الحجم، كان لونهما بنيًا قاتمًا وقد وصلا لمنتصف المسافة بين عقبيه وركبتيه كأحذية الجيش، يمر فوق الأسفلت الـمُحنَّى بندى الشتاء والعفرة، كان

شابًّا متوسط الطول والبنيان يميل للنحافة، يمتلك من العمر ثلاثة عقود كاملة.. وعينين رماديتين لامعتين هما آخر ما يُذكِّره بوالدته التي فقدها في سن الخامسة، دفن كفيه داخل جَيْبَي معطفه الطويل ونفخ قليلًا من البرودة بفمه الدقيق، لكنه ترك الزر الأعلى في قميصه الأبيض مفتوحًا، زين كتفه شنطة «كروس» تشطر جسده نصفين توارى معظمها داخل معطفه الرمادي ذي الجيبين الكبيرين، كانت تحوي بضعة أوراق وأقلام وكاميرا تصوير خاصة بعمله الذي يتلخص في قسمين، الأول: يقضيه في جريدة «اليوم المصري» اليومية المملة، حيث يعرفه القراء بعموده الأسبوعي «خيوط ودلائل» القابع في صفحة الحوادث، الباب الذي صب فيه عصارة سنوات من ملابسات الكشف عن أغرب الجرائم التي عكف على حلها الطب الشرعي، أو تلك التي شارك في حلها شخصيًّا بطريقة غير مباشرة، تلك التفاصيل الدموية التي تحقن الأدرينالين في الدماغ تاركة خلفها قشعريرة باردة، لذة تدغدغ مشاعر جمهوره من أنصاف السداة، وتكفل له مرتبًا لا يتعدى إحدى عشرة مائة، شعور يعرفه عشاق الأفلام الدموية من نوعية الـ (Gut Movies)، أو قيصر جلس بين الهتاف والصريخ متكئًا، يشاهد تجسيدًا حيًّا لمعركة بين رجل وأسد جائع في مدرجات مسرح بومبيوس.

أما القسم الثاني من عمله فيمكن تلخيصه في كلمتين فقط (مطعم لا تشانس).

رمق ساعته الفضية مرتين وتابع طريقه إلى هدف ما، يعلمه هو، على يساره تراصت السيارات الساكنة في صف لا ينتهي كتوابيت الموتى، إلا أحدهم كان به شيء من الحياة، سيارة جيب حمراء اللون قديمة الطراز يدور محركها ولا تحمل أرقامًا من الخلف، رمقها بنظرة سريعة في طريقه وتجاهلها لكن عقله رسم دائرة سوداء بقلم تخييلي على مكان اللوحة المفقودة، تابع طريقه وحاول منع عقله عن التفكير لكنه فشل في مفاوضة عينيه كيلا لا تدون كل شيء، رسمت أمامه ملاحظاته التخيُّلية عن كل ما شاهده من أرقام السيارات المتراصة.. وبائع مناديل أعسر طاعن من السن يفاوض رب سيارة عن جنيه رسمت دائرة أخرى على ساعة باهظة الثمن لم يخفها كم قميصه الـهَرِئ، وفتاة تسرق قطعة شوكولا من كشك سجائر غافلت صاحبه بابتسامة وحديث لين، لكنها لم تغافل عينيه الرماديتين الهادئتين، ورسمت دائرة على يدها أيضًا في وضع تلبس.

مر في طريقه على بنك يمكث في نفس صف التوابيت الساكنة، خرجت منه سيدة قصيرة بلغت أرذل العمر تتعكز على سلم البنك في طريقها للشارع، بدت من طبقة أدنى من تلك المسماة بالشريحة الوسطى، تتحدث في هاتف محمول رخيص الثمن بصعوبة وتتنفس بمعجزة، توقف الشاب فجأة أمام المرآة اليمنى لسيارة مستقرة وتابع النظر في المرآة، ثم مال ليعيد ربط رباط حذائه بعدما حرره عن عمد، وقف مجددًا ونظر في المرآة ثم تابع طريقه.. تسارعت خطاه شيئًا فشيئًا تجاه إشارة المرور الكبيرة في نهاية الطريق، لم يلتفت وراءه بعد أن تجاوز

السيدة، لكن عينيه تابعتا أمرًا ما في كل مرآة سيارة مر بها، فصل بينه وبين الإشارة عشرة أمتار كاملة، لاحظ أن شرطي المرور قد ترك مكانه فوق المنصة المخصصة له ليهاتف شخصًا ما بعيدًا عن الزحام، كان منهمكًا واضعًا إصبعه السبابة داخل أذنه باحثًا عن مزيدٍ من الخصوصية، حينئذ حانت الفرصة.

تقدم الشاب الهادئ تجاه المنصة القابعة في جزيرة صنعها رصيف يتوسط الميدان بسرعة قاربت الركض ثم هدأ من هرولته حينما اقترب كيلا يلفت النظر، اشتعلت الإشارة بلونها الأصفر في اللحظة التي اقترب فيها الشاب منها، تأهبت السيارات للانطلاق وضغط سائق إحداها على دواسة البنزين لتطلق الميتسوبيشي الخاصة به نفيرًا مكتومًا، لقد مرت دقيقة مملة قضاها الجميع في انتظار ثمرة خضراء من تلك الشجرة الإلكترونية الشاحبة.

ولسبب ما تابعت عينا صاحب الميتسوبيشي ذلك الشاب ذا الملامح الهادئة، وبالفعل لم يخيب حدسُه ظنَّه، فقد مر من أمام منصة (الإشارجي) الغائب في اللحظة التي أعلنت الإشارة عن اخضرارها لتتحرر السيارات وتنطلق، لكنه لم يمر مرور الكرام، فقد ضغط بخفة لم يلحظها أحد على زر ما في مقر الإشارة الفارغ، زر غيَّر كل شيء.

في نفس اللحظة، وفي الشارع الذي مر منه الشاب المبهم راقب سائق الجيب الحمراء خطوات السيدة المسنة أمام البنك، بدت كسلحفاة فقدت ذاكرتها وتركت صدفتها ومشت تائهة في العراء، نكز رفيقه في

الكرسي المجاور والذي نفخ سيلًا رماديًّا من سيجارته في سقف السيارة برعونة ليجيبه:

- تمام..

كان رفيقه في نهاية الثلاثينيات، يمتلك جسدًا نحيفًا وشاربًا كثيفًا داكنًا وشعرًا يماثله نعومة وقتامة قسمه نصفين فوق جبهته العريضة، انتظر السائق عندما اكتست الإشارة بلونها الأخضر ليكبس على مقود السيارة.. وانطلقت.

بالعوده للإشارة

ترجَّل صاحب الميتسوبيشي بعدما شاهد فعلةَ الشاب الغامض تنعكس على الجميع بسرعة كبيرة، كان جسده متوسطًا، قمحي البشرة، شعره متوسط الطول ولامع بطريقة مثيرة للانتباه، فبعدما ابتسمت الإشارة بلونها الأخضر وكسرت السيارات أسرها وانطلقت، تحول لون الإشارة إلى الأحمر فجأة لتنطلق سيارات الاتجاه المعاكس، وتحدث حادثتان التهمت إحداهما إكصدام سيارة قديمة، أزمة مرورية معقدة ومئات من السباب المتطاير بأنواعه كحبات الطماطم في عيدها السنوي في فالينسيا، وأوركيسترا حزينة شاركت فيها السيارات بأبواقها المختلفة كآلات نفخ، ركض صاحب الميتسوبيشي القاتمة خلف الشاب الذي ظن أنه أفلت بفعلته صائحًا:

- إستنى!. شوفتك.

لم يتوقف ذو العينين الرماديتين، لكنه تابع طريقه كأنه لم يسمعها، ركض سائق الميتسوبيشي الغاضب وقبض على قميصه ودفعه بعنف لسيارة اصطدم ظهره بها، رمق الشاب ذو الملامح الهادئة برعب سلاحًا ميريًّا معلقًا في جانب الشاب الغاضب أخفاه معطف بدلته، ثم حدق بفزع في وجهه الحاد ليضيف سائق الميتسوبيشي ساخرًا:

- فاكر نفسك هتتسلى وتهرب يا حماده؟!

قالها وجذبه من قميصه ثم صدمه مجددًا في السيارة لتهتز خصال شعره البنية الناعمة وتتسع عيناه فزعًا مجددًا، رفع يديه مستسلمًا وقالها بتردد:

- ماكانش عشان تسلية..كان عشانها.

وأشار تجاه البنك.

عقد صاحب السلاح الميري حاجبيه بعدما فاجأه الرد ليعيدها مندهشًا:

- عشان مين؟!

دوى صريخ أنثوي من أقصى اليسار، كان لسيدة مسنة قد طارت شنطتها أمامها كالفراشة، حدث ذلك بعدما مال ذو الشارب بجسده خارج الجيب الحمراء وقبض على شنطتها لتنطلق بعدها الجيب مسرعة، سقطت السيدة شبه مغشيٍّ عليها تردد كلمات تاهت في بكاء حاد، كان الواضح منها (دي فلوس يتامى حرام عليكوا!)، في ثوانٍ تجمع حولها

المارة وحاول اثنان من حراس البنك الركض خلف السيارة لكنها كانت أسرع من الجميع، وانطلقت الجيب الغادرة.. تجاه الإشارة.

في الجيب صرخ صاحب الشارب في صديقه:

- أنا مش قولتلك استنى لما الخرا تبقى خضرة!

ليجيبه صديقه بتردد واضح:

- كانت خضرة.. كانت خضرة، واتغيرت.. في حاجة غلط.

قالها بعدما صدمه منظر التكدس المروري أمام المخرج الوحيد من الشارع.

على الجانب الآخر، تفحص صاحب الميتسوبيشي الغاضب عيني ذلك الغامض بنظرة ثاقبة، كأنه يمسحها بأشعة (إكس راي) بحثًا عن شيء ما غير طبيعي، يرمقه بحاجبين كثيفين متقابلين كجناحي طير، انتظر ثانيتين وأفلت قميصه وقوَّم ياقته التي هرسها بقبضتيه بعدما تأكد من نواياه، سمع صوت الجيب المسرعة بعدما ضغط سائقها على المكابح لما باغته ذلك الاختناق المروري المستحدث، أخرج مسدسه من حافظته ووجه فوهته للأسفل متجهًا لقلب الحدث قائلًا للشاب بلهجة آمرة:

- خليك هنا!.ماتتحركش.

حاولت الجيب الهروب بشتى الطرق الممكنة لكن المخرج الوحيد من ذلك الطريق قد أغلق بالفعل، دارت الجيب ثلثمائة وستين درجة لتصدم عمودًا حديديًّا فوق الرصيف الأيسر من الطريق، حاول سائق

دراجة هوائية مفاداته لكنه فشل ليصطدم بسيارة أخرى، تقدم حارسا البنك ركضًا بحذر تجاه الجيب التي أصبح وجهها مقابلًا لهما بالفعل، أشهر كل منهما سلاحه وصرخ بعض المارة وتوارى آخرون، ضغط سائق الجيب على دواسة الوقود لآخرها مخرجًا زفيرًا غاضبًا كثور أسباني.. بدا الهروب مستحيلًا لأن الشارع مكتظ بالسيارات القادمة في الاتجاه الطبيعي، والذي سيقود الآن عكسه، على الرغم من ذلك اتخذ قراره.. ولكن شيئًا ما حدث عدل كثيرًا من الخطة، انفجر الإطاران اليساريان لتميل السيارة ناحية اليسار (ناحية السائق).

مالت الجيب عن يسارها.. كان السبب رصاصتين وقف مطلقهما متحفزًا لدرجة الهدوء، مصوبًا تلك المرة لرأس السائق، يقاوم رغبة ملحة في الضغط على الزناد مجددًا، رفع السائق يديه في الهواء رعبًا بعدما أيقن أن ذلك الثائر لم يأت ليمزح، تحول بنظره ببطء تجاهه ليشير له صاحب السلاح بأن يخرج من دون أن يتحدث، فتح باب السيارة بهدوء وخرج مرتعشًا، حرك الغاضب رأسه إيجابًا في صمت ليظهر من خلف السائق صاحب الشارب، بدا أكثر سخطًا من زميله المستسلم رفع يده مثله لكن على مضض وأطلق سبة غاضبة، علق صاحب الميتسوبيشي المتحفز:

- تعجبني!.نصدر باطاتنا ماحدش يتعور.

تعامل الحراس مع سائق الجيب بعنف وناول أحدهما حبلًا رفيعًا للشاب الساخر ذي النظرة الحادة كالسيف، استدار ذو الشارب واضعًا يديه فوق رأسه كما طلب منه الشاب، والذي أعاد سلاحه لجانبه، ثم

دفعه بقوة ليصطدم بالجيب، أمسك بيديه وكبَّلهما بقسوة بالحبل الرفيع ليتأوه ذو الشارب مطلقًا عبارة سخط ليرد عليه الشاب:

- هنبدأ صوصوة من دلوقتي؟..مش كفاية جايبك من عربية حمرة.

قالها وأداره ليواجهه وجهًا لوجه مبتسمًا بسخرية ليسأله:

- سوابق يا حمادة؟

رد ذو الشارب:

- ماعليش حاجة.

قالها متجنبًا النظر في عينيه الحادتين، حرك الشاب رأسه إيجابًا من دون أن يمحو ابتسامته الساخرة مربتًا على وجهه باستهتار قائلًا:

- جدع!. جدع يلا يا خـ..

قالها وتوجه بكلامه للحراس بعدما انتهوا من السائق:

- خليكوا يا رجالة عشان هنحتاجكوا.. عاش!

أخرج من جانبه الآخر جهازًا لاسلكيًا تمتم فيه بضعة كلمات وسط ذهول المارة، لكن عينيه تابعتا ذا الملامح الهادئة في طريقه لمستشفى القصر العيني حتى ابتلعته.

بعدها بعشر دقائق عند مدخل المستشفى، وقف أمين شرطة من أمن كلية الطب يميزه شنب وأنف معقوف، بجانبه وقف شخص آخر معه دفتر تذاكر صغير يفاوض أحدهم على عدد التذاكر اللازمة، استوقف

أمين الشرطة سيدة ذات ملامح وملابس ليست بقاهرية، تحمل أكياسًا بلاستيكية هرئة لا تختلف كثيرًا عن عباءتها السوداء، تفضحها رائحة طعام نصف ساخن قضت ليلة كاملة في إعداده، جاءت لزيارة أخيها المريض بعدما أتت به من صعيد مصر في رحلة علاجية فاشلة، انفجر «الأمين» صارخًا بوجهها بعد أن استعطفته أن يتيح لها الدخول، تجاهلها وتركها تمسح دموعها في طرحتها السوداء القاتمة، غمز لها أحد المارة بأن «تصبَّح» على الباشا، لكنها علمت أن آخر عشرين جنيها امتلكتها قد تحولت بالفعل لوجبة متواضعة تحملها الآن.

خلفها – وعلى النقيض– وقف شاب هادئ الملامح والعينين، تجاهل الموقف حتى حان دوره، تفحصه الأمين بنظرة هجومية من شعر رأسه البني لحذائه الجلدي:

- زيارة ولا مريض؟

تساءَل الأمين.

- لا مش زيارة.. أنا......

رد الشاب ليقاطعه الأمين:

- يبقى طالب.. كارنيهك!

أضافها أمين الشرطة الغاضب.

- أنا مش طالب هنا، أنا......

قاطعه أمين الشرطة بلهجة مستفزة:

- يبقى اتفضل بره!

ألقاها وانشغل عن عمد مع شخص آخر أعطاه كارنيه الكلية ليقلبه قبل أن يشير له بالدخول.

- دكتور عبد الرؤف مستنيني!

رد عليه الأمين مستهترًا:

- ييجي ياخدك..

دقائق مرت من المفاوضات الفاشلة، كان نهايتها قرصين «ترامادول» دفنهم الشاب في يد الأمين ذي المزاج الناري، كان سلاحه الأخير والفعال للمرور، في مجتمع يمكنك أن تحتله بشاحنة أقراص مخدرة.

في طريقه للسلم ملأ أنفه رائحة بخار مقززة ممتزجة برائحة البنج، كان المكان متسخًا كالجحيم، ومكتظًّا كالسوق، على يمينه مشى رجل يتحسس الحائط بخطى ثقيلة، ممسكًا بكيس بلاستيكي أسود كأكياس القمامة به كيس طبي يملأه سائل أحمر شفاف يخرج منه قسطرة تزحف على ساقه، والتي غطاها جلباب أمسك هو بطرفه، وعن يساره افترش بضعة أشخاص الأرض بعدما صنعوا لأنفسهم أسرَّة من ملاءاتهم المهانة، يطوف عليهم مراهق أسمر البشرة يحمل في شنطته معمل كافيين متحرك، وأكواب بلاستيكية سيئة الصنع يملأها لهم بالشاي تارة والقهوة تارة أخرى، ومن خلفه سمع صوت سرير جرار يركض وحوله يركض حوالي خمسة أشخاص وطفلة تبكي لدرجة الانهيار، وفوق السرير كان

شابٌّ نحيفٌ ينازع سكرات الموت بعينين زائغتين يسقط لعابه الأبيض من جانبي فمه.

توقف ذو العينين الرماديتين فجأة بعد عدة مترات، تجمد كرجل فقد الذاكرة عندما طلبت منه «بيونسيه» رقصة في ليلة هادئة، بيد أنه لم يكن في حفل راقص يضم نجمات هوليود، ولم تكن معضلته «بيونسيه»، بل كان شيئًا أكثر تعقيدًا، أعمال ترميم في السلم الوحيد المؤدي للدور الثالث «دور السيمينار» في القصر العيني، لعن بداخله تلك الترميمات السخيفة التي أجبرت الجميع على الانتظار أمام المصعد كتماثيل الشمع، تمعن في الأمر ثم قام بحساباته، أيقن أن مروره بين أعمدة الـ«سقالة» ومواد البناء سيكون متاحًا فقط لو تحول لذبابة، كان يومًا شاقًّا من البداية وتتابعت فصوله الساخنة لتستقر هنا، فُتح باب المصعد المعدني بعدما أطلق نغمته القصيرة، دخل ثلاثة أشخاص دعاه أحدهم للدخول.

- لا أنا هستني الـ...

قالها الشاب محاولًا إيجاد مبرر لعدم الدخول.

- بيشيل 6 يا باشا، تعالى اتفضل!.تعالى!

تردد قليلًا ثم حسم أمره بالدخول بعد إصرار الرجل.

«يوسف أصلان» هو صاحب المعضلة.

في المصعد أمسك بأنامله المرتعشة خصال شعره البني الناعم ليعيدها لحالة السكينة السابقة، لم يلاحظ أحد تلك الرعشة الخفيفة في يده.. تفحص الضوء الذي بدأ ينتقل من حرف (G) إلى رقم (1) في

لوحة المفاتيح الخاصة بالأدوار، تعالى صوت شهيقه المضطرب وزفيره الأكثر اضطرابًا، اقتحم صوت ضربات قلبه الموقف ليزيده رعبًا، حاول التنفس بهدوء كيلا يلفت النظر، تابعت عيناه الضوء في طريقه للزر الذي يحمل رقم (2).

- مبروك لمنى!

- عقبال ما نفرح بعيالها..

كان ذلك ملخص الحديث الدائر خلفه، سمعه بصوت عال كأن قائله يستخدم ميكروفون بائع روبابيكيا (200 وات)، عاد بنظره مرة أخرى للوحة الأرقام الخاصة بالأدوار، توسل للضوء في نفسه كي ينتقل للرقم (3) بسرعة لكنه تجاهل توسلاته الصامتة، شعر بيد تمتد على كتفه اليسرى:

- انت كويس يابني؟.. فيه حاجة تاعباك؟

قالها رجل كبير في السن يجاوره، حرك يوسف رأسه نافيًا، ثم أزاح عن هامته بضع قطرات من العرق في شهر- يفترض- أنه شتوي بارد.

و.. أخيرًا فتح الباب تلقائيًا، لتعود الحياة لدمائه، والألوان لعينيه.. وحبة مهدئ مقاومة للدوار قذفها في فمه.

في غرفة السيمينار أجاب د. عبد الرؤوف عن سؤال أخير من سيل الأسئلة التي بدأ طلابه إطلاقها:

- بروفيسور! إزاي هتقدر تتعامل مع فكرة خروجك معاش؟ هتقدر تتعود على حياتك الجديدة؟

ألقاها أحد الطلاب ليصمت فجأة صوت الحضور استماعًا للسؤال الصعب والمؤلم في نفس الوقت، مسح الدكتور رؤوف عدستي نظارته بقطعة قماش بيد مرتعشة قليلًا، ثم تمالك أعصابه مجيبًا بابتسامة مجاملة:

- الكورتكس(*) بتصنع المعجزات!

قالها قاصدًا قشرة المخ ملحقًا إياها بابتسامة مجاملة دفنت كثيرًا من الحزن بداخله، ثم انهمك بقراءة ورقة كتب بها ملخص محاضرته التي مر معظمها بالفعل، ضغط مرة أخرى على الريموت كنترول ثم زاغت عينه مجددًا ناحية الحضور ليجده وقد احتل الكرسي الشاغر لتوه.. صديقه القريب وتلميذه المفضل، الابن الذي لم ينجبه قط.. يوسف.

تشابكت كلمات المديح والثناء مع المناقشات الجانبية من قبل الطلبة، لقد كان يومًا حافلًا بالإثارة والغموض، لملم الجميع أوراقهم وانشغل بعضهم بجمع التوقيعات من دكتور رؤوف على كتابه الأخير، تجمعوا حوله كقطيع (بيرانا) جائع حول حوت محتضر، من خلفهم

(*) تعتبر قشرة المخ «الكورتكس» من أهم العوامل التي تساعد على التأقلم مع المتغيرات الجسدية والنفسية الدائمة «التغيرات النفسية المعقدة» مثل فقدان عضو أو إعاقة جزئية كالتأقلم مع فقدان حاسة البصر في إحدى العينين على سبيل المثال، هناك تجربة تم تطبيقها على 29 راقصة باليه في لندن لمعرفة سبب قدرتهن على الدوران أثناء الرقص دون التعرض للغثيان، اكتشف العلماء وجود تغيرات «نشاط كهربي» حدث لهن في قشرة المخ والأذن الوسطى.

وقف يوسف بنظرته الواثقة، رآه عبد الرؤوف من خلف نظارته الصغيرة ثم انهمك في التوقيع مجددًا.

- يوسف بيتأخر عن آخر محاضرة؟ إيه تاني ممكن يحصل في الدنيا؟!

قالها عبد الرؤوف مازحًا ليوسف الشارد خارج القاعة، ليرد الأخير:

- كان فيه حادثة في الطريق.. آسف!

مشيا معًا لغرفة استراحة الأطباء، تفهم الدكتور رؤوف عذره وصمت لثانيتين، فتح باب الغرفة ليوسف وباغته بعدها بعبارة تحمل الكثير من التعجب:

- ماقولتليش إنك عامل دايت.

كانت غرفة متوسطة الحجم، بها طاولة ظهر فوقها غلاية ماء فضية اللون وبضعة أكواب، كراسي جلدية هالكة فوقها بضعة شنط تخص بعض الأطباء، وشطرنج عاجي وضعه شخص ما بجانب الأكواب.

- دايت إجباري اتعودت عليه، أوعدك هينتهي أول ماترفد من الجرنال.. أو المطعم.

قالها يوسف في طريقه للداخل، ليرد عليه عبد الرؤوف:

- واضح إنك بتتعود على حاجات كتير غصب عنك.

جلس عبد الرؤوف مسترخيًا لبضعة ثوانٍ يحدق في سقف الغرفة في صمت، قاطع يوسف الصمت بجملة مديح قصيرة:

- محاضرة ممتعة كالعادة..

هز عبد الرؤوف رأسه موافقًا وأضاف بهدوء:

- وفقيرة.. كالعادة، بس أنا خلاص، بدأت أتعود على فقر محاضراتي.

- واضح إنك بدأت تتعود على حاجات كتير غصب عنك.

أضافها يوسف متهكمًا، ليشير له عبد الرؤوف بسبابته:

- أنا هقتلك!

ابتسم يوسف قليلًا ثم استسلم ضاحكًا، وأضاف عبد الرؤوف:

- شوفت أنا عملت إيه؟

قالها رامقًا الشطرنج العاجي فوق الطاولة.

- انت اللي صنَّعته؟

حرك عبد الرؤوف رأسه إيجابًا ليرد يوسف بعينين لامعتين:

- (Master piece).

هم عبد الرؤوف بالقيام، لكن يوسف سبقه وأحضر الشطرنج، نصب عبد الرؤوف الشطرنج اللامع ورص القطع بالتساوي أمامهما، علق يوسف:

- شكله حلو!. واضح إن الهواية تطورت لحرفة..

- الشطرنج بالذات لازم يبقى شكله حلو يا يوسف؛ نموذج مصغر من الدنيا، الدنيا لازم يبقى شكلها حلو، وإلا.. ماحدش هيحارب عشانها.

- فلسفة!، الشطرنج بالنسبالي فلسفة.. أكتر منه لعبة.

- أكيد.. فلسفة حياة، أرض.. وجيشين.

قالها عبد الرؤوف مشيرًا بإصبعيه السبابة والوسطى لرقعة الشطرنج ثم للجيش الأبيض المقابل له والأسود المقابل ليوسف.

- أرض.. وجيشين!

أعادها يوسف شاردًا مع الشطرنج، ثم رفع حاجبه الأيمن معجبًا بطريقة التشبيه وتابع التأمل.

- إيه؟ عمرك ما اتخيلته كده؟.. زمان قريت كتب شطرنج بتتكلم عن فلسفة أغرب، فلسفة مخيفة، صراع بين الإنس والجن.. بين الشر والخير.. بين كل حاجة والمقابل ليها..همم!

عقد يوسف يديه وأردف:

- أفتكر إني قريت مرة عن حاجة زي كده، لازم اعترفلك، أنا دايمًا بيعجبني الشطرنج بس انت عارف.....

- إن عمرك مالعبتها..

قاطعه عبد الرؤوف وأضاف:

- القوانين سهلة، قانون التبييت إن الطابية تيجي مكان الملك عشان تحميه، وترقية العساكر لو وصلوا لآخر مربع عند الخصم، أعتقد دول معروفين.

- والقطع؟

- لو رتبناهم حسب الأهمية من الأقل رتبة للأهم، يبقى تمن عساكر، فيلين، طابيتين، حصانين وبعدين ملكة وأخيرًا ملك.

- ملكة؟!

- في مصر بنقول عليه وزير، ولو إن كلمة وزير في البلد دي حاجة مش ولابد أوي يعني، زي خيال المآتة كده بالظبط.

قالها عبد الرؤوف شاردًا في قطع الشطرنج كأنه يناجي نفسه.

- البلد بقى حالها في النازل.. وماحدش عارف لمصلحة مين.

- مش عارف؟! بص كويس هتعرف لمصلحة مين!

علق عبد الرؤوف مشيرًا للجيش المنتصب في الصف الأول خلف العساكر.. ثم أردف:

- تفتكر لو التمن عساكر وصلوا هنا، واترقوا، الصف الأول هيكون ليه لازمة؟

أضافها مشيرًا للصف الأول مجددًا ثم أردف:

- فكر فيها كويس..! هي اتصممت كده، عساكر تحمي، وملوك تتفرج، ولو العساكر خدت حقها مش هتبقى عساكر، ولا الملوك ساعتها هتبقى ملوك.

- بصلها من الجنب التاني، جيش فيه أربع وزرا - أو ملكات زي ما بتقول - ممكن ينتهي، الجيش اللي بريسين يغرق.

- أو يحتل العالم.

قالها ومرت لحظة من الصمت عليهما نظر فيها يوسف بتمعن لصديقه الذي بدا غامضًا بعض الشيء ليتابع رؤوف مجددًا:

- عمرك لاحظت ان العسكري هو القطعة الوحيدة اللي بتتحرك لقدام بس؟

صمت يوسف متمعنًا ليضيف عبد الرؤوف:

- القطعة الوحيدة اللي ماينفعش تتفادى هجمة، ماينفعش تتراجع أو تتحرك يمين أو شمال، العساكر اتصممت عشان تنتهي.. عشان يضحي بيها الملك في بداية اللعبة ويكسب أرض.. لسه مافهمتش؟

- همم! لو رجعنا للترقية، سمعت مرة إن عسكري واحد بس هو اللي ممكن يترقى لوزير.

- بردو الكلام ده في مصر بس.. بره أي عدد.. البلد دي كل حاجة فيها مختزلة.. حتى الطموح في اللعب الناس بتخاف منه.. صدقني!. فيه عساكر لو اترقت، بتفضل من جواها عساكر.

- مبهر!. وبقية القطع؟!

قالها بتحفز، ليتابع عبد الرؤوف ممسكًا بقطعة شطرنج من جيشه:

- الفيل بيتحرك بالورب، بس ماينفعش يمشي في خط مستقيم مهما حصل.

حرك الفيل بخفة للأمام، ثم وضعه في منتصف اللوح الشطرنجي وأمسك بقطعة أخرى وأكمل:

- الطابية.. عكس الفيل..الطابية هي الدبابة البدائية، حركتها في خط مستقيم في أي اتجاه.. رمز مهم لقوة الجيش.

قالها واضعًا الطابية بجانب الفيل وأضاف:

- الحصان، تالت أهم قطعة في اللعبة، حركته محدودة، بس القطعة الوحيدة اللي ممكن تعدي أي حصن، وتدخل في أي مكان، مهما كان المانع، مافيش قطعة غيره ممكن تنط من فوق حاجز، بيتحرك في شكل حرف (L).

- وتاني أهم قطعة؟

تساءَل يوسف.. ليرد عبد الرؤوف محركًا الملكة.

- الملكة، بتتحكم في رتم الحياة هنا، أو بمعنى أصح، الحرب.

- لو ذاكرتي ما خانتنيش.. يبقى الملكة بتتحرك زي كل القطع.

- بالظبط! تقدر تتحرك زي كل القطع مع بعض، إلا الحصان.

- مافاضلش غير الملك.

قالها يوسف باهتمام.

- الصدمة بقى إن الملك أقل قطعة في الصف ده كله، بتتحرك خطوة واحدة بس في أي اتجاه.

علق يوسف مندهشًا:

- عسكري معدل!

- ماشي.. بس ملك، اسمه ملك.. تخسره تخسر كل حاجة.

- أنا شايفه مش مهم.

- دي وجهة نظرك يا سيادة الصحفي، بس كل واحد لازم يدافع عن حاجة، في ناس بتموت عشان فكرة، حتى لو مش حقيقية، حتى لو مش مهمة.

- ممكن صورة؟

قالها يوسف ليحرك معلمه رأسه موافقًا، لملم عبد الرؤوف القطع ورتبها بينما أخرج يوسف من شنطته كاميرا قديمة متوسطة الحجم سوداء اللون، اشتراها من «خواجة» ياباني منذ عقد، تعمل بنظام الفيلم الفوتوغرافي، الذي يعتبره يوسف «معنى التصوير الحقيقي»، تراجع للوراء لخطوة وطبع صورتين على شريط الفيلم، ثم حرك الملك الأسود من مكانه مستبدلًا إياه بالأبيض، اقترب بالـ«zoom» من الصف الأسود الذي وقف فيه ملك أبيض ناصع مختلف عن بقية عناصر الجيش، كسائحة أوكرانية في وسط مومباسا، طبع صورة أخرى، ثم ابتسم، جلس مجددًا أمام عبد الرؤوف الذي بدا سعيدًا باهتمامه، أعاد الكاميرا لمكمنها ثم قال ببعض الحرج:

- هو أنا أبقى مجنون لو لعبت شطرنج مع نفسي؟

ابتسم رؤوف وصمت لثانية ثم استطرد:

- يبقى نص العالم مجانين يا يوسف!

قالها وحرك قطعة من الجيش الأبيض للأمام.

بالعودة لمدخل المستشفى

افترشت الصعيدية الأرض باكية بجانب كيس الطعام المهتك عرضه، حاول الشاب ذو الشعر اللامع- «صاحب الميتسوبيشي» - مفاداتها، كان في طريقه للداخل بعدما ألقى بسيجارته بعيدًا، توقف وتفحصها من خلف نظارته السوداء القاتمة وتابع طريقه للداخل، يرتدي جاكيت بدلة داكن اللون، اختفى تحته مسدسه الذي لم تبرد فوهته بعد.

صرخ أمين الشرطة في السيدة:

- لو ما قومتيش من هنا هاجي أشوطك، يلا يا ماما عشان ماحدش يتكلم.

قالها مشيرًا للشاب بالتوقف ثم أردف:

- زيارة ولا دكتور؟

ابتسم الشاب قليلًا وأضاف:

- لا ده.. ولا ده.

- امال إيه اخلص! انت هتنقطني؟!

قالها أمين الشرطة بلهجة استفزازية مشيرًا بيده.

رفع الشاب حاجبه الأيسر محاولًا إبداء انبهاره بقوة شخصية الحارس، ثم تابع طريقه للداخل قائلًا:

- هخش لصاحبي.

هرع خلفه الأمين بغضب عارم، وصدمه في كتفه منفجرًا:

- أقف ياله انت فاكر نفسك داخل فين؟! ماتخلوناش نتغابى على أهاليكوا عالصبح بقى!

استكان الشاب ولم ينظر خلفه، ثم جرد عينيه من عدساتها السوداء، لتظهر عينان أقل ما يقال عنهما أنهما أكثر حدة من أعين صقر إفريقي، ثم ابتسم، وتلاقت عينه مع عيني الأمين ولم ينطقا بكلمة واحدة، لكن الأخير تملكه شعور غير مريح.

- مين كسبان؟!

قاطعهما ذو الشعر اللامع عاقدًا ساعديه وتابع:

- فاتك شوية شغل حلوين.. ضرب وشتايم.. ومكافأة من المباحث.

قالها ليوسف المنهمك في دور شطرنج حديث مقاطعًا ربع ساعة ساكنة قضاها يوسف وعبد الرؤوف في تفكير عميق.

ابتسم يوسف وقام من مجلسه ليصافح الشاب الساخر ذا العينين الثاقبتين مجيبًا:

- لو مكافأة يبقى للي اتخبطت عربيته.. والشتيمة للي جوه الجيب.

صافحه الشاب بنظرة إعجاب مردفًا:

- مؤمن البحيري معاون مباحث.

- يوسف أصلان..صحفي.

- عرفت ازاي انهم شمال؟

تابع:

- أقصد العيال اللي في الجيب..

قالها بفم فاغر يسكنه الاستهتار والدهشة التي لم يستطع إخفاءها أكثر من ذلك.

- إزاي عرفت إن أنا هنا؟

- شوفتك!

- وأنا شوفتهم.

ثم أضاف:

- نمر العربية اللي قدام بس، أول درس بيعلمه الحرامية الكبار لأطفالهم في الحضانة.

قالها ليرفع مؤمن حاجبه إعجابًا مبتسمًا محركًا لسانه داخل فمه بتلذذ ينم عن إعجاب.

- أعرفك بالدكتور رؤوف، رئيس قسم الطب النفسي سابقًا.. وأفضل مؤلف حاليًا.

علق، ليضيف عبد الرؤوف مازحًا:

- ماتصدقوش! بيحاول يواسيني عشان كسبني في الشطرنج.

- واضح إنك متعدد المواهب!

علق مؤمن وتفحص الشطرنج بيده.

- ماعندكش فكرة..

رد يوسف مازحًا ثم رسم ابتسامة أمريكية.

- حلو الشطرنج ده! Handmade؟

قالها مؤمن ملتقفًا الحصان بيده.

- شوفت!

وجهها يوسف لعبد الرؤوف بوجه واثق، ليبرر عبد الرؤوف للدخيل مبتسمًا:

عندي هواية نحت صغيرة على قدي.

مط مؤمن شفتيه متعجبًا وتوجه ببصره ليوسف مفسرًا اقتحامه:

- بص! عشان أكون صريح.. أنا حاسس بالذنب عشان كنت شديد معاك شويتين، وبعدين انت برده عملت حاجة كويسة، إيه رأيكوا أعزمكوا على لقمة كده في السريع، واهو نعتبرها قعدة تعارف.

قالها مؤمن مشيرًا بقطعة الشطرنج لوجه يوسف.

- ممم.. حظي وحش، للأسف عندي محاضرة تانية.. لكن شكرًا يا كابتن مؤمن.

كان رد عبد الرؤوف.

- انت ليه مصمم تغير صورة راجل المباحث اللي في خيالي؟

قالها يوسف متفحصًا ساعته.

- ما تقلقش! مش انا اللي هدفع.. الحجة هي اللي هتطبخ.

- الدنيا لسه بخير.

علق بها يوسف مشيرًا له بسبابته مازحًا، ليرد مؤمن وهو يفتح علبة سجائره:

- سيجارة؟

ابتسم الصديقان، ربت يوسف على كتف مُعَلِّمِهِ، ثم همَّ خارجًا مع صديقه الجديد.

في الطريق خارج المستشفى، قال يوسف واضعًا ذراع شنطته فوق كتفه:

- مؤمن! أنا سمعت ضرب نار.. قولي إنك ماضربتش نار في مكان عام في وسط النهار.

- أهو! هو ده، يا باشا! حرام عليك يا باشا.

صاح بها شخص مقاطعًا، كان صديق أمين الشرطة المعلقة ذراعه بماسورة حديدية عن طريق «كلابشات» وضعها معاون مباحث غاضب في يده، حوله تجمع العديد من الأشخاص الهائمين كأطفال يشاهدون عرض الأراجوز.

تجمع أصحاب الأمين المهان أمام مؤمن يستعطفونه في حين رمقه يوسف بنظرة هادئة لا تخفي قلقًا، ليرد مؤمن مفسرًا بحرج واضح:

- غلط فيا.. مارضيتش أضربه.

نظر يوسف لأرضية المستشفى محركًا رأسه في أسى، ثم أعادها:

- يبقى ضربت نار.. أنا متأكد.

* * *

(2)

بعدها بخمسة أشهر

في صباح يوم مشمس انطلقت سيارة ميتسوبيشي ذات (فاميه) غامق حتى ابتلعها الزحام، ثم توقفت لعشر دقائق كاملة بدون حركة في ساعة ذروة لا ترحم، فحص مؤمن تابلوه السيارة ثم توجه بحديثه ليوسف الذي أخرج يده من السيارة مداعبًا نسمة هواء متجمدة:

– في خبرين.. فيهم واحد وحش.

– إبهرني! إبدأ بالوحش.

– العربية مافيهاش بنزين.

– ممم!.. وانت اكتشفت المعجزة دي جوه الزحمة!

– للأسف.. نسيت أموِّن.

– والتاني؟

– التاني وحش..

رمقه بعدها يوسف بنظرة حادة لكنه مالبث أن تهلل ضاحكًا ليضيف مؤمن:

– ماعييش كاش.

قالها مقاومًا ضحكة انتصرت عليه أيضًا.

- كان لازم ماسيبش الجرنال بدري.

- ممكن أرجعك تاني، بس أنا متأكد إن الفضول بيقتلك.. بالمناسبة، عبد الجليل قال عليك كلام كويس.. هو عارفك على فكرة.

- اتقابلنا مرة.. قضية الصيدلانية.

- سمعت إن الداخلية كرمتك!

نظر له يوسف لفترة طويلة بالعًا لعابه ثم أضاف:

- ماتفكرنيش!

- أوك.. أوك!

قالها مؤمن ضاحكًا كأنه يعلم شيئًا ما محرجًا عن واقعة تكريمه وتابع القيادة.

- إحنا رايحين فين؟

تساءَل يوسف ليرد عليه مؤمن بثقة:

- آه صحيح.. أنا لسه ماقولتش، ده المشوار اللي حكيتلك عليه إمبارح،، مش هأخرك.. هي ساعة زمن هنهز واد غلبان هزتين وهنخرج بعد كده نشم هوا.

- إية حكايته؟!

قالها يوسف سارحًا في تلك الرعشة المصاحبة لكف يده، صعقه مؤمن برد جعله يتوقف عن فحص يده:

- جريمة قتل..

- قول كل حاجة!

- رجع من الشغل لقى أبوه وأمه واخواته مدبوحين.

- صدمة!

- وأي صدمة..الكلام ده من أكتر من شهرين، أول مرة شوفته كان عنده انهيار عصبي، عياط وسخّ..

- رُحت بيته؟

- رُحت بعد الحادثة، حاجة كده زي بيوت الرعب يا يوسف، دم في كل حته، ناس مدبوحة زي الفراخ..

- والصور؟

- كنت عارف إنك هتسأل، جنبك في الظرف الأبيض.. خلي بالك!

أمسك يوسف بظرف أبيض صغير دفنه مؤمن بين الكرسي الأيمن وذراع الفرامل، حرك إبهامه فوقه بهدوء وفتحه، قلب عينيه في الصورة الأولى مبديا بعض الامتعاض ثم قلب الصور واحدة تلو الأخرى ليزداد التأثر في عينيه، ثم أشاح بوجهه متألمًا من هول ما رأى.

- أنا حذرتك..!

قالها مؤمن ليسأله يوسف بعدما لفت نظره شيء ما في إحدى الصور:

- إيه اللي مكسور في الأرض؟

- الأوضة كانت مقلوبة، دي أوضة أسامة! لقينا منبه متكسر، وكباية متكسرة، متهيألي مش من وقت الحادثة لأن ماحدش سمع صوت تكسير.. طبعًا الفلوس والدهب بالسلامة.

أشعل سيجارة وأكمل:

- كلام وكيل النيابة إن أسامة - اسمه أسامة هو - المهم انه قال انه بيروح الشغل الساعة 6 ونص الصبح.

- هو بيشتغل فين؟

- مصنع كيماويات وأسمدة.

- أنا مش شايف أي مشكلة.. غير السيجارة.

-آة معلش!..نسيت.

قالها وألقى بسيجارته خارج السيارة بعدما تجرع منها نفسًا عميقًا وأردف:

- المشكلة.. إن التقرير الجديد بتاع الطب الشرعي بيقول إن الجريمة حصلت 6 الصبح.

- نزل بدري؟

- أنا قولت كده، أصله واد نضيف زي الفل، ملفه أبيض، وأنا شخصيًا شوفته، مافيهوش أي حاجة وكمان علاقته بأهله تمام.. والمنظر بيتكلم

برده يا يوسف، أنا مش تلميذ، ده مخبر المباحث عندنا بيتفك بظابط شرطة من كتر اللي بيشوفه.

- نرجسية مفرطة وإحساس مبالغ بالذات..

قالها مقلبًا عينيه في بضعة بنايات طلاها عادم السيارات باللون الرمادي القاتم.

- أيوه.. اديني.. اديني شوية نفسي.

- أبوه وإخواته؟

- أبوه معاش، وأخته بتشتغل في محل لبس، كانت بتنزل من بيتها بعد الضهر، تحس ان العيلة كلها طبيعية.. أو كانت طبيعية. قالها مؤمن مصححًا.

- أي أعداء للعيلة؟

- ولا الدموع، ناس في حالهم.

- ورايحله ليه لو متأكد؟

- أوامر يا عم.. روتين..

صمت الصديقان لربع ساعة كاملة تابع فيها يوسف مباني القاهرة الملونة، قاطع مؤمن شروده قائلًا:

- في حاجة مش مريحاك.

- مش مقتنع بموضوع انك تعرف المجرم من شكله، نظرية (شيزيري لومبروزو) أثبتت فشلها.

- اسمها (سيزار لومروزو).

- (شيزيري لومبروزو).

- زي ماتنطقها بقى.. المهم إني مقتنع بيها وبتجيب معايا.. كل حانوتي أدرى بنعشه.

حرك يوسف رأسه إيجابًا مطلقًا رصاصة الرحمة على الحديث فيما تابع مؤمن القيادة.

مرت ثوان صامتة طويلة أخرج خلالها يوسف يده من نافذته مداعبًا الهواء مجددًا ثم أضاف بقليل من التردد:

- «شيزيري لومبروزو!»

رمقه مؤمن بنظره حادة بطرف عينه اليمنى ووجه متجهم، ثم استسلم للضحك وراوغ الزحام هاربًا.

استقرت الميتسوبيشي الغاضبة أمام مصنع «شركة بدر للصناعات الكيماوية»، كان ذلك في بداية طريق القاهرة - بني سويف الصحراوي، ترجل الاثنان حتى وصلا لبوابة المصنع، حذاء أسود يمشي بجانب حذاء بني طويل كأحذية الجنود، حاول عامل البوابة إيقافهما ليرفع مؤمن محفظته أمام وجهه، لمع كارنيه المباحث في مقلتيه.

- مباحث.

- اتفضل يا باشا!

قالها الحارس الذي تحول إلى حمَلٍ وَديعٍ في غفلة من الزمن.

دلف مؤمن مسرعًا مرتديًا نظارته القاتمة يتبعه يوسف، الذي تفحص المصنع نصف المتهالك بعينيه الهادئتين، بداية من الكتل المعدنية الضخمة التي تشبه سفن الفضاء المتراصة جنبًا إلى جنب، مرورًا بمصدر مياه يستخدم في التبريد تتسرب من أنبوبه الأفقي قطراتٌ متلاحقة، انتهاءً بالعمال غير المعترفين بالملابس الوقائية أو نظارات الحماية أو حتى القفازات المقاومة للاحتراق الكيميائي، إلا أن بعضهم وضعوا فوق رؤوسهم (خوذة) صفراء.

انشغل معظم العمال في تعبئة الأكياس البيضاء الكبيرة بالأسمدة - التي هي في الحقيقة أجوال - من ماسورة عملاقة تخرج من إحدى المكن المتصل بأشباه سفن الفضاء، كانت رائحة المواد الكيميائية النفاذة تخترق أنوفهم عندما هرول رجل في نهاية الثلاثينيات من عمره، قصير القامة لا يتعدى المتر وخمسين سنتيمترًا، يرتدي بنطالًا قماشيًّا عريضًا للغاية وقميصًا بدا عليه الاستهلاك، تقدم مبتسمًا ومصافحًا مؤمن بحرارة:

- أهلًا وسهلًا يا باشا.. أهلًا وسهلًا.. داحنا زارنا النبي، أهلًا وسهلًا..

- عايز اتكلم مع أسامة البنا.

- خير يا باشا.. هو في حاجة؟

- هعتبرك ما سألتنيش!

قالها مؤمن بوجه ضَجِر للرجل الذي تدارك خطيئته قائلًا بارتباك:

- آ.. أوي أوي سيادتك.. ثواني ويكون عند حضرتك..

- لا أنا اللي هروحله، هو في أنهي دور؟

- في المعمل سيادتك في الدور الأرضي، تحت ده علطول، اتفضل يا باشا السلم من هنا، هو الباشا تبعك؟

قالها قاصدًا يوسف والذي بدا غارقًا في ملاحظة تفاصيل المكان، فصوت صرير القلم التخيلي الذي بدأ في كتابة بضعة كلمات حول ما يراه بسرعة الصوت، قد طغى على حوار مؤمن مع ذلك الممل.

- اتفضل يا دوك!

قالها مؤمن ليوسف متجاهلًا السؤال رامقًا الرجل بنظرة نارية، ليصافح الرجل يوسف بحرارة:

-أهلًا وسهلًا يا فندم.. أهلًا أهلًا..أهلًا وسهلًا.

- كفاية!.. إيه؟! 500 أهلًا وسهلًا !. ما تورينا بقى أم المكان عشان نخلص!

قالها مؤمن ببعض العصبية؛ لينفجر الرجل ضاحكًا ويشير لهما لاتجاه السلم، نظر مؤمن إلى يوسف في تعجب وتبع الرجل المبالغ فيه، ثم تبعهما يوسف الذي آثر الصمت.

- السيستم بايظ..

علق يوسف معدلًا وضع حزام شنطته المعلق فوق كتفه اليمنى حتى أسفل يسار خصره، ثم تابعوا هبوطهم جميعًا للدور السفلي ليرد الرجل في صدمة:

- أفندم؟!

- السيستم المضاد للحرايق، المحبس مقفول، لو كان مفتوح كان هيبقى فيه مسافة بينه وبين الكباس، واللمبة مطفية.. خطر جدًّا، الحريقة الكيميائية أخطر أنواع الحرايق.

ألقاها يوسف مشيرًا إلى مجموعة ملونة من المواسير الرفيعة المعلقة في سقف الدور الأرضي، رد الرجل بسعادة مبالغ فيها:

- ماشاء الله عليك يا فندم لماح! كلامك صح، النظام بايظ من شهرين فعلًا، هنقول إيه بقى، ولاد الكلب بتوع الصيانة ربنا ينتقم منهم، بندعي عليهم ليل نهار والله.

- صح كده، إدعي!

قالها مؤمن مستهزئًا ليضيف يوسف وهو يتابع نظام الإطفاء بعينيه:

- شتيمتك في رجالة الصيانة مش كفاية عشان تبرر خطورة مصنع قوة انفجاره تعادل ربع قنبلة ذرية، افتكر دايمًا إبريل 49! انفجار تكساس، مخزن نترات الأمونيوم، ضرر عدى الـ80٪ من مباني المدينة، أكتر من 500 قتيل.. و8000 جريح.

- استر يا رب! والله يا باشا مش عارف أقولك إيه.. يا ريت تقول للمدير الكلام ده، إحنا اتكلمنا معاه 100 مرة، مافيش فايدة.

توقف الرجل أمام معمل تفوح منه رائحة نفاذة وأردف:

- هنا يا باشا وصلنا، أسامة جوه على اليمين، أول واحد.

- عارفه.. تقدر تشوف شغلك انت!

قالها مؤمن ليتبخر الرجل بعدها مبتسمًا.

تابع يوسف دراسته للمعمل المتهالك في صمت، والذي بدا أقرب لمغسلة دراي كلين قديمة، تراصت أمام عينيه ملاحظاته التخيلية بقلمه الرصاص الذي لا يبرد طرفه، رجلان، إحداهما في بداية الثلاثينيات والآخر نهاية الأربعينيات، ارتدى الأول حذاء ذا ماركة عالمية لكن بها خطأ مقصودًا كتب قلم يوسف بجانبها «نسخة قليلة الجودة»، وبضعة قوارير كبيرة الحجم بها العديد من الكيماويات مختلفة الألوان لفت نظره أكثرها اصفرارًا ليخرج منها سهم تخيلي كتب بجانبه «حمض كبيريتيك مركز»، وسهم آخر خرج من بين إصبعي الرجل الأكبر سنًّا، تحديدًا من صبغة بنية قاتمة صغيرة في حجم زر القميص كتب في نهايته «مدخن شره»، وكلب، نعم.. كلب متوسط الحجم، يحوم حول صاحبه، ذلك المدخن الشره الصامت ذو الذقن المشتعلة شيبًا، والذي بدا منهمكًا بإضافة شيء ما في إناء كبير.

- إيه الريحة دي، انتوا بتصنعوا زبالة هنا؟!

قالها مؤمن بغضب في طريقه لداخل المعمل، رمقه الشاب ذو الحذاء المقلد بنظرة غير مريحة، ضغط على زر في لوحة أزرار معلقة على الحائط وقال:

- ممنوع الدخول هنا على فكرة.

- إيه! مش فاكرني يا أسامة؟

قالها واضعًا يده فوق منخاره مقاومًا رائحة عفنة أشبه برائحة البول.

- الشكل مش غريب عليا.

- مؤمن البحيري يا أسامة، مباحث..

- لا مؤاخذة يا سعادة الباشا..، اللي ما يعرفك يجهلك!

قالها مصافحًا مؤمن الذي صافحه بفتور.

- حصل خير.. روح اشرب سيجارة يا بشمهندس عشان محتاج أسامة دقيقتين.

قالها مخاطبًا الرجل ذا اللحية نصف البيضاء، ثم أخرج من جيبه منديلًا ورقيًا خبأ به أنفه بتأفف؛ ليترك الرجل ما في يده ويتجه خارجًا في صمت، تاركًا كلبه مشغولًا بإناء زجاجي فارغ.

- بص! أنا عارف ظروفك كويس عشان كده مش هطول عليك، هما سؤالين هسألهملك وهسيبك تصنع «البيبي» اللي بتصنعه ده.

قالها مؤمن لأسامة، ليقاطعه يوسف متابعًا المعمل ببصره كأنه يحدث نفسه:

- نترات أمونيوم.. مرتفعة الكثافة.

- ودي عرفتها بالإحساس؟!

قالها ليوسف مشيحًا وجهه عن أسامة.

- الأمونيا هي السبب في الريحة اللي مدايقاك، ده غير إن المعمل درجة حرارته عالية، يعني تفاعل طارد للحرارة.. وبما إن المصنع بيصنع أسمدة، يبقى أكيد الأمونيا بيتم خلطها مع حمض....

- الأزوت.. سماد أزوتي.

- بالظبط، وده ياخدنا لأكبر لغز شوفته من فترة، إزاي معمل بينتج مركب شديد الانفجار زي نترات أمونيوم، ومافيش فيه سيستم مضاد للحرايق.

علق يوسف متعجبًا؛ ليرد أسامة مجففا يده بقماشة:

- ده الطبيعي يا باشا.

- ما علينا، خلينا ندردش شوية ونخلص.

- لا مؤاخذة يا مؤمن بيه، هو فيه إيه حضرتك؟.. أنا عملت إيه؟

- لا ماتخافش أنا مأمنك ده شوية روتين، يلا.. كفاية هلك وجاوبني عشان نمشي، كنت فين الساعة 6 الصبح يوم الحادثة؟

- الحادثة!

أعادها أسامة بانزعاج ليتنهد مؤمن طويلًا ويضيف بعدما هدأت نبرة صوته:

- أسامة.. أنا مقدر إنك مش عاوز تفتكر.. بس زي ما قولتلك ده مجرد روتين.

كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها يوسف مؤمن يتحدث بتلك الرقة.

- تحت أمرك يا باشا!

- يلا.. فكر كويس وجاوب!

قالها مؤمن مستعيدًا نبرته الآمرة متفحصًا شيئًا ما في هاتفه.

تنهد أسامة وأضاف بعدما أرغم عقله على العودة قليلًا للوراء:

- أنا نزلت قبل الساعة 6 تقريبًا.

- لا لا لا.. مافيش تقريبًا!.. دي مابتتصرفش عندنا في المباحث.

رد مؤمن متابعًا قراءة شيء ما باهتمام في هاتفه من دون أن ينظر لأسامة.

- آسف يا بيه.. نزلت 6 إلا عشرة.

- عشان؟!

- كنت عايز أشتري فطار سعادتك.

- ليه؟ ماكانش فيه فطار في البيت؟

- لا يا باشا ماكانش فيه.

-آه.. مين شافك؟

قالها متابعًا تفحص هاتفه الجوال باستهتار.

- واحدة فلاحة باعتلي جبنة قريش في السوق، وواحد باعلي شوية فاكهة واشتريت من محل تاني فول وطعمية.

- فاكهة إيه؟

قالها يوسف متدخلًا لأول مرة، بيد أنه لم يظهر منه وقتها سوى ظهره، حيث انشغل بمداعبة الكلب بترقب خشية أن يثور عليه.

نظر له أسامة متعجبًا ثم رمق مؤمن الذي هز رأسه موافقًا على السؤال ليجيب أسامة:

- يوستفندي.

- وبعدين؟

قالها مؤمن.

- هو في حاجة ياباشا؟!

- هتحقق معايا يله ولا إيه؟! أسألك تجاوب!

صاح مؤمن بوجه حاد ثم أعاد هاتفه مرة أخرى في جيب بنطاله.

- آسف يا بيه!

- وبعدين؟

- وبعدين لقيت نفسي اتأخرت على الشغل، خدت الأكل ونزلت على المصنع.

- مين فطر معاك؟

- فطرت لوحدي يا باشا.

-آه.. ماقولتش الكلام ده ليه في التحقيق؟

- حضرتك تفتكر لو أي حد في مكاني، كان هيركز في الوقت أو في الفطار بتاعه؟ يا باشا دا انا ماكنتش قادر أنطق حضرتك.

- طيب.. الحمَّام فين؟ ولا ماعندكوش حمَّام هنا؟

قالها مؤمن ملتفتًا حوله.

- فوق في الدور الأولاني سعادتك.

- ماشي..كلم الدكتور عن الشغل شوية عقبال ما آجي!

- تمام سعادتك.

- حلو الكلب..

قال يوسف مراقبًا حركة الكلب المضطربة.

- آه..ده بتاع راغب، تاني يوم ليه هنا، مش عايز يولف على حد، كان هيعض عبد الله بتاع الأمن أول أمبارح.

- فاهم قصدك..أنا عندي كلب.

- هو الباشا زعلان مني يا دكتور ولا إيه؟

- لا.. بس لازم يسألك عشان في التحقيق الأولاني ماقولتش كل حاجة.. إحنا عارفين إن الصدمة كان ليها تأثير، البقية في حياتك!

- حياتك الباقية..أهو.. قدري بقى.

قالها بائسًا.

- تدايق لو كملنا كلام؟

-لا عادي..نكمل..عايز تعرف إيه؟

- مافيش موضوع معين.. أنا حسيت من كلامك إنك بتحب الفاكهة.

قالها متفحصًا إناءً زجاجيًا مستقرًا فوق حامل خشبي، كتب عليه رمز كيميائي باللون الأسود.

- أهو زي ما حضرتك بتحب الكيميا كده.

-العلم شيء شيق.

علق يوسف متابعًا تفحُّص الأواني الزجاجية.

كان المعمل خاليًا تمامًا من الحياة عدا يوسف وأسامة.. والكلب.

- أنا عارف ان اللي هقوله ده مش هيعزيك، بس انت ذاكرتك كويسة، أنا مستغرب إنك فاكر كل حاجة بالتفاصيل.

- أي حد مكاني مش هينسى أي حاجة، تعرف! ساعات بتمنى اني ماكنتش نزلت بدري اليوم ده، أهو.. يمكن كنت أنقذتهم، أو على الأقل أموت معاهم.

- أنا عارف إحساسك.

- إحساس صعب يا دكتور، ماحدش يقدر يحسه غير اللي زيي.

- انت كنت لابس يوميها القميص ده؟

- ليه؟ إشمعنى يعني؟

تساءل متفحصًا قميصه بدهشة.

- عندي إحساس إنك كنت لابس القميص ده.

- لأ.. إحساسك خانك يا دكتور، يومها كنت لابس تيشرت نص كم أبيض، وبعدين هيفرق معاك في إيه أصلًا؟

- مش عارف، اتخيلتك وانت جاي من السوق بالقميص ده.

- لأ ده انت - لا مؤاخذة بقى - جاي تترياً عليا..

ماقصدش، بس عندك حق، كان سؤال سخيف.. متأسف!

- حصل خير.

رد ممتعضًا:

انشغل أسامة في عمله مجددًا متجاهلًا يوسف، مرت دقيقة من الصمت تابع فيها يوسف دراسته للمعمل ومحتوياته، ليقلب دفة الحديث مجددًا:

- الشغل هنا فيه نسبة خطر عالية... بيدفعوا مرتبات كويسة في المصنع؟

- يا باشا إحنا بنشم نترات أمونيوم وبنتحرك وسط مية النار والبافر.

قالها ممسكًا بزجاجة كبيرة تحتوي على سائل مركز للغاية كتب عليها (H_2sou_4) ثم استطرد:

- وبيرموا لكل واحد في الآخر 800 جنيه.

- كام ساعة شغل في اليوم؟

- من 10 لـ 12.

قالها ليحرك يوسف رأسه في أسف ماطًّا شفتيه، ثم مرت بضع ثوانٍ من الصمت، صعقه بعدها يوسف بسؤاله عندما اقترب من الحائط الأيسر للمعمل:

- قتلتهم ليه يا أسامة؟

ترك أسامة كأسًا كان في يديه لينكسر على الأرض، ونظر ليوسف عاقدًا حاجبيه صائحًا:

- انت اتجننت بتقول إيه؟! أنا ماقتلتش حد.

انحنى يوسف وأخرج من جيبه منديلًا ورقيًا وفرده ملتقطًا فأرًا صغير الحجم من ذيله قائلًا:

- في الهند بيعتبروا قتلهم فال وحش.

تفحصه أسامة بنفس النظرة الحانقة مضيفًا:

- وفي مصر بنعتبر قتلهم نضافة.

صمت لثانيتين ثم انفجر:

- أنا ماقتلتش حد.. فاهم!

قالها ورمق يوسف بتلك النظرة المخيفة، والتي لم يتخيل الأخير أن يعرفها ذلك الوجه الهادئ.

نبح الكلب بطريقة هجومية تجاه أسامة والذي رمقه بنفس النظرة مجددًا ليتراجع.

- تقصد الفران؟ ولا عيلتك؟ اللي اتقتلوا بدم بارد.

- كلمة كمان وهتندم فاهم ولا لأ!

- مش هتلحق تخليني أندم، لأن الموضوع انتهى، أنا عرفت كل حاجة، ده مايمنعش إني لازم اعترفلك انك كويس في التفاصيل..

وقف مواجهًا أسامة منظفًا يده من آثار الفأر الميت وأردف:

- ماخدتش وقت كبير عشان تتخيل سيناريو متماسك تشرح فيه السبب اللي خلاك تغيب عن مسرح الجريمة أربعين دقيقة قبل معاد خروجك الطبيعي، لكن عنيك بصت يمين..ناحية الكلب، حاولت تفهمنا - أنا ومؤمن- انك بتبص على الكلب، مع ان الحقيقة انك كان لازم تبص يمين، كاستجابة للجزء المسؤول عن الإبداع في المخ..

قالها وسط صمت أسامة ليكمل:

- سرعتك في سرد التفاصيل دليل على ذكائك وحدة عقلك اللي أعلى من المتوسط؛ لأن الإنسان لما بيكذب بيحتاج وقت عشان يصنع قصة كاملة، انت كسرت القاعدة دي، ولو ان القصة ماكانتش كاملة..

صمت ثانيتين تحرك فيهما للأمام معطيًا أسامة ظهره شارحًا كأنه يحادث نفسه:

- لما سألتك عن لبسك كنت بأكد وجهه نظري عن درجة الحرارة في الفترة اللي حصلت فيها الحادثة (.. الكلام ده من أكتر من شهرين..) الحادثة حصلت تقريبًا في يوليو، عز الصيف، كنت لابس تي شيرت نص كم أبيض، كل ده كويس، منطقي، لكن اللي ماكانش كويس هو غلطة في التفاصيل.

ثم توقف وأردف:

- فاكهة مستحيل تكون موجودة في سوق وقت الصيف، اليوسفي هو الغلطة..

- السواد اللي تحت عنيك، دليل مادي على عشقك للسهر على الرغم من معاد شغلك اللي بيبدأ بدري، العشق اللي خلاك تكسر المنبه من غضبك، المنبه اللي صحاك من أحلى..وأقصر نومة..

(الأوضه كانت مقلوبة، وشوية حاجات متكسرة، منبه متكسر)

انت مانزلتش من البيت قبل الساعة 6.. مش انت الشخص اللي عنده نشاط يصحيه الفجر عشان يفطر.

ألقاها ثم توقف لثانيتين واستدار قائلًا:

- تفضل آخر تفصيلة، المفضلة عندي، الكيميا الحيوية.. بغض النظر عن حدقة عنيك اللي ضاقت لما جاوبت عن سؤالي بالنفي، وده في حد ذاته دليل على فكرة انك تحت ضغط نفسي، لكن الأهم- الأهم- كان الكدب نفسه، أعراضه الحيوية اللي بتظهر واضحة زي الشمس.. للي يشوفها..التوتر المسيطر على المخ بيدي أمر لضخ كمية أكبر من الأدرينالين، القلب بيشتغل بسرعة أكبر عشان يوصل الأدرينالين لكل خلايا الجسم، نفس رد فعل إحساس الخطر، الفرق الوحيد انك مابتجريش، لكن الدم هو اللي بيجري، وكنتيجة العرق بيزيد، درجة حرارة الجسم بتعلى، المسام تنفجر بريحة العرق المخلوط بريحة الأدرينالين، وللأسف.. الإنسان مايقدرش يميزيها.. بس الكلاب بتقدر..عشان بالنسبالها دي ريحة الخوف..

رمق الكلب بنظرة عميقة، ثم أضاف بثبات مشيرًا تجاهه:

- الكلب نبح!

- جهاز كشف كذب بيولوجي.. قضيتك اتفتحت من تاني!

قالها ولاذ إلى الصمت.. راقبت عيناه الهادئتان رد فعل أسامة الذي غلبه الغضب والتوتر، ابتسم الأخير قائلًا:

- أنا فعلًا مصدوم.

علق متظاهرًا بعدم اهتمامه بيوسف، وتحرك للناحية المقابلة لباب المعمل ممسكًا بذلك الوعاء الزجاجي بمحتواه الأصفر الداكن مضيفًا:

- على قد ما نظريتك كانت صح، إلا إنك مافكرتش في السؤال الأهم..

أغلق باب المعمل بالمفتاح، ثم قذفه بجانبه، بدت عيناه زائغتين بطريقة غريبة، ووجهه مختلفًا تمامًا عن الوجه الذي قابله منذ دقائق، أضاف:

- هتعمل إيه لو اتحبست جوه المعمل مع قاتل..بدم بارد؟

- مؤمن هيرجع في أي لحظة.

علق يوسف متراجعًا.

- مش هيلاقينا.

- قتلتهم ليه؟

قالها محاولًا عدم إبداء تأثره بهول الموقف، متراجعًا خطوتين للوراء ناحية الباب الداخلي للمعمل.

- أسرار بيوت يا صاحبي.

- كانوا بيكرهوك؟

قالها متابعًا تراجعه الهادئ، ليرد أسامة متسائلًا:

- عايز تموت ازاي يا دكتور؟

ثم تفحص إناء به كحول مركز أمسك به، أخرج من جيبه قداحة حكها لتشتعل وتركها مشتعلة حتى بعد أن حرر إصبعه منها، تابع يوسف تساؤلاته:

- مين كان بيضربك وانت صغير؟

- ماحدش يقدر يضربني.

قالها أسامة متفحصًا إناء كحول أكبر حجمًا على الرف الخشبي متجاهلًا يوسف الذي ظل يتراجع في رعب.

- دبحتهم ليه يا أسامة؟

اختفى يوسف خلف بضعة أكياس من الأسمدة بدا أن أحدهم مقطوع، ظهر له وعاء زجاجي صغير مستقر عن يمينه يحتوي على بقايا حمض الكبريتيك المركز، تذكر ساعتها يوسف درسًا بدائيًا في الكيمياء التحليلية ليدفع الإناء الزجاجي، ويسقط فوق السماد مكونًا كثيرًا من الأبخرة، انتهى أسامة من بحثه في الرف الخشبي حتى وجد قارورة بها كمية أكبر من الكحول، ليفاجئه دخان كثيف.

لكنه رد على سؤال يوسف:

- عشان كان لازم يموتوا.. زيك بالظبط.

اتخذ قراره وتقدم نحوه ليتأهب الكلب محركًا ذيله ومطلقًا نباحًا قويًّا، أعماه الدخان وخنقته الرائحة النفاذة، حرق البخار مقلتيه لكنه قال غاضبًا:

- كل ده مش هيحميك.. هتتحرق هتتحرق، وهتتحايل،، هتتحايل عليه زي ما كلهم اتحايلوا..

تأهب أسامة للهجوم مجددًا لتوقفه كلمة يوسف المختفي خلف الدخان والأرفف:

- ثواني!.. مؤمن المفروض يخش دلوقتي.

توقف أسامة لبرهة محدقًا بالباب الذي لم يطرق عليه أحد، ثم نظر مرة أخرى تجاه صوت يوسف الذي أضاف:

- أوكي غيرت رأيي.

ابتسم أسامة بتشفٍّ، ورمى القارورة لتنكسر بجانبه على الأرض، أخمد نيران قداحته وأخرج مطواة من جيبه وفتحها بفمه متصببًا عرقًا بغزارة، ثم أمسك بإناء زجاجي فارغ وقذفه على الدخان في عنف منتظرًا رد الفعل، كان الدخان قد ملأ نصف الغرفة بالفعل، خبأ نصف وجهه بقميصه واقتحم الدخان، وجد الباب الداخلي للمعمل مفتوحًا على مصراعيه، و.. نبح الكلب.. مجددًا.

تحدث الصمت بلغته التي يتقنها جيدًا، كان ذلك في ممر جانبي يصل بين المعمل ومخزن للمواد الكيميائية، تملأه روائح نفاذة خانقة،

وتكسوه الظلمة إلا من لمبة بيضاء نصف عاطبة، تطلق ضوءًا أبيض متقطعًا كالفلاش كل بضعة ثوان، مصحوبًا بصوت خافت أشبه بـ«شرذ» كهربي، كان صوت لهاث يوسف الحذر أعلى وأكثر وضوحًا من أي شيء آخر، ركض غير مسرعٍ لقلة الإضاءة، ينظر خلفه في ذعر ثم أمامه مجددًا، ثم خلفه مجددًا و...

سقط أرضًا بدون مقدمات، يتنفس الرطوبة والغبار، التحفت وجنته برد البلاط القاسي، تأوّه بشدة وتعرق ممسكًا ساقه المعذبة، ثم أغمض عينيه متألمًا محاولًا عدم الصراخ، أظلم المكان حوله مجددًا وساد الصمت، لمحت عيناه - رغم الظلمة - تلك الماسورة البارزة من الأرض أمامه كالفخ، لابد أن من صممها شخص ساديٌّ، أو مستهتر، أو مواطن قاهري أصيل.

زحف سريعًا للوراء محاولًا عدم إصدار أي صوت ملفت، تحسس شنطته برعب ونظر للمخرن البعيد ذي الباب المفتوح، كانت الرؤية ضحلة للغاية.. لم يستطع التعرف على المسافة جيدًا، أنارت اللمبة العطبة أمامه كالبرق الباهت، ثم أظلم عالمه بعدها مجددًا كالقبر، نظر خلفه مجددًا وكتم أنفاسه متطوعًا كيلا يلفت النظر، علم أنه قد وقع في شرك لا مفر منه، أخرج الكاميرا العتيقة وأطلق العنان لزفير ضاق به صدره، تحسس الأرضية الباردة وبلع ريقه بتسرع، حرك جزءًا من الكاميرا وضغط على زر الفلاش لينطلق أمامه وينير نفقًا طويلًا ثم انطفأ، بعدها أضاءت اللمبة البيضاء المتألمة المكان مجددًا لثانيتين وتركته أسودَ قاتمًا، قام من مرقده

مترنحًا بترقب هادئ.. تجاهل دقات قلبه المتسابقة، اعتدل وسدد فلاشًا آخر ليضيء أمامه النفق الموحش، ثم أضاءت اللمبة المكان مجددًا بتناوب معتاد مصحوبًا بصوت الشرذ، تنفس بصعوبة مجددًا وبلع ريقه ضاغطًا على زر الكاميرا ليفاجأ أن فيلم الكاميرا قد انتهى.

رفع عينيه وضغط زر الفلاش بعنف ملوحًا بالكاميرا أمامه في اتجاه الباب غير مصدقٍ حظَّه السيئ، هدأ من روعه ونظر أمامه بمقلتين فاغرتين عن آخرهما لا تريان سوى الظلام، أنارت لمبة السقف مصحوبة بشرذها المخيف ليجده أمامه،، ممسكًا بمطواة لمعت بيده.

- الماسورة دي ياما اتخبطنا فيها أنا وراغب..كان لازم تشتغل هنا عشان تعرفها.

أظلمت اللمبة مجددًا ليتراجع يوسف خطوتين للوراء بحذر بينما تابع أسامة حديثه:

- ماتقلقش! الباشا مش هيعرف إن فيه باب داخلي، هيفتكرنا مشينا.

- واضح إنك اتخليت عن مبدأ الحرق.

قالها ليضيء المكان مجددًا ثم ينطفئ، تراجع مترين للوراء بعدما طاوعته ساقه المتألمة، رد أسامة في الظلام كالشبح:

- بصراحة.. عايز أشوف رد فعل عنيك وانت بتتشق.

-لازم أعترفلك.. أنا عندي مشكلة حقيقية مع السكاكين.

قالها يوسف لاهثًا، متابعًا جر ساقه بيأس.. تأكد من أنها النهاية.

-أوعدك إنها هتبقى سريعة.

- كان نفسي أصدقك.

قالها وانتهى الطريق وراءه بحائط قذر، سلمه لسفاح مريض ببرود قاس، رد أسامة ضاحكًا:

-ههه، وأنا كمان.

أنار ضوء الممر مجددًا، وظهر أسامة بوجهه الساخر وعينيه الزائغتين على بعد مترين ونصف فقط، و...

بدأ بالهجوم.

تحرك يوسف جانبًا محاولًا مفاداة الضربة الأولى غريزيًّا لكنه شعر بأن جسده أثقل من شاحنة نقل سيارات عالقة، شعر أن الضربة قادمة لا محالة لتخترق أنسجته الرخوة في سكون.. لكنه تحرك في الظلمة الموحشة، تحرك من أجل البقاء، سمع صوت احتكاك المطواة القاسي بالحائط بعدما حادت عنه ورأى شراراتها الكهربية الناتجة عن الاحتكاك، شعر بأنفاسه النتنة، حاول الهرب، لكن شيئًا عرقل قدمه مجددًا، لم تكن ماسورة تلك المرة، بل كانت قدمه، قدم أسامة..سقط يوسف أرضًا.

ثنى الأخير ساقه واستقر بها فوق صدر يوسف بعنف، نزل كجزار يتأكد من استسلام حَمَلِه في عيد الأضحى، أمسك بيسراه رقبة يوسف الذي قاوم الخنق بيمينه محركًا يسراه في الجو عشوائيًّا في يأس، محاولًا منع طعنة قاتلة.

- لما تروح هناك، إسألهم ماتوا ليه..

قالها وتساقطت بضع قطرات العرق ولعاب فوق عيني يوسف، شعر بأن الطعنة آتية لا جدال، أنارت اللمبة المريضة مجددًا مطلقة ذلك الصوت، ومعها ثلاث طلقات..

ثلاث طلقات حانقة خلعت مفصل كوعه الأيمن تمامًا، ليسقط نصف ذراعه أرضًا مع مطواته كتلة واحدة، ويصرخ في ألم بالغ كالطفل، انفجرت الدماء منه كالبركان.

- حركة كمان وهتشوف مخك ع الأرض!

قالها مؤمن بهدوء ووجه به كثير من الغثيان، وراءه وقف الرجل القصير مفجوعًا كطفل بلل سرواله.

مد مؤمن يسراه ليوسف مساعدًا إياه على النهوض، بينما لا تزال يمناه متحفزة بمسدس 9 مللي، تجاه المسخ الجريح، رمقه مجددًا بنفس النظرة التي يملأها القرف، ثم تفحص يوسف بقلق:

- تمام يا دوك؟

أمسك يوسف بيده وقام مجددًا، صمت بعينين مصدوتين، ثم حرك رأسه إيجابًا.

* * *

(3)

بعدها بيوم

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل في فيلا مؤمن بالمعادي عندما رفرفت جفون يوسف الثقيلة بعدما سمع صوت نداء قوي، حرره من شعور بين الوعي والنوم:

- يوسف!

- همم!

همهم يوسف بعدما أفاقت عيناه من غفوتها بصعوبة، ليجد نفسه جالسًا فوق كرسي خشبي أنيق قديم التراث وطاولة عتيقة، أيقن يوسف أنه جلس هنا لأنه لم يرسل عموده الأسبوعي بعدما ترك مكانه بجانب مؤمن أمام التلفاز وتوجه للسفرة، كان من الواضح أنه قد نصب مكتبه النقال من لابتوب ومذكرة وقلم، تجرع مؤمن قليلًا من الشعير وصاح بعد أن وضع التلفاز على الاختيار الصامت:

- إصحى يا كولومبو!

- واضح إني نمت قدام اللاب توب.

- كفايه شغل وتعالى اتفرج على الماتش.

- في حاجات لازم أخلصها.

- مش عاجبني!.. وشك مكرمش من ساعة الحوار بتاع المصنع.

- مش عارف!

- يوسف! لو كنت أعرف إن الموضوع هيوصل للسواد ده ماكنتش...

قاطعه يوسف مبررًا:

- الحياة نظرية احتمالات، أي شيء ممكن يحصل لأي حد.. في أي مكان.

صمت مؤمن للحظة ثم قالها بصدق عميق:

- الحمد لله إنك كويس!

- الحمد لله إنك بتعرف تنشن.

علق مؤمن بثقة: النشان مش لغز..

ثم نظر أمامه مجددًا وتابع التلفاز، فعلق يوسف:

- اللغز الحقيقي هو إزاي صحفي يصاحب ظابط مباحث بالسرعة دي!!

انت ساعدتني في شغلي فقولت أصاحبك مصلحة.. ده غير اني معجب بلون شعرك.

قالها مشيرًا بزجاجته ساخرًا.

- أوكيه.. صراحتك زيادة.. عندك قهوة؟!

- حظك وحش،، خلصت امبارح.. ثواني هطلع أجيبلك من فوق.

- سيبهم نايمين ماتقلقهمش! أنا هشرب الموجود.

مرت ثانيتان من الصمت أضاف بعدهما يوسف:

- البشمهندس حالته أحسن دلوقتي؟

- بلاش الحوار ده، تعالى نتكلم في حاجة تانية أحسن.

قالها بعد زفير عميق وقليل من التفكير.

-آسف!

كان رد يوسف، ثم مرت لحظة لم يتكلم فيها الاثنان، حاول فيها يوسف الانشغال بكتابته إلى أن أضاف مؤمن:

- مابقاش حتى بيتكلم معايا.

قام من أمام التلفاز ليجلس مواجهًا يوسف على السفرة ثم أردف:

- عـارف!.أول مرة أشوف في عنيه انه كره الحياة..نظرة عمرك ما تتخيلها.

أشعل سيجارة ثم همَّ بالقيام مبتعدًا عن يوسف بعدما تذكر كرهه الجم للدخان.

-خليك!. كمل!

تابع مؤمن:

- الجلطة ماخلصتش على جسمه بس.. دي خلصت على روحه كمان.. مابقاش عايز يعيش وهو عاجز.

صمت بعدها يوسف بعدما تجمدت أنامله فجأة على لوحة مفاتيح حاسبه، وتوترت عيناه حينما أراد التفكير في جملة جيدة يمكن قولها:

- إن شاء الله هيخف.

- خير.

تنهد مطلقًا زفيرًا طويلًا للغاية وأضاف:

- تعالى نغير الموضوع.

- قولي!.. مش ناوي تخش القفص من تاني؟

- لو لقيت واحدة بتحب الدوري الإنجليزي.. أوعدك هتجوزها.

ابتسم يوسف مجاملًا ثم أضاف:

- انت كمان شكلك تعبان، خش نام شوية!

- أنا فعلًا مانمتش من ساعتها.

-استريح انت! أنا هخلص شغل وهريح على الكنبة.

داعب مؤمن كتفه بأنامله التي تحمل بينها سيجارته المشتعلة، ثم حرك رأسه موافقًا.

مرت ساعة كاملة.. كتب فيها يوسف كل ما خطر في باله عن تلك الجريمة التي حيرت الطب الشرعي لثلاثة أشهر كاملة، الرجل المفقود الذي أكد كل جيرانه أن زوجته «الطبيبة الصيدلانية» قد رافقته للشقة ولم ينزلا منها.

-إذن كيف اختفى وأين؟

خيوط ودلائل:

«كان سؤالا يساوي مليون جنيه»، أو هكذا وصفه الجميع وقتها، أتذكر كيف عاين الطب الشرعي المنزل مرتين أو ثلاثة ولا جديد.

عدة مرات عاين فيها الطب الشرعي الحمام الذي أقسموا جميعا أن شيئًا ما «دمويًا» قد حدث فيه، لكن ماذا حدث هنا؟

أتذكر كيف تقدمت بطلب بفحص الماسورة الخارجة من البانيو وبالفعل تم تكسير البانيو وفحص الماسورة، ثم المفاجأة، بقايا كمية كبيرة من البوتاسا الكاوية وبقايا أشلاء عالقة.. لتكتمل الصورة وتتضح.

لقد ساعدها كثيرًا دهاؤها الشديد ليجعلها تدفن جثة زوجها «الخائن» في «البوتاسا الكاوية» وماء النار لثلاثة أسابيع متتالية بعدما عزلت البوتاسا الكاوية عن جسد البانيو بطبقة تشبه الطمي.. ثم أخفت الرائحة بعشرات من معطر السيارات علقته في سقف الحمام.

لا أعلم بماذا يجب أن أصف تلك المرأة؟ قاتلة لا تعرف الرحمة، أم أنثى قررت الانتقام ممن لم يرحمها؟ كيف يمكن أن يوصف ألم الخيانة؟ تلك الطعنة النافذة من الخلف، إن أقوى جرائم الانتقام وأكثرها بشاعة هي التي تأتي من أكثر الأشخاص إحساسا بل وإخلاصا عقابًا للمجني عليهم على فعلتهم الرخيصة، وانتقاما منهم على الجرح الغائر بجرح أكثر عمقًا.. لقد سمعت عن فتاة إيطالية أكلت حبيبها مع المعكرونة بعدما أمطرته بعشرين طعنة متتالية.. أعلم أنه شيء مفزع.. أعترف أنه كذلك، لكن الحقيقة الصادمة التي اتفق عليها جميع علماء النفس

عن أكل الضحية لحبيبها تشير بوصلتها تجاه الحب.. نعم.. الحب العميق- لا تتعجب!- فصدق أو لا تصدق لكنها رغبة بالاحتفاظ بالذي تحبه بداخلك.. أو حتى جزء منه بعد أن تمزقه..لحظة ندم وشغف يعبر عنها القاتل في لحظة هيستيرية بتلك الطريقة الغريبة.. وللعلم.. تكررت كثيرًا.

إن جرائم الشرف والخيانة بالفعل محيرة. هذا ليس دفاعا عن القاتل، لكن قبل أن تَرْجُمَه لن يضيرك أن تقف في مكانه للحظة، وأن تتخيل الاختيارات التي أمامك بعد أن تُصعق بالصدمة التي عصفت بكيانك.. ماذا ستختار؟..كيف ستسيطر على أعصابك؟ من ستكون حينئذ؟

في النهاية يبقى أن نعرف أن الخير والشر في جرائم القتل المروعة هو -أحيانًا - شيء نسبي، أنت لن تجد المذنب والبريء دائمًا.. بل هو أحيانًا شيء آخر بين هذا وذاك.. شيء يميل للاثنين معًا.. يجعل من القاتل ضحية ومن المقتول ساديًا لا يرحم..

اسألني عن الجاني؟!

لا أرى أي جانٍ.

كلاهما مجني عليه..».

يوسف أصلان

اختلط خرير الماء الساقط من جهاز تبريد نصف معطل بصوت ماكينة تصوير لا تهدأ، ورنة موبايل بها دعاء صاخب مبهم الكلمات، تمامًا كما تختلط أصوات الحياة في قلب القاهرة تاركًا بصمة شبه مطموسة في

أذن المارة.. بدا أن شخصًا ما قد غلبه النعاس على لوحة مفاتيح حاسبه النقال، بجانبه يستلقي هاتف وكوب كبير من القهوة الداكنة تخرج منه شبورة هادئة، كانت الساعة تشير إلى العاشرة إلا ثلث في ذلك المكتب الضيق ذي الباب الزجاجي البارد عندما باغته ذلك الصوت غير المريح

- يوسف!

قالها رجل في العقد الخامس يرتدي جاكت «كاروهات» صوفًا كبيرًا يكفي لصناعة غطاء سيارة، تختفي عيناه الصغيرتان خلف نظارته الطبية المقعرة، يمتلك وزنًا زائدًا قارب المائة وثلاثين برغم قامته القصيرة، يتدلى أسفل عينيه الضيقتين كيسان غامقا اللون بالرغم من بشرته الفاتحة، اعتبرها ثمنًا مستحقًّا للسهر حتى الفجر في البحث عن الجديد في المواقع الإباحية، التي يعشقها بنفس مقدار شراهته للأكل، اسمه كمال رخا، إله النكد عند الصحفيين القدماء - أو كما يتخيله يوسف - الرجل البطريق.

تابع الرجل الذي جذب يوسف من عمق أحلامه لواقع كابوسي:

- تحب أجيبلك مخدة يا بيه؟

قالها بتلك اللهجة الـ«فلاحي» والتي تظهر تفاصيلها أكثر من غضبه.. ثم مشى بطريقته المميزة التي تشبه الحركة البندولية، ولعلها السبب في صورة الرجل البطريق التي لا تفارق أعين يوسف كلما رآه، رمقه الأخير بنظرة تقطر صدمة بعدما أفاق من غيبوبته التي استمرت دقيقة واحدة، ثم أجاب بعد أن أيقن أنه كان نائما:

- أستاذ كمال..أنا!

ثم أكمل ماسحًا خيطًا بسيطًا من لعابه من جانب فمه، ليضيف كمال:

- كمل يا بيه كمل!.ما هي تيكية، كله بيجي ينام ويشخر عندنا وفي الآخر ييجي لطفي بيه (يش..رلي) واتبهدل أنا بسبب البهوات اللي زيك..

- أنا مجهد اليومين دول بسبب الشغل والـ...

- و لا مجهد بسبب العزف بالليل يا بيتهوفن؟

ثم عدل من وضع بنطاله برفعه قليلًا، كان واسعًا للغاية ذا ثنيات «كُسر» مبالغ فيها، أردف رخا بنبرة هجومية:

- أنا عرفت كل حاجة خلاص، ومن الآخر كده.. يا المطعم بتاعك ده يا الجرنال..ماينفعش الاتنين.

نزلت الصدمة على يوسف كقصرية زرع منتهية الصلاحية.. حاول التظاهر بعدم الصدمة، علم أن شخصا ما قد وشى بجزء من حياته الشخصية التي يفرض عليها سورًا من السرية، رد هادئًا:

- دي حاجة شخصية مابتأثرش على الشغل..؟

قلب رخا في هاتفه المحمول بشغف ثم أضاف:

- أنا اللي أقرر إيه يأثر وإيه ما يأثرش.

- دي جريدة يا بيه مش كباريه الليل.

تدخل شاب في بداية الثلاثينيات من خارج الغرفة مبتسمًا قائلًا:

- ممكن أدخل؟

رمقه الاثنان ببرود، كانت أكثر النظرتين بعدًا عن الصفر السيليزيوسي من جانب يوسف، والذي شعر باقتراب فقرة التنورة الشرقية، الفقرة التي اعتادها كثيرًا، يبدأها حسام أبو العنين - مرؤوسه المباشر في الجريدة - ببعض التقبيل لمؤخرة رخا وتنتهي بـ«تسخينه» ضد يوسف، بدا طويلًا بشكل مبالغ فيه، تائهًا بداخل ملابسه الكلاسيكية الفضفاضة على جسده النحيف، يمتلك عينين بارزتين كالبوم لا يعلم -إلا الله - إن كانا سبب تسمية اسم العائلة أم أنها مصادفة، وسنتين أرنبيتين يظهران كثيرًا كلما ابتسم ابتسامته المستفزة، حسام أبو العنين سليل عائلة أبو العنين الشهيرة، لكنه أفشلهم، يعتمد على واسطته القوية، مدام فوقية، صاحبة المركز والنفوذ الكبيرين، التي دغدغت مشاعر رخا بوظيفة محترمة بالمؤسسة بشرط أن يرأس قريبها قسم الحوادث، منصور الذي سيتحكم في ملك الملك أيبك، يسمونه الإنجليز «ألم في الرقبة»، والأمريكان «ألم في المؤخرة»، يسميه يوسف «حسام أبو العنين».

أكمل حسام بهدوء يحسد عليه مبتسمًا كعادته:

- إيه يا جماعة صوتكوا جايب آخر الدنيا؟

ثم نظر بتشفٍّ تجاه يوسف، الذي تمنى أن تخطئ طائرة تدريب حربية وتطلق صاروخًا على مكتبه، سمح لنفسه بالجلوس على طرف المكتب ونظر لكمال رخا بِحُنُوٍّ أم مرضعة:

- مالك يا مدير؟ يوسف مزعلك في إيه؟

- ماحدش يقدر يزعلني يا حسام، بس أنا خلاص.. جيبت نهايتي مع الدلع والفشل.

- لو جيبت نهايتك معاهم أنصحك تسيبهم.

كانت رد يوسف.

- انت هتهرج معايا!! ماتردش عليا! فاهم!

قالها محدقًا بطريقة جعلت يوسف يظن أن عينيه الصغيرتين قد تسقطان في أي لحظة.

أضاف حسام:

- حصل خير يا مدير، هو يوسف ساعات عليه حاجات كده.. ولو اني ماعرفش الموضوع إيه بالظبط، بس برضك لازم تعتذر للأستاذ رخا يا يوسف. ده أخونا الكبير قبل مايكون مديرنا ومثلنا الأعلى.

رد يوسف:

- انت ارتجلت الجملة دي ولا كنت كاتبها؟

- شايف يا أستاذ كمال؟! شايف بيتريق عليا ازاي.. وأنا اللي قلبي عليه.

- سيبه يا حسام! سيبه.. أهو كله هيخلص منه في الآخر.

تفحص يوسف الاثنين بتعجب كأنه يشاهد كلبا بحر من خلال متحف مائي، ثم توجه بحديثه لكمال رخا مضيفًا:

- هو أنا ليه حاسس اني عارف الجملة اللي هتقولها بعد كده.. أيامك في الجرنال...

- أيامك في الجرنال بقت معدودة يا بيه.

قاطعه رخا.

- De Javu!

قالها يوسف ماطًّا شفتيه.

- هنتريق كمان!

رد حسام.

- سيبه يا بيه سيبه، معاد الاجتماع قرب، والحق هيرجع لاصحابه.

قالها رخا متحسسًا فكه ليرد يوسف بوجه جامد:

- لازم أمشي.. عندي شغل.

- إتفضل يا بيه، آه.. عندك خصم يومين.

تجاهله يوسف وبلع قهوته جرعة واحدة، ثم ضغط بضعة أوراق في جانب شنطة حاسبه النقال، تأكد من وجود الكاميرا في مكانها ثم التحف معطفه الرمادي واضعًا ذراع شنطته على كتفه.. واختفى.

اتجه يوسف بهدوء لسيارته الشاهين نصف الحية، التي كافح للحصول عليها بعد سنين من الادخار مع تحويشة العمر..، وضع شنطته التي حملها على كتفه العريضة على المقعد الخلفي ثم هم بالقيادة، رمق علبة سجائر على الكرسي المجاور له، لابد أن مؤمن قد نسيها كعادته،

انطلق بسرعة نص كيلو بالساعة نتيجة للزحام الذي لا ينتهي فترة ذروته ولا ينتفض، كل أوقات اليوم فالقاهرة هي أوقات ذروة.وصل بيته بعد ساعة من الزفير المحمل بالكلل، وحرقة الدم وكمية لا بأس بها من عوادم السيارات.

وأخيرًا البيت.. كانت تمام التاسعة مساءً عندما وصل للعقار الذي يقطنه في مدينة نصر، ذلك العقار شبه الراقي الذي يملكه تاجر ألبان ميسور الحال يدعى «الحاج عبد النعيم» أو «الحاج» كما يلقبه سكان العمارة.. متزوج من حفنة لا بأس بها من النساء ويحتل الدور الأول والثاني، إلا أنه يؤجر الطوابق الثمانية المتبقية.. في الدور الأخير يسكن يوسف.

دلف يوسف بنايته الباردة، لم ينس أن يمر في طريقه للبيت ليحضر بعض الطعام لصديقه القريب من قلبه، والبعيد جدًّا عن عينه معظم الوقت. «سيزار»، كلبه الوفي ذي العام والنصف، وصديقه الذي يفهمه بدون كلمة واحدة، ينتمي لفصيلة «الهاسكي» القطبية، أبيض اللون وبه بقعة رمادية تصل لوجهه وتغطي عينه الزرقاوتين.

ذلك الصديق الذي كاد يكون سببا من أسباب طرده من العمارة، حيث يراه الحاج عبد النعيم «نجاسة» للبيت، وسببًا لطرد الملائكة منه، فبعد قسم «الحاج» بخروج سيزار من بيته، تدخل بعض العقلاء من بينهم الحاج فؤاد الذي يثق عبد النعيم في ورعه، واقترح حلا يرضي جميع الأطراف، ينص على بقاء سيزار في الحديقة الصغيرة الخاصة بالعمارة «أهو منه حراسه ومنهماينجسش البيت»، تلك كانت كلماته.

- الليلة دي بس.. لو عملت صوت!.. أي صوت!!..

قالها يوسف بنبرة تحذيرية ملوحًا بسبابته بعد فترة قضاها في حديقة المنزل مع سيزار، والذي دار برأسه خمسًا وأربعين درجة لليمين مطلقًا أنينًا ضعيفًا لاستعطافه، سلاحه الأخير بعد محاولات قياسية لإقناعه بتمضية الليلة معه في فردوسه الأعلى.. شقة يوسف.

تسلَّلا في هدوء شديد وخفة يحسدان عليها، إلا أن صوت صراخ قد خرج من الشقة المجاور له بعدما وصلا، بدا كصوت طفل صغير.. اقترب يوسف وسط الصرخات التي يواريها الباب المغلق محاولا أن يطرق الباب، تحفز سيزار في ترقب محركًا ذيله يمينًا ويسارًا، تجمد يوسف للحظة ليتراجع بعدها محررًا أنامله بعدما قبضها استعدادًا لطرق الباب، ترجل خطوة واحدة للوراء مبتعدًا عن الباب، ثم توجه بالحديث لصديقه الذي بدا يلهث مبررًا: «مشاكل عائلية»..

و دلفا مخبأهما في سكون.

تسربت لشرايينه لذة الانتصار بعدما نجحا في الوصول للشقة بسلام.. انتصار كبير شعر به على ذلك الرجل، «الحاج نعيم» الذي يخيفه أكثر من روايات ستيفن كينج، وتؤلمه حقيقة أنه جاره الدائم، كما تؤلمه وتحز في نفسه حقيقة دخوله سلسلة أفلام نادية الجندي في فترة المراهقة.

أغلق الباب ليبدأ سيزار رحلته الاستكشافية في نهم، يعبث بكل شيء في جوانب البيت حتى الأرضية، قفز بعدها على كرسي مقابل لباب الشقة ونزل منه على مقبض الباب ليفتحه بفمه في حركة اعتاد عليها كثيرًا من

قبل، نظر لسيده محركا ذيله ولاهثا في سعادة، منتظرًا عقابه على فعلته الذي فعلها من دون إذن مسبق.

- شكلك هتقضي أسبوع مع خضر!

قالها مغلقًا الباب مرة أخرى ليرد عليه سيزار بصفير مكتوم به كثير من الاستعطاف، تصاعد فجأة صوت الصراخ من الشقة المجاورة، سكت للحظة محاولا الاستماع لما يحدث لكن الصوت كان واضحًا، أنه جاره الصغير «حازم»، طفل لم يتخطَّ عامه التاسع بعد، لكنه يرى كل أنواع العذاب ويتجرعه يوميًّا للثمالة، يعيش مع أمه وزوجها الذي يمتلك ورشة لكهرباء السيارات، «أسطه عبده» كذلك يلقبونه، يمتلك سعة في الرزق ووفرة في الكرش لدرجة تجعلك عاجزًا عن رؤية حزام بنطاله، تفوح منه رائحة العرق صيفا وشتاءً بدون سبب واضح، كان بالنسبة ليوسف مجرد خرتيت يرتدي بنطالا ويمتلك كثيرا من المال، وبالنسبة لحازم هو بمثابة رمز من رموز العذاب، فذلك الطفل- أي حازم - يعتبر الراعي الرسمي لأي طقوس يقوم بها الأسطى عبده للتعبير عن غضبه أو للتنفيس عن كبته بعد يوم عمل شاق، ولا مشكل من ضربه أمام أعين أمه التي تحاول أن تحميه قليلا من البطش - بما لا يزعج مزاج- «الأسطى»، تأكد من أن كل أبواب وشبابيك الشقة ذات الغرف الثلاث مفتوحة، حتى ستائر الصالة والتي تحتضن بيانو قديمًا للغاية غير مغطى، تأكد جيدًا أن كل شيء على ما يرام ثم دخل الحمام مسرعًا ليتخلص من بعض التوتر الذي ملأ مثانته، عاد من دون أن يغلق حزامه مستمتعا بزجاجة أخرى من نوعه

المفضل من الشعير، تفحص زجاجة كبيرة الحجم موضوعة فوق التلفاز فوق طبق خشبي صغير، بدت بداخلها مركبة خشبية قديمة الطراز، تشبه سفن الأسطول الإنجليزي قبل الحرب العالمية الأولى، فردت أشرعتها البيضاء لا يحركها شيء، بجانبها كانت صورة له في الرابعة وبجانبه طفل بدا في العاشرة، يحمل في يده الزجاجة، نفسها، وبداخلها المركب القديم ذو الأشرعة البيضاء.

تركها وألقى نفسه على ذلك المقعد الجلدي المريح المقابل للتلفاز، ممددًا ساقيه واضعا اليمنى فوق اليسرى، تنهد في هدوء بعد أن استند رأسه على ظهر المقعد الوثير، قفز بجانبه صديقه في لهفة كأنه اعتاد على هذه اللحظة من قبل، يحرك ذيله في انتظار اللحظة الحاسمة، لم يخذله صاحبه ومد يده ليجد الريموت كنترول بجانبه ثم ضغط على زر التشغيل.

- تعالى نشوف المنيو..

ظهرت أمامه فتاة تتلوى مثل الحية التي بها مرض عضال، ترتدي من الملابس ما وجد ليكشف أكثر مما يستر، وصوت نشاز يخرج من رجل ظهر بجانبها من العدم، رجل ضل طريقه للفن، فقرر أن ينفذ في مستمعيه حكم الإعدام طربًا، ضغط على زر تغيير القناة ليجد سيناريو مشابهًا في قناة أغانٍ منافسة.

تأفف وضغط على الريموت مرة أخرى ليشاهد لاعب كرة في فريق شهير يسقط قبل «خط التمنتاشر» ليركض الحكم ناحيته معلنا احتساب

ضربة جزاء، ثم ضغط مرة أخرى لتغيير القناة ليتحفه محلل سياسي على قناة خاصة مصرية:

- الحزب الوطني ده كله أعلام وكلهم ناس قلبهم ع البلد.. مين يقدر ينسى الأستاذ صفوت الشريف والأستاذ أحمد عز.. وغيرهم وغيرهم.. ماينفعش الكلام اللي حضرتك بتقوله ده.

قالها رجل في مداخلة تليفونية ليلتفت يوسف لسيزار قائلًا:

- لو شوفته في الشارع عضه ومالكش دعوة!

رد عليه سيزار بصوت ينم عن جهله بما يقول ثم ضغط يوسف مرة أخرى على زر تغيير القناة ليجدها، هي ما كان يبحث عنه.. تلك الفتاة التي حصلت على عقد احتكار لكل أحلام اليقظة والسكون التي تنتابه.. المذيعة الرقيقة والحادة في آن واحد.. صاحبة العيون السوداء الواسعة التي من الممكن أن تجهز عليك بغمضة واحدة.. شعرها الناعم القصير، ذو اللون الأسود الداكن والذي يميزها عن غيرها من أقرانها.

«الأميرة..»

حدث بها نفسه، ثم شرع في شرب المزيد من الشعير من زجاجته التي راقبها سيزر منتظرا أي اهتمام من شخص فقد اتصاله مع العالم الخارجي، سرح في تفاصيلها بتلك النظرة التي لا تخلو من الإعجاب مبتسما عندما تضحك، مناصرًا لها في نقاشها الحاد مع ضيفها البارد مع أنه لا يعرف لماذا يتصارعان.

حقن فمه ببعض من الشعير مرة أخرى لينظر سيزار لأعلى منتظرا دوره محركًا لسانه في حركة غريزية، ينظر للزجاجة تارة وتارة لصاحبه، ثم أطلق نصف نبحة لم يسمعها صاحبه الغارق في بحر من التأمل.. بحر يسمى «يارا قاسم».. مقدمة برنامج التوك شو الشهير «فجر المحروسة».. و أخيرًا لم يتمالك سيزار نفسه مع رشفة أخرى من يوسف المتيم وأصدر نباحا قصيرا لكن قوته جعلت يوسف ينتفض.

- shit.. سيزار!

صاح بها واضعًا أصبعه السبابة على فمه متوعدا صديقه الخائن للاتفاق بنظرة نارية.

ثم نظر إلى يده اليمنى التي تشغلها زجاجة ربع ممتلئة من الشعير.

- إشرب!

وضع عنق الزجاجة في فم سيزر الذي بدأ يشرب بشراهة وكأنه يلتهمها.

- Good boy.

قالها وعاد بعينه لشاشة التلفاز.. ليتأملها.. يارا قاسم ليست من النوع العادي من الفتيات.. بل هي مارجريت تاتشر «المرأة الحديدية» مع ميجان فوكس وقليل من الأميرة ديانا لمجرد اكتساب نكهة ملكية، ثم تغلق الخلاط وتضغط على الزر الأحمر»، وتقدم ساخنة.

طرقات كعبها العالي تدمر قلب أي كائن حي في محيط دائرةٍ قطرها خمسون مترًا.. دقيقة الملامح إلا من شفاه ليست بدقيقة.. بيد أن القدر قرر الحصول على شيء بسيط في مقابل كل هذا.. إصابة قديمة إثر سقوط مفاجئ من فوق حصان في حصة فروسية قديمة، جعلتها تفقد أكثر من 30٪ من قدرة مفصل القدم اليمنى مما أثر على مشيتها، تحاول جاهدة أن تداري تأثير الحادثة عليها والتي يلحظها معظم من يعرفها لوقت طويل، يارا قاسم، المذيعة ذات المزاج الحاد ورد الفعل المستقر، تهاجم الحكومة ليل نهار، وترفض «تمشية الحال» تحت أي عنوان مهما كلفها ذلك الكثير من الفرص التي حصدتها زميلاتها اللاتي يُجِدْن «الدلع» مع رؤساء القنوات الفضائية، لكن قدرها قد عوضها بأب ذي نفوذ ومال سهل لها بعضًا من الطريق، ذلك بالإضافة إلى العامل الأساسي لنجاحها.. كفاءتها.

«كاريزما..»

نطق بها يوسف محركًا رأسه بإيجاب وسارحا في أميرته المحاربة وهي تطلق صريخها المدوي الذي يشبه زغردة نساء البادية، تركل هذا وتطيح برأس ذاك بسيفها اللامع من فوق حصانها الأسود الغاضب في تلك الحلقة العاصفة، كان ضيفها لواء شرطة متقاعد مشهور بدمويته وساديته مع أعداء الوطن -كما يقول- من الإسلاميين، ويندرج أيضًا في

قائمة ضحاياه آخرون من المجرمين الذين تجرأوا على الذات المباركية وتناسوا أنهم عبيد، لكن ابتسم!. فأنت في مصر 2010.

على الجانب الآخر جلس ضيف أكثر أناقة، محلل سياسي معروف بميله للنظام رغم علمه الغزير.. ولوضع بعض الملح في أعين منتقدي البرنامج، تواجد رجل قضى نصف عمره بين معتقلات الحكومة بأنواعها عقابا له على انتمائه لجماعة تنتمي للتيار الإسلامي معروفة بنشاطها السياسي.

قضى ساعة كاملة سارحا مع أميرته المحاربة لم يعكر صفوه سوى بعض الصوت الناجم عن نبش سيزار لبعض متعلقاته الشخصية، من كتب وتذكارات أسرته التي ذهبت مع الريح، أشياء وضعها في أقصى الصالة بالإضافة لمشغل كاسيت شبه معطل وكرتونة مليئة بمتعلقات كلية الطب التي كان يستخدمها مسبقًا، وعلبة متوسطة الحجم تشبه علب مقتنيات الذهب، لكن ما يتأكد منه يوسف هو أنه ليس بها ذهبٌ.

كان سيزار قد بدأ بالنبش حتى اهتدى للعلبة عندها صاح فيه يوسف بعدوانية لم يسبقها سيزار جعلته ينطوي في ركن من أركان الحجرة الضيقة. جرى سيزار بعيدا عن الغرفة فيما بدأ يوسف في ترتيب أغراضه مجددًا، ثم عاد مرة أخرى للتلفاز متجاهلا صديقه عن عمد.. سارحًا في أميرته مجددًا حتى غلبه النعاس من دون أن يشعر.

في مطعم لا تشانس «La Chance» تأهب الجميع لليلة الأربعاء المميزة، هدوء غمس في إضاءة خافتة وطليت به كل الأركان، شغل

المكان ما يقرب من عشرين طاولة فقط، فوق كل منها شمعة موضوعة داخل غطاء زجاجي أنيق، وشوكة وسكين متعانقان وملفوفان في منديل ورقي يزينه حرف «L» يقطعه حرف «C»، فصل بين كل طاولة وما يليها مساحة جيدة من الخصوصية، في أقصى اليسار جثم بيانو كبير فوق سجادة حمراء دائرية الشكل محتضنًا كرسيًّا أنيقًا، بجانبه بار صغير انشغل الشاب الواقف وراءه بتجفيف بعض الكئوس بمنديل قماشي أبيض، تزين الحوائط الرمادية اللون بعض الصور الهادئة ذات اللونين الأبيض والأسود لمشاهير هوليود منذ تشارلي شابلن حتى ليوناردو دي كابريو، تقابلت الكئوس ربع الممتلئة وسط ضحكات مفتعلة من سيدات وفتيات المجتمع، كانت ملابسهن مباراة مشتعلة في التعري، وهن لاعبات لسن بهواة، مرت نصف ساعة امتلأ بعدها المكان برائحة العطور الباريسية الفخمة والأطباق العالمية الشهية، تعالت صوت الضحكات واحتكاك السكاكين بالأطباق حينما انشغلت خمس عشرة طاولة بأولاد الذوات وغيرهم ممن يقدرون على ثمن وجبات «لا تشانس»، وذلك النبيذ المستورد ذي الصيت الذائع في القاهرة كلها.

ابتسم رئيس جارسونات المطعم للجميع، بدا في بداية الخمسينيات مع احتفاظه بجسد نحيف ورأس خالية من الشعر تمامًا، مرتديًا قميصًا أنيقًا يزينه بيبيون صغير، تأكد أن كل شيء على ما يرام وتمم على زبائنه مطلقًا بعض تصريحات الترحاب للرواد الدائمين، ثم ألقى - بنفس الابتسامة الواثقة - بضع التوجيهات للجارسونات ذوي الزي الموحد الأنيق، بنطلون أسود حوله فوطة سوداء تمتد قبيل الركبة وقميص أبيض.

دخل شاب طويل ذو وزن مثالي يرتدي بدلة رمادية اللون تحتها بلوفر بنفس اللون يداري قميصًا أبيض ناصعًا ذا ياقة كبيرة مكويًّا بعناية، انحنى شعره البني الناعم على جانبه الأيسر متأثرًا بالـ «جيل» الذي استخدمه للحصول على تسريحة كلاسيكية هادئة، اقترب من البيانو في هدوء وثقة، جلس على الكرسي المميز وحيا رئيس الجارسونات بإيماءة رأسه فبادله بإيماءة مماثلة، نظر لساعته ذات اللون الفضي التي أشارت للسادسة والنصف ودقيقة واحدة، حرك الغطاء الخشبي الأسود الذي أخفى أصابع البيانو، ظهرت لامعة كأسنان موديل في إعلان معجون أسنان، وضع بجانبه أحد الجارسونات كأسًا بها مشروب غازي شفاف، خلع ساعته اللامعة في هدوء شديد كطقس يريحه نفسيًّا وقت العزف، ابتسم للنادل وشكره بهدوء ليقابله النادل بابتسامة بدت كعلامة مميزة لكل من يعمل في المكان.

شرب قليلًا من الكأس قبل أن تعانق أصابعه أصابع البيانو اللامعة..

وبدأ العزف..

شدا صندوق البِيّان «كما سماه العرب أول مرة»، أو «البيانو» بجزء من مقطوعته المفضلة «Traumerei» والتي يحفظها عن ظهر قلب، خفتت الأصوات فجأة من حوله، أغمض عينيه وبدأ يشعر بالموسيقى تتخلل كل خلية في جسده وكل فكرة في وجدانه.. يسمعها تتدفق بين مقالاته المنهكة وإطراءات «أبو العنين» اللزجة، بين ضحكات زملاء العمل المصطنعة واعتراضات «الرجل البطريق»، بين قفزات سيزار

وصياح بائع الفاكهة عند ناصية البناية، ذكريات طفولته الخاطفة..تذوب بينها الألحان..لا يعزفها هو.. بل تعزفه هي.

سبع دقائق كاملة مرت سرح فيها في ذلك العالم، إلى أن هدأ الإيقاع الأخاذ، وهدأت أصابعه معلنة نهاية المقطوعة الأولى، ضغط آخر ضغطة في هدوء وسلاسة.. ابتسم معلنًا انتهاء رحلة موسيقية قصيرة، رحلة غمرت وجدانه بلذة كالسحر، و..انطلق التصفيق الحاد.

فتح عينيه الرماديتين ولا تزال الابتسامة على وجهه، ثم حرك رأسه مرة واحدة تحية للحضور.. شرب مجددًا من الكأس الباردة، تعالت بعد ثانيتين الهمسات وزاد احتكاك السكاكين بالأطباق اللامعة مجددًا.

ما أن انتهى من عزف المقطوعة الثانية حتى شاهدها.. تبتسم وتتحدث لأقرانها وسط طاولتها المميزة، لم تصدق عيناه أن اسم المطعم قد ألقى بتعويذة على ليلته، فالصدفة الآن قد فاقت حدود الخيال، تلاقت أعينهما للحظات مرت كالدهر، أميرته المحاربة.. جاءت لتحصل على بعض الخصوصية مع زميلتها.. جاءت لتقتله مجددًا في بث مباشر من مطعمه المفضل.

بجانبها جلست زميلتها، بدت أكثر تحررًا، بيضاء اللون تتمتع بعينين خضراوتين ضيقتين، أخرجت سيجارة رفيعة أشعلها لها شابٌّ جلس معهم، رمقته بنظرة ليست بريئة ثم تفحصت يوسف، تظاهر الأخير بانشغاله بالكأس المقابلة له لبرهة، خانته عيناه وتفحصت يارا مجددًا، شاهدها تبتسم عندما ألقى ذلك «الشخص» بمزحة لتظهر أسنانها المنحوتة بدقة،

تلمس خصلة من شعرها الأسود القصير بإظفرها الرقيق اللامع، تلعنها قريناتها في حسد.. يارا قاسم..الموت كما يجب أن يكون.

«مجرد بيتهيألك!» همس بها لنفسه، ثم هم بعزف مقطوعة جديدة لكنه شعر بشخص يقترب منه، زميلتها صاحبة النظرة غير المريحة، استقرت أمامه، تفحص وجهها المستدير وأنفها الدقيق وشعرها البني المتدلي على كتفها اليمنى كفرو ثعلب بري، فستانها الأسود المميز، لم يدار قِصَرَ قامتها لكنها عالجت هذا بكعب عال يمكن استخدامه كسلاح طاعن، يسبقها عطرها المميز بأمتار، تحمل في يدها اليسرى كأسًا نصف ممتلئة بالنبيذ الأحمر الفاقع، دللت فاه الواسع بأنملها حينما استندت على البيانو، تمامًا على يمين يوسف، قابلها بابتسامة رقيقة منتظرًا منها التعليق:

- ينفع تجيني من هناك.. لحد هنا.. عشان أقولك برافو؟

ابتسم محاولًا تجاهل ثمالتها شبه الواضحة، ثم أضافت مشيرة بسبابتها:

- شكلك بتحب البيانو..

- جزء من حياتي..

- وإيه الجزء التاني؟

- أنا صحفي.. بشتغل في جرنال اليوم المصري.

- واوا!

علقت رافعة حاجبها الأيسر في دهشة، ليصدمها يوسف مبتسمًا:

- قسم الحوادث..

تغيرت معالم وجهها فجأة واتسعت عيناها بصدمة، وضعت يدها الصغيرة على صدرها برعب وتنهدت:

- يا الله!

حافظ يوسف على هدوئه وابتسامته، مرت لحظة حاولت فيها إحياء الحديث فأضافت:

- صحفي وعازف بيانو؟!. بتعرف تعمل إيه تاني بقى يا أستاذ؟! بتسوق غواصات مثلًا.

قالتها بإعجاب وتبعتها برشفة رقيقة من كأسها.

- كده هبقى جيمس بوند.

علق مازحًا.

- بكرة تبقى!

حرك حاجبه الأيسر ماطًّا شفتيه وأومأ برأسه بثقة ثم ابتسم، في حين رمقته الجذابة السكيرة بنظرة مقلقة متممة على شعرها الكثيف.

- أنا راندا أبو زامل.. معدة في قناة cmc وإعلامية.

قالتها مادة كفها اليمنى لتصافحه.

- يوسف أصلان.. صحفي وخبير جنائي..و ساعات بيانست.

قالها واثقًا فيما ضحكت الفتاة كثيرًا ثم أكملت:

- كتير مهضوم، بالمناسبة، إحنا ممكن نستفيد منك..

- بمعنى!

- هتعرف كل حاجة.. هتصل بيك في الجريدة أشرحلك..

- باي.. يا مايسترو!

ودعته بابتسامة كبيرة وغمزة، ثم استدارت مرة أخرى باذلة مجهودًا مضاعفًا لتداري عدم اتزانها، شرع في العزف مجددًا، هذه المرة مقطوعة من الـ«بلوز»، ثم بدأت الليلة في الذوبان بين نغمات البيانو المتسارعة ورائحة الأطباق الشهية و.. بضعة أسئلة في رأس يوسف.

تسللت أشعة الفجر بهدوء من بين جفنيه لقرنيتيه الرماديتين المتعبتين، كان ذلك في صباح اليوم التالي، أفاق مصدومًا ثم رمق ساعته اليدوية بعينين نصف مغلقتين، تنهد بأمان بعدما علم أنها لا تزال السادسة صباحًا، ربت على صديقه الأمين الذي استيقظ بجانبه يستمتع برائحته التي يحفظها عن ظهر قلب.

شرب قهوته بهدوء بعد أن أيقن أن الوقت لم يهاجمه بعد، مسترجعًا في ذاكرته ما حدث ليلة البارحة في المطعم ذي الاسم «على مسمى»، ابتسم عندما تأكد أنه لم يكن يحلم، أكل قطعة من الكيك التي وجدها صدفة في ثلاجته القديمة وتبعها بقليل من الماء، أحكم رابطة عنقة في زجاج الشباك، تفحص وجهه المجهد لبضعة ثوانٍ ثم شق طريقه خارجًا

من البيت معلقًا ذراع شنطته السوداء الأنيقة على كتفه اليمنى، شزر مستهترًا متظاهرا باللامبالاة ثم..

- سيز!

همس بها ثم أطلق صفيرًا بالكاد سمعه صغيره، أتى على أثره سريعًا وركض سيزار بخفة يحسد عليها، صامتًا ضابطًا نفسه على «الوضع الهزاز» إلا من صوت لهاثه، هبطا بنفس خفة وسرعة صعودهما.

وجد خضر يهم بمسح سيارة الحاج عبد النعيم أمام مدخل العمارة، ينتظره ويراقبه وهو يفتح باب الحديقة بهدوء ويسر.

- إيه يا داكتور!. تجلجنا عليه كده ينفع؟

قالها بابتسامة تجمع بين غباء موظف حكومة ينتظر رشوة مواطن ليكمل عمله الروتيني، وتناحة أمين شرطة ينتظر حسنته ليعاين حادثة سيارة في شارع رمسيس. أجاب يوسف مفسرًا:

- شبط فيا إمبارح.

تأكد من إغلاق باب الحديقة. وناول خضر ورقة فئة العشرة جنيهات مطبقة ثلاث مرات في طريقه لسيارته.

- صباحك زي العسل يا داكتور!

رد خضر واضعا كفه في وضع يشبه التحية العسكرية مبتسمًا ليزيح الستار عن غابة موحشة من الأسنان وما يشبهها، مزروعة وسط لثة

أشبه بقطعة أرض بترولية في خليج السويس تم اختراقها بجميع أنواع الحفارات الممكنة.

- خلي بالك منه يا عوده!

- في عنيا يا داكتور.. دانا بعامله أكنة عيل من عيالي والله.

- كده قلقت أكتر..

قالها يوسف بوجه يخلو من المزاح، لكن خضر قهقه كثيرًا معتبرًا إياها مزحة طريفة.

أوصد يوسف باب سيارته الأزلية.. يتنابه قلق اعتاد عليه من خضر، رمق ساعته الكلاسيكية باهتمام، ويوم جديد من العمل الشاق.

لم يغلق باب سيارته المتهالكة حتى رآه، جاره البائس، تغطي وسامته ملامح الشقاء واليأس كما يقضي المطر الحمضي على سنابل الخير النضرة، «حازم»، ضحية «علقة» البارحة كان بدا نحيل الجسد، قمحي البشرة، هادئ الطباع يمتلك تلك النظرة النارية التي لا تنتهي، لم يكن يتحدث كثيرًا.. أو حتى يسمح لأي إنسان بتخطي حاجزه الشخصي بسهولة، حازم كان الطالب الذي لا يتذكر أحد في الفصل اسمَه عندما يغيب.

لسبب ما كان «حازم» يشعر ببعض القبول تجاه يوسف بالرغم من معرفتهم السطحية ببعضهم البعض، أنزل يوسف زجاج سيارته يدويا قبيل أن يضغط بقدمه على دواسة البنزين، ألقى السلام على جاره نصف المشوه، مقاومًا إحساسًا بالمسؤولية طغى على كل أوصاله.

رد عليه الأخير السلام من دون أن يحرك ساكنًا، مكتفيًا بنظرته الحادة من عينيه الضيقتين، ثم وضع يده الصغيرة في جيب بنطاله القماش، أسرع يوسف بالرحيل، كأنه يخشى أن يلومه حازم على كل شيء...

بدا كيوم روتيني جديد من العمل الشاق، مع ذكر البطريق وفقرة التنورة.. كرنفال لن ينتهي أبدًا.

ارتعش عقرب الدقائق بردًا قبل أن ينقض فوق عقرب الساعات المستقر فوق الثامنة في الصباح القارس، ضغط مؤمن البحيري على زر فوق مكتبه القديم في قسم مباحث الجنايات، زر دفنه الورق والدوسيهات وولاعة وعلبة سجائر بيضاء اللون، كان كل شيء غير مرتب بطريقة مريحة بالنسبة له، يطلي الظلام المكان تماما ماعدا أباجورة ذات ضوء قوي يرتكز على ملف احتضنته يده، بجانب يده رقد سلاحه الميري يحتويه جراب أسود يبدو على مقدمة أنبوبه بعض الصدأ، طرق باب المكتب طرقتين خفيفتين ليدخل شاب في نهاية العشرينيات، نحيف الجسد أسمر البشرة رُسم تحت أنفه المعقوف شنب غير كثيف، نظر بعينيه البارزتين في ترقب حذر، تجاهله مؤمن الذي بدا منهمكا في قراءة ملف ما، تشتعل من بين أصابعه التي تلمس هامته سيجارة حديثة الاشتعال، ما لبث أن انتشرت رائحة القهوة النفاذة التي يحملها النحيف لتغطي على سطوة السجائر المنتشرة.

- تمام كده سعادتك؟

تساءل سليمان واضعا فنجان القهوة «النفاذة»، وبجانبها كوب زجاجي به ماء بارد تقطرت عليه نقاط صغيرة.

- تمام.. روح انت.. وابعتلي عبد العزيز.

قالها هائمًا في الملف الذي حاز على كامل تركيزه واهتمامه، لكنه لم يشعر بأي نوع من أنواع الحركة تحدث وكأن سليمان قد تحول فجأة لتمثال ثلجي، عندها - ولأول مرة- اتجه مؤمن ببصره لسليمان رامقًا إياه بنظرة بها مزيج من الترقب والانزعاج.

- في حاجة يابني؟

- معاذ بيه وصل من ساعتين وسأل على حضرتك بس سعادتك ماكنتش موجود والموبايل...

- كان مقفول.. هتصل أنا بيه.. روح انت!

قاطعه وهو يعبث بهاتفه المحمول بحثا عن رقم صديقه القديم «معاذ أبو النجا» صديق الطفولة، والمنافس الأساسي في الأناقة والعلاقات النسائية في فترة المراهقة، ذلك على الرغم من عدم امتلاكه لقدر كبير من الوسامة، معاذ شاب قصير القامة لكنه غير نحيف، يمتلك جسدا رياضيًّا أهَّله كثيرا للكلية الحربية، التي دخلها بواسطة كلفت أهله الكثير من المصاريف والمجاملات المستميتة، أسمر البشرة وحليق الرأس دائما حتى من قبل أن يلتحق بالكلية، فهو يمتلك كليته الخاصة، يمتلك عينين دائمتي الاحمرار كأنه لا ينام أبدا، يمكنك أن تقسم أنه ينتمي لنسل عائلة أحمد زكي لو لم تكن تعرفه جيدًا،انتظر مؤمن على الهاتف لكن جاءه

ذلك الرد المحبط «الهاتف الذي طلبته قد يكون مغلقًا أو خارجَ...»، رمى مؤمن الهاتف بعنف على كنبة جلدية على يسار مكتبه، اعتدل مجددًا على كرسيه محاولا التركيز في الملف الذي يقرأه، قبَّل سيجارته القبلة الأخيرة قبل أن يطفئها ويتجه إلى القهوة ليحصل منها على جرعة كافيين سريعة كان يحتاجها، قاطع صمت عالمه صوت صادر من جهازه اللاسلكي الخاص به:

- 3 ميم..سيادة اللوا عبد الجليل بيه أو مؤمن باشا البحيري!

ثم أطلق اللاسلكي صافرة قصيرة.

أخرج مؤمن جهازه من مقبرة ملفات العمل بسرعة ورد بثقة:

- مؤمن البحيري معاك.. إتفضل يا باشا!

رد عليه الصوت:

- برجاء التوجه لدايرة المرج الجديدة سعادتك للتحقيق في جريمة قتل من عدمه، مصنع أوسكار للملابس الجاهزة خلف السينما القديمة، وبرجاء إبلاغ سيادة اللوا مدير الإدارة العامة لمباحث العاصمة.

رد مؤمن بدوره:

- علم يا باشا وجاري الوصول والإبلاغ.. مع الشكر سعادتك.

قفز مسرعًا من على مكتبه قبل أن يرتشف مرة أخرى من القهوة، التحف الجاكت الجلدي الخاص به بعد أن علق سلاحه في يمين حزام بنطاله الأسود، ثم اختفى في أقل من دقيقة، متسائلًا عن يوم بدا ساخنًا رغم برودته.

* * *

(4)

لاح البخار معلنًا نهاية فترة الانتظار المملة من فوهة الغلاية الكهربية البلاستيكية الرخيصة، تطوع حسام لصب كوب جديد من النسكافيه داخل مكتب كمال رخا القابع أمامه بوجه عابس، كانت الساعة قد قاربت التاسعة والثلث في ساعة يده السمينة، ساعة جاهدت حتى لا تنفجر لأشلاء كملابس الرجل الأخضر حينما يغضب.

- اتأخرت ليه يا نجم؟

- حسام.. قولي حاجة تفرحني!

قالها يوسف معدلًا من وضع شنطته فوق كتفه اليمنى، زف حسام الخبر ليوسف قائلًا:

البطريق قالب الدنيا عليك.. خانق أهلي كل شوية يسألني فين يوسف.

تساءل يوسف:

- قولي يا حسام، هو أنا لو مت هقابلك في الحياة التانية؟

- موت انت ويبقى يحلها ألف حلال.

رد حسام بوجه مازح ثم انفجر ضاحكًا.

- مبهر!

بعدها بثوانٍ دق باب يبدو أنه قد طُلِيَ حديثا كتب في أعلاه «كمال رخا – نائب رئيس التحرير»، انتظر حتى أذن له بالدخول ثم أدار مقبض الباب ببطء.

– خش يا يوسف.. استريح! إيه نورت القسم إمتى ؟

– لسه جاي حالا.. الطريق كان..

جلس يوسف ليقاطعه رخا:

– كان بيتدلع.. الطريق كان بيتدلع.. صح؟

– أطلق زفيرًا عميقًا وأشاح بنظره بعيدا ثم أكمل ساخرًا:

– ماينفعش أجرِّي العشر دقايق دول من شريط حياتي؟

– لو كان ينفع كنت هطلب منك تجري فترة شغلك كله معايا.. إيه اللي بيأخرك؟..هه؟..إيه؟!. مقضيها سكس عالنت بالليل ولا إيه حكايتك؟

– موهبتك في قراية الأفكار بتخليني عاجز عن الكلام.

قالها يوسف بوجه به كثير من الصدمة، ضرب رخا بيديه على سطح المكتب حتى اهتزت المياه في الكوب الزجاجي رعبًا، ثم صاح:

– متكلمش خالص!

– أنا كنت بقول الحقيقة..

– واضح إنك مستغني عن تقرير السنادي كمان.

قالها ورمى قطعة صلبة حمراء اللون من الفوار بداخل الكوب لتفور كالبركان، تجرعها على مرة واحدة ليزداد تجهم وجهه السمين في رد فعل على مرارة طعم الدواء، مسح فاه بمنديل قماشي أبيض به خطان بنيان وأشار إليه بسبابته محذرًا:

- أنا ماعنديش مشكلة أقعدك في البيت عشان تسهر تلعب أتاري وتتفرج على النت براحتك لو مصمم.

- مافيش أتاري دلوقتي.. بقى في حاجة اسمها بلاي استيشن.

- ماتعدّلش عليا!

توجه يوسف بصمت تجاه زجاج المكتب، سرح لثانيتين بعدما دفن يديه في جيبي معطفه، وأردف بصوت هادئ:

- أستاذ كمال! أنا مقدر زعلك، أوعدك إني هطلع بدري ساعة عن ميعادي اليومين اللي جايين.

- ولا ماتطلعش.. مش فارقه.. كده كده انت في آخر الطريق.

- سؤال.. ليه ما رفدتنيش؟!

- لو عليا من دلوقتي.. بس انت...

- عارف.. المشكلة من فوق، عمومًا أوعدك هحلها أنا.. ولحد ما أحلها ممكن تكلم الأستاذ لطفي ينقلني من هنا.

- هتوحشني..بس فين القسم اللي هياخد واحد بتقدير ضعيف يا بيه؟

رن هاتف المكتب مقاطعًا الحديث، لكن أعينهما ظلت في حديث حاد لثانيتين لم ينطقا فيهما بكلمة واحدة، رفع كمال سماعة التليفون ببطء وقالها بنبرة غاضبة:

- أيوة!

تغيرت نبرة صوته وابتهج وجهه العابس بدون أي تغيير جسدي يذكر سوى ابتسامة كشفت عن صفين من الأسنان الصفراء صغيرة للغاية.

- عبد الجليل بيه!..ده إيه النور ده!. تمام والله يا باشا.. وانت طمني على صحة معاليك يا فندم؟.. آه.. تمام.

نظر ليوسف مبتسمًا وأكمل حديثه الهاتفي:

- آه موجود، آه عندنا حسام كمان ممكن يفيد.. خلاص يوسف بس.. حالًا، العنوان فين؟.. ثواني أجيب قلم.. تمام.. تمام.. في المرج؟.. فين الشارع ده؟.. آه صح كده ورا السيما القديمة عارفه.. هيكون عندك خلال تلت ساعة بعون الله.. لا مش هيتأخر.. بس هو إيه الموضوع بالظبط يا باشا..

ثم اتسعت عيناه وأضاف:

- يا نهار أبيض.. تمام.. شكرًا معالي الباشا.. حالًا.. في رعاية الله يا باشا.. سلام.. مع السلام.. سلام..سلام..سلام

بدا ليوسف وكأنه سيظل يردد كلمة «سلام» حتى ينتهي اليوم بل تخيله يغلق سماعة التليفون ويقرب رأسه السمين من السماعة ويكررها

خشية أن تمر ثانية من المسافة بين السماعة وزر الغلق من غير أن يستغلها في تكرارها.

اعتدل رخا وأردف بعدما عاد وجهه للتجهم:

- جهز نفسك وخد حاجتك معاك واطلع حالًا على المرج! هتلاقي هناك صاحبك اسمه إيه ده؟!

- مؤمن..

- آه.. وغالبًا هتلاقي الداخلية كلها هناك. حظك حلو، مصلحجة.. سكوب كبير ماحدش من الصحافة شم ريحته غيرنا.. ماتنساش تاخد الظرف بتاع عبد الجليل معاك من السكرتارية، الراجل قايم معانا بالواجب.

- وإيه اللي يخليك تبعت أضعف واحد عندك لسكوب زي ده؟

- لأن ده شغلك يا بيه، وبعدين ماتحققش معايا انت فاهم! نفذ شغلك ولينا كلام بعدين.

هم يوسف بالرحيل، لكنه توقف بعد أن ضغط على المقبض للحظة، ثم سأله بهدوء من دون أن يلتفت:

- في إيه في المرج؟

ليرد عليه رخا:

- جريمة قتل..

قالها متجرعًا باقي النسكافيه على مرتين.

- بس أنا مابقيتش بطلع...

قاطعه رخا:

- تقيلة.. جريمة تقيلة.. حتى لو بطلت تعاين حوادث لازم انت اللي تغطيها، ده أمر!

ألقى بقطعة شيكولاتة في فمه ثم أردف وهو يلوكها:

- ده غير إن مؤمن عايزك بالإسم.. واضح إنها سمكة كبيرة.

ضغط يوسف على مقبض الباب خارجًا من برودة البطريق لجحيم الطريق في نهار القاهرة والعفر، في الطريق تظاهر بالثقة لكنه لم يستطع أن يتجاهل ذلك الشعور الذي بدأ يتسلل لأمعائه.. بل لكل أعضائه الداخلية.. بدا كقشعريرة وانتهى بيقين.. يقين أنها لن تكون جريمة سهلة من التي اعتاد عليها وقتما كان يباشر التحقيق من موقع الجريمة.. ملأه الشعور في الطريق بأن شيئًا ما ينتظره..شيئًا غير جيد.

لم يترك الشتاء أي فرصة للتفاوض وأقسم على نيته الشتوية الخالصة، انطلقت في السماء حفنة أسهم برقية لامعة يسابقها صراخ الرعد المكتوم، انهمرت الأمطار من غير تدريج لتبلل أشعة الفجر الفضية، ترجل مؤمن من الميتسوبيشي القاتمة مسرعًا محاولًا مفاداة السيل البارد، مر بحذائه الجلدي فوق برك المياه المتكونة حديثًا تجاه مصنع ملابس ذي طابقين محاط بسور حديدي تزينه بوابة خضراء صدئة، بدا وأن المبنى مهجور منذ أمد، استقرت أمامه سيارتا شرطة؛ إحداهما: بوكس، والأخرى بيجو

تعمل إضاءة السارينة بصمت، وسيارة إسعاف في الجانب الأيسر من بوابة المعرض يجلس بها رجل في الأربعينيات يلتهم بضعة ساندويتشات في نهم، لم يحط المصنع- أي بيوت تذكر، عن يمينه كانت بضعة بيوت مهدمة وأرض فضاء افترشتها القمامة، تفوح منها رائحة عفنة لم يمحها سيل المطر، ترعى فيها أنثي كلب قد عصف بها الوهن وامتهنها الجرب، تحوم حول رقبتها الدامية سيل من الحشرات العنيدة، كان واضحًا أنها قد هربت -للتو- من أسرها بنجاح، ولكن حبلًا قاسيًا قد ذبح جلد رقبتها حتى وصل للحم.. ولن تتخلص منه حتى تنتهي.

عن يسار المبنى استقرت مدرسة فنية تجارية تزين حوائطها عبارات مستهلكة من نوعية «العلم والعمل مستقبل الوطن»، تفحصها مؤمن جازمًا أن نصف طلاب المدرسة لا يستطيعون قراءتها.

عندما اقترب من المصنع لمحه يقف بعيدًا عن الشاهين المرتعشة، منتعلًا حذائيه المميزين، إضافة لبنطال أسود رفيع وفوقهما معطفه الرماديّ المفضل، دفن في جيبيه راحتيه، بدا غارقًا في بحر من التفكير والمياه، يواجه المصنع القديم كتمثال أثري، تلاصقت خصال شعره البنية فوق جبهته بعدما خضبها المطر.

- مشكلة في اليافطة؟

قالها مؤمن وهو يلوك قطعة علكة كبيرة الحجم بعنف ثم توقف بجانبه متفحصًا اللافتة مثله، لافتة هرئة كتب عليها بالعربية والإنجليزية:

«مصنع ومعرض شركة أوسكار للملابس الجاهزة: Oscar campany for ready clothest».

- مشكلة في الإنجليزي..

رد يوسف متفحصًا اللافتة.

- طبعًا انت عارف إن مافيش تصوير.

علق مؤمن مؤكدًا.

- ماجيبتش شنطتي معايا.

- هو الكاميرا لازم تتحط في شنطة؟

- في عالم موازي.. أيوة.. بتتحط في شنطة.

- وفي العالم ده.. فيه ناس مابتحتاجش كاميرا وزنها نص كيلو عشان تصور.

قالها فاتحًا بوابة خضراء معدنية كبيرة، ثم مشى قاصدًا مدخل المعرض ليلحق به يوسف، الذي لم تغب عيناه عن لافتة المعرض حتى في طريقه للداخل.

- عبد الجليل متفق معايا إنك تخرج بعد دقيقة، بس أنا عايزك تركز.. فطرت؟!

تساءل مؤمن في الطريق لداخل المعرض.

- شربت قهوة.

استقبلهما عند باب المعرض شخص ما احتمى بدوسيه بلاستيكي من المياه المنهمرة.

- 4 عمال جم من المصنع الجديد ينقلوا شوية أجهزة، هم اللي بلغوا..

- مين النجم؟

قالها في طريقه لداخل المصنع مرتجلًا بجانب الصديقين ومستفسرًا عن يوسف.

- معايا..

رد مؤمن في طريقه من دون أن ينظر جانبه وتابع:

- في زباين؟

- واحد منهم عليه قضية تبديد عفش من طليقته..الباقي نضيف، الطب الشرعي جه من ساعة.. والنيابة كمان جت، نوح جوه.

اخترقا مدخل الدور الأرضي المظلم ككهف حجري، تجرعا كمية لا بأس بها من الهواء المكتوم المختلط برائحة نتنة مصدرها الفئران والفضلات، في الطريق وقف ضابط طويل القامة عريض الكتفين والقالب يمازح وكيل نيابة منهمكًا في كتابة تقرير عن الحادثة، يحكي له عن عراك قذر قابله أثناء مروره بالصدفة في المعادي، كان بطلته ساقطة وتاجر مخدرات شاب، أعطى تحية ميري لمؤمن كاشفًا النقاب عن صفي أسنان ناصعي البياض يحتضنهما وجه غليظ، يمتلك جسدًا مترهلًا غير متناسق، كأنه مصارعًا من العصر الحجري ضل طريقه للألفية الثانية بعدما كان رهان السكارى الرابح، وبدلًا من أن يغرز سيفه في قلب أسد

ما أصبح مساعدًا في المباحث، أحمد نوح، مساعد مؤمن الذي قد يصيبه بسكتة دماغية يومًا ما.

حيا الأخير مؤمن والشاب، تابعا طريقهما ليتحول الصباح غير المكتمل لعتمة تشبه عتمة ما قبل الفجر، مشيا في هدوء في ناحية الضوء القليل المنبعث من غرفة داخلية، في حين أخرج مؤمن كشافًا صغير الحجم من جيبه ضغط عليه لينير، عبثت بضعة فئران تحت إطار سيارة متهالك مطلقة قليلًا من الصفير أشار لها مؤمن بضوئه حتى صمتت، أخرج يوسف من جيب بنطاله منديلًا ورقيًا ليضعه على فمه وأنفه محاولًا عدم استنشاق الهواء المثير للغثيان، ثم أخرج ظرفًا أبيض لم يُكْتَب عليه شيء وحاول مناولته لمؤمن، رمقه مؤمن متابعًا سيرة معلقًا:

- كل يومين ظرف؟! الجرنال بتاعك ده بيطبع فلوس؟

- الشيء لزوم الشيء.

علق قاصدًا عبد الجليل من دون أن يزيح المنديل من فوق وجهه.

- سلمه انت بقى للشيء!

رد مؤمن متاجهلًا الظرف واضعًا ذراعه اليسرى فوق منخاره متأففًا من الرائحة.

أعاد يوسف الظرف لجيبه وتبع مؤمن إلى غرفة كبيرة على اليسار بها بعض الحياة، لكمات من الفلاش الأبيض تكال لكل جنبات الغرفة البيضاء شبه الفارغة، ومروحة «شفاط» تعمل بهدوء في أعلى اليمين من

الحائط المقابل لبابها، في اليمين ظهر مندوب من الطب الشرعي يمسح كل جنبات المكان بفرشاة تشبه فرشاة التبرج، وآخر منهمك بتصوير كل شيء ممكن في المكان، وملاءة بيضاء تغطي شيئًا ملقى في منتصف الغرفة.

- عندنا إيه؟

تجمدت العلكة بفم مؤمن عندما قالها بثقة وعينين فاحصتين للطبيب ذي الكاميرا الكبيرة السوداء، أزاح الأخير عن وجهه قناعه الطبي، كان هو.. صديقه الخجول.. «رامي فارس سامي» أو «رامي فارث ثامي» كما يسخر زملاؤه من «لدغته» في حرف السين، مندوب الطب الشرعي كما يجب أن يكون، يميزه وزن زائد ونهدان برزا مع قصر قامته، وصلعة لامعة يمكنك حلاقة ذقنك عليها، يمتلك نظارة ذهبية مميزة يلمسها كل خمس ثوان على الأرجح، اقترب رامي من الملاءة، جلس على ركبتيه ثم كشف الملاءة، ليظهر رجل - أقل ما يمكن قوله عنه- أن ملامحه متجمدة كسمكة سلامون في ثلاجة سوبر ماركت، رُسم حوله خط طباشيري أبيض، عاري الصدر يطل من بين أضلاعه مقبض حجري اللون لخنجر غريب الشكل ظهر جزء من نصله، أردف رامي:

- في الثلاثينات، ضربة طاعنة في الصدر، تشوه في العينين والوجه، جرح قطعي في الشريان الفخذي قرب (نفق هنتر)، اسمه أسعد عبد الرحمن خليفة، مجند أمن مركزي، لقينا محفظته مرمية..

جلس مؤمن القرفصاء وتفحص وجه الضحية المشوه بتأفف، عينان مغلقتان يكسوهما الدماء المتجلطة، وجسد كساه لون أصفر قاتم لم يرحم حتى شفتيه، فاغر فاه كأنه يريد أن يبوح بشيء ما في صدره، يداه موضوعتان بنفس الطريقة على جانبي جسده كعسكري وقف يتسلم نيشان الواجب.. تتقابل قدماه في انضباط، ضاقت عينا مؤمن أسفًا من المنظر المؤلم، لكنه واصل النظر متمتمًا لنفسه ببضع عبارات الأسف وطلب الرحمة من الخالق، ثم أردف:

- إيه اللي على وشه؟!

- آه!. فيه رقم.. رقم 9 محفور بنفس أداة الطعن غالبًا على الخد الأيمن، ورقم 1 على الخد الأيسر.. 19.

قالها رامي فارس.

في اللحظة نفسها كان يوسف منشغلًا بشيء آخر، تابع ببصره الهائم رسم دوائر تخيلية حول كل ما يلحظه.. شيء ملصق بأسفل الحائط فاتح اللون يشبه العلكة.. مروحة شفاط بها ضلع مكسور.. بصمة حذاء ميري كبيرة الحجم تنتمي - بنسبه 70٪ - لحذاء ضابط ضخم يلوك علكة باستهتار، وأخيرًا دائرة حول الأرقام المرسومة حول وجه الضحية وأربع بلاطات ملونة بلون أحمر قاتم.. رسم بجانبهم بضعة أنماط تخيلية تشبهها محاولًا الوصول لنمط متطابق لكن كل رسوماته فشلت فقام بطمسها جميعًا.

- أي أفكار نيره يا دوك؟!

قالها مؤمن لكنه لم يحصل على أي رد، صاح مقاطعًا سرحان يوسف:

- يوسف!

- ممم!. دقيقة من فضلك!

همس يوسف:

- بتعمل إيه؟!

قالها مؤمن ليوسف الذي تجمدت عيناه كأنه يتواصل ذهنيًا مع المكان، رد يوسف متمتمًا بشرود:

- بكتب.. ملاحظات.

- مش شايف قلم وورقة.

علق مؤمن مستفسرًا.

- مافيش داعي.

قالها يوسف ببطء محدثًا نفسه ليتركه مؤمن بعدما حرك رأسه مستنكرًا، ثم اتجه ببصره للجثة الملقاة مستفسرًا:

- في حاجة غلط! الجلد، واللون...

قاطعه صوت:

- أصفر! لون الجثة أصفر، لأن معظم الدم اللي فيها اتصفى.

كان يوسف هو من قال تلك الملحوظة مصححًا بعدما انتهى من فحص المكان، شرد رامي مع الوجه الجديد الذي لم يره مسبقًا، ثم أردف بإعجاب مؤيدًا كلماته:

- ده حقيقي!. واتلون- بجزء منه دول..ماحدش فاهم ليه.

وأشار لأربع بلاطات اكتست بلون أحمر قاتم تحت قدمي الضحية، كأنما قد تم تلوينها بفرشاة، اقترب منها مؤمن مندهشًا ونزل على ركبتيه يتفحصها في صمت، لاحظ أنه قد تم طلاء عدد من البلاط بعينه، وبترتيب يشبه الهرم المقلوب رأسه يقابل قدم الضحية، درسها بعناية ثم حاول طبع صورة بذاكرته للقتيل نصف العاري، تأمل مقبض الخنجر الذي يتصف صدره العريض فوق فم المعدة كمقبض موتوسيكل «هارلي» داكن، كان مقبضه حجريًا لف حوله حبل قاتم رفيع بقسوة.

علق يوسف على تساؤل رامي:

- هناخد وقت عشان نفهم.

- إتصفى؟!!

أعادها مؤمن واقفًا على قدميه متعجبًا، ثم تأفف من دودة التصقت بكعب حذائه عنفه يوسف عليها واصفًا إيها بالـ«الدليل».

تدخل نوح محدثًا رامي:

- لقيت أي مصلحة تنفعنا.. بصمات، أي حوار يعني؟!

- ماسابش وراه حاجة.

- متأكد يا رامي؟!

تساءل يوسف قاصدًا الوجه الخارجي للحائط بالتحديد عند مدخل الغرفة، استوقفه نوح بطريقة مستفزة:

- ماتعرفناش بالباشا؟!

- شايف ان ده وقت تعارف يا سكانيا؟.. رحلة هي.. صح؟!!

- إيه يا باشا في إيه؟! هو أنا كل ما أقول كلمتين تديهوملي.

- طبعًا..و كل ما تدخل دخلة المقطورة دي هديهملك! عشان لما تشوفنا طالع ميتينا عشان نفهم..تفكر معانا مش تتعرف.

نزل يوسف على ركبتيه متجاهلًا الحديث بعدما وجدها في مكانها الذي يعلمه جيدًا، فعيناه الهادئتان قد رصدتها في طريقه للداخل ولم ينسها..العلكة المتحجرة ذات اللون الوردي الفاتح للغاية والتي يصعب تمييزها من الحائط الذي التصقت به.

- Contrast Sensitivity!..العلما بيقولوا إن 40٪ بس من البشر عنيهم بتميز الاختلاف البسيط في الألوان.

أخرج من جيبه علبة محارم بلاستيكية وجردها من محتواها وأمسك بها العلكة وأكمل:

- ابتسم يا رامي!. معانا (دي إن إيه).

وحاول شم رائحتها التي فاحت بنكهة الفراولة النفاذة، بدا رامي أكثر ابتهاجًا بعدما عثر يوسف على اكتشاف ثمين بالمجان.

توجه نوح تجاهه مخرجًا علكة كبيرة الحجم نسبيًا من فمه وألصقها بالقطعة التي أمسكها يوسف بعناية ثم أضاف ساخرًا:

- و دي حته (دي إن إيه) بطعم الموز.. لو حبيت تعمل كوكتيل.

ضغط يوسف على القطعتين الدافئتين لتلتصقا معًا كالعجينة ليتبين أن كليهما قد بصقهما فم نوح حديثًا.. نظر يوسف للسقف متمتًا لنفسه:

- عظيم!

حرك مؤمن حاجبيه مصدومًا ثم هرب من الموقف المحرج وتوجه بنظره للجثة مجددًا واضعًا يده فوق وسطه في ضيق واضح ثم حرك رأسه في خيبة أمل.

لم تمر ثانيتان حتى دخلت مسرعة كامرأة جاءت لتقبض على زوجها في وضع خيانة، تخبط بقدميها الأرض في سرعة فتطرق طرقاتها الغاضبة، قصدت الجثة متجاهلة يوسف وصديقه كأنهما هواء لا وجود له ثم قالت:

- 2 ظباط بس؟ أنا قلت هلاقي الداخلية كلها هنا.

نظر يوسف مندهشًا لمؤمن وكذلك فعل نوح، لكنها أكملت مخاطبة أحد المساعدين:

- بروفايل؟

- مافيش بصمات..ولا (دي إن إيه)..

قالها ذو النهدين بلدغته الواضحة.

أعطى مظهرها للصديقين انطباع عالمة كيمياء وهبت حياتها للعمل حينما شاهداها للوهلة الأولى، امرأة نحيفة ترتدي نظارة طبية كبيرة للغاية يفوح منها رائحة دخان مختلط بعطر هادئ، تنتمي للعقد السادس، ترتدي قميصًا كاروهات ذكوريَّ الشكل أغلقت ياقته بالضبة والمفتاح، وبنطالًا قماشيًّا قصيرًا لم يصل لحذاء رياضي غير متناسق مع الشكل العام، تمتلك شعرًا قصيرًا يحتل نصفه الشيب.

جلست القرفصاء برشاقة تحسد عليها كاشفة الغطاء الأبيض عن وجه الضحية بيديها الصغيرتين، عاقدة حاجبيها في صدمة.

– مين العالم اللي ساب بصمته على «الكاديفار»؟

– إحنا جينا لقيناها كده يا دكتورة.

قالها رامي محاولًا مفاداة غضب مديرته، ليتدخل نوح بعد أن أنهى كلامه غير المفهوم في اللاسلكي معلقًا:

– بصمة إيه يا هانم لا مؤاخذة..

–Oh! معانا كسبان!

قالتها بعدما حركت نظارتها الكبيرة للأسفل، أضاف نوح:

– أنا مش شايف أي تغيير يعني، ما كل حاجة زي ما هي..

– صح كده، المرحوم صحي ورسم حواليه بالطباشير عشان ماحدش يدوس عليه، وبعدين اتغطى بالملاية البيضة عشان السقعة؟ Just like that!..

قالتها برعشة وعصبية تشبه كثيرًا طريقة يوسف شاهين.

- كل دي حاجات روتينية.. والكلام يكون احسن من كده يا دكتورة الله يكرمك!

-الشغل هو اللي لازم يكون احسن من كده! إيه ده.. ده اسمه إيه ده؟!

ردت بعصبية مشيرة بإصبعها بنفس الرعشة الجنونية على الجثة، ليتابع نوح بلهجته المستفزة:

- إحنا متعودين على كده يا دكتورة، ده الشغل بتاعنا..

- شغل؟.. ده شغل مبتدئين ده، بصمات إيديكو في كل حته وجزم ميري عالبلاط وطباشير.. ماحدش خد صورة مع القتيل بالمرة؟ فين اللوا عبد الجليل؟! أنا مش قولت 100 مرة مش هشتغل في أي «Crime scene» مش نضيف!

قالتها بصوت عال أشبه بالصراخ.

- حصل خير يا دكتورة.

- مش عايزة تشتغلي دي بتاعتك انتي، ولولا احترامي لفرق السن كنت قولت كلام تاني، بس عمومًا.. عبد الجليل بيه جاي كمان شوية إبقي اشتكيله.

اتسعت عيناها خلف نظارتها الطبية الكبيرة متأهبة للهجوم، تدخل مؤمن مجددًا مقاطعًا بابتسامة في الوقت المناسب:

- إيه يا دكتورة جاكلين؟ إيه يا نوح ؟ الله!. حصل خير يا جماعة!

اتبعها بغمزة لصديقه الضخم ثم أردف مخاطبًا جاكلين:

- هدي نفسك يا دكتورة!..كل دي حاجات بسيطة إن شاء الله.

- بص كده! دي حاجة بسيطة بالنسبالك؟!

قالتها كاشفة النقاب عن الجثة كاملة، تأثر يوسف كثيرًا وأغلق عينيه بعدما أشاح بوجهه.

تابعت جاكلين بيأس:

- بذمتك! أنا لو جيبت الأمن بتاع دريم بارك هيبوظ مسرح الجريمة بالمنظر ده؟

- سليمة يا دكتورة، سليمة، يلا يا نوح عايزك بره.. يوسف تعالى بعد إذن...

لم يكمل مؤمن الجملة ممسكًا بيد صديقه المنفعل ومحاولًا جذبه بعيدًا حتى جرى يوسف خارجًا من الغرفة يتصبب عرقًا واضعًا يده على معدته، ما لبث أن وصل للطرقة الخارجية حتى أطلق لمعدته العنان تخرج ما فيها بجانب الإطار القديم، مستندًا بيده اليسرى على الحائط.

- محمد!.. هاتلي فورسيبس وقطنة وكيس sample.

قالتها جاكلين ثم تفحصت مؤمن الذي كان في طريقه للخروج، والذي بدا محرجًا من زميله الذي أضاف بصمة جديدة لمسرح الجريمة، رمقت الجثة مرة أخرى محركة رأسها يمينًا ويسارًا في حنق، تمتمت بالإنجليزية:

- Fucking amatures!..

في الخارج وقف يوسف ينازع الغثيان أمام الحائط المقابل، تنزل خصال شعره على وجهه المليء بحبات العرق، يحاول جاهدًا التنفس بانتظام، استند مؤمن للحائط المجاور له ثم استطرد:

- كنت فاكر إنك مافطرتش.

ليرد يوسف مازحًا بعدما تمالك قليلًا من بأسه:

- ده مجرد عشا امبارح.

- شكلك نسيت الجثث يا دوك.

أضاف مؤمن مبتسمًا وهو يلوك علكته باستهتار.

حرك يوسف رأسه إيجابًا ماسحا بكفه اليمنى على وجهه، ثم مسح على شفتيه الحمراوتين الدقيقتين اللتين استسلمتا للجاذبية وسقط منها خيط من اللعاب.

ناوله نوح علبة محارم صغيرة معلقًا:

- خد منديل انت ضايع!

- شكرًا!

اعتدل وسند ظهره على الحائط محاولًا الحفاظ على هدوئه، ثم مسح على فمه مجددًا، في حين تابع نوح حديثه الحاد مع مؤمن:

- انت ليه شدتني من جوه؟ أنا عايز أروح أفشخ بنت الو...

- قريبة مجدي بيه ميخائيل.

- دي؟!

- أيوة يا أعمى القلب، «دي» تبقى رئيسة الطب الشرعي وبنت خالة مجدي بيه، وكانت عايشة في أمريكا.

- عشان كده طايحة فينا.. بنت الو...

- وطي صوتك عشان نلم الدور! الست عندها حق بردو، انتوا فشختوا المكان بصراحة. قاطعه بصوت خافت مقاطعًا صديقه المنفعل، تابع نوح بغرور:

- أنا - بقولك إيه يا باشا- مابيفرقش معايا.

- لما تفرق معايا.. يبقى تفرق معاك.. واضح!! كفاية هلك بقى وتعالى نطلع نشرب سيجارتين.

قالها متوجهًا للخارج ثم وجه كلامه ليوسف:

- يوسف! فوق واشربلك بق ميه.

أشار يوسف رافعًا إبهامه في علامة معناها (أنا جيد) محاولًا التعافي، ثم استند على الحائط المتسخ بظهره غير مهتم بثيابه التي تلوثت.

في الداخل انهمكت جاكلين بتنظيف جفون القتيل بسائل شفاف واضعة قطعة من القطن ملصقة بأعلى عصى بلاستيكية على الدم الذائب، ثم دسته في كيس بلاستيكي صغير وشفاف ليذوب الدم المتجلط فوق

جفن الضحية وتظهر المفاجأة الجديدة، لقد كان واضحًا للغاية أن عينيه لم تغمضا عن قصد، ولم يتطوع شخص ما ليغلقهما احترامًا لحرمة الميت، بل فعلها شخص غضبًا وعدوانًا، لقد تم حياكتهما معًا بخيط أسود سلكي رقيق.

شاهد الجميع الموقف بشغف طفل يشاهد أضحية العيد، بدت جاكلين مهتمة بنوع الخيط اهتمامًا كبيرًا أكثر من اهتمامها بأي شيء آخر، أمسكته بملقاط طبي واقتربت برأسها منه لتتفحصه، اقترب رامي مجددًا ممارسًا هوايته في التقاط بضع صور جديدة، تمتمت جاكلين بغضب:

- إرحمني يا رامي!

تلعثم رامي بعدما لمس نظارته الذهبية قائلًا:

- آسف.. آسف يا دكتوره!

- وصل إمتى؟

قالتها جاكلين لرامي الذي حاول لملمة أفكاره مردفًا:

- من حوالي يومين.. الساعة 3.30 الفجر تقريبًا.

- راحت فين الـ(Accuracy) يا رامي؟.. أصحيه أسأله أحسن؟

- هحاول أكون دقيق أكتر.. المرة الجاية.

قالها متلعثمًا في صوت خافت بسرعة شديدة، ليصيح في وجهه يوسف شاهين (النسخة النسائية) في اندهاش:

- What the hell you saying?!.

- هحاول أكون أدق أكتر الفترة اللي جاية.

قالها بسرعة ثم بلع ريقه في صعوبة، ردت جاكلين:

- إتصلِّي بالدكتور طه بسرعة.. عايزاه على التليفون.

شرعت في تفحص الخيط السلكي المستخدم بنفس الاهتمام، في حين عاد يوسف من الخارج وبدا في حالة مزرية، متظاهرًا بالثقة يمسح العرق من فوق هامته ويعيد خصل شعره للوراء في صمت.

- مافيش شبكة هنا يا دكتوره.. معلش.

قالها رامي بتردد أقرب للرعشة، ردت بعصبية:

- يووه.. هات البتاع ده!

جذبت من يديه الهاتف بسرعة تحسد عليها وتوجهت للخارج تشيط غضبًا.

استعاد يوسف جزءًا لا بأس به من عافيته، كان - في تلك اللحظة- وكيل النيابة قد رحل بالفعل بعدما كتب تقريره، اقترب يوسف من الجثة بهدوء، لم يطالبه أحد أن يتوقف فتابع، لملم زمام نفسه في حين تصاعدت ضربات قلبه وصوت تنفسه الذي طغى على أي صوت آخر، يتملكه إحساس طالب يدخل مشرحة كلية الطب لأول مرة، نظر للجثة ثم لتلك المروحة العرجة الصغيرة في أعلى الحائط المواجه، وتارة أخرى للمساعدين المنهمكين بجمع العينات، استشعر تلك البرودة بداخله، لكنه قاومها واقترب أكثر.. ازداد السكون حوله.. ازداد التنفس صعوبة.. جلس متزنًا على أطراف أصابع قدمه.. مد أنامله وأزاح جزءًا

من الغطاء الأبيض، أراد رؤية الشيء المعلق في صدر القتيل، كان خنجرًا كبير الحجم صنع بكامله من حجر أسود اللون، تنساب خطوط فاتحة اللون متوازية كالأمواج على نصله كأنه صنع من الخشب، كانت جوانبه غير مستوية وتملأها أعراف حادة جعلتها كالمنشار، وحفرت عليه بضعة كلمات بلغة غريبة للغاية لم يعهدها من قبل، كانت أشبه ما تكون للرسومات من أحرف، تأكد أن أحدًا لا يراقبه ثم أخرج هاتفه النقال، حصل على بعض اللقطات للخنجر بهدوء متظاهرًا ببحثه عن شيء ما في هاتفه، ثم اقترب مجددًا وغطى القتيل الذي أقسم أنه لن يخبر أحدًا..

و..

- انت بتعمل إيه؟!

قالتها بصوت غاضب ليفزع يوسف وتجري قشعريرة سريعة في يده مارة بكل جسده.

- أنا كنت بحاول..

- انت مين أصلًا؟

- يوسف.. كاتب ومحلل جنائي و.. أهلًا بحضرتك!

رد واقفًا على قدميه من جديد مادًّا يده محاولًا الهروب من الموقف بمصافحتها، رمقته بنظرة دهشة واستنكار.

- طالما مش ظابط ولا من الطب الشرعي.. يبقى مالكش مكان هنا.

علقت متجاهلة يده الممدودة التي رجعت مرة أخرى لمكانها الطبيعي في حرج.

-أنا بس.. كنت بغطي..

- إبعد عن «الكاديفر» لو سمحت! حاول تكتبلك كلمتين ينفعوك.

قالتها جاكلين بتأفف.

-أفندم؟

-مش انت جورنالجي؟

-..بتقري اليوم المصري؟!

قالها يوسف بالعًا ريقه بصعوبة، فلم يكن يتوقع أن يقابل أحد قرائه.

باغته ردها:

- مابقراش جرايد مصرية، بس باين عليك.

- إزاي عرفتي..؟

- مش صعبة أوي إني أقول مين بيتغدى وسط الجثث ومين بيشوفها كل فين وفين.

ثم أضافت بعدما جلست تتفحص الجرح الغائر في صدر الضحية:

- و صدق أو ماتصدقش.. بس أنا عرفت كل ده قبل ما...

قالتها مشيرة للموقع الذي أفرغ فيه يوسف معدته.

- في حاجتين ما بتعودش عليهم مهما حاولت..الجثث.. والأماكن المقفولة.

قاطعته بحزم:

- يبقى إبعت حد مكانك!

- أي حد معرض إنه يتعب لو شاف منظر زي ده.

رد يوسف مفسرًا.

- شوف! أنا ماقصدش أي إهانة، بس الجرنال هياكل عيش كتير الفترة الجاية، لازم اللي هيتابع بقية القضية دي يستحمل اللي هيشوفه.. ولو إني ماعرفش أصلًا البهوات دخلوك إزاي م الأول.

- بقية القضية؟!

أعادها يوسف متجاهلًا هجومها، تابعت مشيرة للجثة:

- كل اللي انت شايفه ده..

توقفت عن الكلام لبرهة، ووضعت ملقاطًا له تدريج ذو شكل مختلف في مكان الجرح كأنها تبحث عن شيء ما.. ثم أكملت بعدما قرأت رقمًا ما على الملقاط المدرج:

- مجرد فقرة البلياتشو اللي قبل العرض.. لسه السيرك الحقيقي مابدأش.

- بتتكلمي عن سلسلة جرايم؟

- بتكلم عن سلسلة جثث..

قالتها بثقة رامقة إياه بنظرة مستهترة، حركت نظارتها بظهر يدها ثم عادت للجثة مجددًا..

صمت يوسف لثانيتين وعلق مصففًا شعره بيده:

- سيناريو متوقع!

- مش يمكن نجيبه قبل ما يكمل؟ وبرده ممكن تكون جريمة واحدة.

قالها مؤمن الذي عاد بصحبة نوح بعدما حوله لوضع الـ«silent».

ردت جاكلين متهكمة:

- كان بودي والله.

- شكلك متأكدة!

قالها مؤمن متفحصًا ساعته ثم ساد الصمت لبضع ثوانٍ لتضيف:

- أنا عدى عليا جرايم شبه دي في ويسكونسن.

علق نوح:

- وإيه اللي يخليكي- لا مؤاخذة يعني- سيبتي الهنا ده كله ورجعتي مصر..؟

نظرت له مجددًا بتفحص - من فوق نظارتها- كأنها ترى بكتيريا بمجهار إلكتروني.

سألته بسخرية واضحة:

- و إيه اللي يخليك- لا مؤاخذة يعني- تسألني سؤال شخصي؟

- عادي.. مجرد سؤال.

- ماتسألش في حاجة شخصية.

قالتها ليعقد نوح حاجبه وينظر مجددًا لمؤمن الذي حرك أنامله بهدوء أمام فمه المغلق من دون أن يلحظه أحد، في علامة مغزاها (ولا كلمة واحدة).

رن هاتف يوسف المحمول فتنهد ارتياحًا لأنه قد يخرج ليشم بعض الهواء النقي خارج هذا الجحيم، اختفى يوسف ونظرت جاكلين لمؤمن الذي بدا شاردًا، عاقدًا يديه ينظر إلى الجثة التي جلست بجانبها الطبيبة ذات المزاج الحاد والتي أردفت:

- الجورنالجي صاحبك؟

- يوسف؟.. آه طبعًا.

قالها مؤمن بعدما باغتت شروده بسؤالها، ثم أضافت بهدوء تحسد عليه:

- هو عمره ما شاف جثث قبل كده؟

- ده رئيس قسم الحوادث على فكرة.

- ماكنتش أعرف إن مجلة ميكي فيها قسم حوادث...

قالتها غارقة في حلق الجثة مستخدمة مصباحها الدقيق، تمكن مؤمن من منع بضعة كلمات من الخروج في اللحظة الأخيرة مطلقًا بدلًا منها زفيرًا عميقًا، حرك رأسه نفيًا ثم وجد طريقه للخارج خلف يوسف الذي لم يعد له وجود.

وقف يوسف شارد الفكر يتأمل النهار الذي ظهر أكثر تفاؤلًا عن نصف الساعة التي مرت، في حين وجد يد صديقه تستقر بهدوء على كتفه اليسرى قائلًا:

- إيه اللي حصل لكولومبو؟

بادله بعدها يوسف بنظرة عميقة هادئة قائلًا:

- أنا كويس..

قالها بصوت خافت.

- متأكد؟

- صدقني.. تمام.

- هحاول أصدقك.

قالها رافعًا يده من على كتف يوسف مشعلًا سيجارة ثم أكمل بعد أن أطلق زفيرًا أبيض اللون.

- هي قالتلك إيه؟

نظر إليه يوسف مجددًا بعينيه اللامعتين ثم أكمل بنفس الشحوب:

- ولا حاجة..

أومأ يوسف رأسه نفيًا في هدوء، وضاقت عيناه اللامعتان فاحصًا حافلة مرت من أمامه، طبع عليها علامة مميزة تشبه هرمًا مقسمًا لثلاثة أجزاء، كانت لشركة كتب اسمها تحت العلامة «الشركة العربية للألمونيوم»، أخرج عقل يوسف سهمًا تخيليًا من العلامة ورسم بجانب الحافلة علامة شركة عالمية شهيرة للملابس الرياضية كتب بجانبها «نسبة تطابق 96 في المائة» ثم مسح عقله بممحاة افتراضية كل ما كتب بمجرد مرور الحافلة، صمت لثانية وتابع:

- في حاجة ناقصة.

- مش فاهم قصدك - بس أمانة لله يعني - أنا أول مرة أشوف حته زي دي، بس بردو..

قالها مؤمن لنفسه فاحصًا بعينه جنبات المكان ثم أضاف:

- عاوزك ماتقلقش! هنجيب أمه في ظرف يومين اتنين بعون الله.. تلاقيه واد (..) ول اتفرجله على فيلمين رعب فحب يعمل شوية ألابندا..

قضم شيئًا من إظفر إبهامه ثم أضاف:

- هيقع.. هيقع..

قالها قاذفًا عقب سيجارته في بركة صغيرة أحدثها المطر في الطريق.

تنهد يوسف وعلق برد مبهم:

- عمره ما هيقع من غير خيط.

ثم قصد البوابة الخضراء، وضع يديه في جيبي المعطف بعد أن لوح بيده في الهواء لصديقه دون أن يلتفت، أدارها مؤمن في الفص الأمامي لمخه المكتظ بعلامات الاستفهام، ثم ما لبث أن تذكر شيئًا صاح به:

- «موزة» عايز يشوفك!

سمعه يوسف، وأشار بعلامة بإصبعه الخنصر والسبابة عموديًا على أذنه بعلامة معناها (اتصل بي)، واختفى عن أعين مؤمن الذي ظل مجمدًا لفترة، يسترجع كل ما حدث منذ وطئت قدماه ذلك المكان المشئوم.

* * *

(5)

تصاعد صوت النقاش الصادر من التلفاز في الصالة الرئيسية لشقته البائسة، تبارى الجميع في تفسير جريمة القتل الغامضة التي هزت أركان القاهرة وقاطنيها بغرابتها ووحشيتها، فيما انشغل يوسف بصناعة وجبة خفيفة من «شوربة الجمبري»، أو الطبق الرسمي المفضل للصديقين.

أفزع يوسف صوت شيء ما يتحطم، ألقى بملعقته الخشبية في حوض المطبخ وجفف يده في فوطة صغيرة عاقدًا حاجبيه، هرع إلى الصالة منتظرًا مفاجأة جديدة من صديقه المزعج، وجده يتفحص جهاز الكاسيت القديم بعدما سقط على جانبه الأيمن بدون خسائر، شعر بالأسى على أحد تذكارات عائلته الراحلة، عدل من وضع الكاسيت ذي البابين والمزين بصور «باتمان» وغيرها، نفخ قليلًا من الغضب الساكن فيه. ثم رمق سيزار بنظرة نارية ليصدر الأخير صريخه المكتوم المعهود استعدادًا للعقاب.

لكن صوتًا آخر تصاعد من العدم ليفزع يوسف ويصعقه في ذهول، اتضح بعد ذلك أنه ميعاد الفقرة الدرامية المعتادة من الخرتيت الغاضب، الذي بدأ هوايته في تعذيب حازم أمام والدته التي فشلت كالعادة في حمايته، صرخات متقطعة من حازم من حين لآخر تبعث الأمل في نجاته، ثم صمت يشعل الخوف في فراقه للحياة..هكذا كان الأمر.

رمق يوسف سيزار ثم أشاح بنظره للسقف في تمعن وسط صوت الصفعات الممتزجة بتوسلات الأم غير المجدية، قال مبررًا لسيزار:

-ماينفعش نتدخل..

رد عليه سيزار بنبحة صغيرة بها كثير من الثورة والاستهجان، ثم بعض اللهاث المتتابع منتظرًا رد فعل أكثر إيجابية من صديقه الكبير، والذي عض على شفتيه الصغيرتين ثم حرك رأسه مستنكرًا فكرة دارت برأسه، فكرة استسلم لها بعد تفكير عميق ليشير برأسه لسيزار: - تعال!

ازداد لهاثه سرعة وضرب بذيله يمينًا ويسارًا ثم تحركا تجاه التليفون الأرضي بجانب التلفاز، رفع السماعة وعزف على الأزرار ليظهر الرقم «122»، رن جرس التليفون برتابة حتى رد شخص على المكالمة:

- النجدة..

- أأ سلام عليكم!.

- وعليكم السلام.. اتفضل!

- .. أنا عايز أبلغ عن حاجة مهمة.

- الإسم إيه؟

- يوسف أصلان..

- ثلاثي..

يوسف عبد التواب أصلان.

- بتشتغل إيه وساكن فين؟

- بشتغل صحفي في جريدة اليوم المصري.. وساكن.. في مدينة نصر الحي التامن.

- تمام، إيه الحاجة المهمة؟

تجمد بعدها يوسف كالذي فقد الذاكرة فجأة، نظر ناحية سيزار في صدمة كمذيع ينتظر مساعدة شفهية من «Air Piece»، حاول إغلاق الخط لكنه تذكر أن فِعْلًا كهذا قد يكلفه كثيرًا، منع نفسه بصعوبة من إنهاء المكالمة وأعاد السماعة مرة أخرى لأذنه، سمع صوت الرجل مجددًا:

- ألو.. ألو..

- أيوة.. معلش الخط كان معلق.

- ولا يهمك.. قول!

- الكلب - الكلب- بتاعي، تقريبًا.. اتسرق.

- الكلب بتاعك!

- آه..بالظبط كده.

- وجنابك بقى متصل عشان كلب؟

- آه.. هو.. عزيز عليه بصراحة بقالة سنين و...

قاطعة الصوت مضيفًا بنبرة ساخرة:

- بص يا ريس! أنا هبلعها وهاخد كلامك ده بحسن نية، ولو فعلًا زي ما بتقول يبقى تاخد صورة للكلب وتطلع على أقرب قسم تعمل محضر،

ونصيحة، تاني مرة ماتتصلش بالنجدة إلا عشان حاجة تستاهل عشان ماحدش يزعلك.. واضح؟

-.. واضح.

- كويس.

قالها الرجل ثم أغلق الخط معلنًا عن نهاية درامية للمحاولة الفاشلة.

تنهد يوسف بعمق ثم نظر لسيزار قبل أن يضع السماعة:

سلوك عدواني سلبي ليدير سيزار رأسه متعجبًا كأنه فهم ما حدث، قفز يوسف من على مقعده قاصدًا المطبخ، انتهاء صوت الصريخ أعطاه شعورًا لا بأس به، جال بخاطره مشهد ذلك الضابط الذي سيجعل منه نكتة اليوم مع أصدقائه في القسم، وأصوات ضحكاتهم الهيستيرية وسط شهقات نابية من خياشيمهم مع ترديد أحدهم كلمة «عزيز عليا» مرارًا وتكرارًا، لكنه تجاهل الأمر وتمشى قليلًا ناحية الصالة التي يحتلها الصمت وبضع علبٍ كرتونية كبيرة مغلقة، علب كتب عليها جميعًا نبذة عن محتوياتها استعدادًا للرحيل ما بين لحظة وأخرى، ضغط على زر في الحائط لينير الصالة، ثم اقترب من علبة صغيرة مزركشة تبدو كعلبة مخصصة للحلي وتمعن فيها قليلًا، اكتفى سيزر بالوقوف مشاهدًا، نزل يوسف على ركبتيه وفتح العلبة في صمت، أخرج منها بعض الورق وساعة يدوية بدت قديمة وصغيرة للغاية و.. مسدسًا متوسط الحجم، فضي اللون ذا مقبض أسود، من النوع «Revolver»، حفر عليه كلمة «توروس» نسبة إلى الشركة المنتجة له أو «البرازيلي» كما كان يسميه

صديقه «العرباوي» وقتها، والذي أهداه له عندما كان يعمل في السياحة قبل احترافه للصحافة، ضغط على زر في أعلاه لينفتح جزء منه وتظهر الرصاصات لامعة ترجوه أن يطلقها متطوع ما، أدار خزان الرصاصات ليدور بقوة كما في أفلام «الكاو بويز» وأغلقه ثانيًا ثم نظر إلى المرآة الكبيرة التي على يمينه مصوبًا في تحدٍّ، عاقدًا حاجبيه متظاهرًا بالجدية:

«أي حركة هضرب في المليان!».

قالها برعشة واضحة في يديه، ترك ليديه حرية السقوط ثم نظر مجددًا لسيزار المندهش قائلًا:

- .. ماشتريتش؟!

عصر عضلات وجهه مجددًا وصوب بكلتا يديه بعنف ناحية المرآة محركًا المسدس في أكثر من اتجاه مهددًا جيشًا من الأعداء الافتراضيين، ثم قالها بثقة ولكن بوجه أكثر حدة «اللي هيتحرك هيشوف مخه على الأرض».

ارتعشت يداه بعنف مجددًا ثم نظر لسيزار مضيفًا:

- تأثير مؤمن؟

لم يرد عليه سيزار واكتفى بإخراج لسانه ليكمل يوسف:

- سيزار! جاملني!

رد عليه سيزار بنبحة تجاهلها يوسف ثم أكمل فاحصًا المسدس في إعجاب:

- أنا رأيي نديه لمؤمن بدل ما انتحر بيه عشان عمري ما استخدمته..تتفق معايا؟

ثم تجمدت عيناه كثيرًا وملأت الصدمة وجهه ليقولها في فزع بخيبة أمل:

- الجمبري!

رن جرس الهاتف الأرضي للمرة الثانية مقاطعًا الفيلم الكارتوني الشهير «عائلة سيمبسون» في التلفاز الكبير الذي انعكست أضواؤه على وجوه الصديقين الغارقين في النوم، أفاق سيزر متعجبًا من فوق فخذ يوسف الأيسر والذي اعتبره وسادة جيدة لرأسه، حاول الانسحاب بهدوء من تحت يد يوسف اليسرى الممسكة بالريموت كنترول، في حين انشغلت يده اليمنى بطبق عميق به ملعقة وبقية حساء بارد، أفاق يوسف من غفوته في الرنة الثالثة ليحرك رأسه في دهشة ناحية الصوت، أشاح بعينيه نصف المغلقتين مجددًا تجاه التلفاز وأنقذ الحساء من السقوط بمعجزة، ثم توجه للهاتف مسرعًا:

-ألو..

قالها بصوت محشرج بعدما رفع السماعة.

- آسفة! أنا صحيتك؟

رد صوت ناعم للغاية.

-لا عادي، ماكانش المفروض أنام دلوقتي.

تفحص ساعته الفضية في هدوء والتي أشارت للواحدة بعد منتصف الليل.

تابعت المتصلة بنفس النعومة:

- شو أخبارك؟

- أنا كويس! مين معايا؟

قالها يوسف ماسحًا وجهه بيده اليسرى محاولًا الاستيقاظ من تلك اللحظة التي تتوسط النوم والواقع.

- مش فاكر صوتي؟!

- الحقيقة إني مش فاكر صوتي أنا شخصيًّا، وده لحد ما اشرب قهوة على الأقل.. العقل بيحتاج وقت عشان يعادل مستوى الأكسجين ويرجع لنفس كفائته قبل النوم..أأأ.. بصي ماتحاوليش تركزي في أي كلمة بقولها!

خبط برفق على وجهه كي يستيقظ، ثم أغلق التلفاز، ضحكت الفتاة ثم أردفت:

- واضح إني عمري ما هعرف أكسبك، حتى وانت نايم، اجبلك قهوة من لاتشانس.

- راندا؟!

- بالظبط كده.

- إزيك؟ مفاجأة جميلة!

- مش هتسألني جيبت رقمك منين؟

- خلينا نقول الجرنال!

- لا أنا كده هخاف منك، انت شو يعني! سريع أوي.

قالتها بلهجتها المميزة.

- انت مش مصرية؟!

- آه بابا سوري، انت خدت بالك ؟

- طبعًا.

رد يوسف متعجبًا من سؤالها، فلهجتها غير المصرية تبدو أكثر وضوحًا من حاملة طائرات في الخليج، أردف بعدها:

- حاسس إنك عايزاني في حاجة.

- عايزاك في شغل.

- شغل؟

- سمعت عن الحادثة بتاعة المرج؟

- جريمة مصنع الملابس؟!

- أيوه..بالظبط.

- غطيتها بنفسي في الجرنال، بكرة هينزل تعليقي عنها.

- طيب كويس جدًّا، إحنا محتاجينك في القناة.

- أنا؟!

- أكيد، إلا لو في حد تالت معانا على الخط يا مايسترو..

ردت بدلال واضح.

- بس أنا عمري ما طلعت في التليفزيون.

- الموضوع سهل جدًّا فوق ما تتخيل.. والتليفونات معظمها تبعنا وهنكون متفقين على الأسئلة وكل شي منيح، ماتخافش، وفيه مبلغ كويس ليك على فكرة.

- مش قصة فلوس..بس...

- يوسف!.هتكسفني ولا شو؟

صمت يوسف لثانيتين محاولًا التفكير في عرضها المفاجئ لتضيف:

- بالمناسبة.. لما سألت عن رقمك، زميلك قال لصاحبه(رقم الدكتور كام؟)، هما ليه بيقولولك يا دكتور في الجرنال؟

- قصة طويلة.

- أنا فاضية طول الليل.

- خلينا نحكيها لما نتقابل.

- ممم.. أوك! بس أنا مش هنسى أسأل.

- هجاوبك قبل ما تفتكري تسألي.

تبادلا السلام وأغلق الهاتف بعدما توصلا لمكان وميعاد المقابلة، أصرت هي على المقابلة في مقهى شهير بالزمالك من النوع الذي يكرهه

يوسف ولكنه وافق على أي حال لينظر لسيزار الواقف على قدميه متحفزًا فوق الكنبة قائلًا بنظرة بها كثير من البهجة:

- شكلنا هناكل جمبري كتير..

قذف يوسف بوجهه في حوض من الماء بارد لعله يفيق، ثم أخرج زجاجة شعير من ثلاجته واستلقى أمام حاسبه الأمين، أخرج مفكرته الصغيرة ونسخ منها مقالة قد كتبها مسبقًا عن الحادث:

«التحليل النفسي لجريمة المرج المروعة»، حفرها على برنامج «Word» ليعاينها قبل إرسالها لبريد «البطريق» الإلكتروني، كتب فيها:

«لحظية الجريمة»

أعلم أن الحديث عن أي شيء آخر بخلاف «جريمة المرج» سيفتح عليَّ وابلًا من النيران الصديقة من قراء «اليوم المصري» عمومًا، و«خيوط ودلائل» خصوصًا، لذلك قررت أن أكفي نفسي والمؤمنين شر القتال.

إن أهم ما يميز جريمة المرج المروعة - في نظري - هو الجزء النفسي، وقد تكون تلك هي الجريمة الأولى التي أشاهد بها طابعًا نفسيًا معقدًا في العشرين سنة الأخيرة في المحروسة.. لماذا؟ سيحتاج الأمر بعضًا من الشرح..

المنطق يقول: إن الكثير ينظر تجاه مرتكب تلك الجريمة كشيطان مريض جاء ليعيث في الأرض فسادًا، لكنه -حتى وإن كان شيطانًا يمتلك أسهمًا لا بأس بها في كل أنواع المرض النفسي- فإنه في النهاية رجل

يمتلك دوافعه الخاصة، والدافع في بعض الجرائم قد يكون أكثر غرابة من الجريمة ذاتها.

لقد حير علماء النفس العديد من الجرائم السادية في العالم أجمع، فالتاريخ لن ينسى سفاح كاليفورنيا الشهير الذي أصاب العشرات من المارة وحصد منهم الكثير لمجرد أن أحدهم قد سرق باب حديقته الصغيرة، أو ذلك البريطاني الذي ذبح صديقه والتهمه فجأة بدون سبب مقنع، وماذا عن التوربيني مغتصب الأطفال وقاتلهم في مصر؟ أو حتى جرائم الكونت دراكيولا السادية؟ والكثير والكثير من الأحداث المبهمة دوافعها في شتى بقاع البسيطة وأزمانها، لكن شيئًا ما يربط بينها جميعًا، لحظية الجريمة.

علماء الجريمة يعولون دائمًا على فكرة واحدة كانت سببًا في حل الغالبية العظمى من الجرائم، اللحظة التي يفقد بها مرتكب الجريمة سيطرته على أعصابه ويفعل جريمته، تلك اللحظة لا يفكر فيها القاتل في بصماته، ولا السارق في كاميرات المراقبة، وحتى لو فكر كلاهما في تلك التفاصيل الحية، في وقت تنفيذ الجريمة فإنه يفقد معظمهم صوابه ويترك أطنانًا من الخيوط التي يلتقفها رجال المعمل الجنائي بصدر رحب.

كل هذا تفتقده جريمة المرج المبهمة، فلحظية الجريمة هنا غير متوفرة، لقد خطط شخص ما لكل شيء، شخص أراد أن نرى مسرح الجريمة كما نراه الآن، شخص لا أعتقد أنه يمتلك من الحظ السعيد ما أدى به لارتكاب جريمة شبه كاملة، لكنه امتلك التخطيط.. التخطيط

لكل ما حدث، الحقيقة أننا لم نجد بالفعل أي بصمات أو دليل واحد عن مرتكبها، تلك الجريمة لم تكن وليدة اللحظة أو الصدفة..لكنني على يقين أن رجال المباحث سيجدونه في النهاية، سواء بمساعدتي أو بدونها.

الجدير بالذكر أن الدافع النفسي لعديد من جرائم النفس قد يكون صحيحًا حتى وإن كان مبهمًا، بينما تبدو لي جريمة المرج أكثر عمقًا وغموضًا من مثيلاتها، إن ما حدث في تلك الليلة في المرج لمجند الأمن المركزي البريء ما هو إلا بداية محتملة لسلسلة أخرى من جرائم أصعب وأكثر قبحًا، يعلم الله وحده إن كانت ستكتمل، أو أن رجال القانون سيصلون لمرتكبها في الوقت المناسب.

يوسف أصلان

* * *

(6)

تعالت طرقات الباب الأبيض القديم في الدور الثاني من مبنى مباحث أمن الدولة بالجيزة، رد مؤمن البحيري بصوت واضح معلنًا السماح للطارق بالدخول ليدخل سليمان، ألقى بسلامه الميري لرئيسه في صمت والذي بدا منهمكًا في هاتفه الجوال، تثاقلت رأسه على كفه اليمنى التي اشتعلت بين أصابعه سيجارة مارلبورو لا تزال بكرًا رشيدًا، نظر مؤمن لسليمان الثابت كالصنم لا يتحرك في دهشة قائلًا:

- إيه يابني في إيه؟

- معاذ بيه بره وعاوز يجابل سيادتك.

قالها سليمان بحزم ليبتسم مؤمن محاولًا عدم الضحك، سحب نفسًا من سيجارته ثم أجابه بقليل من الدهشة مبتسمًا:

- هاته يا سليمان!

قام سليمان بالتحية نفسها مرة أخرى وخرج ليدخل بعدها بثانيتين شاب في نهاية العشرينيات قصير القامة، أسمر البشرة ذو شعر قصير، مفتول العضلات يمتلك جسدًا ممشوقًا للغاية وعينين سوداوتين صغيرتين ورأسًا ذا جبهة عريضة يرتكز على كتفين عريضتين، إضافة إلى صدر مشدود بطريقة غير مبالغ فيها، يرتدي تيشيرت وبنطالًا جينز

أسود ضيقًا يلامس نهايته حذاء رياضيٌّ فاخرٌ ناصع البياض، تعلو وجهه ابتسامة كبيرة، لم يكن سوى معاذ عبد الحق صديقه القديم، تقدم بخفة ناحية مؤمن الذي هب واقفًا ليعانقه في عنف.

- كل ده عشان تاخد أجازة؟!

- معلش..كان شهر ظالم.. حاجه بنت مره.

- ما قولنا نجيب واسطة أجيبك جنبي القاهرة، انت اللي قولتلي في واسطة عندي وهظبط الكلام ولا نيلت أي حاجة.

- مانا جيبت واسطة يابني بس ده كان مشروع حرب أعمل إيه، ما انت عارف، الهمبكة في الجيش ليها حدود برده.

علق معاذ ناقرًا فوق علبة سجائره لتخرج إحداها ويلتقفها بأسنانه.

- إيه الجديد؟

- ولا أي حاجة، نوم وأنتخة وروتين ابن جزمة كل يوم زي اللي قبله، أوف!. صحيح، فكرتني، هحكيلك حوار جامد أوي.

قالها معاذ مشعلًا سيجارته بقداحته «الزيبو» الفاخرة.

- غني يا منير!

- من أربع تيام كده عسكري عندنا في الكتيبة، واد سُفَيِّف كده وغلبان.. اتخانق مع سواق بيجو والسواق ضربه هو وواحد صاحبه، المهم الواد رجع الكتيبة وحكى لقائد الكتيبة على اللي حصل.

- ونيلتوا إيه؟

- مش هتصدق! فيلم أكشن، طلعنا كلنا في مهمة واحدة بس، القائد قالنا ربع ساعة ويكون عندي ابن الو «..» ده، بالظبط يابني تلت ساعة وكان الواد وصاحبه والعربية ذات نفسها موجودة في الكتيبة، مش عارف أقولك عملنا فيه إيه..الواد كل ضرب بدينه هوه وصاحبه، وخدناهم عند قائد الكتيبة وقطعنا قمصانهم وغمينا بيها عنيهم والكل بيآجر فيهم، في الآخر خليناهم يركعوا على ركبهم وقائد الكتيبة ببوز الجزمة و«دبيب» في جنابهم لما العيال عيطت دم، وواحد فيهم أغم عليه، مش عارف أقولك يابني، إترفعوا.. إترفعوا بجد.

- والعربية؟

قالها مؤمن مبتسمًا ابتسامة تنم عن انتشاء.

- ههههه، كل الكتيبة اتعلمت عليها السواقة.

- لا كده آمين، رجالة، مين ابن المجنونة اللي يضرب عسكري جيش في البلد دي؟

- إتخرشموا..

علق معاذ منتشيًا.

- وانت الدنيا عاملة معاك إيه؟ سمعت إن فيه ترقية قريب.

- ترقيتي موقوفة.

- ليه بس كفالله الشر؟

- حوار كده مالوش لازمة..

- ماتنقطنيش بقى.. قول!

- حوار كده بيني وبين عبد الجليل..مارضيتش أخلص مصلحة طلبها مني.. مصلحة شمال.

- وانت إيه اللي مخليك تدخل شرطة أصلًا مادام انت عايش في دور كمال الشناوي كده؟

- إتريأ يا روح أمك إتريأ!

- بقولك إيه! انت اللي اخترت تكون ظابط، وقبلت تعيش في أكتر مؤسسة فاسدة في البلد وأقنعتنا انك هتجيب حق أبوك، كنت فاكر إنها هتبقى زي الأفلام؟ يابني إحنا مش في الجنة.

- ما تفتحش الحوار ده يا معاذ الله يكرمك!

- ماتزعلش يا عم أنا قلبي عليك،، مؤمن!، حاول تمشي الليلة معاهم عشان تعرف تعيش.. إسمع مني!

- أنا مافيش حد هيمشيني على مزاجه، وحقي وحق أبويه هاخده تمًّا.

- يابني الحج – ربنا يشفيه- اتعض من ناس تقيلة أوي في البلد، وكل ما هتخلص من واحد فيهم هتلاقي وراه اللي أشد منه، انت كده مش هتخلص.

- قولتلك مالكش دعوة يا معاذ بالحوار ده! أقطم بقى!

- براحتك يا عم، أومال فين يوسف صحيح؟

مرت عشر دقائق، استأذن سليمان للدخول مجددًا ليعلن وصول يوسف والذي دلف متعجلًا حاملًا شنطته الكروس السوداء يلتقط

أنفاسه المتسابقة، ما أن رأى معاذ حتى عانقه بسعادة لم تخفها عيناه، قال معاذ مداعبًا إياه:

- أخيرًا قابلت المحقق أبو 80.000 جنيه.

- هممم!.. وأنا قابلت وزير الدفاع المحتمل.. اختفيت فين؟

-أكيد كان بيدور على البيضة المسلوقة.

علق مؤمن ساخرًا.

- انت بتقول فيها، أنا من ساعتها بشُك في كل البيض اللي في الدنيا.

قالها معاذ ملوحًا بيده:

- ليه مش عايز تصدق؟

سأل يوسف:

- أنا حاسس إنه كان حظ.

- مكانش حظ.. القشرة كانت الخيط.

كان رد يوسف الذي لم يلتفت.

- إزاي عرفت ان........

- إزاي انت ماخدتش بالك؟ إزاي حيلة بدائية تدخل على المباحث؟ هي دي الأسئلة المهمة.. والحل.. الحل دائمًا في المعطيات.

قالها بنفس مستوى الصوت الهامس، وعاد ببصره لوجهي الصديقين.

يعني انت فعلًا عرفت انها اللي سرقت الخاتم من قشرة بيضة؟! ده اللي انت عايز تقنعني بيه؟

مؤمن! شوف المعطيات بعقلك.. مش بعينك، لما معاذ كلمني يومها وعملنا لسته لكل المشتبه فيهم.. كان في نهايتها الفلبينة.. بناء على طلب مدام ناهد، لكن بالنسبة لي.. اللسته كانت متساوية من حيث الأهمية أشاح بنظرة مسترجعًا ما حدث في تلك القضية، كأنه يراها أمامه، ليرد عليه معاذ بتعجب:

- بس «ربيكا» بقالها عشر سنين معانا.

- الدوافع ممكن تكون موجودة مع نفس الشخص لسنين طويلة.

- ليه مش الجنايني؟ ليه مش أي حد تاني في الفيلا؟ ليه مش العمال اللي جُم قبل سرقة الخاتم بأسبوع؟

تساءل مؤمن بطريقة دفاعية.

- كل ده كان ممكن.. كلهم كان ليهم فرصة للوصول لأوضة النوم لمدة دقيقة على الأقل، أنا بدأت بالأسهل.. ده غير أنها كانت هتسافر خلال ساعات.. كان لازم اخرجها بره القايمة بأسرع وقت ممكن.

- وإزاي اتأكدت انها هي.

- زي ما قولت.. كانت هتسافر في خلال يومين.. معملتش حسابها ان الخطة هتكشف قبل ما تسافر، اعتمدت على رصيدها من الثقة عند العيلة طول السنين اللي فاتت.. أنا لقيت قشرة طولها 2سم مرمية

لوحدها تحت حوض المطبخ.. مع الوضع في الاعتبار أنها ماكانتش بتسيب ذرة رمل في أي مكان في البيت.. القشرة دي اتنست في لحظة توتر.. لحظية الجريمة.

- وعرفت إزاي خدعة الخاتم اللي في البيضة يا كلومبو؟

علق مؤمن بسخرية.

- خدعة أندلسية قديمة كان بيستخدمها الخدم عشان يسرقوا أسيادهم.. كان بيكسروا بيضة – أو أكثر – من الجنب وبعدين يسحبوا منها محتواها بشرط ان هيكل البيضة الخارجي يفضل زي ما هو.. بعد فصل الصفار عن البياض يرجع البياض مرة تانية ويتحط الخاتم في المكان اللي انكسرت منه البيضة.. في النهاية بيتلزق الجزء المكسور بأي طريقة بتتغلي البيضة بعدما تتقشر هيبقى عندنا بيضة جاهزة للأكل تمنها 80 ألف جنيه.. واسمه فلومبو!

- مش هاخبي عليك.. آخر حاجة كنت اتوقعها اننا نلاقي الخاتم جوه تلاجتها.

- يا عم انت رخم ليه؟ ما الراجل أسعفنا يومها وأمي عماله تقول فيه شعر، ولا انت مضايقه علشان بيعلم على المباحث.

علق معاذ.

أردف مؤمن:

- ليك حق تهشتك فيه.. ما هم 80 ألف مش لعبة.

تمتم يوسف شاردًا لنفسه:

- البيض المسلوق بقى عمله نادرة.

- بتقول إيه؟

تساءل مؤمن.

غير يوسف حديثه بسرعة بعدما أفاق من غفوته متسائلًا:

- هو أنا اتأخرت عن الحفلة؟

- مش كتير.

- أنا جاهز.

في غرفة مجاورة لمكتب مؤمن تواجد جنديان من قوة الأمن المركزي يرتديان زيهما الأسود التقليدي، جلسا أمام منضدة معدنية كبيرة في غرفة خالية تمامًا إلا من لمبة مدلاة من سقف قريب، وزجاج مرآة يحتل أحد الحوائط الأربعة، وضع أحد المجندين غطاء رأسه الميري بجانب يده على الطاولة في حين همس له الآخر بشيء في أذنه، اقتحم مؤمن الغرفة فجأة وبدون إنذار مسبق، خلع معطفه الكلاسيكي كاشفًا عن حزام جلدي أسود يلتف حول صدره يحمل صديقه الميري، ألقى بمعطفه الداكن حول كرسي جلدي وضع خصيصًا له، بينما استقر يوسف في غرفة ثالثة مجاورة لغرفة التحقيقات، أمامه وجدت سماعات مثبتة بالحائط وبكرة لتعلية الصوت، وشاشة زجاجية يرى من خلالها ولا يُرى، شاشة بالنسبة إلى الغرفة المقابلة مجرد مرآة.

- شربتوا حاجة يا رجالة؟

قالها مؤمن مشعلًا سيجارته باستهتار من دون أن يرمقهم بأي اهتمام.

- والله يا باشا ماحد عبرنا..

رد أحدهم مبتسمًا بلهجة يغلب عليها الطابع الصعيدي.

رمقه مؤمن مبتسمًا محركًا رأسه إيجابًا، ثم سأله مبتسمًا:

- إسمك إيه؟

- رجب يا بيه..

- أسألك تجاوب إجابة كاملة يا رجب!

قالها بهدوء شديد.

تحولت ابتسامة رجب لصدمة بعدما شعر بأن عاصفة قد تهب بوجهه في أي لحظة ليجيب:

- رجب عبد الله محمود يا بيه.

أشار مؤمن لزميله ذي البشرة الداكنة والطول الفارع مضيفًا:

- نفس السؤال..

- محمد أمين البكري سعادتك!

- الهواري بيقول عليكوا من أحسن رجالته.. عايزين نبقى حلوين عشان نروحكوا بدري مع الشكر.. تمام؟

- أأمرنا يابيه.. هو حصل إيه لا مؤاخذه؟

- تاني غلطة يا رجب! غلطة كمان وهوديك الأنتريه عشان تاخد الواجب، أنا بس اللي بسأل هنا.. أمين؟

قالها مؤمن رافعًا حاجبه الأيسر في تهديد واضح..تدخل صديقه منقذًا الموقف:

- أسفين يا سعادة البيه، مايقصدش والله.

-جدع يا حماده! تعجبني،،خد سيجاره!

قذفه مؤمن بسيجارة ووضع ولاعته أمامه على الطاولة المعدنية ليلتقفها الأخير ويشعل سيجارته وسط ذهول من صديقه الذي شعر بنفسه يتدلى فوق حافة سفح بمفرده.

- من يد ما نعدمها جنابك.

وضع محمد الولاعة مجددًا برعشة على الطاولة المضاء نصفها، لمح مؤمن شيئًا فوق ظهر يده، بدا كجرح قديم، أطلق زفيرًا رماديًا وسأله:

- منين الجرح ده يا حماده؟

- آه!. ده جرح «جديم» جنابك، كنا بنتعامل مع اعتصام السودانيين وعيل منهم كان شايل حته «جزازه» عورني بيها بس عملنا معاه الصح يا بيه بقى، الله يسهله.

- شكلك خيطه!

علق مؤمن مبتسمًا لاهيًا بولاعته..ليرد المجند بتهكم:

- والله يا بيه ما فضل منه حاجة..في جنة الخلد إن شاء الله.

- آه.. وانت يا رجب ناشف كده زي حمادة ولا؟

- ده أنشف مني سعادتك..

علق محمد بوجه مستبشر للغاية نيابة عن صديقه المرتعد.

-أنا سألتك يله؟!!

صاح بها مؤمن ثم أطفأ سيجارته فوق المنضدة.

- آسفين يا بيه آسفين!. آسفين يا بيه!

قالها رافعًا كف يده في حركة دفاعية.

- فاضلك غلطتين! اتكلم يا رجب!

- أنشف منه بعون الله يا سعادة الباشا، لو شرفتنا في أي مظاهرة هتشوف سعادتك بنعمل إيه.. ماحدش بيروح سليم.

- جدع يلا يا..رجب.

قالها مؤمن وطقطق أصابعه مضيفًا:

- وأسعد.. كان أنشف منكوا ولا أطرى؟

رمق رجب صديقه بصدمة ثم بلع ما استطاع من ريقه وأردف:

- أسعد كان أنشف واحد فينا يا باشا - الله يرحمه - هواري بيه كان يقول عليه يفض بلد لوحده، عشان كده كان دايمًا في الصف الأولاني حضرتك.

-الكلام ده صح يا حمادة؟

تساءل مؤمن موجهًا حديثه للآخر.

- صح يا بيه! هو مات إزاي سعادتك؟

رمقه مؤمن بنظرة نارية، ثم أخرج جهاز اللاسلكي الخاص به من جانبه الأيسر وضغط على زر به قائلًا:

- جهزلي ترابيزة في الأنتريه والنبي يا دياب، آه لشخصين، ماشي طقم كمنجات مايخسرش، لا بلاش الحلو، نشوف هيتعشوا الأول ولا لا..

صفع رجب صديقه في كتفه الذي اعترت وجهه الدهشة متمتمًا بعبارة سب انتهت بـ«هتودينا في داهية»، ثم سيل من الاعتذارات لمؤمن تجاهلها الأخير، حرر ساعده من الساعة وسأل سؤاله بعدما عاد بظهره للوراء متفحصًا سقف الغرفة:

- كان ليه عداوة مع حد يا رجب؟

- أبدًا يا باشا، ولا عمرنا سمعنا انه إتعارك بره الشغل.

- إمممم.. ماشي.. طبعًا انتوا عارفين إن المباحث عارفة حاجات كتير، واللي بيقول معلومة غلط بيروح فين؟!

- عارفين سيادتك.

اقترب منه مؤمن وصمت لثانيتين ثم أضاف مربتًا فوق وجهه:

- جدع يا حمادة!

اعتدل قائلًا لرجب:

- أبوك صحته أحسن بعد العملية يا رجب؟

- عايش بحسك يا سعادة باشا.

- وأنت أخوك عمل مصالحة على حتة الأرض اللي بنى عليها يا حمادة ولا لسه؟

- خلصت يا باشا الشهر اللي فات جنابك.

- آه.. طيب، روحوا انتوا يا رجالة! وأي حد فيكوا يفتكر حاجة يجي يقوليي.. وخدوا بكرة أجازة أنا كلمت هواري بيه ووافق.

قالها مؤمن واقفًا مرتديًا معطفة بسرعة يحسد عليها، ثم أعاد ساعته لمركزها ومعها اللاسلكي، وهم بالرحيل.

- ربنا يكرمك ويعزك يا بيه.

علق محمد مستبشرًا، بينما نادى زميله، مؤمن:

- يا باشا!

توقف مؤمن الذي رمقه متعجبًا، ليضيف رجب:

- كانوا مسمیينه في الدفعة «شاكوشة» يا باشا! ماكانش بيسيب وراه عضمة سليمة..

هز مؤمن رأسه متفهمًا، ثم أخرج سيجارة وأشعلها.. نفخ زفيرًا واحدًا منها ثم ناولها إياه.. ورحل.

في الخارج كان يوسف في انتظاره، مشى بجانبه ثم قال بثقة:

- القوة الخارقة كانت عندك قبل ما تعرفني؟

- تريأة كمان وهوديك الأنتريه.

رد مؤمن في طريقه سخرية.

- كان نفسي أصدق إن فيه أنتريه..

-وأنا كمان،..المهم انت شاكك في اللي أنا شاكك فيه؟

- ممكن..

- لازم نعرف اشترك في مظاهرات إيه ونجيب أسامي المصابين، هتبقى لفة بنت كلب. قالها مؤمن في طريقه لمكتبه من دون أن ينظر ليوسف.

- نوح ممكن يقوم بيها.

علق يوسف متفحصًا ساعته.

- أكيد! يلا انت عشان تلحق التصوير، هبقى أعدي عليك أنا وموزه.

- سلام!

مشى يوسف بضعة أمتار قبل أن يستوقفه مؤمن:

- يوسف! هو خيّط عنيه ليه؟!

صمت يوسف لوهلة ثم رد:

- كان عايزه يشوف حاجه..

قالها ومشى خطوتين قبل أن يتوقف ويضيف:

- أو ما يشوفش..

ثم اختفى.

عاد مؤمن لمعاذ ثم جلس مضجرًا، أخبره معاذ بأن هاتفه ظل يرن لعشرات المرات، تفحص هاتفه ليجد عشرة اتصالات مفقودة من والدته، ألقى بجسده على كرسيه المريح وسأل معاذ عن ميعاد مناسب للخروج قبل أن ترد والدته على اتصاله، صمت لثانيتين أو أكثر مستمعًا، وبدا كمن جفت الدماء في عروقه وفقد القدرة على النطق عندما تجمدت عيناه للحظة، حاول معاذ الاستفسار بقلق:

- في إيه؟

نظر إليه مؤمن بصدمة وبلع ريقه بصعوبة شديدة، ثم وضع رأسه بين كفيه للحظات ومسح بأصابعه على عينيه بحركة سريعة، كأنه يريد أن يستيقظ من كابوس ما، قالها بصعوبة بعد صمت:

- بابا دخل في غيبوبة..

* * *

(7)

اخترقت رنة جوال يوسف التقليدية الهدوء المختلط بالموسيقى الكلاسيكية في مقهى سيلينترو في الزمالك ليظهر اسم وليد أمامه بجانب كوب قهوة دافئ، ضغط يوسف على زر في هاتفه ليتحول إلى الوضع الصامت ثم أكمل رشف المزيد من قهوته الساخنة، تفحص ساعته الفضية التي تجاوزت الثامنة والنصف ودقيقتين ليترك زفيرًا عميقًا يخرج من صدره محملًا بكثير من الضيق والملل، أطلق هاتفه نغمة قصيرة تعبر عن وصول رسالة من نفس الشخص قرأها يوسف:

- شفتك وأنا ماشي جنب الكافيه حبيت أسلم عليك، سلام.

التفت يوسف في صدمة حوله محاولًا البحث عن وليد من خلال الزجاج ليلمحه بعيدًا، ابن عمه الذي يراه قليلًا وينساه كثيرًا، في الخامسة والثلاثين من عمره، أسمر اللون نحيف الجسد تتدلى خصال شعره الناعم فوق رأسه، يمتلك عينين رماديتي اللون يكسوهما الوهن والسواد يعلم يوسف من أين حصل عليهما، يمتلك قدرًا كافيًا من الوسامة والكاريزما لحصوله على زبائنه من الضحايا، كان وليد مثالًا حيًّا للعار الذي يلاحق ذكرى عائلته الكريمة كالشبح، فسجله الحافل بحوادث النصب والسرقة قد فاق الحد، مدمن لكل أنواع الكيف بدءًا بالخمور انتهاءً بالمخدرات، وليد كان الشخص الذي يتمنى جميع أفراد عائلة أصلان لو أنه لم يولد.

بدا كلاسيكيًّا تلك المرة على غير عادة، رابطة عنق طويلة ذات لون رصاصي داكن تصل لحزامه، تبدو كبيرة الحجم للغاية كأنها أنثى كوبرا مخدرة وتحتها قميص وردي اللون رخيص الثمن.

فكر ساعتها يوسف أن الشائعة الرائجة تلك الأيام أقرب للحقيقة، فقد سمع من أحد أقربائه أن وليد قد حصل على عمل في مكتب محاماة شهير وسيئ السمعة في نفس الوقت، يمتلكه أحد وحوش مجلس الشعب ممن يملكون دروعًا حمراء ضد كل المسائلات.

ألقى وليد بسيجارة قد فرغ منها في الأرض، ونظر بعينيه الشاردتين حوله في هدوء وهم بالرحيل ممسكا بشنطة سوداء سيئة الصنع كبيرة الحجم، ترك يوسف مكانه بسرعة محاولًا لحاقه قبل أن يذوب وسط الزحام، لكن حافلة مسرعة فصلت بينهما حتى اختفى هدفه. وعاد يوسف مجددًا للمقهى الراقي يفكر في ابن عمته الذي لا يبدو أنه قد يتغير يومًا، جلس في مكانه مرة أخرى لربع ساعة.. فاجأه صوت ناعم بعدما استسلم للصمت:

- اتأخرت عليك؟

- ولا يهمك.

- معلش حصلت ظروف في الـ«location» والمخرج طلب مني...

- حصل خير.

- لا شكلك مكشر وزعلان.

- مافيش بينا زعل.. خلينا نتكلم في حاجة تانية.

- ممم براحتك..إتفضل!

- إيه ده؟

علق متفحصًا ورقتين وضعتهما أمامه.

- دي الأسئلة، بالنسبة للناس اللي هتتصل معظمها تبعنا، في النص في تليفونين تلاته كده مش معانا كنوع من المصداقية والجو ده، لو حصل أي حاجة يارا هتنقذك والـ«Air piece» برده هيقوم بالواجب.

وماتزعلش بقى، زعلك وحش أوي.

- اعتبري مافيش حاجة حصلت، الفيلم كان كويس؟

- يعني.. قالتها ثم تداركت شيئًا ما واستفسرت:

- فيلم إيه؟

- انت كنتي في السينما، مش كده؟

- ممم!.كنت بتراقبني ولا شو؟

- الموضوع أبسط من كده.

قالها بابتسامة ثم أكمل قراءته للورق مضيفًا:

- فيه بواقي فيشار.. حباية قطرها 3 مللي بين شعرك وقعتها زميلتك وهي بتعدي عشان تقعد جنبك، الجزمة اليمين مش ملبوسة كويس، فيه ناس بتحب تريح رجليها لو هتفضل في مكان لفترة طويلة من غير ما حد يشوفها زي العربية مثلًا.. أو السينما، ده غير إن الساعة تسعة ونص..

معظم السينمات عندها حفلات بتخلص من تمانية ونص لتسعة.

- ماكانتش واحدة.

- فاتتني دي.

- إزاي عرفت؟

- أنا قولتلك.

- انت مش طبيعي.. بس تجنن.

- كان فيلم ممل صح؟

- شوية، بالمناسبة.. كنت عايزة أسألك سؤال.

- كنت في طب.

- شو؟!

- كنت هتسأليني عن سر كلمة «دوك» بتاعة الجرنال.. صح؟

-.. وكمان بتقرى العقل؟

زادت ابتسامة يوسف لتحتل نصف وجهه في صمت ليكمل متجاهلًا السؤال:

- دخلت طب، نجحت 4 سنين وفي نهاية السنة الخامسة اترفدت وحولت آداب.. اتخصصت في علم النفس.

- ليه ده كله؟

- رأيي في طريقة تفكير عميد الكلية ماعجبهوش.

- بس منشان هيك؟.. حرام عليه!.. شو ها القسوة يعني؟!

قالتها راندا بوجه متأثر لا يخلو من الإثارة.

- راندا!. مش كل عمد الكليات هتقبل وصف «كلب براس فرخه».

انفجرت راندا ضاحكة ثم سيطرت على ضحكاتها مضيفة:

- يا الله!! انت مو طبيعي.. وعمتو سابتك تسوي هيك؟

- عمتو؟

- أقصد طنط، مامتك زي ما بتقولوا.

- ماكانتش موجودة ساعتها.

قالها يوسف بوجه واثق وأشاح بنظرة بعيدًا.

استدركت خطأها وأكملت:

- هيا طنط؟!

- أيوة.. من وأنا طفل.. هي ووالدي.

- أنا آسفة يا يوسف..

قالتها ممسكة بيده اليسرى.

ثم مرت لحظة من الصمت اكتشفت فيها راندا أن يدها مازالت معلقة فوق كفه اليسرى لتتركه في هدوء، حاول يوسف مفاداة الحرج بتغيير الموضوع.

- بتحبي شغلك؟

- يعني.. انت بتحب شغلك؟

تجمد يوسف للحظة وتساءل:

- أنهي شغل؟

- أي شغلانة من الاتنين..

صمت لثانيتين قضاهما في تفكير عميق ليرد:

- الثالثة.

- تدارك يوسف دهشتها قبل أن تستفسر وسألها متفحصًا ساعته الفضية بهدوء:

- معاد التصوير إمتى؟

- لحقت تزهق مني؟

- بالعكس، أنا بسأل عشان عايز أسألك سؤال مهم.

- لسه قدامنا.. ممم.. نص ساعة، إيه بقى السؤال المهم؟

ابتسم يوسف مجددًا ثم قال في هدوء:

- تشربي إيه؟

في الاستوديو بدا كل شيء كالمسرح، كلٌّ يعي ما يفعل، يارا قاسم تنظر للكاميرا بابتسامة مفبركة ليرد عليها المخرج بصوت عال: «Ecellent!»، يحيطها بعض الأشخاص كسرب سالمون جائع، الكل يمد يده بشيء ما، يد تحمل ورقة بها مقدمة يجب أن تطبعها في ذاكرتها لتطلقها على الهواء بعد ثوان، فتاة تحمل علبة عصير تخرج منها ماصة تستقر بين شفتيها المطليتين باللون الأحمر الفاقع، وآخر يضع بعض

المساحيق على وجهها الجذاب بفرشاة رقيقة، في حين جلس يوسف على بعد مترين ونصف فقط منها يتفحص ما يحدث بصمت، على يمينه وقف المخرج ذو الرأس الأصلع اللامع والدوجلاس الكثيفة، عاقدًا ساعديه فوق بطنه المنتفخ والواضح وضوح الشمس تحت تي شيرت قطني ضيق، تستقر أسفله ساقان رفيعتان يحتويهما جينز «ديرتي»، بجانبه وقفت راندا واضعة يدها اليسرى على كتفه، تصطنع الضحك على نكاته السيئة، لينظر بعدها في ساعته ثم يطلق العنان لحنجرته الجهورية:

– فاضل دقيقتين ونص عالهوا، كل واحد يخلص اللي في إيده!

تحرك بعدها سرب السالمون بسرعة الصوت، انتاب يوسف إحساس بأن الفتاة قد ترحل من أمام يارا حتى ولو مازالت تشرب من ذلك العصير، والغريب أنها – أي يارا– لم تعترض ولكن نظرت مبتسمة ليوسف الذي ابتلع قرص دواء قد يساعده على محاربة مخاوفه من الأماكن المغلقة، قاطعت شروده:

– جو جديد عليك؟

– لحد ما.

رد ماطًّا شفتيه.

– جاهز؟

– جاهز.

قالها محركًا رأسه بالموافقة.

– أتمنى تكون بتعرف تتكلم زي ما بتعزف.

ابتسم يوسف ابتسامة عريضة لتضيف بعدها يارا:

- لحقت تحفظ الإجابات؟

- حاولت.

- كويس، حاساك مش خايف من الكاميرا.

تنهد يوسف وقال بهدوء:

- مش هعرف اشرح وجهة نظري زي ما أنا عايز بس اللي يتشاف بعيون الجثث.. مش هيخاف لو يتشاف بكاميرا.

قالها محاولًا الابتسام لترمقه يارا بنظرة تحمل كثيرًا من الصدمة، صمتت ثانيتين ثم همت بقول شيء ما لكن صوتًا قاطعها:

- يلا يا أساتذة!!

صاح بها مساعد المخرج.

عادت يارا ببصرها ليوسف لتجده غارقًا في تقليب عينيه البريئتين في جوانب الاستوديو فاغرًا نصف فيه كأنه يرى إعجازًا علميًا، ثم تابعت قراءتها للورقة بعمق لمدة نصف دقيقة.

في تلك الثواني بدأت عينا يوسف تسجل ملاحظاتها عن كل شيء، بدأت بخطين وهميين رسما أسفل أربع طفايات سجائر ممتلئة بأعقاب السجائر المنحنية، كل منها يشبه أحدب نوتردام صغير.. الجميع يدخن هنا.. ثم سهم افتراضي ينتهي بعلامة تعجب يخرج من جورب أسود شفاف يتضح جزء منه، كان لرجل في الخمسينيات يجلس على كرسي،

كان ظهره منتصبًا يتحدث باهتمام مع شاب يحمل على كتفه بعض معدات الإضاءة، السؤال.. لماذا قد يرتدي رجل في الخمسينيات جوربًا شفافًا؟

و أخيرًا شاب يتظاهر بالعمل له شعر أسود غزير يغطي جزءًا من وجهه لم يستطع يوسف أن يلحظه، رسمت حول يده دائرة كتب جنبها «تظاهر»، حيث إنه كان يقوم بتركيب بعض الأسلاك الكهربية ثم يقوم بخلعها مجددًا استهلاكًا للوقت، كأنه عامل جديد لا يمتلك خبرة لا يريد أحدًا أن يلحظ أنه لا يعمل، حركته المتكررة بدت كخلفية نمطية لجمهور يقوم بتشجيع مقاتلين في لعبة قتال الشوارع في ألعاب الفيديو القديمة.

– خلي بالك!. ماتخليش التعلب ده يقلب عينه في المكان.. خطر!

قالتها راندا لتعيده مجددًا من رحلة صمته، ردت يارا بإعجاب:

– فعلًا ؟

– أكيد..عنية عندها.super powers

– ليزر أحمر مميت...

علق ساخرا ببطء متابعًا العامل الذي بدا في طريقه للخارج.

– مجرباه بنفسي.. حذرتك! أوعي تتخدعي في براءته.

دقيقة واحدة!. نجهز!

قالها المخرج ليكتشف بعدها يوسف أن 90٪ من الأشخاص قد غادروا الاستوديو بالفعل، أطفئت بعض كشافات النور، وتركز كل

الضوء ناحيتهما كبدلة وفستان في فاترينة بداخل مول، ليكمل الصوت القوي بالإنجليزية: «فايف.. فور.. ثري.. تو..».

زالت الدهشة من أعين يارا وابتسمت مجددًا، نظرت للكاميرا بثقة،

و..

بدأ الحديث:

«أهلا بكم مجددًا في برنامجكم.. صدى الحقيقة.. عقود مرت على مصر المحروسة بعد حادثة الإسكندرية الكلاسيكية الشهيرة، شاهدنا جميعا كيف اهتز المجتمع بأكمله لقيام الشهيرتين «ريا وسكينة» بأول عملية قتل ممنهج في تاريخ مصر الحديث، يسميها علماء الجريمة عمليات «قتل متسلسل»، أبطالها مشردون أو غير مشردين، متدينون ومنحلون.. لكن يجتمعون في عنصر واحد فقط حقيقي، مهما كان مرضه.. شهوة القتل، دعونا نتابع في الجزء الأول من حلقتنا اليوم، صدى الصدمة الجديدة والكابوس الذي استيقظ عليه المصريون أجمع في الثلاث أسابيع الأخيرة، حادثة القتل الصادمة بالمرج، والمصحوبة بطقوس أغرب، دعونا نرحب بالخبير والباحث الجنائي يوسف أصلان، الصحفي بجريدة اليوم المصري ورئيس قسم الحوادث:

- أهلًا وسهلًا..

- لو حبينا نبدأ يا أستاذ يوسف، هنبدأ منين؟

- من حادثة المرج طبعًا، لأنها..هي.. حديث الشارع حاليًا في مصر.. ولأنها صعبة.

- على أي أساس نقدر نقول الجريمة دي أصعب أو أسهل من غيرها؟

في حالات القتل بقيسها أنا -كخبير جنائي- بعدد الخيوط اللي سابها القاتل وراه، وغالبًا -أو نقدر نقول- 99٪ من المجرمين بيسيبوا أخطاء أو خيوط وراهم، المشكلة كلها إن فيه جزء من الخيوط دي مابيوصلش لحاجة، فبتنتهي الجريمة في الحالة.. أو بتتأيد ضد مجهول.

- خيوط دي بتفكرنا بعمود «خيوط ودلائل» الشهير طبعًا.

قالتها مبتسمة. ليبادلها يوسف بابتسامة مماثلة وكلمة شكر، تابعت:

- يوسف! واسمحلي أقولها بدون تكليف أنا سمعت إنك بتشتغل مع الداخلية.

- إتعاونت معاهم مرات قليلة..بطريقة شبه رسمية.

- وده في حد ذاته اعتراف بموهبتك، إحكيلي بقى بتساعدهم إزاي؟

- مش هقدر للأسف أتكلم في كل تفاصيل الشغل، لكن أنا حضرت ماجستير في السلوك المنهجي للمجرمين.

- بمعنى؟

- بمعنى بحاول أعمل بروفايل أو صفحة لكل مجرم، بيكون فيها الدوافع المحتملة ونوع الجريمة وطريقة تنفيذها.. ومع تشابه الخيوط اللي بيسيبها المجرم بقدر أقارنها بالبروفايل القريب منه.. وأقدر أتوقع رد فعله، وده بيساعد في بعض الجرايم.

- أنا أسمع عن حاجة بره إسمها «Profiler»، هل نقدر نقول إنك بتعمل حاجة شبهها؟

- تقريبًا.

- سمعت إنه كان ليك دور في التعرف على الشاب اللي قتل عيلته، ماحدش كان متخيل انه يطلع هو القاتل في النهاية.. أظن كانت صدمة أقوى من اللي بتحصل في الأفلام؟

قالتها ليوسف الذي شرد مستحضرًا مشهد ركضه في ذلك الممر المظلم.. وسقوطه أرضًا والبلاط البارد الذي صدم وجهه بعنف،، انتهى يوسف من شروده ورد:

- أكيد.. كانت صدمة..

ثم أردف:

- بالنسبة لقضية مصنع الكيماويات..أنا مجرد قولت وجهه نظري لصديقي، كابتن «مؤمن البحيري»، هو اللي قبض عليه، يعني أنا مجرد عامل مساعد.

- ده تواضع بقى!

قالتها يارا بإعجاب

- لأ.. دي حقيقة.

رد مبتسمًا ابتسامة أمريكية مصطنعة لترمقه يارا بنظره تعجب، بلعت ريقها وأردفت:

-طيب،، إيه رأيك لو رجعنا لـ«خيوط» جريمة المرج – زي ما بتحب توصفها– ومدى صعوبتها؟

- الجريمة زي لعبة الاستغماية، بتدور على حد مش شايفه، بس متأكد انه موجود، وبتستخدم كل الطرق الممكنة عشان توصله.. مع العلم إن الشخص ده ممكن يكون أي حد.. وفي أي مكان.. إحنا لسه في البداية..لسه الصورة ضبابية بالنسبة لحادثة المرج.

قالها يوسف بثقة.

- بس على حد علمي إن الطب الشرعي مش قادر يوصل لمرتكب الجريمة لحد دلوقتي.. وإنها هتتقيد ضد مجهول.

- زي ما قولت، جريمة صعبة، احنا بالفعل لقينا خيوط.. ولو افترضنا ان الخيوط رسايل، ممكن جدا الواحد يلاقي رسالة فاضية.. عموما لسه بدري الحكم على أي شيء.

- انت رحت مكان الحادثة بنفسك؟

- بعد استئذان الجهات المنوطة بالتحقيق، وشوفت بنفسي الجثة.

- وكانت إيه ملاحظاتك؟

- للأسف.. جريمة شبه كاملة، مافيش بصمات شخصية لأصابع أو أذن أو حتى لأحذية، حتى الـ«دي إن إيه» اللي لاقيناه يخص الضحية بس، كل اللي لاحظته هو الأرضية المتلونة بدم القتيل، والتشويه اللي حصل في وشه وصدره.

- إحنا عرفنا من مصادرنا إن التشويه اللي حصل في وش القتيل كان عبارة عن خياطة لعنيه الاتنين.

- ده جزء من الكل.

- كان في حاجة كمان؟

- فيه،، فيه أهم فقرة في العرض..الأرقام.

- أرقام إيه؟

- مش من حقي أتكلم كتير بدون إذن من الداخلية، بس اللي متأكد منه إنها رسالة -غالبًا - بيحاول القاتل إنه يوصلها لحد، مش للقتيل بس.

- حد زي مين؟

- لو عرفنا اللي عايز يقوله، أكيد هنعرف بيكلم مين.

- شيء مرعب، مين اللي ممكن يعمل دا في عسكري أمن مركزي غلبان؟ وعشان إيه؟

- ليه دي ممكن نعرفها، المشكلة الأكبر في رأيي إنها ممكن تكون مجرد بداية.

- تقصد انه قاتل متسلسل؟

- دا حقيقي، ودي أول مرة أتمنى توقعاتي تكون غلط.

- حضرتك شايف أي علاقة بين الجريمة الأخيرة وغيرها من الجرايم، عندنا مثلًا جريمة قتل في العمرانية بردو غريبة فيها فصل للرأس عن الجثة وواحدة في أسيوط من شهر تقريبًا وغيرها في الأسكندر....

- مافيش أي علاقة.

قالها يوسف مقاطعًا ثم أردف:

- طريقة تنفيذ الجريمة هي مفتاح اللغز، زي ما قولت: فيه رسالة بتتبعت، أي جريمة غيرها مجرد جريمة مكتملة الأركان من حيث الدافع، لكن باختصار.. القاتل هنا بيستخدم الضحايا كورقة بيكتب عليها لغز معين وفي اعتقادي منتظر حد يحله.

- كلام خطير جدًّا، دا احنا كده غلبنا أوربا وأمريكا.

- طبيعي جدًّا إن ييجي يوم وحتى الجريمة في مصر تتطور.

- وأهو يبقى حاجة اتطورت عندنا.

قالتها مازحة في حين بادلها يوسف بابتسامة هادئة، استطردت يارا:

- طيب نطلع فاصل سريع وتقرير عن أنواع الجريمة في مصر من 100 سنة، بداية مرعبة شوية أعزائي المشاهدين لكنه شيء كان لازم يلفت نظرنا في صدى الحقيقة، ونرجع مرة تانية مع الأستاذ يوسف أصلان.. خليكوا معانا.

قالتها بابتسامة وترحاب شديدين. ثم تجمدت لحظات أمام الكاميرا حتى انطفأ نور أحمر صغير يخرج منها، تحولت معالم وجهها دراميتيكيًّا للشحوب كأنها «مصاصة دماء» قرر الحصول على وجبة العشاء، انطفأت الضحكة ورمقت يوسف مندهشة ثم سألته بحدة:

- انت ليه مش بتجاوب زي ما احنا متفقين؟

- 80٪ من اللي مكتوب فالورق قولته، الباقي كان لازم أضيفه.. لأنه هيخدم الحلقة.

- اللي هيخدم الحلقة مكتوب في الورق، أي إضافات لو سمحت خليها لنفسك.

- بس أنا كنت بحاول أخل...

- ماتحاولش!

قالتها يارا مقاطعة ليوسف الذي آثر الصمت بعدها، ثم صاحت باسم صديقتها بعصبية:

- راندا! تعالي عايزاكي.

حاول يوسف -درءًا للإحراج- النظر مرة أخرى إلى ورقة الأسئلة متجنبًا النظر في وجه أميرته الغاضبة، التي انهمكت في حوار خاص مع صديقتها، وتخلت عنه من الجولة الأولى على عكس أحلام البارحة ذات السيناريو الأكثر رومانسية، قام بتطبيق الورقة مرة أخرى ووضعها في جيب قميصه في هدوء، حينها سمع المخرج يطلق العنان لحنجرته مرة أخرى، معلنًا عودة التصوير لتتحول يارا للفتاة البشوشة مجددًا، منتظرة الإشارة مجددًا لجولة أخرى من الحوار، ارتشف يوسف من كوب موضوع أمامه يحتوي على بعض من عصير البرتقال ويحمل شعار البرنامج، ثم وضع الكوب منتظرًا بدْءَ الجزء الأهم والأصعب في الحوار.. المكالمات التليفونية.

لم يستطع تجاهل ذلك الإحساس الذي سيطر على جسده كالقشعريرة الباردة، إحساس يخبره بأن تلك المكالمات لن تمر على خير بالرغم من تأكيد الجميع له بأنها أسهل من أكل الحلوى.

- إيه رأيك في التقرير يا أستاذ يوسف؟ أظن مافيش جريمة مشهورة ماجاتش فيه. قالتها مبتسمة كأنها لم توبخه منذ دقائق، رد بطريقة مختصرة مبالغ فيها:

- رائع.

ورمقها بنظرة أكثر جرأة من ذي قبل.

- طيب.. إيه رأي حضرتك نسمع رأي المشاهدين في الجزء الأول من الحلقة عن«الجريمة في مصر في 100 سنة؟» معانا حد!

- طيب كويس.. ألو!

رد صوت أنثوي على يارا:

- السلام عليكم، إزي حضرتك يا أستاذة يارا؟ أنا بتابع البرنامج وبحب جدًّا المواضيع اللي بتجيبوها..

- نتعرف باسم حضرتك؟

- شيماء مع حضرتك.

- أهلًا يا شيماء، تابعتي الحلقة من أولها؟

- أه وبصراحة حاجة جديدة جدًّا أول مرة أشوف حد بيتكلم في موضوع الجرايم ده بالتفاصيل دي برافو عليكو بجد.

- إحنا بنحاول دايمًا نقدم المواضيع الجديدة في صدى الحقيقة، لكن بشرط إنها تفيد المشاهد وتعجبه،، قوليلي بقى! انت منين يا شيماء وإيه تعليقك عن التقرير وعن كلام الأستاذ يوسف؟

- أنا ساكنة في المرج.

- ياه! يعني من قلب الحدث كمان، سمعتي طبعًا عن جريمة المرج.

- آه.. وبصراحة يعني كان نفسي حد يتكلم فالموضوع ده، الجريمة كترت أوي يا جماعة والواحد بقى يخاف يتأخر بره عن الساعة تمانية بالليل م اللي بيقراه كل يوم في الجرايد، أنا عارفة إن البوليس شايف شغله كويس بس هيلاحق على إيه ولا إيه يعني، أنا شايفة إن الفقر سبب أساسي لانتشار الجريمة بصراحه، ماهو لا مؤاخذة في ناس بتقتل بعضها عشان الجنيه حضرتك.

- كلام صحيح طبعًا، بس في بعض الحوادث الدوافع وراها مش مادية ولا إيه رأي حضرتك يا أستاذ يوسف؟

- في حادثة المرج، البوليس لقي المحفظة زي ما هي، الموضوع مش مقتصر على عامل واحد بس وإلا كانت كل الجرايم اتحلت.

مضت ثلث ساعة من الشد والجذب والاتفاق وعدمه، مرت كالدهر على يوسف الذي بدا ممتعضًا من تلك الفترة، محاولًا عدم إظهاره رغبته الملحة في الرحيل، مغلفًا عدم ارتياحه بابتسامة مصطنعة، إلى أن أعلنتها يارا أخيرًا:

- طيب ناخد آخر اتصال، معلش إحنا عطلنا حضرتك عن الميعاد المتفق عليه، لكن زي ما انت شايف المشاهدين متفاعلين أوي مع الموضوع ودي حاجة كويسة.. ألو!..ألو!.

تعالى صوت شهيق عميق قبل أن يبدأ المتصل بالكلام:

- كنت حاسس ان المقابلة دي هتحصل، الحاسة السادسة فعلًا موجوده..

- مين معايا؟!

تجاهلها المتصل وتوجه بحديثه ليوسف الذي لمعت عيناه:

- دكتور يوسف! كباحث جنائي، تقييمك لشغلي كام من عشرة؟

-...

- لو ماعرفتش نفسك هنضطر نقطع الخط.

قالتها يارا بحدة.

- تقدري تقطعي الخط، بس هتكوني بتحرمي المشاهدين من خبطة الموسم.

- مين حضرتك؟!

سألته يارا.

- أنا السبب في وجود الحلقة دي، السر اللي جوه العلبة، أنا الشيطان المريض زي ما كتب عني.. يوسف! أصعب مرحلة في حياتك بدأت النهارده!

- Cut يا عمرو لو سمحت! أنا مش هقبل التهريج ده في البرنامج.

- هل أنا فعلًا بهرج؟ ولا الاحتمال الأصعب ممكن يكون حقيقة؟ أنا عارف إنك بتسأل نفسك السؤال ده دلوقتي.. عارف كل اللي بتفكر فيه.

- إيه اللي يثبت إنك القاتل؟

نطق بها يوسف أخيرًا بهدوء حذر وعينين ثابتتين، كأن عقله يحلل شيئًا ما.

- يوسف!. عمرك فكرت إيه اللي هيحصل للعالم لو اختفى اللي زيي؟ الحياة هتبقى مملة وباردة.. زي الفيلم القديم بالظبط، وجودي ووجودك قدر، من غيرنا الحياة تنتهي..توازن بيئي.

-..أنا عارف إنك قتلته لسبب!

قالها يوسف بترقب، كأنه يرمي لشيء ما.

- الخنازير احتلوا البلد.. لو معاك تصريح بالقتل، وكتبت الأسامي على ورقة.. هتموت قبل ماتخلصها.. أنا عملت نموذج مصغر.. أهلًا بيك في الليسته!

تصاعد صوت الرنين الدال على انتهاء المكالمة المرعبة، ظلت عينا يوسف على دهشتهما، وتجمدت الكلمات في حلقه كأجساد المحاربين الإغريق عندما نظروا في أعين الـ«ميدوسا»، أطلق العنان لشهيق تخلل أعماقه بعدما افتقد الأكسجين لفترة.

- عذرًا أعزائي المشاهدين، نعتذر عن التليفون غير اللائق من شخص، الله فقط يعلم من هو، لكن عمومًا أكيد الكنترول هيسلم الرقم للبوليس، طيب، كده انتهى الجزء الأول من حلقتنا..نشكر الأستاذ يوسف الصحفي بجريدة اليوم المصري على وجوده معانا النهارده.. فاصل إعلاني قصير وبعده نشوف تقرير عن حق المرأة في التعليم

ونرجع عشان مفاجأتنا الليلة، سيادة السفيرة شادية أبو العزم واللي هتشرفنا الليلة في.. صدى الحقيقة، خليكوا معانا.

قام يوسف في صمت مخرجًا الميكروفون من قميصه في هدوء وسط دهشة كل الحضور من الموقف الصادم، الذي حاول المخرج تخطيه عندما ألقاها بصوته الواضح:

- !It's okay... حصل خير يا جماعة، عيل بيهزر، ننسى ونركز في اللي جاي، عدى علينا مواقف أصعب.. يلا نجهز!

هم يوسف بالمغادرة، في حين تقدمت راندا من خلف الكاميرا لتلحق به، أضافت يارا في لهجة أقل حدة من المرة السابقة:

- المرة الجاية عايزين نـ..

- مافيش مرة جاية.

قالها يوسف مقاطعًا يارا منهمكًا في وضع هاتفه النقال ومفاتيح سيارته في جيب بنطاله من دون أن ينظر إليها، في حين وضح على يارا تأثير صدمة جديدة من يوسف.

- إستنى يا يوسف عايزاك!

نادته راندا حاملة ظرفًا أبيض في يدها محاولة عدم إظهاره، تجاهلها يوسف مسرعًا نحو الباب.

- يوسف!. الظرف بتاعك.

قالتها لكنه قد اختفى، اختفى وكأنه لم يأت.. أو كما تمنى.

* * *

(8)

اخترق هدوء طابق العناية المركزة بمستشفى الشرطة بالعجوزة صوت اصطدام يوسف بباب الدخول، لم يبد على الممرضة أي امتعاض أو صدمة مما حدث بل تابعت كتابة بعض الأشياء في صمت، صفير الأجهزة المتتابع كان أشبه بصوت قنبلة تطلق ألفاظها الأخيرة، لم يتوقف عن الركض ولم يسأل أحدًا عن أي شيء بل تابع في طريقه كأنه يعرف جيدًا إلى أين يذهب، انعطف يمينًا ليجد معاذ في انتظاره.

دخلا معًا في غرفة مقابلة تملأها رائحة البنج وما شابه، جهاز قياس نبضات القلب يشدو بلحن مرعب يعلمه يوسف جيدًا، بدا مؤمن مستقرًّا على الكرسي المجاور للسرير، ممسكًا بيد والده ذي الشعر الأبيض والوجه الشاحب، ظهر مستسلمًا وفاقدًا للوعي، يحتضن فاه وأنفه قناع شفاف يخرج منه أنبوب متصل بجهاز تنفس صناعي أبيض اللون، في الكرسي المجاور لمؤمن جلست سيدة نحيفة وقليلة الحجم، تحمل في يدها مصحفًا تقرأ منه في صمت، انهمرت من تحت نظارتها الطبية ذات الإطار الأسود بضع دمعات لم تلتفت لتمسحها، قام مؤمن عند رؤيته له، لكن صوت الممرضة الخافت قاطع سلامهما:

– الدكتور قال إن التجمع هنا في الأوضة مش كويس، أسفة!

– تعالوا نطلع بره يا جماعة.

قالها ساحبًا صاحبيه من ذراعيهما في هدوء، في حين استسلم كلاهما لمعاذ كطفلين صغيرين.

خارج الغرفة لم يتمالك مؤمن نفسه وترك كثيرًا من دموعه تسقط في صمت محدقًا في أرضية المستشفى البيضاء، أخرج من جيبه علبة سجائر وولاعة، في حين أمسك يوسف على يده بقدر كبير من اللين قائلًا:

– ركز!. إحنا في العناية المركزة.

– نسيت.

– لو مكانك هنسى إسمي،، ما تخافش، بكرة يقوم بالسلا..

– ماحدش بيقوم من الغيبوبة.

قالها مؤمن مقاطعًا.

– فيه احتمالية كبيرة يقوم...

– لأ مفيش!، انت أكتر واحد فينا فاهم في الطب وعارف إن كلامي صح، أبوية فرصته ضعيفة.

– رحمة ربنا كبيرة يا مؤمن.

أضافها معاذ.

– وكانت فين الرحمة من الأول؟..هه؟! كانت فين الرحمة لما الحكومة خدت فلوسه بالدراع؟ كانت فين لما اتبعت وراه بلطجية عدموه العافية وشاف كرامته وصحته بتضيع قدام عنيه؟ فوقوا! رحمة ربنا عمرها ما هتنزل على ناس قبلت بالظلم.

- أستغفر الله.. حرام يا مؤمن.

تابع معاذ مستنكرًا.

- حرام إيه يابني، إحنا عيشتنا كلها حرام، شغلانتك وشغلانتي كلها مصالح ورشاوي، ده مش حرام؟! حتى يوسف شغله مابيسلكش من غير الظرف، إحنا يابني عايشين في مزبلة العالم، اللي مالوش ضهر في البلد دي، صدقني!. يستاهل يموت.

- لا يا راجل؟ دلوقتي بقيت على الصراط المستقيم؟..طاب مانت دفعت رشوة عشان تشيل على كتفك دبورة وتذل بيها خلق الله، وبردو ماعرفتش تجيب حق أبوك.

- أنا ماجيبتش حق أبويا لأني لوحدي.

قالها مؤمن بصوت عال مشيرًا بسبابته في وجه معاذ بعنف ثم أكمل:

- فاهم يعني إيه لوحدي! وبعدين، على الأقل حاولت، فاهم!. حاولت..

- ولو أنا ويوسف كنا مباحث، كنت هتعرف تجيب حقك عشان مش لوحدك؟

- انت مالكش دعوة بالموضوع ده،، مش شغلك!

- هدي نفسك! انت بتوجه غضبك للشخص الغلط.

تدخل يوسف مستوقفًا مؤمن، ليتابع معاذ بغضب:

- عمرك ما كنت هتوصل لحاجة، وانت عارف كده كويس، البلد دي مش هيغيرها واحد لوحده، لازم تفوق من الوهم اللي انت عايش فيه ده يا مؤمن! مافيش حل غير إنك تقبل البلد زي ما هي، يا إما تسيبها وتمشي، انت صاحبي وأنا واجبي أفهمك.

- وأنا ماباصاحبش جبان.

ألقاها مؤمن كالسهم.

صمت معاذ محدقًا في وجهه مؤمن ثم استدار تجاه باب الخروج وسط صمت من يوسف الذي بدا وكأنه يدرس رد فعل الصديقين،ثم تلاشى معاذ تمامًا.. جال في خاطر يوسف أن تلك كانت أصعب نهاية ممكنة ليوم - لا يعلم إلا الله - كيف سينتهي.

أحكم صوت عصافير الصباح المستبشرة بنسمات الفجر سيطرته على هدوء القاهرة غير الاعتيادي، لقد مرت أربعة أيام، لم ير فيها لون الشارع ولا دفء النهار، يجلس على مقعده الجلدي يشاهد الحلقة المشئومة على حاسبه القابع فوق ركبتيه كالجاثوم، ينهيها ثم يعيدها مجددًا، ثم يشاهد لقطة الاتصال مجددًا بغير ملل، ينظر في كل مرة بنفس الاهتمام والترقب، يسهو عن كوب قهوة كبير الحجم فقد حرارته، يكتسي وجهه بلون القلق والترقب، يتمنى لو أنه أخبر مؤمن في تلك الليلة عما حدث، يضغط زر التشغيل لتتقلب عيناه بين أركان المشهد كأنه يبحث عن شيء ما، «ماذا لو كان فعلًا هو؟»، سؤال جال ودار في رأسه، حتى رسم نفسه بالجرافيتي على كل حوائط عقله نصف المهدمة.

انهمك سيزار بالتلفاز كطفل في السادسة، يستقر أمامه طبق صغير يلعقه بدون اهتمام، لم يلحظ يوسف أن ما فيه من طعام قد انتهى منذ يوم مضى.. استقام يوسف واضعًا حاسوبه على مقعده الجلدي، واختلط صوت حديث يارا قاسم مع الكارتون الذي يتابعه سيزار بشغف، هم يوسف بالذهاب للصالة متجاهلًا صوت رنين هاتف المنزل الذي انتهى بجملة واثقة وقصيرة «انت عارف ده تليفون مين، سيب رسالتك بعد سماع الصفاره..» ثم صوت صافرة قصيرة ظهر بعدها صوت مؤمن.

- يوسف!. يا عم المعزول.. أنا عارف انت متدايق ليه، وعارف كمان انك سامعني..كفاية قفش وافتح موبايلك، أنا صالحت معاذ خلاص وكلها كام يوم وهيرجع خدمة تاني، يلا عايزين نخرج ونغير جو..إبقى كلمني.. سلام.

تجاهل يوسف الرسالة الصوتية كغيرها من رسائل الجريدة والمطعم وحتى من وليد الذي أراد أن يتقابل معه مجددًا ولكن بدون فائدة، جلس على الكرسي المقابل للبيانو القديم، بجانب الكاسيت المشروخ والعلبة المزركشة القيمة والكراتين المغلقة، رفع الغطاء من فوق أصابع البيانو، بدا مجهدًا للغاية من قلة النوم وظهرت خصال شعره البني أكثر طولًا.

بدأ العزف مغلقًا عينيه كعادته، تائهًا بين جنبات لحن البيانو الهادئ عن عمد، استمر يعزف بهدوء يحسد عليه لساعة كاملة، لم يشعر فيها بالعالم الخارجي حتى انتهى من دون أن يعرف كم مر من الوقت.. لكن صوتًا ما صفع انتباهه، كأن شخصًا ما يفتح باب شقته، فتحت عينيه عن

آخرهما، جلس على ركبتيه أمام ذلك الصندوق المزركش وفتحه برعشة شديدة مخرجًا المسدس الفضي وتسحب ناحية الباب، وجد سيزر وقد غلبه النعاس، تساءل كيف أنه لم يشعر بذلك الصوت، اقترب من الباب ثم نظر بحرص شديد من خلال «العين السحرية».. لم يجد أي شخص بالخارج.

– مين؟!

صاح يوسف بعينين حادتين.

لم يحصل على أي رد شاف، فتح الباب على مرحلتين، تقدم قليلًا للأمام ناحية السلم حتى رآه.. لقد كان حازم.. جاره الصغير.. يجلس على السلمة الأولى محاولًا عقد رباط حذائه في صمت، وضع يوسف المسدس سريعًا في جيب بنطاله القطني الواسع، لاحظ حازم وجوده لكنه لم يلتفت إليه، تمم على شنطته التي تزن أكثر من نصف وزنه، قام مستعدًّا لرحلة عذابه اليومية، الذهاب لمدرسته مشيًا على الأقدام.

– حازم! إزيك!. أنا.. فكرت حد بيفتح الباب.

قالها مصففًا خصل شعره بأصابعه منتظرًا رد حازم الذي توقف عن النزول للحظة، ثم نزل ثلاث درجات من السلم من دون أن ينطق بكلمة واحدة أو حتى يلتفت للصوت، في حين أضاف يوسف بعدما وجد ورقة فئة الخمس جنيهات في جيبه بالصدفة:

– ممكن تاخد مني الفلوس دي.. إشتري حاجة تشربها في الفسحة!

استكان حازم في مكانه تلك المرة، توقف عند السلمة الأخيرة من دون أن يلتفت بوجهه ناحيته، حاول يوسف تفسير الأمر:

- أنا زي أخوك الكبير.. مش كده؟

التفت - ولأول مرة - بوجهه ناحية يوسف رامقًا إياه بنظرة باردة صدمت يوسف كمقطورة مختلة، ليس لبرودتها، لكنه رأى ذلك الوجه البريء تملأه الكدمات وتحديدًا أسفل عينه الضيقة، حيث تقع كرة كبيرة زرقاء قاتمة اللون، أصابه خرس وشلل تام امتد إلى خصال شعره، ازدادت عيناه صدمة ورجعت يده الممدودة مكانها مرة أخرى بجانبه، أصبح الوقت طويلًا للغاية، أكمل حازم نزوله الهادئ على السلم ثم عاد بعدها يوسف خائب الأمل لشقته، أغلق الباب ثم استند برأسه على الباب في يأس ونظر مجددًا ناحية سيزار، أحضر منشفته وقرر الاستحمام وحلاقة ذقنه التي فاقت مرحلة النبات، لم تمر دقيقة حتى استقر في الحمام الواسع ذي اللونين الأبيض والأزرق، خلع ملابسه بعدما اتفق مع حرارة الماء على حل وسط، جلس في البانيو واضعًا كفيه فوق ركبتيه الممتدتين، أغمض عينيه مستسلمًا لشلالات الدش الساخن المتدفق فوق رأسه في صمت، بدأ بتوزيع بعض الشامبو على رأسه ثم على جسده ليجد شيئًا ما يؤلمه في كتفه، تفحصه ليجد بقعة زرقاء أشبه ببقايا كدمة قديمة، تذكر كيف يتقلب كثيرًا على فراشه، أجزم أنه حصل عليها وقت نومه، فاجأه هذا الصوت مجددًا، لكنه أتى من داخل البيت هذه المرة، لم يكن سيزار.. كان صوت شخص ما يغلق باب الشقة بعنف، تذكر أنه

احتفظ بمسدسه في جيب بنطاله، قام من مسبحه متجهًا لملابسه المعلقة، ارتدى بنطاله وأخرج سلاحه بهدوء ويسر، أغلق نور الحمام وتسحب ببطء، تتساقط قطرات الماء بين خصل شعره فوق صدره النحيف، فتح باب الحمام قليلا متجنبًا أي ضجيج قد يفضحه، نظر من خلف الباب في ذعر، ترجل بدون حذاء ليكمل طريقه ناحية باب الشقة، لم ير أي شيء غير مألوف.. فجأة.. نبح سيزار.. ارتعش يوسف موجها المسدس ناحية الصوت ليجد سيزار واقفًا في تحفز مخرجا لسانه، أغمض عينيه وتنفس الصعداء، استنتج أن سيزار قد فتح الباب وأغلقه الهواء.

- لينا حساب بعدين..

قالها معاتبًا، ثم هم بالعودة مرة أخرى للحمام ليجفف جسده الذي قارب على التجمد ما بين برودة الجو والخوف، وضع المسدس المبلل بقطرات الماء البارد على سطح التلفاز بجانب علبة سجائر من نفس النوعية التي شاهدها في سيارته، فكر ساعتها في عدد المرات التي نسى فيها مؤمن علب سجائر عنده وهو يلمسها في صمت، ثم تجمد عندما رآه.. ملقى على الأرض كالقتيل.

مكتوب عليه: «يوسف أصلان».

تملكته قشعريرة قاتلة..

اقترب منه في صمت، نظر إلى سيزار، ثم هرول ناحية النافذة وألقى نظرة على مدخل العمارة، لم ير شيئًا غير اعتيادي، توجه إليه مرة أخرى.. قرر معرفة محتواه منتظرًا إجابة مصيرية عن كل الأسئلة الصعبة.. وغيرها.

* * *

(9)

انعكس شعاع ضوء فوق زجاج صورة مبارك اللامعة، تاركًا فلاشًا مصغرًا في عيني مؤمن البحيري بعدما أغلق الباب المكتوب عليه اسم رئيس قسم مكافحة الجريمة في مباحث أمن الدولة «اللواء/ عبد الجليل نصير» رئيس إدارة مباحث العاصمة، رئيسه المنهمك في مكالمة تليفونية لم تمنع إصبعه السبابة أن يشير له بالتقدم، جلس مؤمن في الكرسي المقابل له، كان اللواء عبد الجليل طويل البنيان وعريض الكتفين، ظهر على رأسه تأثير نهاية الخمسينيات من تساقط بعض من شعره القصير نصف الخشن، والمهذب بصعوبة على جانبه الأيسر، تناثرت بضعة تجاعيد فوق جبهته متوازية كأسنان المشط، يمتلك ذراعين طويلتين للغاية وأنفًا طويلًا أيضًا وأذنين لم يرتضيا أن يتركا نصيبهما من الطول، تميزه بشرة قمحية غامقة، سرح مؤمن في تفاصيل المكتب الكبير المنظم بعناية وعلم مصر الأنيق الموضوع بجانب المكتب ذي التكييف الساخن، حاول مؤمن تجاهل المكالمة التليفونية بين عبد الجليل وضابط يعرفه جيدًا، يقوم بتأدية واجبه الوطني بعناية فائقة بإحضار اللحوم والدواجن والخضروات والفاكهة «بمقابل رمزي» لفيلا سيادته في المعادي، انتهى الحديث أسرع مما يجب حين وجد عبد الجليل أنه من الأفضل التحدث في تلك الأمور منفردًا، أغلق الهاتف وأخرج سيجارًا من العلبة البنية الأنيقة التي أمامه ونظر مبتسمًا لمؤمن بعدما أشعله قائلًا :

- إيه يا سيادة المعاون.. مالك قالب وشك ليه؟

- تمام.. مافيش حاجه.

-أمال مزعل الناس منك ليه؟

- أنا قصرت في حاجة لا سمح الله؟

- والله من ناحية قصرت، فالموضوع عدى مرحلة التقصير.

- ليه بس يا فندم؟ التحقيقات ماشية كويس في كل القضايا.. حتى قضية المرج ما..

قاطعة عبد الجليل قائلًا:

- أنا مابتكلمش عن قضايا يا بيه، لو القصة جرايم وقضايا بس كنا ارتحنا، في حاجات تانية كان لازم تعملها وماعملتهاش، وده في حد ذاته جريمة.

- تقصد الانتخابات؟

- انت شايف ايه؟

- أنا شايف كل خير، يعني أنا المفروض بدل مابقى راجل بكافح الجريمة.. أمولها، صح؟ كده أبقى ماقصرتش يا باشا؟

- انت إتهبلت يابني؟!! جريمة إيه اللي بنمولها؟! انت عايز واحد زي أيمن نور ولا واحد إخوانجي يمسك البلد؟! شكلك اتجننت!

قالها منفجرًا ثم أخرج علبة دواء زجاجية شفافة اللون، أخرج حبتين كبيرتي الحجم ألقاهما كالسهم في بلعومه ولم يخطئ الهدف، تبعهما

بنصف كوب من الماء، ثم أشـار له بإصبعيه وبينهما السيجار ذو الرائحة النفاذة في تهديد:

- الكلام معاك مايجيبش تمنه،أنا هعرف أفوقك إزاي.

اللي يرضي ضميرك يرضيني يا سيادة اللوا.

قالها ثم نظر أمامه في ثقة.

تفحصه عبد الجليل لثانيتين مطلقًا بعض السحب الدخانية النفاذة ثم حك أنفه بهدوء ورمق هاتفه المحمول بنظرة غير بريئة، وضع السيجار في الطفاية الذهبية لثوانٍ قام خلالها بإغلاق هاتفه، قلبه مرتين ثم ضرب إصبعه بعنف في أحشائه ونزع بطاريته، تأكد من إطفاء اللاسلكي ثم نظر لمؤمن الذي تملكته الدهشة لكنه أدرك ما يحاول رئيسه فعله ثم سأله:

- شعير؟!

أشار له عبد الجليل مديرًا إصبعه السبابة في الهواء في حركة معناها «بسرعة» قام بعدها مؤمن بعمل المثل بهاتفه، اقترب منه عبد الجليل هامسًا في غضب شديد:

- انت عايز تجنني يابني؟! انت عارف إحنا بنتعامل مع مين؟! هتودينا في ستين داهية بعنادك ده.. أنا - أنا - نفسي أفهم!. إيه اللي مصبرني عليك لحد دلوقتي؟! دانا عمري ما حد عصالي أمر وسيبته، يمكن ساعات بتفكرني بابني الله يرحمه بس ده مش سبب كفاية إنك تعصي أمر مباشر، ويا ريته مني، مانت عارف كويس جاي منين، يابني فوق!

الناس اللي فوق لو عرفت واتلسعت انت مش هتلاقي حد ينجدك.. اعقل!

- وإيه مصلحتي في إني أأجر..

قالها بصوت عال ثم تراجع ليعود لنغمة صوت قريبة من تلك التي يستخدمها عبد الجليل:

- وإيه مصلحتي في إني أأجر بلطجية أو.. أو.. إني أخد من حق مرشح تاني عشان الباشا يضمن انه كسبان؟ هي دي مصلحتي؟ هي دي مصلحة البلد؟

- يووووه! تاني هيرجع بقى يقولي البلد، بلد إيه يابني؟! دي عزبة.. عزبة كبيرة والناس خلاص وافقت وقبلت إنها تعيش فيها زي ما هي، انت فكرك إن الناس دي بتاعة حريه؟ ولا بتاعة حرية ولا بتاعة تقدم ولا دياولو، يابني دول شوية همج أقصى طموحهم ياكلوا زي الحمير وينامو مع نسوانهم بالليل، انت أصلك صغير مش فاهم حاجه.. الناس دي اتفرج عليها من غير كرباج، هياكلوا بعض زي السمك.

- يا بيه مش معنى إننا بنستعبدهم إنهم لازم يعيشوا طول عمرهم عبيد، إحنا نفسنا عبيد في عزبة الباشا.

- عبيد إيه يابني؟..عبيد إيه؟! انت فعلًا اتهبلت! داحنا عايشين أحسن عيشة وبناكل أحسن أكل وأحسن شرب وأقل واحد فيكوا بيوقف أتخن شارع انتباه.

- بس مايقدرش يقف انتباه قدام ربنا.

رد بهدوء وثقة.

أشاح عبد الجليل بنظره بعيدًا محاولًا تجنب النظر في عيني مؤمن في توتر جعله يعود بظهره للوراء..حصل على سيجارة مجددًا، أحرق أنفه بولاعته الذهبية مجددًا ثم أطلق سحبه الغاضبة في هدوء، صمت لثانيتين محركًا رأسه يمينًا ويسارًا في خيبة أمل ثم تمتم لنفسه في ضيق.

- نفس العند، نفس كل حاجة.

- ياباشا ماحدش يقدر يعصي أمر مباشر من حضرتك بس أنا خلاص، خدت عهد على نفسي إني مش هعمل حاجة من دي تاني، كفاية أوي انتخابات مجلس الشعب.

- يبقى قول لنوح ينفذ الأمر، واعتبر غندك خصم أسبوع.

صاح بها ثم تفحص ساعته اليدوية الفخمة والسيجار لا يزال في فمه وأضاف:

- أنا هنقلك من هنا يا مؤمن.

- أوامر سيادتك ياعبد الجليل بيه.

رد مؤمن ثم بدأ في تجميع أشلاء هاتفه النقال مرة أخرى، في حين نظر عبد الجليل بعيدًا من خلال نافذته الزجاجية ذات اللون الغامق مطلقًا مزيدًا من سحبه الداكنة، بعد ذلك أردف بهدوء لم يتملكه منذ فترة:

- من أربع سنين، أمين شرطة لقى راجل كبير لابس جلابية نازل من بيته بعد الفجر، سأله على بطاقته.. قاله: (مش معايا، ثواني هطلع أجيبهالك

من فوق) قبل ما يطلع طلب منه يشوف الكارنيه عشان يتأكد انه أمين شرطة، الأمين كله ألم على وشه وشده من قفاه عالقسم، الراجل كان ساكت لدرجة تخوف، مافتحش بقه، فضل مرمي في القسم يومين بحالهم..يومين بحالهم يا مؤمن ماتكلمش!..في اليوم التالت وكيل النيابة حن عليه وحب يشوف الراجل ده إيه مشكلته، برده ماتكلمش، فين وفين أهل الراجل ده حضروا، بس إيه.. أوبهة ماتتخيلهاش، شياكة وعربيات وبدل بيضة وكاكي وحاجة ترعب، وكيل النيابة اتخض: (مين حضرتك؟)، قالة اسمي راضي عبد المعز، بتشتغل إيه؟ قاله:(رئيس بمحكمة يابني، أنا المستشار راضي عبد المعز).

طبعًا بعدها الدنيا اتقلبت والمباحث وقفت على رجل واحدة، جابوله أمين الشرطة ووطى عشان يبوس رجله والراجل مارضيش، وحتى مارضيش يأذيه أو يسجنه، لما اتسأل ليه؟ رد قاله (أنا طول عمري قاعد فوق المنصة،و كنت ناوي أستقيل عشان حسيت البلد ماشية غلط، ولما الولد ده عمل فيه كده سيبته، عشان كنت عايز أشوف الناس اللي في الشارع بيحصل فيها إيه، لأن أمثاله هم اللي خلوا الناس مالهاش قيمة)، بعد كده قدم استقالته وبطل شغل، ووصلت لدرجة إن العادلي شخصيًا كلمة بالتليفون ولا الهوا.. مارجعش برده، لازم تعرف حاجة مهمة يا مؤمن.. البلد دي حالها مايل.. عشان تتعدل بيك، لازم تميل معاها، واللي ليه ضهر اليومين دول حظه من السما، الأيام الجاية هيكون فيها

جوع كتير، ومرمطة وقلة قيمة، فوق يا مؤمن!. انت زي ابني وأنا بقولك الخلاصة..اللي مش هيركب القطر، هيتداس تحته.

- وتفتكر إني هقبل أركب القطر اللي داس على أبويه يا سيادة اللوا؟

رمقه بعدها عبد الجليل بنظرة قطرت سيلًا من الصدمة تجمد عندها الوقت كثيرًا ثم أكمل في ترقب:

- هو.. البشمهندس بحيري عامل إيه؟

- البشمهندس وصل للي كان بيتمناه.

- خف؟

-.. قرب يموت.

ثم أكمل بعد أن أتم تجميع هاتفه وسط دهشة رئيسه الذي صعقه الرد وسط لا مبالاة وبرود من مؤمن ليضيف الأخير:

- جلطة ونزيف في المخ.. دا كلام الدكاتره، غيبوبة كاملة.

نزل الخبر على عبد الجليل كصاروخ سام 6 على طائرة تدريب متهالكة، تجمد السيجار في يده لبضعة ثوان كاد يسيل فيها خيطًا بسيطًا من اللعاب من فيه، ليرد بصعوبة:

انت تعرف ربنا وعارف ان القدر ماينفعش نعترض عليه و..- و- البشمهندس -الله يقومه بالسلامه- حزنه على ضياع مكانته وفلوسه كان أكبر من اللي اتخيلناه، لكن.. ربنا أكيد.. أكيد هيعوضه خير وهيشفيه، وبعدين مسير اللي أذاه يشوف الذل، ربنا ما بيسيبش حد..

أينعم اللي أذاه مسنود بس.. ربنا مايقبلش الظلم برده.. وإلا كده هنبقى.. يعني..

- بناكل بعض زي السمك؟

قالها مؤمن ليتحول عبد الجليل لتمثال شمعي لشامبانزي مصاب بالصرع، مرت بضعة لحظات حاول فيها عبد الجليل البحث عن أي شيء في درج مكتبه في حين هب مؤمن واقفًا ليقولها بطريقة رسمية للغاية:

- أي أوامر تاني سيادتك؟

أراد عبد الجليل الرد لكن الكلمات تعثرت وتشابكت، في النهاية أشار له من دون أي اتصال عيني قائلًا:

- روح انت يا مؤمن، خد النهارده أجازه، لو أنا احتاجتك هقولك.. ألف سلامة على البشمهندس!

- تمام يا سيادة اللوا.

ألقى بتحيته الميري، وخرج في صمت.

استرخى عبد الجليل في مقعده الجلدي الوثير ثم أطفأ السيجار المشتعل مجددًا، فتح الدرج المقابل له في المكتب، اقترب من سطح المكتب وظل يبحث عن شيء ما في الدرج حتى وجده أخيرًا، كانت مجرد صورة قديمة وضح تأثير الزمن عليها، يقف فيها هو وشاب مراهق يشبهه حتى في بنيانه لكنه فاتح اللون يرتدي مايوه أسود وتستقر فوق رأسه نظارة بحر رفيعة، يزين صدره ميدالية ما ذهبية اللون واضعًا يده

اليمنى على كتف عبد الجليل العريض، قلب الصورة ليتفحص ما كتب على ظهرها بالأزرق كأنه يتفحصها لأول مرة.

«عمرو عبد الجليل مختار، الأول على المنطقة في السباحة 100 متر، سنة 2000».

* * *

(10)

ارتعشت يده المبللة ماسحة بضع قطرات الماء تسللت من خصال شعره الممدد فوق جبهته، مسح كفه عفويًّا ببنطاله رامقًا إياه بحذر.. ذلك المظروف الكبير المبهم، سهو الصدمة جعله يجلس بلا قميص في جو قطبي ظالم، بالرغم من ذلك امتلكه شعور بأن رأسه يغلي من دون أن يهدأ، كانت الساعة تشير للسابعة صباحًا عندما اقترب من المظروف الأصفر ذي الحجم الكبير، كتب عليه بقلم غليظ أسود اللون «يوسف أصلان»، قام بالتقاطه من على الأرض بهدوء وحذر.. أحضر سكينًا من المطبخ ثم توجه إلى الصالة واستقر على السفرة شبه الأثرية، تبعه سيزار الذي أيقظه شعور غير جيد، أدخل نصل السكين في جانب المظروف وبدأ بفتحه برفق، صمت لثانيتين ثم تسللت يده بحذر للداخل، لمس شيئًا ناعمًا بلاستيكيَّ الملمس، أشبه بكيس رقيق للغاية، أخرجه بهدوء محاولًا التنفس من أنفه المزكوم عفويًّا، بضعة صور فوتوغرافية باللونين الأبيض والأسود، كانت كل ما يحتويه الكيس الرقيق، مزق الكيس الهش وتفحص الصور ذات الحجم المتوسط، بدأ بتقليب الصور واحدة تلو الأخرى، في كل مرة تزداد السرعة، ويزداد الهلع، تلمع الدهشة في قرنيتيه المشتتين، هم بالقيام لفعل شيء ما، لكنه أسقط المظروف على الأرض بالخطأ ليخرج منه صوت اصطدام مكتوم، بدا وكأن شيء مازال

بداخله، نزل على قدميه وأمسك المظروف وقام بإفراغ ما فيه في كفه اليسرى، كان شيئًا صلبًا يحتويه كيس رقيق من نفس النوعية، قام بتمزيق الكيس لتزداد صدمته رعبًا.

كان شيئًا صغير الحجم ينتصف كفه اليسرى كجنين ربع مكتمل، شريط كاسيت قديم الشكل رمادي اللون من النوع الصغير، قام بتقليبه قليلًا في كفه في صدمة ثم نظر لجهاز الكاسيت القديم، مسح عنه التراب وحمله بكلتا يديه لأقرب مصدر للكهرباء، دبت فيه الحياة عندما أنارت لمبة حمراء تدل على وصول الكهرباء لخلاياه النائمة، وضع الشريط في الباب المخصص له بالاتجاه الصحيح، ثم ضغط على زر التشغيل وقام بلف مؤشر الصوت لأعلى درجة.. ومرت دقيقة من دون أي شيء..

بدأ صوت ما في الخروج من تلك السماعات السوداء، صوت لم يكن لتتخيل أذنه سماعه في موقف مثل هذا مطلقًا، صوت أرغم عينيه على الخفقان، وقلبه على الركض ذعرًا.. رغم أنه لا يمت بصلة لأي طقس مرعب عرفته البسيطة.

كانت الحادية عشرة قبل منتصف الليل.. عانق عبق العشب النضر فوح العفن الحديث، اختلطت أنفاسه المتقطعة مع خطواته المتسارعة، يلهث وسط الصمت والظلام الغابر، يشق طريقه بين القبور ويلتفت من حين لآخر، ينظر وراءه ليرى الرعب فيتعثر ويقوم ليركض مجددًا، يبتسم تارة وينفجر ضاحكًا تارة أخرى، تنساب شلالات الخوف فوق جبينه

العريض ذي اللون الفاتح وعينيه الجاحظتين، يتنفس في رعب.. ويلتفت مجددًا في ترقب.. ثم يضحك بطريقته الهيستيرية.. ثم يتجهم.

كان نحيفًا ذا عينين جاحظتين للغاية، على جبهته قطرات عرق لا تنتهي، ينفخ فمه زفيرًا ساخنًا وتتدلى خصال شعره نصف المجعدة فوق جبهته، تعالى من خلفه صوت لبضعة أشخاص يتقدمهم كلب متوسط الحجم من نوع «بيتبول» الشرس، يطلق نباحًا متقطعًا، يحارب ليفلت ويفتك بفريسته لكن طوقًا أحكمه سيده منعه من ذلك، سيده صاحب الملامح المبهمة، يجذبه الكلب ليركض معه خلف الشاب المذعور، الذي انتهى به الأمر ليسقط مترنحًا بعدما صرعه التعب، ثم قاوم ليقف مجددًا واستدار، ثم أخرج من جيبه مطواة ضغط على طرفها لتنفتح، لحظات وهدأ صدره المجهد لترتسم ضحكة على وجهه النحيف، تقدم الجمع وكلبهم كصائدي براري يتربصون بغزال هادئ في موسم الصيد بغابات تكساس، توقفوا على مسافة عشرين مترًا منه، همس أحدهم في أذن آخر شيئًا ليعاودوا التقدم مجددًا، قلت المسافة لستة أمتار لم يتغير بعدها رد فعل الشاب المتحفز ذو النظرة المترددة.

- حلو القميص!

قالها شاب آخر، فاتح اللون، أصلع، ممتلئ الجسد يجلس مستهترًا فوق قبر حجري من وراء الشاب المذعور، بجانبه ظهر العديد من القبور المشابهة في تلك المقبرة المظلمة، يدخن سيجارة المساء في هدوء وشراهة، يرتدي زيًّا بسيطًا مكونًا من بنطال جينز أسود و«جاكيت» بنفس اللون مكتوب عليه عبارة ما بالإنجليزية.

- القميص بس؟ أنا كل حاجتي حلوة يا منصْ.

رد الرجل بعدما رمق قميصه، ليرد الشاب الممتلئ بنفس الاستهتار:

- للدرجادي مهمة عندك يا «هربانة»؟!، تستاهل إنك تموت عشانها؟

- ماعندكش فكرة يا صاحبي! وأقتل عشانها كمان!

كانت تلك الجملة رد «هربانة»، وهو رجل في منتصف الأربعينيات، نحيف الجسد ذو بشرة قمحية اللون، تراصت نياشين الواجب وعلامات الجودة فوق وجهه المنكمش من «بشل» وجروح سابقة تدل على سجل حافل، كذلك كانت أوجه من معه من عشيرته، تلك العشيرة المكونة من ثلاثة أفراد يختلفون عنه في العمر والجسد، لكن يتفقون معه في ذوق منحط في اختيار ألوان وموضة ملابسهم المستهلكة منذ عقود، تتكون من قمصان وبنطلونات عفى الزمن عليها وعلقها في متحف التاريخ، كلباس تاجر بورسعيدي نصف ثري يقف على باب محله الخشبي في شارع الجمهورية في ثمانينيات القرن الماضي.

- مش يمكن حد من رجالتك مخبيها يا «هربانة»؟ أو.. قلبت على بلد تانية وصنفرتك.

قالها الشاب السمين وقبل سيجارته مجددًا.

- أصنفره! هربانة مايتصنفرش يا كوكو! أنا ماعنديش حريم بتهرب، الحرمة دي مخطوفة وعندك انت يا منصْ وأنا عارف أنا بقولك إيه، وهاخدها يعني هاخدها، وبعدين نبقى نتكلم..

نزل «منصْ» من فوق مقعده الصخري متجها ناحية «هربانة»، تجمع الأخير وأشباهه متأهبين للهجوم، نبح الكلب غضبًا حينما أضاف منصْ واثقًا:

- فكر قبل ما تندم يا هربانة! انت عارف! الإسود مابيرحمش..

«أسوّده!، أسود مين ياه؟ مانا عرفت اللي فيها، الإسود دا اشتغالة انتوا عاملينها، فيلم رعب مألفينه عشان تخوفوا بيه أي هتية عايز منكو مصلحة، لو الإسود موجود فينه دلوقتي يكلمني وأنا أطلع تلاته ميتين أمه، البت يا منصْ.. يا إما هخرطك.

قالها مشيرًا بيده وبصق عن يمينه ليرد «منصْ»:

- عارف مشكلتك إيه يا هربانة! مشكلتك إني ماعنديش وقت أثبتلك إنك حمار، للأسف.. مضطر ألعب معاك..

قذف «منصْ» عقب سيجارته تجاهه ليسقط على بنطاله القماشي الرخيص ويصنع دائرة صغيرة به، تفحص «هربانة» بنطاله المعدل ثم رمق الشاب السمين وصديقه المرتعد ذا الضحكات الهيستيرية وقالها بعصبية:

- يبقى جنت على نفسها كراكش..

قالها بلهجته الغريبة.

أخرج «منصْ» سيفًا من ظهره مرتكزًا أمام صديقه المضطرب وصرخ مهاجمًا كبيرهم والذي ضغط بدوره على مطواة في يده لتلمع في الظلام،

التحم الشاب المذعور ذو الشعر المموج مع أحد رجال «هربانة»، بينما انشغل «منصْ» مع الأخير وأحد مساعديه في حوار أبيض دموي، في حين توقف المساعد الأخير ممسكًا بجماح الكلب الهائج بصعوبة.

على الجانب الآخر من المكان، وعلى بعد عشرين مترًا تقريبًا ارتعش قوس حديث المنشأ أزرق اللون، يشبه القوس الذي يستخدمه متسابقو الرماية في الأوليمبيات، انطلق سهمه في اتجاه ظهر أحد معاوني «هربانة» ليسقط صرخًا بعدما خبأ السهم رأسه في حبله الشوكي، التفت الآخر ليجد سهمًا آخر يخترق رقبته النحيفة ويجاور صديقه على الأرض، تحرر الكلب في حين انشغل الـ«هربانة» في جولته المؤلمة مع «منصْ»، والذي انقض الكلب عليه بلا رحمة وتعلقت أنيابه بساعده، زاده «هربانة» من الجراح في كتفه، ثم غرز مطواته في رقبته ليخرج منها شلال من الدم القاتم، انشغل الشاب الضاحك ذو العينين الجاحظتين بآخر أفراد العصابة، يجرحه ويضحك في هيستيريا، ثم يصاب هو فيضحك أكثر.

في تلك اللحظة وعلى بعد بضعة أمتار، ركضت مجموعة قطط سوداء صغيرة تجاوز في عددها العشرين، ركضت مسرعة لتتخطى شجرة كبيرة، لكنها لم تمر من أمام تلك الشجرة كما هي، بل لم تمر مطلقًا.

بدا وكأن الشجرة ابتلعتها جميعًا، ولكن بعد ثوان قليلة خرج شاب طويل، نحيف الجسد يشق طريقه وسط صرخات العراك وظلمة المقابر، يرتدي معطفًا قاتمًا طويلًا وصل لعقبيه وحذاء جلديًا لامعًا، يسقط نصف شعره الأسود الطويل على نصف وجهه ليغطيه، ترك الكلبَ الغاضب

ساعد «منصْ» وركض ناحية الدخيل ليفتك به، لكن – ولسبب ما – مالبث أن اقترب منه حتى هدأ تمامًا كحمل وديع، لعق في حذائه كثيرًا مطلقًا صفيرًا مكتومًا أذهل كل أطراف العراك.

استقر الدخيل فوق بركة الدماء الغارق بها مزيج من أصدقائه وأعدائه، تراجع الشاب المضطرب مترنحًا وممسكًا بساعده الدامي، كانت ضحكاته الهيستيرية المكتومة لا تزال تنهمر مع قطرات عرقه، وقف الدخيل يتفحصهم جميعًا في صمت، ثم تقدم ثلاث خطوات ونزل على ركبتيه ليشرب معطفه قليلًا من الدماء، وضع إصبعيه أسفل عنق «منصْ» الملقى على الأرض، والذي بدأ يهذي ببضع الكلمات غير المفهومة مخرجًا بعض الدماء من فمه الصغير، إلا أنه تعلق بيد الغامض متمتمًا ببضع الكلمات برعشة، رآه «هربانة» المصاب أيضًا في فخذه اليمنى والملقى على بعد أمتار قليلة من الأخير، تفحصه بخوف وبلع ريقه بمعاناة، أمسك الدخيل بالسيف من يد صديقه المحتضر ثم قذفه لصديقه الآخر ذي العينين الجاحظتين والذي واصل ضحكاته المكتومة، تفحص «هربانة» مكان الجرح القطعي العميق ونظر للدم الذي غطى يده، ثم رمق الدخيل الغامض صارخًا برعب:

– يا كوري! يا جابر!

تجاهله الدخيل الذي بدا منهمكًا في البحث عن شيء ما في جيب «منصْ» الذي استسلم للموت، أخرج حافظة صديقه الميت ولعق بضع قطرات من الدم من على ظهر يده قائلًا:

- انت جيت هنا عشان حاجة تخصك!

ثم نظر تجاه الشجرة التي خرج منها ليرمقها «هربانة» مصدومًا، تصاعدت نبضات قلبه وأنفاسه ليرى فتاته الجميلة ذات الشعر الأحمر الطويل تقف بجانب الشجرة الكبيرة، ترمقه ببرود يحمل الكثير من المعاني.

اعتدل قليلًا في مكانه واستند على جثة أحد أتباعه وقال محسسًا على رأسه في لا مبالاة:

- هي بقت كدا؟.. ماشي!. بس ماتفرحش بيها، أنا عمري ما حسيت بنفسي وأنا باخد حاجة مش بتاعتي.. الدناوة – الدناوة – مافيش أسهل منها.

ثم التقط أنفاسه اللاهثة وأردف بصعوبة:

- انت غلطت غلطة كبيرة.. دا حتى اللي بيتشاقوا فيه بينهم حاجة نضيفة.. صدقني!. مسيره هيعرف.. «قدورة» هيعرف ومش هيسيبك.. كان دايمًا بيقول: اللي يعور زميله في الكار.. يبقى بذرة وسخة.

قالها وبصق دمًا بتأفف.

توقف الغامض عن العبث في جيوب صديقه ورفع رأسه قليلًا كمن تذكر شيئًا، كانت ملامحه شديدة الجاذبية والقسوة، يخفي نصفها وشم كثيف قد خبأه شعره الطويل، وشم غطى نصف وجهه الأيمن تمامًا حتى عينيه، كان على شكل لسان وحش أو تنين بلونه الأخضر القاتم، تخرج منه نار تصاعدت حتى وصلت لعينه اليمنى.

رد بصوت خافت لا يخلو من الثقة:

- بس دا مايمنعش إن الحياة كانت أجمل لما داروِن قال البقاء للأوسخ.

ثم أشاح بنظره تجاه «هربانة» المصاب بشدة مزيحًا شعره لينير القمر نصف وجهه المظلم، اتسعت عيناه عندما رأى وجهه مكتملًا وكأنه قد رأى ملك الموت..

ابتسم الدخيل نصف المشوه وأضاف ساخرًا محركًا خصال شعره خلف أذنه:

- ماتبصش لنص الكباية المليان!

قالها ليتقدم من خلفه رجلان أحدهما ضخم الجثة والآخر ذو عينين ضيقتين يمتلك شعرًا أشيب ككيس قطن مصري طويل التيلة على الرغم من أنه لم يتجاوز عقده الثالث بعد، لم يكونا سوى «جابر» و«كوري» اللذين وقفا مستعدين لأي أمر من سيدهما الجديد، قام الأسود واثقًا ليقوم «هربانة» بدوره من على الأرض ويتراجع مترنحًا للوراء في حركة دفاعية قائلًا:

- انت مستحيل تكون هو!

رد عليه الشاب متقدمًا بضع خطوات تجاهه متجاهلًا كلماته ومشيرًا لمساعديه:

- جت في بالك قبل كده فكرة إن القدر يعاملك معاملة مميزة؟ خدني مثال!. يضيع مني منصور، أكسب مكانه إتنين.. خربش وإكسب!

- انت فاكر نفسك هتخش عليا بالحركتين دول! انت اشتغالة مش أكتر!. خدعة.

أخرج الشاب قطة صغيرة سوداء من كم معطفه ثم استطرد:

- في خدع كتير حقيقية.

تركها تنزل على الأرض وتكشر عن أنيابها صارخة في وجه «هربانة» الذي أفزعه الأمر لثانية، في حين أكمل الشاب:

- بالمناسبة..هو أنا وريتك آخر خدعة عملتها؟!

أضاف مقتربًا:

- هي نفس فكرة القطة.

قاوم هربانة ليقوم رغم جرحه الغائر ثم تراجع مترنحًا ليصطدم ظهره بقبر، تملكه الذعر ليستل من جيب سري في قدمه سكينًا آخر صغير الحجم، حاول أن يخفيه مستعدًا للهجوم، أضاف الدخيل مجددًا من دون أن ينظر إليه سارحًا في كم معطفه:

- أنا سميتها (القط الخفاش)، حاول تركز في الكم!.اتفقنا!.ممم واحد!.. اتنين!.هابرا...

قالها وبسط أصابعه ثم..

لم يخرج شيء، نظر ليده منزعجًا ثم مرة أخرى لـ«هربانة» الذي ترقبه في رعب ثم اتخذ قراره بالهجوم بعدما فشل في السيطرة على هدوئه، تجاهل الغامض هجومه وصرخته المدوية وحاول مجددًا عمل الخدعة

التي تحدث عنها، قبض يده وفتحها مرة أخرى في اللحظة التي هرع فيها «هربانة» نحوه، طار من ساعده شيء استقر في صدر الأخير والذي تجمد للحظة مشاهدًا الدماء تنفجر من صدره كالبركان.

قال متعجبًا:

- أوبس!

ثم أضاف:

- أسف! دي ماكانتش المقصودة..دي خدعة السهم المستخبي.

أشار له بسبابته مضيفًا:

- عمومًا.

وأمسك بفروة رأسه الكثيفة جاذبًا رأسه للوراء بعدما سقط على ركبتيه ليردف:

- ماتاخدش الموضوع على صدرك المرة الجاية! دي مجرد بنت.

رمقه الأخير بنظرة ذعر مترددة..ثم سقط في بركة من دمائه مرددًا شيئًا عن انتقام «قدورة»، انتهت كلماته بجملة واحدة:

- انت... الشيطان!!

تمتم بها محتضرًا ليرد عليه الأسود محركًا رأسه في نفي واضح بعدما نزل على ركبتيه وشده من ياقتي قميصه:

- أسوأ..

تعلقت أنظار «هربانة» المحتضر بوجه الشاب، نظر للوشم بذعر كأنه يرى فيه كل قصص الرعب، لفظ نفسه الأخير، ثم هب الشاب واقفًا ليستدير وينظر إلى المشاهدين من جيشه، بسط ذراعيه القاتمين كغراب شعر برغبة في التحليق في العدم، ثم ابتسم ابتسامة مسرحية مخرجًا زفيرًا قصيرًا مضيفًا:

- أهلا بيكم في فقرة الساحر..

و حرك رأسه مرتين بزهو.

* * *

(11)

اهتزت زجاجة مياه مستقرة على سطح السفرة وتمايلت يمينًا ويسارًا قبل أن تستقر عندما قال يوسف مخاطبًا نفسه: «الأرقام!».

كان ذلك الاهتزاز بسبب لكمة غاضبة من قبضته صدمت السفرة معلنة نهاية فترة من الصمت طويل، نصف ساعة باردة من التفكير مرت كالدهر، رأى فيها كل شيء، بداية من الجثة المشوهة مرورًا بلحظة معرفته المشؤومة بـ«راندا» في تلك الليلة، حتى اللحظة المميتة الحالية، تمعن في يده المرتعشة التي بدت وكأنها تخص مريضًا بمتلازمة باركينسون، ترك الصور الفوتوجرافية من يده وقصد غرفته نصف المظلمة، ارتدى قميصًا قطنيًا وفوقه جاكيت جلدي قديم وحذاء غير ملائم، تأكد من ربطه جيدًا قبل أن يشعر بشيء ما..

اقترب من الدولاب ببطء كأنه يسير على زجاج مكسور، لمس مقبضه الخشبي بهدوء، جذبه بعنف.. و...

لا شيء، لا يوجد شيء بالداخل غير طبيعي، هم بالبحث خلف باب حجرته المفتوح، جذبه بسرعة، و.. نفس النتيجة..

حصل على شهيق أكثر عمقًا مما يحصل عليه سباح المائة متر قبل القفزة الأولى، ثم تركه يخرج في صمت.

- كل ده ما بيحصلش.. همس بها لنفسه، ثم توجه ناحية سريره وترك جسده يسقط سقوطًا حرًّا مسترجعًا كل ماحدث: الاستوديو مرورًا بالمخرج ذي الصوت المفزع وراندا والمصور وعامل الإضاءة ذي الشعر الطويل والـ«توكه» ويارا قاسم، الأميرة المحاربة ذات المزاج الحاد، ثم سلم على أخيه الذي افتقده منذ فترة وقدم له بعض الطعام ولكنه رفض تناول أي شيء وظل صامتًا والدش الساخن وسيزار يستيقظ على صوت باب المنزل عندما انغلق والمظروف الأصفر والصور الغريبة ذات اللون الأبيض والأسود و..

ثلاث صدمات متتالية كطلقات المدفع، نزعته من نوم عميق انتصر عليه، لم تكن سوى ثلاث دقات علي الباب.. وبدت كأنها ليست أول ثلاث دقات، استيقظ يوسف من غفوته التي لم يشعر بها إلا بعد أن أيقظه الباب، لقد غفا لدقائق من التعب دون أن يشعر، رأى فيها كثيرًا من الواقع وعكسه، كانت المرة الأولى التي يلامس فيها جسده ذلك السرير منذ ثلاثة أيام، قام مسرعًا ومسح خيطًا صغيرًا من اللعاب عن جانب فمه، ثم توجه لباب البيت ونظر من عين الباب ليرى صديقيه ينتظران في الخارج وقد ملأهما الملل من كثرة الانتظار حتى قالها مؤمن:

- شكله مشي...

رد عليه معاذ واثقًا :

- مستحيل يكون مشي، العربية مركونة.....

فتح يوسف الباب ليصطدم الاثنان بوجهه الشاحب، ترك الباب مفتوحًا وقصد يسار الصالة، ثم جلس أمام السفرة نفسها، أغلق مؤمن الباب خلفه ودخل معاذ متفحصًا المكان بعينيه، حاول تجنب سيزار الذي حاول بدوره التقرب منه ولكنه- أي معاذ- أبعده بحذائه في ضيق ليرد عليه سيزار بنبحة غاضبة.

- مالك؟.. شفت عفريت..!

قالها مؤمن منتقدًا رد فعل معاذ.

- أصلها مش ناقصة نجاسة يعني..

- فعلًا ؟!! وبالنسبة للنسوان اللي بايت في حضنها كل يوم والتاني دول إيه بركة؟!..بلا نيلة.

قالها مؤمن مربتًا على رأس سيزار الذي استبشر كثيرًا برد فعله وحرك ذيله متحفزًا، تجاهله معاذ بعدما رمقه بنظرة نارية وقصد الصالة المستكين بها يوسف.

كان الأخير متجمدًا يحدث الصمت على السفرة، وأمامه الصور بعدما وزعها بهدوء كعرافة تبحث عن نبوءة سوداء في أوراق الكوتشينة.

اقترب منه مؤمن مستفسرًا:

- إيه اللي حصل يا يوسف؟

- إيه الصور دي؟

علق معاذ بدهشة، ليلتقط مؤمن إحدى الصور ويعلق:

- غريبة!

ظهر بالصورة رجل في نهاية العشرينيات ملقى على الأرض يرتدي ملابسه كاملة ويبدو فاقدًا للوعي، تركها ثم التقط صورة أخرى للشخص نفسه بدون أي ملابس من نصفه العلوي في غرفة خالية تمامًا من الأثاث، كان هو المكان نفسه الذي حضر فيه تلك الجريمة البشعة منذ أسبوعين، جريمة المرج.

فاتت ربع دقيقة صامتة تفحص فيها مؤمن بضعة صور من التي أمامه، وأخيرًا التقط إحداها وتفحصها بتمعن.

- مين صورها؟!

علق معاذ

- اللي قتله.

رد مؤمن قاضمًا أسفل شفته، محدقًا بعينين لامعتين لم تغادرا تلك الصورة، كانت ليد تحمل خنجرًا غريب الشكل وكبير الحجم، حجريًّا - ذا مقبض مميز - وبه العديد من الكتابات بلغة غريبة للغاية، ليجد بعد ذلك صورة أخرى لنفس الخنجر وهو مغطى بدم داكن، وصورة أخرى لوجه الضحية عن قرب قبل أن تحاك جفونه وأخرى بعد حياكتهما، أضاف معاذ متأففًا:

-إيه القرف ده؟أنا مش فاهم حاجة.

استقر مؤمن في الكرسي المجاور ليوسف، الذي نظر بدوره ناحيته بالصدمة نفسها، رفع يوسف كفيه الموضوعتين أمامه لتظهر صورة

تحتهما، حركها بهدوء بأطراف أصابعه ناحية مؤمن الذي التقطها في ترقب، ازدادت عيناه صدمة بعدما تفحصها، ثم نظر ليوسف المتجمد مجددًا وعلق في صدمة:

- كان جنبك!

ثم أمسك بالصورة الأخرى من تحت يد يوسف مضيفًا:

- مستحيل!

- جنبه فين؟ وريني الصورة دي.

جذب معاذ -الواقف بجانب الكرسي الجالس عليه مؤمن- الصورة من يده، ثم أضاف:

- إيه ده؟ ده انت! الصورة دي جوه الاستوديو.. يعني إيه؟!

حدق مؤمن في صورة أخرى ليوسف ظهر بها وبجانبه يارا قاسم ثم قال بصوت خافت به كثير من خيبة الأمل:

- كان بيراقبك طول الوقت.

-أنا شتمته!

-شتمت مين؟!

- المقالة..

قالها لنفسه في صدمة.

-انت اتجننت؟!

صاح بها معاذ.

- قولت انه شيطان مريض.

صمت لثانيتين ثم أردف:

- بيغير قواعد اللعبة، المجرم هو اللي يلاقي المحقق.. هيقتلني.

- طبعًا، أمال انت منتظر إيه؟ يبعتلك ورد يعني ويقولك خلينا صحاب أحسن؟ انت مجنون؟!

-إهدى يا معاذ عشان نعرف نفكر.

قالها مؤمن متأثرًا.

-أهدى إيه يا عم الحج، واحد فاكرلي نفسه المفتش العالمي وهيودي روحه في داهية وتقولي اهدى.

-اهدى يا أخي عشان نعرف نفكر!. الله!! لو مش قادر تمسك نفسك امشي وسيبنا يا أخي.

صاح بها مؤمن منفجرًا كالزلزال.

- ماشي.. أديني هديت، اتفضل حلها انت، أما نشوف إزاي هنخرج من مقلب الزبالة اللي إحنا فيه ده.

تجاهل يوسف انفعاله، وتابع من دون أن تتحرك عيناه بنفس الصوت الهادئ كأنه يحدث نفسه ليتذكر تفاصيل ما حدث:

- كنت باخد دش، طلعت لقيت الظرف ده على الأرض.. فيه الصور والشريط.

- شريط إيه؟.. جاب مفتاح الشقة منين؟

علق مؤمن ليرد عليه يوسف بنظرة صامتة، ثم اتجه بنظره المشتت ناحية الكاسيت القديم.

هرول مؤمن من مكانه متجهًا ناحية الكاسيت في صمت وجلس مرتكزًا على ركبتيه ليضيف معاذ متعجبًا:

– شريط كاسيت؟ فيه حد لسه بيستخدم شرايط كاسيت؟!

ضغط مؤمن على زر التشغيل متجاهلًا تساؤلات صديقه المزعج ومرت بضع ثوان لم يحدث فيها شيء إلى أن بدأ صوت ما في الخروج، متلعثمًا كصوت شريط رديء الجودة استهلكه الزمن، يجاهد ليخرج بعض الموسيقى، ثم بدأ صوت الموسيقى في التماسك ليتضح الصوت تدريجيًّا ويشدو صوت ناعم وعذب للغاية:

– بحلم معاك بسفينة وبموجه ترسينا.. ونبحر تاني، الريح تعاند وألاقيك في عنيك وإديك.. شطي وأماني.. العالم كله بأسراره.. عايش ويايا.. عايش جوايا.. طول ما انت في الرحلة معايا.

-أغنية؟!!

-أكيد فيه حاجة في الشريط ده.

قالها مؤمن بعد انتهاء الأغنية، ثم قام بتكبير الصوت وضغط على زر التسريع وأعاد الضغط مجددًا على زر التشغيل، لكن لم يرد عليه المسجل القديم، كرر الأمر بضع مرات بحثًا عن أي شيء غير طبيعي ولكن النتيجة كانت واحدة.

-يعني إيه؟! قتال قتلة يبعتلك أغنية في شريط، عاوز يقول إيه يعني بأغنية؟.. ده هبل رسمي!

-هناخد الشريط مع الصور لجاكلين، لازم ندور على بصمات غير بصماتنا، أو أي حاجة جوه الشريط.

-و يوسف؟

-معانا طبعًا.. مش هتقعد لوحدك بعد كده.

- أنا هدف سهل..هيقدر يوصلي..

ثم أشاح بنظره للصديقين كأنه توصل لنتيجة ما مضيفًا: «مسألة وقت..».

-مش هيوصلك.

-بجد؟ هتمنعه إزاي يا باشا؟

قالها معاذ متهكمًا.

-هنوصله إحنا الأول.

قالها مؤمن في تحد واضح محدقًا في وجه معاذ الذي صدمه الرد، لم ينطق بأي شيء، وكذلك يوسف لم يعلق هو الآخر، ولكن انطلق مع أصدقائه في رحلة وجب فيها محاربة المجهول.. والذهاب إليه.

* * *

(12)

اصطدم رامي فارس في صباح اليوم التالي برؤية الدكتور جاكلين تمر مسرعة كعادتها في الممر الدور الأول لمصلحة الطب الشرعي بالسيدة زينب، ابتلع ريقه كمن رأى عفريتًا في وضح النهار، تظاهر بالتماسك ورسم ابتسامة مصطنعة على وجهه الأبيض السمين، توجه لتحيتها داعيًا الله ألا تطلق عليه النار من فمها الضيق، سلمت عليه في طريقها منهمكة في التحدث في هاتفها النقال، تأففت من عامل نظافة ملتحٍ يمسح البلاط القديم وقفزت من فوق الماء المتسخ برشاقة وقالتها بلكنة أمريكية غاضبة لمن يهاتفها

«it's hilarious، Am drowning in a pool of shit here.»

تابعها رامي بعينيه ثم حاول إكمال طريقه للدور الأسفل لكنها أشارت له بإصبعها أن يتبعها من دون أن تلتفت. بالفعل تبعها كالمنوم مغناطيسيًا، لكن عند وصوله لمكتبها المنظم وجدهم جميعًا في انتظاره، مؤمن ويوسف ومعاذ.. وكانت تلك صدمة أخرى.

كان مؤمن ويوسف يقفا جنبًا لجنب، رحب رامي بهما كثيرًا ثم تابع بنظره يوسف لبضع ثوان بعدما جلس في الكرسي المقابل لمعاذ، والذي تفحصه بنظرة متحرشة محركًا فمه ببطء وتلذذ ليشيح بعدها رامي بنظره بعيدًا عن عمد، لم يقاوم أكثر من ذلك لكنه قام من مجلسه وهمس لمؤمن:

- في إيه؟ أنا مش مطمن.

- هتعرف كل حاجه.

أنهت الدكتور جاكلين المكالمة بعدما استقرت على كرسيها الجلدي الكبير ووزعت نظراتها الباردة عليهم بصمت، لفت نظرها جمودهم المريب لتكسر الحاجز الثلجي بقولها:

- سعيكم مشكور!

مرت بضع ثوان وجاءها الرد من مؤمن الذي أطلق زفيرًا عميقًا:

- بعد القعده دي،، ماحدش هيشكرنا.

قالها وأمسك بفنجان قهوته وتوجه به للنافذة متفحصًا الحالة الأمنية للمكان، ثم تجرعه كله مره واحده، لترد جاكلين:

- أوكيه! أنا شامه ريحه مشكله.. قالتها وأشعلت سيجارة رفيعة من علبتها بتلذذ وتابعت:

- مشكلة كبيرة.

- عبد الجليل ناوي يشيلني من القضية، عشان كده اللي هيتقال هنا.. لازم يفضل هنا.

قالها مؤمن بهدوء يحسد عليه

- مش عارفة ليه مش حاسة إنك في موقع يخليك تدي أوامر يا كابتن مؤمن!

- اتفاق مش أوامر..

قالها يوسف مصففًا خصال شعره بتوتر.

- شكرًا على الترجمة.

ردت مشيرة بسيجارتها بسخرية.

- اتفاق إيه وترجمة إيه مش فاهم؟

علق معاذ.

- خليني أخمن، انت مساعد الجورنالجي.. صح؟

قالتها بعينين ضيقتين بعد تفكير عميق.

- معاذ ضابط جيش.

قالها مؤمن ببرود وعاد ببصره للنافذة.

- لو مافيش مانع.

أضاف معاذ بفتور ووجه مستفز

- Sorry!، شكلك.. I mean،، حصل خير!.. ازيك؟

- أنا تمام.. إيه الأخبار؟

- قالها معاذ بوجه مبتسم ونبرة صوت ساخرة تعبيرًا عن سخطه، تجاهلت جاكلين رد فعله وردت:

- الأخبار عندكم انتوا.

مرت بضع ثوان من الصمت قاطعها مؤمن:

- إيه اللي خلاكي متأكدة إن معانا أخبار؟

- مؤمن! ماتقنعنيش إن الباور رينجرز اتجمعوا في مكتبي صدفة.

-إحنا محتاجين مساعدتك، بخصوص حادثة المرج.

قالها مؤمن.

- بالنسبة لحادثة المرج، كل حاجة هتتكتب في التقرير اللي هيتبعت لعبد الجليل بيه.. مافيش جديد لحد دلوقتي.

ردت بلهجة رسمية متخلصة من بعض رماد سيجارتها في طبق صغير، ثم أطلقت سحابة دخانية كبيرة، ورمقت يوسف بتمعن قائلة:

- أنا قريت المقالة بتاعتك!

هز يوسف رأسه موافقًا في صمت.

-إحنا هنا عشان فيه جديد.

قالها مؤمن بثقة

- Wow..زمان كنت بفتكر إن الجديد عندي أنا بس..

قالتها مبتسمة لتظهر التجاعيد بكثرة حول فمها الدقيق.

أشعل مؤمن سيجارة متأملًا الحي نصف المهدم الملقى فيه مصلحة الطب الشرعي ليضيف:

- اعتبريه عندك.

تفحصت يوسف مطلقة سحابة جديدة وأضافت:

- شكله يوم طويل.

تنفس مؤمن من سيجارته، ثم حرك لسانه داخل فمه وألقى بسيجارته من الشباك مستخدمًا إصبعه الوسطى كمقلاع، دس يده أسفل «جاكيت» البدلة التي يردتيها، أخرج ظرفًا أصفر كبيرًا، ثم اقترب منها وألقاه أمامها على المكتب مضيفًا:

- أطول من أي يوم شوفتيه.

تفحصته جاكلين بعينيها مصطنعة عدم الاهتمام، ثم لمست إطار نظارتها الطبية الكبيرة بإصبعها الخنصر.. ومطت شفتيها وحاجبها الأيسر إعجابًا.

مرت دقيقة من الصمت، أمسكت بعدها جاكلين الظرف بمنديل ورقي رقيق وقلبته مرتين في هدوء، فتحته وأفرغت محتوياته على المكتب بسلاسة وهدوء شديدين، ثم قالتها قبل أن ترى المحتوى:

- بعتلك الرسالة دي إمتى يا يوسف؟

- عرفتي إزاي انه...

قالها يوسف متوترًا.

- عرفت..وعرفت كمان انه هوه نفس الشخص اللي بعت الرسالة بتاعة المرج.. أو اللي.. كلمك في البرنامج.

- كلمه في البرنامج؟

أعادها معاذ مصدومًا

- أوه! ده مايعرفش.

قالتها مندهشة وهي تقلب مقلتها في الصور بعناية، مستخدمة عدستها المكبرة المعلقة بذراع بلاستيكي كبير.

-إيه اللي حصل في البرنامج؟

سأل مؤمن يوسف.

- اتصل بيه واحد..قال عن نفسه انه القاتل.

رد رامي بحرج.

- وماقولتلناش ليه يعني؟

سأل معاذ بغضب.

- إزاي تحصل حاجة زي كده وما...؟!!

قالها مؤمن منفجرًا ثم تمالك أعصابه وقالها بلهجة أقل حدة بعد أن حدق به الجميع:

- وإزاي تحصل حاجة زي كده وماتقوليش؟

- يمكن افتكرها خدعة.

قالتها وعادت بعينها للصور مجددًا معتصرة عينها اليمنى خلف العدسة، ليرد يوسف بوجه حاد:

- ما كانتش هتفرق لو قولت.. المهم انه حصل.

مرت دقيقة بعدها نظرت ليوسف عاقدة حاجبيها، ثم عادت ببصرها مجددًا للصور لتضيف بعدما لفتت نظرها إحدى الصور:

- مش ده البرنامج بتاع يارا قاسم؟

-..اتصل من جوه الاستوديو.

قالها يوسف مفسرًا.

-عارفة.

- يعني كل اللي في بالنا صح؟

أضاف مؤمن.

- صح، بس السؤال: ليه؟

علقت جاكلين ليعقب معاذ بغضب:

- الباشا اتكلم عن القاتل في العمود بتاع الجرنال، و...

- وإيه؟

قالتها من دون أن تشيح بنظرها عن الصورة.

- جاكلين!..انتي عارفة كل حاجة.

رد يوسف متفحصًا جاكلين بنظرة ثابتة.

- Sick devil ha?!

- بالظبط.. وأنا دلوقتي على الليسته.

- لسه ماحدش جاوبني على سؤالي.. انتوا هنا ليه؟

- محتاجين خيط نبدأ منه.. لازم نوصله الأول.

رد مؤمن

- ومين قالك إننا لقينا حاجة في المرج؟ انت عارف إننا مالقيناش حاجة.

- متأكدة؟

سألها مؤمن مستنكرًا.

- هعتبر نفسي ماسمعتش سؤالك.. وعمومًا لسه كل حاجة مجرد احتمال، مش ممكن يكون حد تاني غير القاتل، مش يمكن حد...

قالتها جاكلين وهي تقلب في الصور ثم تجمدت كالتي أصيبت بطلق ناري في رأسها عندما شاهدت صورة القتيل قبل وبعد عملية القتل الوحشية، صرخت في فزع:

- «Jesus Christ!»

تركت السيجارة في الطبق الكريستالي وقامت بتقليب بقية الصور في سرعة ثم نظرت لمؤمن ويوسف قائلة بصوت به كثير من الصدمة:

- دي ال«Cadiver» اللي أنا شيكت عليها!

حرك مؤمن رأسه إيجابًا لتضيف بنفس الهلع:

- ده مصوره قبل ما.. God!

قالتها ثم نظرت ليوسف بعدما تركت الصور أمامها ليضيف:

- أظن دلوقتي واضح إحنا قد إيه محتاجين خيط!

حصلت جاكلين علي نفس عميق وأطلقته بعينين مغلقتين، كان يبدو عليها الانزعاج لأول مرة، قالت بلهجة أكثر هدوءًا:

- أنا ماعنديش أي حاجة نبدأ منها..إحنا - فعلًا - مالقيناش حاجة في مصنع الملابس.

- والحل؟

تساءل معاذ لتجيبه جاكلين:

- متهيألي مافيش قدامنا غير إننا ندور احنا على الخيط.

- بمعنى؟

قالها مؤمن.

- لو مافيش فرص نخلق فرص..ده الحل الوحيد،أنا هحتاج فريق عمل 24 ساعة وماينامش، ده غير خط اتصال مباشر مفتوح بيني وبينه، فريق فيه حد من الطب الشرعي أنا بثق فيه وحد من المباحث عشان الحماية.. وكمان ناس تساعدهم.

- بس عشان نعمل الكلام ده رسمي هنحتاج واسطة.

علق مؤمن

- مش هيبقى رسمي، لو مشينا في جو الروتين مش هعرف أنفذ اللي في دماغي.. حياة يوسف في خطر، لازم نفكر في النقطة دي كويس!

- يا دكتور إحنا في مصر مش في أمريكا، هنجيب الفريق ده منين يعني؟!..إحنا محتاجين حلول عملية.

- مش هنروح بعيد..

قالتها وحصلت على جرعة نيكوتين جديدة ثم أضافت:

- انتو الفريق، المهم إننا نجمع معلومات على قد ما نقدر في أسرع وقت، ولازم -علي الأقل- يكون فيه أكتر من ظابط أو حد بيعرف يضرب نار زي مهند كده.

قالتها مشيرة لمعاذ، فيما تدخل معاذ محتدًّا:

- اسمي «معاذ»..

- Yea !.. sure!. المهم إن الفريق يتأمن.

- بس أناماينفعش آخد أوامر منك.

علق مؤمن.

- بس ده لحماية صاحبك.

- لو على الحماية، أنا هعرف إزاي أحميه لوحدي.

- أنا مش محتاج أي حماية.

قالها يوسف بحدة.

- Come on!فكر من غير عواطف يا يوسف..و نفس الكلام للباشا!

- الكلام ده نظري!.. الحماية الكاملة مستحيلة، مافيش هدف يستحيل الوصول إليه.

- ماشي يا يوسف، يبقى ربنا معاكو، أشوفكو قريب على خير يا شباب.

قالتها بعدما أطفأت السيجارة، ثم همت بالقيام قابضة على كوب كبير من القهوة سهت عنه.

- واضح إننا جينا المكان الغلط. قالها مؤمن رامقًا إياها بنظرة نارية، لترد باستهتار مرتشفة قهوتها:

- هنختبر الجملة دي بعدين.

– وافرضوا عملنا كل ده وبردو ماعرفناش نمسكه قبل ما يوصل ليوسف؟ مش يمكن يقرر يقتلنا عشان واقفين قصاده، يبقى ساعتها كلنا خسرنا حياتنا عشان محاولة فاشلة! قالها معاذ مستفسرًا.

– هي دي الروح الإيجابية اللي دايمًا بتكلم عنها.

قالتها ساخرة مشيرة إليه بكوب القهوة الكبير.

– جدع يلا يا خـ(..)ل!

علق مؤمن بخيبة أمل شديدة.

– يا عم أنا بقول افرض، أنا مابقولش نرميه في الشارع ونتخلى عنه، أنا بقول ان في حل تاني أحسن من موضوع الحماية ده.

– معاذ بيتكلم عن ا.. احتمال.. ممكن يا مؤمن باشا.

قالها رامي بتردد شديد.

– يعني انت عايز إيه مش فاهم؟

ألقاها مؤمن لمعاذ بحدة.

– أنا بقول يوسف يختفي عن العيون شهرين لحد ما السفاح ده يتقفش، وخلصت الليلة على كده، وترجع الميه لمجاريها.

– معاذ عنده حق.

أضاف يوسف ليرد مؤمن متعجبًا:

– انت بتقول إيه؟!

- لو فضلت في مكاني، هتعرضوا حياتكم وشغلكم للخطر، والنتيجة مش هتكون مضمونة، زي ما قولت.. مافيش هدف يصعب الوصول إليه، ماحدش يقدر يوقف راجل مافيش حدود لطموحه.

- انت إتجننت؟ عايزنا نسيبك لوحدك عشان ابن الوسـ(..) ده يقتلك؟ سواء هنشتغل مع الدكتور أو من غيرها ماحدش هنا هينام قبل ما نجيب الواد ده.. ماقدمناش حل تاني.

- لأ في.

قالها يوسف بثقة ثم نظر لمؤمن مسطردًا:

- أسيب البلد.

- عين العقل يا صاحبي.

علق معاذ بوجه مستبشر

- يوسف!، فكر صح للحظة واحدة! افرض إنه.. سافر وراك، ده شخص مجنون وانت بنفسك قولت إن ماعندوش حدود.

قالها مؤمن مشيرًا بسبابته في وجه يوسف.

- ماعتقدش انه هيسافر وراه.. مستحيل طبعًا.

علق معاذ مستنكرًا.

- اقتراح مش وحش، بس فيه مشكلة.

قالتها بعدما جلست مرة أخرى على كرسيها الجلدي واضعة الكوب الكبير على سطح المكتب وتابعت:

- «The Cooling off period»

- النبي عربي يا دكتوره الله يكرمك.

قالها معاذ بعفوية ناسيًا أن الدكتور ليس لها نبي عربي، أطلقت جاكلين زفيرًا ماطة شفتيها في حنق، ثم أغمضت عينيها لثوانٍ وهزت رأسها يمينًا ويسارًا في حركة معناها «لا فائدة»، أشعلت سيجارة ثالثة، وأكملت:

- في حاجة عند القتلة المتسلسلين اسمها فترة الكمون.. بتبقى بين كل جريمة والتانية.

- ما بين أسبوعين لشهر.. تزيد أو تقل.

أضافها يوسف مصححًا.

- بالظبط! فترة شبه كده الوقت اللي مابين الغدا والعشا، المجرم مابيقومش بأي عمل إجرامي فيها.

- وإيه المشكلة!

استفسر مؤمن.

- المشكلة إن السفر ده عقبال ما يتم هيكون فيه على الأقل أسبوعين تلاتة لحد مايعرف رايح فين، على مشاوير للسفارة على فلوس على تأشيرة، والجريمة اللي فاتت فات عليها أكتر من عشر تيام، يعني ممكن جدًّا يحصل حاجة قبل ما يسافر.

- احتمال حقيقي.

قالها يوسف بتأمل.

- مؤمن عنده شاليه فاضي في الإسكندريه..

أشار معاذ لمؤمن.

-حل كويس!. بس بردو مش أمان 100٪.

علقت جاكلين، ليرد يوسف بثقة:

-.. أنا هتصرف.

تنهد مؤمن بصعوبة بعدما صمت طويلًا، ثم أضاف:

- مش عارف، عمومًا لو لازم تستخبى.. يبقى ماقدمناش غير شاليه الإسكندرية فعلًا، واهو تغير فيه جو لحد ما ربنا يريد ونجيبه.

بدا أن مؤمن قد استسلم للفكرة أخيرًا، حرك يوسف رأسه إيجابًا متفهمًا ببطء، رمقت جاكلين يوسف نظرة بها بعض الشفقه وأضافت:

- ربنا معاك!

- ماتقلقش يا يوسف! أسبوع أو اتنين بالكتير، وأوعدك إني هتصل بيك قبل كده كمان وهنكون جيبناه.. اعتبرهم ترفيه عن نفسك وهترجع تلاقي الدنيا أحسن من الأول.

ابتسم يوسف نصف ابتسامة محاولًا تصديق حماس صديقه، وأوحى له بموافقته على كلامه الذي بدا متفائلًا للغاية، وكأنه يريد أن يقول له ردًا على تفاؤله:

- طبعًا سوف تقبض على القاتل في أقل من شهر وتأخذ ميدالية وسأعود كأن شيئًا لم يكن، وربما أيضًا أقابل في الإسكندرية فتاة أحلامي والوظيفة التي كنت أتخيلها في أحلام اليقظة، تمامًا كنهاية فيلم عربي في بداية الخمسينيات حينما يقبض البوليس على الأشرار جميعًا ويتوب المذنب ويتزوج الحبيب من بنت الحلال الجميلة من دون خسائر.

ولكن شيئًا ما جعل يوسف يرغب في تصديق مؤمن، ربما غريزة الحياة.. ربما الأمل في البقاء.. وربما..لم يصدقه.

* * *

(13)

انطلقت الميتسوبيشي الغاضبة تشق غبار الدائري لنصفين، متوجهة كالسهم المتحفز تجاه شقة يوسف الواقعة على بعد ساعة من مصلحة الطب الشرعي، بسط خلالها الصمت سيطرته المطلقة على الثلاثة، سرح معاذ في محادثة ساخنة مع إحدى صديقاته اللاتي لا حصر لهن، بينما حاول مؤمن البحث عن أي شيء قد يعطل تفكيره في الراديو، في حين استندت رأس يوسف على زجاج السيارة الأسود وتحركت مقلتاه قليلًا وهو يراقب أعمدة الإنارة كالطفل الصغير.

- فك يابني مش نهاية العالم..!

قالها مؤمن الذي وضحت عيناه الحادتان من خلال مرآة السيارة.

- بتقول إيه؟

- بقولك روق يعني.. هتعدي على خير.

قابلها يوسف بهز رأسه بالإيجاب بصعوبة شديدة جعلت مؤمن يتساءل:

- انت آخر مرة نمت فيها إمتى؟.. شكلك ميت.

- كنت لسه عايز أقولك.

ألقاها معاذ بعدما فرغ من محادثته.

- مش مهم.

قالها بصعوبة واضحة في النطق، ثم عاد بنظرة ليشاهد عواميد النور المتسارعة كأنه يبحث عن شيء ما، يرسم دوائره التخيلية على كل ما يلحظه في الطريق، في حين خلد معاذ لنوم عمبق.

تابع مؤمن:

- أول حاجة تعملها لما توصل الإسكندرية تناااام.. فاهم؟

حرك يوسف رأسه إيجابًا وتابعت عيناه مشاهدتها لأعمدة الإنارة ليقاطعه مؤمن بعد دقيقتين:

- لأ، أنا مش مطمن إني أسيبك لوحدك في الأسكندرية، لازم حد يفضل معاك..

صمت يوسف لثانيتين ثم أجاب بهدوء بعد تفكير:

- ماتقلقش! معايا ده!

أشهر يوسف سلاحه الفضي الذي كان في جيب معطفه، رمقه مؤمن بتعجب، ثم بلع ما تيسر من ريقه مردفًا:

- عندك فكرة عن ضرب النار.

أشار يوسف برأسه إيجابا.

رمقه مؤمن بنظرة طويلة مضطربة.. ثم تابع طريقه..

مرت ثلث ساعة أخرى، أفاق معاذ وأخرج سيجارة وقذفها في فمه ثم أشعلها، أطلق زفيرًا رماديًّا في الهواء، ثم فتح زجاج السيارة ليدخل بعض الهواء وأردف بعدما عاد برأسه للوراء:

- أنا قلبت الحوار في دماغي.. لقيت إن مالوش لازمة جو أفلام الرعب ده، مجرد حته حيوان غاوي شهرة وعمله شوية (باللو) وحب يزاول يوسف شوية، هيتجاب في ظرف يومين تلاتة وشكرًا.

ثم أردف:

- خد يابني!. أشعل.. أشعل الله في جسدك.

قالها معاذ مازحًا مادًّا يده بسيجارة ليوسف الذي نظر إليها بحدة كمن رأى سكينًا.

- إيه ده؟

قالها يوسف ببرود.

- ده حماده ابن خالتي عايز يلعب معاك.. خد هشتكه!

- مابشربش سجاير.

- في الموقف اللي انت فيه ده، لازم! لازم تشرب سجاير، دانا هجيبلك مخدرات كمان.

- انت عارف إني مش محتاج أدخن.

قالها يوسف بوجه حاد متجمد.

- خدها ماتتكسفش! أنا وانت عارفين إنك محتاجها.

- يوسف بيكرهها يا موزه.. انت عارف اللي فيها.

- أنا غلطان إن قلبي عليك يا عم.. إمسك!

قالها معاذ ورمى السيجارة فوق ركبتي يوسف الذي تجاهلها ليعلق مؤمن ساخرًا:

- الراجل قلبه عليك، خايف على صدرك.

- بعدين ينضف..

قالها معاذ مطلقًا ضحكة قصيرة.

فتح يوسف الزجاج المجاور له واعتصر السيجارة في يده لتتفتت في الهواء وسط ذهول معاذ ثم أغلق الزجاج معلقًا:

- كنت محتاجها فعلًا.. خلصت بسرعة.

- إيه الجو ده؟.. كل ده عشان سيجارة؟!

- أنا قولتلك.

تمتم معاذ ببعض عبارات السخط في حين تدخل مؤمن محاولًا تغير دفة الحوار:

- إيه الجديد في الكتيبة؟

- أهو..ولا حاجه.. لسه زي ماهي.

- لسه المسيري بتاعكوا ده ماسكها؟

- هو إحنا عندنا غيره يا «مـو»؟.. الباشا مسيطر سيطرة كاملة الله يصلحهاله، مولعها.. مافيش حاجة ماعملهاش.

- كل دنيا وليها قوانينها.

- القانون الوحيد عندنا اسمه أحمد المسيري، الراجل ده ممشي كل حاجة بالسنتي، وماحدش قادر يفتح بقه معاه.

- وانتو راضيين بكده؟

- يا بني أنا الراعي الرسمي لأحلام المسيري باشا، حرق الله وجهه.

- ههههه.. وانت معاه.

- وأنا مالي يا عم، أنا بنفذ.

- جدع يلا!

مرت بضع دقائق آثر فيها يوسف الصمت حتى اقتربت المتسوبيشي من منزله، بعدها شرح مؤمن كل شيء ليوسف، كان الاتفاق بسيطًا:

(أحضر أغراضك لأنه لا مجال للعيش وحيدًا بعد الآن حتى ميعاد السفر، أو - كما يعتقد مؤمن- القبض على القاتل)

* * *

(14)

بدت كثعبان كوبرا يغير جلدته القديمة في صمت بعد موسم تزاوج غير ناجح، تلك السيجارة المشتعلة حتى نهايتها، سيجارة ملقاة لم تحصل بعد على قبلة فرنسية عميقة من شفتي الدكتور جاكلين ذات التجاعيد، تجاعيد تشبه في تجمعها حول فمها أشعة شمس مرسومة بمسطرة طفل صغير في حصة رسم، تمتمت ببضع الشتائم في هدوء ثم تذكرت السيجارة المحتضرة وأعطتها قبلة الموت، أطفأتها ثم أكملت سبابها بالإنجليزية، كان الجو يزداد برودة مع الوقت، لقد مرت ساعة ونصف منذ رحيل الجمع وهي لاتزال غارقة في الصور التي تركها لها يوسف تحت تلك العدسة المعلقة، كانت الإضاءة مرتكزة حول مكتبها البسيط الخشبي:

- Nasty, pretty nasty, The son of a bitch!

تفحصت الساعة المشيرة للسابعة مساءً بجانب قهوتها التركية ذات الرائحة النفاذة، لفت نظرها شيء ما فجأة في الصور الكبيرة التي تتفحصها:

- مستحيل!

تمتمت بها مندهشة ثم رفعت سماعة تليفون المكتب، ضغطت بهدوء على بضع الأرقام تحاول تذكرها بصعوبة ثم انتظرت قليلًا حتى أجاب شخص ما لتقولها بصوتها الخشن:

- أيوة يا مؤمن أنا دكتورة جاكلين.

- ازيك يا دكتوره؟.. خير؟

- عايزاك تجيلي المكتب.

- في حاجة حصلت عايزة تقوليهالي؟

-الصور هي اللي هتقولك.

قالتها متمعنة في الصورة محركة إصبعها بنعومة على سطح الصورة كمن يلمس وجه طفل صغير.

- في إيه بالظبط؟!

- هتعرف لما تيجي، وياريت يكون معاك يوسف.

- أنا مش فاهم..إيه المشكلة؟ ماحنا شوفنا الصور!

- هتعرف، بس المهم...

- أنا لازم أقفل دلوقتي حالًا.. هكلمك تاني..

قالها مؤمن مقاطعًا كلماتها مغلقًا الهاتف كأن شيئًا ما حدث، تجمدت جاكلين قليلًا ثم نظرت للسماعة في ذهول كأنها لا تعلم كينونتها، ثم عدلت من وضع نظارتها الكبيرة فوق أنفها الصغير، وضعت السماعة في صمت، ثم أمسكت بسيجارة جديدة وأشعلتها قبل أن ترتشف من القهوة

النفاذة، ألقت بسبة بالإنجليزية ثم رمقت عددًا ملقًى أمامها من جريدة اليوم المصري، مفتوحًا على صفحة الحوادث – عدد يوم الجمعة بتاريخ 15 من سبتمبر من سنة 2010– عمود شهير فوقه صورة شاب في تمام نهاية العقد الثاني من عمره، تعلو وجهه الوسيم ابتسامة واثقة، مكتوب بجانبه بالخط العريض.

(خيوط ودلائل)

«شبحٌ في سيجارة»

جريمة أخرى حيرت الطب الشرعي المصري، ما هو سر مقتل ذلك المهندس المدني بسم غامض؟

مادة الإستكرنين.. Strychnine

لقد رأيت العديد والعديد من الجرائم السادية ومثيلاتها، لكنني لم أر أبدًا شيئًا مماثلًا لذلك.. لمعرفة ما قصدته عن مدى دموية الطريقة المتبعة من القاتل.. أرجح لك عزيزي القارئ أن تقرأ هذا السؤال البسيط:

ماذا ستفعل لو قامت كل عضلات جسدك بالتشنج واحدة تلو الآخر بدءًا من عضلات الوجه والرقبة مرورًا بالجزء السفلي من الجسد.. نهاية بالقلب والحجاب الحاجز؟

دعني أقل لك نبذة بسيطة عن ما مر به الضحية، لقد تجمدت عضلات وجهه وفكه تمامًا، التوت رقبته التي حفر فيها أظافره من الألم لتنفجر منها الدماء، وتحركت قدماه لا إراديًّا عشرات المرات بينما وجهت أصابع قدميه للأسفل حتى اختفت تحت مشطي رجله وكسرت بعضها من شدة

الثني، خرجت من مسامه كمية لا نهائية من العرق البارد وابيضت عيناه وأخذ في التشنج على الأرض مثل المجنون حتى انتهى به الأمر ليختنق حيًّا بعدما تجمدت عضلة الحجاب الحاجز عن العمل بالإضافة للقلب الذي دمر نفسه تلقائيًّا.

نعم، هذا ما حدث ولا تتعجب كثيرًا إنها مادة الإستكرنين.. سم السداه.

وكما كان الإستركنين لغز الجريمة.. كان مفتاح حلها أيضًا، فحينما جاءت نتائج المعمل الجنائي، حلت صدمة على كل من يعمل على تلك القضية في العام 2007، لقد وجدوا السم في دم الضحية وكانت كمية ضئيلة للغاية، حيث إن مادة الإستركنين تختفي تلقائيًّا من الجسد بعد فترة وجيزة.

لم يكن هناك أي أثر لأي نوع من أنواع الحقن لتلك المادة في جسد الضحية، وقد استبعد أيضًا دخول السم عن طريق الطعام أو الشراب بعد فحص أمعائه، إذن كيف دخل ذلك السم إلى دمائه؟ ومن فعلها؟ أيام من الحيرة والبحث، لكن تلك الحيرة لم تمتد كثيرًا، فبعد التأكد أنه قد تم تحضيره معمليًّا، ضاقت دائرة الاشتباه لتجد بنت عمه - صاحبة الأربعة والعشرين ربيعًا - نفسها وحيدة بداخلها، معيدة بكلية العلوم..

أهلًا وسهلًا بالحل:

لقد امتلكت كل الإمكانيات للحصول على مادة الإستركنين المستخدمة في العديد من التجارب المعملية التي يدفع ثمنها فئران

التجارب البائسة، ولكن بقى السر الآخر.. كيف فعلتها؟.. كيف تجرع سمومها من دون أن يشعر؟

هل فكرت مسبقًا في استخدام السجائر كسلاح؟

لقد أخبرتنا الفتاة في تحقيقات النيابة عن حل القضية، قالت إنها بدلت ثلاث سجائر من علبته التي لا يفارقها بأخرى مثلها تمامًا، النوع نفسه، فقط اختلاف بسيط في السجائر الثلاثة، وهو تشبعهم بالإستركنين عن طريق حقنه في الفيلتر.

كان سيجارتان منهما كفيلتين تمامًا أن تجهز على مصارع «سومو» ضخم في ثلاث ساعات، كانت أذكى مما توقعنا، علمت شراهته للسجائر، وعلمت أيضًا مدى نشاطه وتحركه الكثير في يوم واحد، فهو - بحكم عمله كمهندس مدني - لن يستقر في مكان واحد في اليوم نفسه، كانت تعلم أن سلاح الجريمة سيرمي من شباك سيارته الفارهة أو يدهسه بحذائه في موقع بناء ما بعد أن يستخدمه في قتل نفسه تطوعًا.. وقد فعلها.. وفعلتها هي أيضًا.. عقابًا له عن تحرشه بها عندما كانت طفلة صغيرة - على حد قولها.

بعض الأوقات يصبح مفتاح اللغز هو اللغز نفسه، لقد كان تميزها العلمي هو مفتاح الوصول إليها وسقوطها، إضافة إلى السم النادر الذي استخدمته، فغالبية القتلة -من هواة استخدام السجائر في القتل- يفضلون سم السيانيد السهل «نسبيًا» في الحصول عليه، خصوصًا اللذين يعيشون في بلاد يسمح فيها باستخدامه كمبيد للفئران، فهو عملي.. أسهل في

الحصول عليه.. وأقل ألمًا..«هذا لو كان التعرض لأزمة قلبية مميتة وتدمير خلايا المخ شيئًا أقل ألمًا».

كل هذا جعلنا نرجح اسمها.. لكن في كل الأحوال، يطرح السؤال نفسه مجددًا.. من الضحية؟ ومن القاتل؟

حقيقة مازلت أبحث عن إجابة لذلك السؤال في كل كتاب قرأته.. ولكنني لم أجد ردًّا كافيًا له في فلسفة الحياة..

و في النهاية.. يبقى الدرس المستفاد دائمًا..

رسالة واضحة وصريحة لكل المتحرشين جنسيًّا في أي مكان في العالم..

لا تقترب من فتاة لديها ميول كميائية.

يوسف أصلان.

* * *

(15)

تسلل اللون الأحمر ليد يوسف البيضاء عندما فتح باب معمل التحميض الصغير الذي صنعه في تلك الغرفة غير المستخدمة، مشى بهدوء وسط صوره المعلقة كالذبائح، يملأ صدره برائحة خليط كربونات الصوديوم والميتول الموضوع في حوض كبير نسبيًّا، يقطف الصور الجافة ويضعها بهدوء في ملف كبير خاص به، صور للقاهرة في الليل، صورة لبيانو مطعم لا تشانس اللامع وبجانبه كرسي مقلوب!، صورة لنفق مظلم كاد أن يفقد فيه حياته..يصل بين معمل مشؤم ومخزن بارد، وأخرى لرجل في الخمسينيات، نحيف.. يجلس بملابسه المستهلكة وذقنه المكتسية بالبياض، وأخيرًا لملك شطرنج أبيض يقف بين جيش أسود التقطها من قبل مع أبيه الروحي في مستشفى القصر العيني، وضع الملف أمامه على الأرض وجلس يستند بظهره على الحائط السيراميكي البارد، احتضن نفسه بعنف وصمت، نظر لسقف الغرفة لدقيقتين متتاليتين من دون أن تتزحزح قزحيتاه، دفن رأسه بين ركبتية ثم أخذ يحرك جسده يمينًا ويسارًا كأرجوحة بطيئة، ثم فزع وكأنه تذكر شيئًا ما، فتح الملف الذي يحتفظ فيه بكل الصور المهمة وأخذ يقلب حتى رأى صورة كان قد طبعها عن طريق طابعة ملونة بعدما حملها من هاتفه، صورة لخنجر يختفي نصفه في صدر ضحية المرج وعليه بضعة نقوش، قام من مجلسه

وأغلق صنبورًا يقطر ماءً ببطء فوق حوض التحميض، كان الحوض به صورتان متجاورتان بيضاوتان، همَّ بالرحيل لكنه نظر مودعًا لغرفته كأب يشاهد طفله الصغير وهو يلهو على فراش الموت، شيء ما ملأه بشعور أنه لن يرى تلك الغرفة مجددًا.

أطفأ النور وأخرج شنطة أخرى معبأة بكل ما يلزمه من ملابس وبعض مقتنياته المهمة بجانب باب الشقة المفتوح، قصد الصالة ولامست يده البيانو القديم في طريقه ثم ضغط ثلاثة مرات على أصابع البيانو ليطلق نغماته المتقطعة، تركه واتجه ناحية المطبخ محاولًا شرب كوب من الماء ليروي بعض الظمأ الذي تملكه فجأة، رفع مقبض الصنبور فوق الحوض المصنوع من «الإستانلس ستيل» ليجري الماء البارد فوق يده الثابته كالثلج وتسري قشعريرة شديدة بين عروقه.

كان ذلك في اللحظة نفسها التي شاهد فيها مؤمن شابًا نحيفًا شاحب الوجه يلتفت حوله في ترقب، في ثوان قليلة اقترب الشاب المجهول من مدخل البناية التي يقطن بها يوسف، كان على بعد شارعين منه عندما رآه.

- لازم أقفل دلوقتي حالًا.. هكلمك تاني..

قالها في عجلة مغلقًا هاتفه الجوال عندما انتصبت قرون استشعار ضابط المباحث فوق رأسه، معلنة دخول شخص ما ذي شكل مريب لبناية يوسف.

تحرك مؤمن في هدوء قائلًا بصوت حازم:

- كابتن!

تحول المشي لهرولة عندما لم يسمعه الشاب، ثم أكمل مؤمن:

- يابني أنت!

لم يرد وتابع الشاب تجاه الأسانسير لتتحول الهرولة إلى جري بأقصى سرعة، صرخ في الطريق:

- انت ياله!

لكن الشخص لم يسمعه واستقل المصعد في صمت، تفحص مؤمن في هلع الرقم الذاهب إليه المصعد ليجد أسوأ مخاوفه تكتب أمامه.

كان الرقم هو «10»، مكتوبة باللون الأحمر فوق باب المصعد الحديدي، الدور العاشر حيث يسكن يوسف، تحول مؤمن لعداء أوليمبي لم يتعاط سيجارة واحدة في حياته عندما انطلق كالسهم يسابق الوقت والمصعد الذي تفوق عليه بطابقين على الأقل، يتعثر ويسقط أرضًا ويقوم مجددًا، يقفز كالمجنون فوق سلالام البناية الباردة، يمسك في «ضرابزين» السلم ليعطيه بعض القوة للمواصلة.

في اللحظة نفسها كان شخص ما يدخل من الباب المفتوح لشقة يوسف من دون أن يستأذن، اقترب من يوسف الذي تجمد أمام الصنبور مستغرقًا في التفكير في شيء ما، طغى صوت خرير الماء على خطوات ذلك الدخيل، والذي أصبح على بعد خطوات قليلة من يوسف، والذي أفاق من غفوته بعدما أحس أنه ليس بمفرده في بيته، اتسعت قزحيتاه

الرماديتان، أراد أن ينظر خلفه ليرى، لكنه تجمد، تذكر أنه نسي باب الشقة مفتوحًا، لعن بداخله غباءه وتملكه شعور بالندم، لم يلتفت، بل ظل كما هو..منتظرًا قدره..مهما كان نوعه.

* * *

(16)

لم تكن مجرد كأس عصير البرتقال البارد يهبط على زجاج المنضدة المجاورة لتلك الفتاة الشاردة، لكن أقرب لبلطة مزارع أفغاني غاضب على جذع متهتك من شجرة المورينجا، جذع من الأفكار المشتتة في شجرة تسمى «ذهن يارا قاسم»، أفاقت بعدما وضع الساعي العصير بقليل من العنف، سيطرت حركة كثيرة على موقع التصوير، تذكرت أنها تنتظر ميعاد تصوير حلقة جديدة من برنامجها، تفحصت بعينيها المرهقتين شيئًا ما في هاتفها النقال ثم حولته للوضع الصامت حينما قاطعها صوت ناعم تعرفه جيدًا:

- نقول حمد الله عالسلامه؟

- ليه؟!

- شو!. سرحانه بقالك عشر دقايق يا بنتي مش واخدة بالك؟

تنهدت يارا بعدها بعمق ثم هزت رأسها نفيًا مستطردة:

- لا عادي.. أنا بس... مش عارفة يا راندا!

- لا عارفة بس مترددة تقولي، قولي..

- حاسة ان في حاجة غلط، من ساعة التليفون بتاع الحلقة اللي فاتت وأنا...

- يلا يا يارا نجهز!

قاطعهما سمير الشوربجي المخرج بصوته الأجش المميز ثم أضاف:

- قدامنا 10 دقايق يا جماعة!

ألقاها لفريق العمل الذي بدا كخلية نحل لا تكل، في حين عادت راندا للجانب الأيمن من حيز سمير الشوربجي تاركة العنان لعطرها الفرنسي في التغلغل داخل أعماقه، تفحصت الشاشة الصغيرة التي تظهر بها يارا منهمكة في قراءة بعض الأوراق استعدادًا للدخول على الهواء، في حين اقترب منها الماكيير محاولًا إضافة لمسة جمالية للوحة التي لا تخلو من الجمال «الرباني»، شاهدتها راندا على الشاشة غير مهتمة ببضع كلمات الملاطفة من سمير الشوربجي الذي ينتظر فرصة قد وعدته بها كثيرًا، لملمت قبضتها اليمنى لتختفي أظافرها ذات اللون الأخضر بداخلها، اعتصرتها جميعًا حتى اقترب إحداها من اختراق راحة يدها، نظرت لسمير الذي أكمل جملته الأخيرة من سلسلة جمل لم تسمع منها شيئًا كان آخرها:

- وبعدين كوكو وعمرو كمان جايين الساحل، قولتي إيه بقى؟ هتيجي ولا لأ زي المرة اللي فاتت؟

- بيبي!. أنا هطلع أشرب سيجارة عشان مصدعة، لما برجع بنحكي.. أوك؟

خرجت من الاستوديو رامقة صديقتها المنهمكة في القراءة بنظرة تكفي لتحرق نصف الكرة الأرضية، وتبعث الحرارة في النصف الآخر.

قاطع رجل نحيف للغاية سمير في لحظة تأمل لكعب راندا العالي في طريقها للخروج:

– أستاذ سمير! عندنا مشكلة في الإضاءة، هو فين عمر؟ هو أجازة فعلًا زي ما سمعت؟

– بتسألني أنا؟! ما تشوف يا بني آدم عمر فين، جاي تقولي قبل الهوا بسبع دقايق؟!

– مانا سألت عليه يسري قالي أخد أجازة، والواد الجديد ده هيشتغل مكانه.

–أنهي جديد؟الواد أبو ضفيرة ده؟

– أه، اللي كان معانا الحلقة اللي فاتت.

– وانت جاي تسألني أنا يا محمد؟! مانت اللي متنيل جايبه يا بني.

– أنا ماجيبتش حد يا أستاذ!

– إزاي يعني؟! أنا لما سألته قالي محمد جايبني عشان أساعد عمر.

– والله ما جيبت حد يا أستاذ وحياة أمي.

– أمال جاي يعمل إيه؟

في حاجة اتسرقت ولا حاجه؟!

– لا أبدًا، ولا أي حاجه.

- ازاي يعني؟ الواد ده كان هنا بيهبب إيه؟!

- حاجة تحير والله يا أستاذ.

سكت سمير لبرهة ثم أكمل:

- طيب.. خلاص مش وقته،روح دلوقتي، وأنا هكلم كريم ييجي يشوف المشكلة دي.

أخرج هاتفه النقال باحثًا عن رقم ما في قائمة الاتصال السريع، ثم توقف لبرهة مفكرًا وتمتم بكلمة ما بحنق، لفت نظره شيء ما أصفر اللون ملقى أسفل الكاميرا، اتجه بهدوء ناحيته، بدا وكأنه مظروف أصفر اللون كتب عليه بقلم داكن: «افتح الظرف!»، التقفه وتردد لثانيتين.. ثم قطع رأس المظروف عرضيًّا ليجد بداخله عدة كروت فتوغرافية، قلبهم ليرى محتوى الصورة، اتسعت عيناه عن آخرهما عندما دهسها الذهول، تلفت حوله في ذعر.. ثم تذكر أن كريم بالفعل على هاتفه النقال منذ فترة.

- ألو.. ألو..

- أيوة يا كريم..

- إيه يا أستاذ عايزني في حاجة؟

- تعا.. تعالى شوف محمد عايز إيه في الإضاءة.

- حاضر يا كبير، صوتك ماله؟!

- لا.. ما..فيش حاجة.

- طيب يا كبير، عايز حاجة تاني؟

- أيوة يا كريم، عايز..

- أأمرني يا أستاذ!

... مرت لحظة لم يرد فيها سمير الشوربجي على كريم الذي أكمل مندهشًا:

- أستاذ سمير انت معايا على الخط، ألو!

- معاك يا كريم!

- أأمرني سعادتك!

- اتصل بالبوليس!

قالها شاردًا كجندي أمريكي فقد كتيبته في حواري بغداد، مرتعدًا كطفل، مشتتًا كمفترق الطرق، لكن في كل الأحوال.. كان يعنيها.

* * *

(17)

انتشر الأدرينالين بعروق جسده الواهن كنار التهبت في غابة استوائية، وتصاعدت ضربات قلبه المتتالية في محاولة بائسة لدفع دائرة الحياة بداخله، اقترب المجهول منه لكنه لم يلتفت ليقابله بعد، أغلق الصنبور المفتوح ليمتلك الصمت مقاليد اللحظة، شعر بأنفاسه المتسارعة على بعد خطوات منه، أغمض عينيه في ألم، حاول تحريك يده بهدوء محاولًا الوصول لسكين ملقى في الحوض المجاور، لم تتحرك يداه ثلاث سنتيمترات حينما جاءه الصوت الغاضب ليصيبه بمقدمات أزمة قلبية:

- حركة واحدة.. وهدفنك!

قالها صوت غاضب على مرتين، صوت لهث صاحبه بعنف كمريض أزمة ربو.

رفع يوسف يديه في صدمة وحركة تلقائية، بيد أن الصوت الغاضب لم يكن بغريب على مسامعه، التفت ليجد أن شخصًا آخر يرفع يده مستسلمًا مثله تمامًا، وخلفه مؤمن يصوب فوهة مسدسه لرأس «الدخيل» في ترقب، وعلى وجهه غضب وإصرار واضحان.

تجمد يوسف للحظة، ثم أغمض عينه ماسحًا بيده المبللة على وجهه المضطرب وتنفس الصعداء، وأشار لصديقه المتحفز بكف يده:

- خلاص يا مؤمن!

- ده وليد.

هبط ذراع مؤمن على مراحل كأن عقله رفض إعطاء الأمر ليده مرة واحدة، ثم نظر في حنق بجانبه مطلقًا زفيرًا فيه من الغضب أكثر من الراحة فأضاف:

- الباشا عمال أنادي عليه وهو طالع ولا معبر ميتين أهلي..

- ما سمعتكش.. هو أنا لو هسمعك مش هرد ليه يعني؟ وبعدين هو انت أي حد مايردش عليك تثبت د(..) أمه بسلاح كده؟! هو إحنا فين هنا في شيكاغو ولا...

قاطعة مؤمن غاضبًا:

- ماتردش عليا يا حيوان!

- مؤمن!

قالها صارخًا.

- أنا مش هرد على الشتيمة دي عشان الدكتور بس، غير كده أنا لساني زفر وانت عارف، عرق الوساخة في جيبي ممكن أطلعه في أي لحظة ولا يهمني أي حد.

- ماتوريني كده يا حماده! ما تيجي نلعب مع بعض نشوف مين وسخ أكتر؟!

قالها واضعًا مسدسه في جرابه الخاص ومخترقًا حاجز وليد الشخصي، تدخل يوسف فاصلًا رأس مؤمن عن وليد بصعوبة بالغة مضيفًا:

- مافيش وقت لمشكلة جديدة.

- انت تعرف منين الأشكال الوسخة دي؟

- لأاا، دانا أنا أطلع...

- اسكت!

قالها منفجرًا في وجه وليد الذي احمر وجهه قبل أن يتطور الأمر. ثم أكمل موجهًا كلامه لمؤمن:

- وليد ابن عمتي يا مؤمن، كفاية من فضلك!

- ابن عمتك؟!. إزاي؟!

- كفاية!. أرجوك!

وجهها لمؤمن الذي شعر بكثير من الحرج.

- طيب..أنا..- هستن- هستناك.. تحت.

رد متجنبًا النظر ليوسف ثم اختفى.

مرت لحظات من السكوت المميت، فتح فيها يوسف الصنبور مجددًا ولكن تلك المرة وضع رأسه، غمسه في الماء البارد كأنه يحاول الاستيقاظ من كابوس ما، ثم أغلق الصنبور وحصل على منشفة بجانبه

التحف بها وجهه، كانت قطرات الماء لا تزال تسقط من خصال شعره عندما أضاف:

- عاجبك حالك؟.. عاجبك حالنا؟

قالهامحدقًا في سقف المطبخ في يأس.

- سيبك منه ده واد ابن وسـ(..) مالوش لازمة، انت عارف إن...

- مالكش دعوة بيه!

- إيه يا يوسف؟ بتدافع عن الباشا؟! عن الحكومة.. انت ناسي أخوك لما...

- وده كمان مالكش دعوة بيه!

- ماشي.. تمام يا دكتور الله يصلح حالك، ماحنا مش قد المقام.

- مش موضوع مقامات.. بس عايزك تبص لنفسك! لأهلك!

- وأنا عملت إيه بس يا يوسف؟!، ما أنا بحاول اهو!

ألقى يوسف بالمنشفة على الأرض قائلًا باستهتار:

- حظ سعيد مع المحاولة الجاية..

- يعني اعمل إيه يعني يا يوسف؟! أنا عندي 35 سنة، ولا اتجوزت ولا اشتغلت ولا عملت أي حاجة في حياتي، مستكتر عليا تراما أشربها أو واحدة اشقطها؟ وبعدين هو مين اللي بيعمل فينا كده؟.. مش الحكومة بردو؟!

- انسى الحكومة! كلمني أكثر عن طبيعة شغلك الجديد.. أنا عرفت انك اشتغلت.

قالها يوسف بعينين لامعتين كأنه توصل لشيء ما.

- آه.. شغلي.. بخلص مصالح للمكتب.

- بتخلص مصالح؟

- مش من اللي في بالك ماتخفش.

- وعرفت إزاي اللي في بالي؟

- يا عم ما تقلقش ده مكتب محاماه محترم.

- مكتب محاماه محترم؟ الجملة دي فيها حاجة مش صح.

- دي أول شغلانة شريفة اشتغلها.. يعني اعمل إيه.. أنتحر يعني.

- واضح إن كلمة «شريفة» معناها مختلف ما بنا،، احكيلي!.. احكيلي ازاي انتهى بيك الطريق مع حمدي الأنصاري! ملك البودرة والدعارة، محامي النزاهة والشرف.

مـلأ يوسـف كوبًا من الماء وتجرعه مرة واحـدة ثم قذفه في الحوض بعنف، أضاف بمزاج حاد:

- بيقبضك إزاي يا وليد؟ ترامادول ولا بودره؟

- يا يوسف انت محسسني إن البلد مرشقة شغل وناس نضيفة وأنا اللي نايم! انت مش شايف البلد عاملة إزاي؟ أنا سامع إمبارح بودني اللي

تاكلها الدود دي على الدش واحدة بتقول إن أكتر من نص الشعب المصري تحت خط الفقر، الناس خلاص.. على آخرها، كله بيعض فبعضه، أنا سيبت الشقاوة وقولت خلاص، خلاص يا واد حد الله، والله لو مصلحة بيضة مقشرة كده جواها ألماظية ودهب مانا عاملها، تيجي انت تقولي ماتشتغلش مع الأنصاري عشان ليه في الشقاوة، وانا مالي أنا؟.. لو هو قالي انقل الشنطة دي فيها ورق وكان فيها حتى مخدرات، أنا بعمل اللي بيطلب مني وبس، وبقبض نتيجة عرقي، وبعدين لو هو وسخ أوي كده، مالبسش أساور ليه؟!

- لا إطمن!.. مش هيلبس أساور، ولو لبسها هتبقى أساور دهب.. نهايته.. عايز كام؟

- عرفت إزاي إني عايز فلوس؟

- عندي موهبة خارقة في توقع المواقف اللي بتتكرر أكتر من خمس تلاف مره، عايز كام؟!

قالها بوجه صارم.

- ولو إني مش فاهم انت قولت إيه.. بس مش مهم الفلوس دلوقتي.. قولي الأول!. إيه اللي أنا سمعته ده؟ مين اللي عايز يعورك وأنا أطلعلك ميتين أمه؟

كانت محاولة كرتونية من وليد أن يلعب دور الأخ الأكبر الذي يطمئن أخاه الخائف، متظاهرًا بعدم أهمية المال بعدما ضمن بعضة على الأقل، أجابه يوسف:

- قصة طويلة، ماتتعبش نفسك.

- عمومًا أنا هبقى أجي أشوفك كل يوم والتاني وأطمن عليك.

حاول يوسف إنهاء الحوار ممسكًا بحافظته البنية مخرجًا ثلاث ورقات فئة «الخمسين»، ألصق إياها في يد وليد الذي لم يحركها من جانبه متظاهرًا بالتعفف.

- والله لآخر الشهر بس أول ما أقفش المرتب هسدد علطول، وحياة أمي.

تجاهل يوسف قسمه الذي اعتاد على سماعه كثيرًا، ثم توجه بعد عناقه الحار مع وليد للسلم متجاهلًا الأسانسير كعادته، وصل للدور الأرضي ثم فتح قفل الحديقة الصغيرة ليستوقفه لهاث صديقه المفضل، وصوت الموسيقى المكرر والناتج عن جر سلسلته المعدنية وراءه واحتكاكها بالأرض، احتضنه بعنف ومسح على رأسه، تأكد من وجود الطعام وصب له قليلًا من الماء ليشرب بتلهف واضح.

- نزل الطوب عندك هنا! على يمينك يابا، فتح مخك معايا يا معلم الله يصلح حالك!

قالها خضر بصوت عال، منهمكًا بتوجيه بعض العمال الذين يحملون الأسمنت والطوب، لكنه مالبث أن كشف عن أسنانه مجددًا مبتسمًا كعادته ورافعًا يده بتحيته العسكرية المعروفة مضيفًا:

- سعات الباشا.. واحشنا.

- سيزار عطشان يا خضر، انت بقيت تعطش عيالك اليومين دول؟

- والله يا بيه ماليله مية إمبارح ويشهد عليا ربنا.

- مرتين يا خضر، مرتين.. الصبح وبالليل.. أحفظهالك إزاي؟

- عنيا يا بيه حاضر.

- مش عايز عنيك يا خضر، سيزارماينفعش يشربها، هو مابيصعبش عليك؟!

- والله يا بيه..

قاطعه يوسف:

- إمسك دول ليك، وده مفتاح الشقة إديه للحاج، وده إيجار الشهر ده، كده فاضل أسبوع في الشهر عقبال ما يخلص.

- ليه يا بيه هو في إيه؟

- هتعرف تأجر الشقة إمتى؟

- والله يا بيه في 100 واحد مكلمني على شقة مفروشة، بس ليه يا بيه؟

- حصل ظروف ولازم أسافر، أنا هتصل بالحاج نعيم وهقوله إنك هتأجرها وهو مش هيقول لأ، بالعكس هيفرح، أجرها بس قبل ما تأجرها إستنى لما الحاج يتصل بيك من السعودية يقولك على السعر تمام، وشوفه لو عايز يشيل حاجة م الشقة..؟

- تمام يا بيه، بس هتوحشنا كتير يا بيه والله المكان ما هيبقاله طعم من غيرك ولا من غير «سيسار».

- لأ سيزار هيستنى هنا، إطلع هات الشنط بتاعتي اللي قدام الباب وتمم على الباب وادي المفتاح للحاج.

- هيزعل أوي الحاج والله.

- إرحم نفسك حلفانات فشنك!،، وعمومًا شكرًا لكلامك الحلو، طبعًا انت عارف إن سيزار هيبقى في مسؤوليتك، صح؟

قالها باهتمام لخضر الذي لا يزال يبتسم كاشفًا الستار عن كل أسنانه، دس يوسف يده في جيبه مخرجًا أكثر من 200 جنيه وأردف:

- خد صحيح، هاتلة أكل، وأنا هبعتلك أول كل شهر فلوس تجيبله أكل من عند عم صبحي، هاتله الشوية بتوع كل مره، إشتري كل يومين تلاته.. وقول لحازم اللي ساكن جنبي يبقى يجيبله بواقي الأكل بدل ما تترمي.

- واه.. وليه حازم يا بيه وانا موجود؟

- عشان سيزار هيبقي ملك حازم يا خضر.

- ليه هو انت مش راجع تاني بعون الله يا بيه؟

- مش متأكد.

- لا مؤاخذة يا بيه، أنا عارف انت بتحب سيزار جد إيه- لا مؤاخذة يعني في السؤال- هو حضرتك ما هتاخدوش معاك ليه؟

سكت يوسف بعدما شرد لثوان ثم أضاف بوجه لم يخف كثيرًا من القلق:

- السفرية اللي أنا رايحهاماينفعش يكون فيها حد غيري.

قالها محركًا أصابعه بسلاسة وتدليل فوق رقبة سيزار الذي حاول لعقه باستماتة، لم تمر الدقيقة حتى نزل حازم في صمته المعهود متجهًا للسوبر ماركت القريب من البيت، ناداه صوت يعرفه جيدًا، صوت قادم من حديقة العمارة الضيقة، تحدث له يوسف لدقائق، ابتسم وجهه البريء للمرة الأولي رغمًا عن الكدمات التي بدأت تندثر تدريجيًا، نزل على ركبتيه متجاهلًا بنطاله الذي لطخه الطين، ضم صديقه الجديد، أو بمعنى آخر.. صديقه الوحيد.

أقسم على حمايته..

و كان يعنيها.

* * *

(18)

أشار ذلك الشاب النحيف ذو الشعر الناعم والعينين المحاصرتين بالسواد لسيارة تاكسي القاهرة رفضت المثول لرغباته، ذلك أملًا في الوصول لبيته سريعًا محاولًا اللحاق بأصدقائه القدامى ليبدأ يومه المعتاد، فلديه جيب معتمر لأول مرة منذ فترة ورأس مشتاق لكل أنواع الكيف، رخيصه قبل ثمينه، يفكر في أقراص الترامادول المتراقصة فوق زجاجات البيرة الباردة، يفكر في إحدى ساقطاته المدمنات وهي تكافئه على توفير الكيف بليلة حارة طويلة، يشير للسيارات في حنق ولكن لا جديد، تمر السيارات من أمامه كأنها لا تراه، أطلق سبابه ولعن جميع الأديان بحنق بالغ، أشار لسيارة أخرى ذات إضاءة شديدة، استقرت أمامه لتصدمه المفاجأة، فهي لم تكن بسيارة من التي يمكن استئجارها، بل ملاكي فاخرة حمراء اللون ويداخلها فتاة.. أشبه بجنية بحر جميلة، يتماسك شعرها الأحمر خلف رأسها بقلم رقيق ازدادت قيمته السوقية كثيرًا، قلم قد ينصب عليه مزاد في موقع «أمازون» يومًا ما، شعر أشبه بألسنة اللهب المشتعلة، ينبعث من جلدها الأبيض الثلجي رائحة عطر استطاع كسر حاجز الزجاج والوصول لرئتيه المتفحمتين، رسمت ملامح وجهها الدقيقة ببراءة شديدة، إلا من عينين واسعتين يغلفهما كحل شديد وفوقهما ظل داكن زادهما جاذبية وغموض، نظرت إليه مبتسمة وضغطت

على زر بجانبها لينفتح الزجاج الداكن بسلالسة، وضعت خصلة شاردة بأنامله الرقيقة خلف أذنها اليسري وقالت برقة شديدة:

- أنا شكلي تهت.. ماتعرفش أروح (الكوربه) إزاي؟

ابتسم وليد ابتسامة أسد جائع أيقظه صوت غزالة حادت عن قطيعها، ثم أضاف بثقة محترف:

- ده حوار صعب أوي، هتعرفي تحفظي الاتجاهات كويس؟

- هحاول.

قالتها مبتسمة في براءة.

- بصي! هتفضلي ماشية علطول زي ما انتي كده أول يمين لأ، تاني يمين أه، بعدين هتمشي هتلاقي تلات تقاطعات، هتاخدي آخر تقاطع، بعدين هتلاقي بنزينة كالتكس على إيدك اليمين، من جنبها وتكسري...

- يا خبر، أنا كده تهت أكتر..

قاطعته بصوت متوتر.

- أنا مش عارف أقولك إيه والله، الدنيا ليل وأنا نفسي أساعدك بصراحة، أنا أصلًا رايح «القوربه» على فكرة، بيتي هناك.

- بجد؟.. بس!. مممم.

- بصي! أنا محامي على فكرة وبشتغل في مكتب محاماة بتاع الأستاذ حمدي الأنصاري، ماتخافيش يعني أنا ابن ناس مش واحد م الشارع.

- أنا ماقولتش حاجة بس..

- ولا يهمك، بصي!. هسهلهالك.. أول يمين لأ.. تاني يمين، بعدين تلات تقاطعات، اللي على إيدك الشمال خشي فيه.. بعدين.

- توعدني إنك مش هتخليني أندم لو ركبت معايا؟

قالتها ليبتسم نصف ابتسامة حملت الكثير بعدما غمزت السنارة بصيد كبير.

- أنا عندي أخت بنت، يا..

- روبانا.

- وأنا وليد..

ثم اقترب ليسلم عليها بيده ليضيف بعض الطمأنينة، ضغطت على زر القفل المركزي لتنفتح أبواب السيارة رغمًا عنها، ابتسم قائلًا:

- أعتبر ده اتفضل؟

- اللي تشوفة بقى!

قالتها رافعة حاجبها الأيسر في حين ابتهج وجه وليد كثيرًا، ثم قفز لداخل السيارة وألقى دعابة ثم تجرع قليلًا من عطرها المنتشر في الأرجاء، ضحكت بعدها الجميلة التائهة وانطلقت السيارة.

رن الهاتف بإزعاج مرتعشًا على تابلوه السيارة الميتسوبيشي، موقظًا معاذ من غفوته ليطلق سحبة طويلة من منخاره، ملحقًا إياها بطلب من مؤمن بتغير تلك النغمة الأجنبية الصاخبة، عاد مرة أخرى لغفوته في حين ظل يوسف شاردًا يراقب الشارع في صمت، التقط مؤمن هاتفه ونظر بحنق للرقم ثم ضغط على زر الإجابة:

- إيه يابني؟ أنا هو صل يوسف مشوار كده، لا، إيه؟! إمتى وإزاي حصل؟ النهارده!.ممم..طيب أنا عايز أشوف الكلام ده، يعني إيه عنده حفلة؟! يعني إيه يعني؟!.ماليش فيه.. يجي لحد عندك، فين الحفلة دي؟.. أه عارفه النادي ده، طيب خلاص مش قضية أنا هتصرف، أه هروحله مافيش وقت..لا طبعًا، ماشي، لا إقفل انت وأنا هكلمك لما أقابله، سلام.

- في إيه؟

تساءل معاذ الذي مال بوجهه النائم ناحية مؤمن الذي غير اتجاه سير العربية بعدما أخذه شروده لبعيد.

- إيه؟..لا ده «سكانيا» بيكلمني.. المخرج بتاع البرنامج لقى صور على الأرض.. في الLocation.

- صورة ايه؟

قالها معاذ متثائبًا.

- صورة زي اللي معانا، بس بيقول فيهم حاجة غريبة.

- حاجة غريبة إزاي.

- معاذ، إرحم أمي..! هو أنا لسه شوفت حاجه.. إصبر إحنا رايحينله أهه.

- يا عم خلاص مش عايز أعرف منك حاجة، أنا عايز أروح.

- هنروح نادي الروتاري وبعدين هروحك، في حفلة تكريم ليارا قاسم وهو فيها، لازم نشوف الصورة ونهزه.. أهو يمكن، إن شالله حتى أشده ليله ولا ليلتين.

- هتهزه إزاي؟ هو يعرف إيه أصلًا عن الحوار غير إنه استضاف يوسف؟

- بيقول ان كان في حد في ال«Location» ماحدش يعرف مين هوه.

- هو مخرج.. ممكن يكون عنده مهارة رسم المنيو سكريبت.. لو افتكر شكله ممكن نرسمه.

قالها يوسف كأن الفكرة قد لمعت أمام عينه في الفراغ.

- إفتكرتك نايم!

علق ملتفتًا ليجد عينين مفتوحتين عن آخرهما كعيني قط بري في ظلام منتصف الليل.

- إفتكرتك استسلمت!

قالها محاولًا الابتسام.

- بالمناسبة جاكلين كلمتني في التليفون وانت في الشقة وكانت عايزة تقولي حاجه.. اتصلت بيها بعد كده عرفت إنها وصلت لحاجة مهمة.

- إبهرني!

- هو مش شخص واحد.

- همم.. عارف.

- عرفت إزاي؟

- في الصورة اللي صورها في الاستوديو، حصل انعكاس جزئي لصورته هو وحد واقف جنبه في الإزاز.

- واضح إنك عارف حاجات كتير.

- معلومات مشوهة.. مش متناسقة..

- الترجمة بقى؟!

قالها معاذ.

- يعني معطيات كتير.. بس مش كفاية إنها تمنعني من الموت.. محتاج «داتا» أكتر.

- مافيش موت يا يوسف.. مافيش موت.

أضافها مؤمن محدقًا في طريقه بتحد.

حرك بعدها يوسف رأسه إيجابًا فاغرًا فاه وعينيه كمسافر متجمد يجاهد ليبقى مستيقظًا فوق حطام تيتانك، مسافر قال له صديقه كاذبًا إن المدد قادم لا محالة.

هرب الثلاثة إلى الصمت حتى اقتربوا من مكان النادي، عند البوابة ألقاها مؤمن في طريقه للداخل:

- مباحث يابني.

سمعها الحارس لتعود يده تلقائيًا بجانبه مرتعشة بعدما مدها ليمنع مرورهم، خاصة بعدما لمح المسدس الذي يزين الجينز الداكن، في حين

لم يهتم لينظر مؤمن ناحيته من الأساس، بل شق طريقه للداخل ومن خلفه يوسف.

- مش عارفة أقول إيه طبعًا غير إني فرحانة جدًّا بوجودي معاكو هنا في الروتاري، واسمحولي أهدي التكريم المميز ده لكل اللي وقف جنبي، بداية من طاقم العمل ونهاية بالجمهور اللي هو السبب في نجاحي بعد ربنا، اسم يارا قاسم مش هيكون ليه قيمة أدبية أو إعلامية من غير مشاهدتكم واهتمامكم، وكمان نقدكم ليه وتقديركم،، شكرًا من كل قلبي.

قالتها وازدهر تصفيق الحضور الحار في تلك القاعة المغلقة، ثم لمحت شخصين على باب القاعة يختلفان كثيرًا عن الحضور، يمسح أحدهم القاعة بعينيه الحادتين باحثًا عن شيء ما، في حين اكتفى الآخر بإغراق راحتيه في جيب معطفه العميق، لم تمر ثوانٍ حتى وجد الباحث ضالته حينما قبض بيده على معصم أحد الجارسونات ذي الجسد النحيف وهمس في أذنه لتتسع عيناه كثيرًا في دهشة، هز رأسه في خضوع وكأن شخصًا ما قد ألقى عليه تعويذة، وضع الصينية التي في يده سريعًا وذهب مباشر لرجل ذي جسد غير متناسق، همس في أذنه ليقوم من مكانه وينظر ناحية باب القاعة بقليل من الذعر، ترجل بعدها مسرعًا تجاه مؤمن الذي انتظر بكثير من الفتور، غادر كلاهما للخارج في حين ظل يوسف وحيدًا يشاهد مراسم تكريم أميرته المحاربة، تقابلت عيناهما أكثر من مرة خلال التكريم، في المرة الأولى كادت تسقط منها الهدية التذكارية التي تشبه

«أطباق خان الخليلي» المزخرفة، في الثانية رمقته بعينيها الداكنة لتراه ساكنًا كالتمثال، شاحبًا كالشبح، وسيمًا كعادته.

و في الثالثة، اختفى، تلاشى كالدخان، حاولت البحث عنه رغم ابتسامها للصور الفوتوغرافية المفتعلة وعبارات المديح الملونة لكنها لم تجده، حاولت مجددًا ووصلت إليه، شاهدته يقف وحيدًا، يستنشق هواء المساحات الخضراء المحدودة، ويناجي الزهور الزاهية، واضعًا يديه بجانبه كالجندي تلك المرة، مغلقًا قبضتيه قليلًا، شاهدت يارا كل هذا من خلف زجاج القاعة المبهرة، شعرت أن شيئًا ما يحدث، انتهت مما تفعل سريعًا وأنهت سيل الفلاشات مع امرأة سمينة كخنزير بري ناضج، ومتبرجة كالـ«جوكر»، و.. استأذنت الحضور وخرجت من أجله.

- هي دي كل الصور؟

قالها مؤمن متفحصًا بضعة صور فوتغرافية أخرجها من ظرف أصفر مماثل للذي حصل عليه يوسف، كانت الصور مماثلة للتي شاهدها في منزل يوسف لدرجة كبيرة للغاية، حتى ألوانها كانت بالأبيض والأسود، لقد التقط صورًا ليوسف ويارا من زوايا كثيرة، حتى المخرج لم يسلم من التصوير..و صورة أخرى لخنجره المميز الذي أصبح توقيعه الشخصي.. إلا أن صورة واحدة كانت مختلفة.. كان هو من بها.. القاتل.

كانت صورة غريبة لحد كبير، يقف فيها ذلك الشخص الغامض معطيًا ظهره للكاميرا.. وأمامه الزجاج القاتم الخاص بالاستوديو وبداخله فريق العمل كلٌّ منشغل بما يفعل.

- كل الصور.

أعادها سمير محركًا رأسه إيجابًا.

- انت قولت إنك شوفته.. وعارف تفاصيل وشه.

- معظم الناس افتكروه فني إضاءة.

- أنا سمعت إنك موهوب في حوار الإعلانات..انت اللي كتبت الإعلان بتاع الشيبسي الجديد ده صح؟

قالها مؤمن مبتسمًا محركًا رأسه إيجابًا بترحاب لم يعتاده من قبل.

- أه.. خد مني مجهود بصراحة خصوصًا الإسكريبت.. إيه رأيك فيه يا باشا؟

قالها بعدما أصبح وجهه أكثر تفاؤلًا.

أخرج مؤمن من جيب جاكيت البدلة مفكرة متوسطة الحجم وقلم رصاص ودسهم في يد المخرج المنتشي، وقالها بعدما عادت ملامح وجهه للجمود فجأة:

- إرسمه!

-أرسم..مين؟!

-خمن!. هترسم مين؟!

- بس أنا مش فاكر كل تفاصيل وشه، و..و.. رسمي مش حلو.

- تحب أساعدك؟!. أنا ممكن أخليك فان جوخ.

قالها مؤمن بوجه غليظ رمى في قلب سمير الرعب ليتردد قليلًا ويمسك بالمفكرة البيضاء والقلم برعشة ملحوظة.

- تعجبني!

قالها مؤمن محركًا رأسه برضى، وأشعل سيجارة.

في نفس اللحظة أمام قاعة التكريم بالنادي:

- بتكره الزحمة؟

قالتها ليوسف الشارد مع الحديقة الجميلة بمفرده في طقس شتوي قارس، طقس غير اعتيادي جعل أنفاس يوسف تكتسي باللون الأبيض، التفت بوجهه ناحية الصوت ليجدها بجانبه.. على بعد خطوة منه.. حرك رأسه موافقًا ثم هرب بنظره مجددًا للجنة الملونة الماكثة أمامه كأنه لم ير شيئًا، أضافت بعد بضعة ثوانٍ صامتة:

- في سبب معين؟

- تفاصيل كتير في مكان واحد.

- وانت بتكره كتر التفاصيل؟

- بكرهها عشان بلاحظها.. عقلي بيحلل المعطيات من غير إذني.

قالها بطريقته المميزة كأنه يحارب ليرسم الكلمات نتيجة لشعوره بالإجهاد، ثم تفحص وجهها بعينيه الهادئتين وعاد مجددًا لحديقته.

تابعت يارا:

- أعرف ناس كتير بتكره الزحمة.. أنا عمري ما كنت منهم.

لم يرد يوسف وتابع تأمله بهدوء.

أضافت:

- يمكن عشان كده حسيت إنك متضايق في الاستوديو..صح؟

نظر إليها يوسف مجددًا ثم حصل على نفس عميق أخرجه من فمه الضيق كالدخان مردفًا:

- الجو سقعة هنا..كان لازم تجيبي معاكي جاكيت.

أضافت بصوت خافت:

- بعد شوية هتعود.. على الجو.. انت كمان.. لازم تتعود على الزحمة.

صمتت لثانية وأردفت محركة يديها حول ذراعيها باحثة عن بعض الدفء:

- الواحد ممكن يعود نفسه على أي حاجة مع الوقت، زمان كنت بكره التكريم والصور والمعجبين والجو اللي أنا عايشة فيه، دلوقتي بقى جزء من حياتي، والمشكلة انتهت.

أردفت:

- أي حاجة بتنتهي بالتعود والوقت، وزي مابيقولوا ضريبة الشهرة والـ...

- في حاجات مابتنتهيش بالوقت!

قالها مقاطعًا بشيء من الثورة.. ثم صمت لثانيتين وأضاف مفسرًا بنفس الحدة:

- الأمراض – الأمراض مثلًا – مش كلها بتنتهي بالوقت، المشاكل مش كلها بتنتهي بالوقت. قالها رامقًا إياها بنظرة مجهدة.

- عندك حق.

ردت بمزيج من الدهشة والصدمة غارقة في عينيه كأنها لم تلحظهما من قبل، أشاح بنظره مجددًا إلى الحديقة لتفعل مثله وتحاول تغيير الموضوع.

- مريح للعين المنظر هنا.

- رائع.

همس بها وبخار الماء يخرج من فمه.

- انت مش جاي هنا عشان الحفلة..؟

هز رأسه موافقًا وبلع قليلًا من ريقه لتتابع يارا مجددًا:

- حاجة مهمة؟

- في الأول كانت مهمة.

أخرج زفيرًا عميقًا أبيض اللون متابعًا دراسته العميقة للحديقة الصغيرة.

- أنا كنت هاخد رقمك من راندا عشان أعتذرلك.. عشان...

- مبروك الجايزه!

صمتت يارا للحظة ثم أجابت:

- من قلبك؟

- ماتخيلتش إن في بلد زي مصر بيتكرم حد بيعارض الحكومة.

قالها من دون أن يجيب عن سؤالها.

- بيعارض الحكومة؟! انت فعلًا مصدق إن أنا معارضة؟ أنا زيي زي كمال الشاذلي بالظبط يا يوسف، بطلع كل أسبوعين أخبط كلمتين في الحكومة وأمجد في الباشا من تحت لتحت، ماتصدقش كل اللي بتشوفه.

- بس على الأقل معارضة.

- أنا معارضة فاسدة، معارضة كدابة، زي اللي بيصنع دوا رخيص ويبيوزعه على الغلابة وهو عارف انه مش هيفيدهم، والناس بتشتري عشان بتحلم إنها تخف، أنا مش فرحانه بالجايزة دي.. مش فرحانه بأي حاجة.

- شكسبير قال إن الحياة مسرحية.. وكل واحد بيختار دوره.

سرح محدقًا في وجهها مقلبًا نظره بين عينيها وملامحها.

- وأنت.. اخترت دورك؟

-.. هو اختارني.

قالها بصوت خافت ثم أضاف:

- أنا لازم أمشي..لازم أسيب القاهرة دلوقتي.

هم بالرحيل لكن يدها الناعمة أمسكت بكف يده ليتوقف للحظة لتضيف بنبرة بها كثير من الحزن.

- أنا آسفة!. كنت صعبة يوم التصوير، مش عارفة مالي اليومين دول.

هز رأسه متفهمًا من دون أن ينطق بأي رد، أضافت مجددًا:

- يوسف! سمير قالي على الصور، أنا مش عارفة اللي بيحصل هينتهي على إيه، بس أرجوك.. خلي بالك من نفسك.

تأمل عينيها الواسعتين، ومرت لحظة أيقنت فيها أن يده لا تزال معلقة بيدها، حررت راحته من يدها وتركته يذهب بعيدًا، ثم تمنت لو أنه لم يذهب أبدًا.

* * *

(19)

تعالت الضحكات وسط سحب الدخان وصخب موسيقى الـ«Trance»، تلاقت الأيادي على طريقة «كفك» وتابع قص حكاياته المزخرفة بكثير من الإضافات المثيرة، سيطرت كاريزما الإلقاء الخاصة به وخفة دمه التي لا تخلو من «الأباحة» على الحسناء المراهقة ذات الشعر الأحمر، فتنها حديثه المعسول وطريقته في الإلقاء، فضحها اهتمامها بكلامه الشيق وقصصه. التي لا تنتهي، وصلا لمنتصف الطريق حينما قال:

- زي ما انتي كده علطول وعند الإشارة يمين.

ثم استطرد:

- بس يا ستي، وبعدين خدت اللي فيه (النسيب) ومشيت.

قالها بلغته المتدنية.

- يعني إيه مش فاهمة؟ خدت فلوس يعني؟

- فلوس إيه بس يا بنتي! انت مش لاضمة معايا ليه بس؟! ظبتنا الأداء يعني.

- أووووو!. وليد! انت مجرم على فكرة.

قالتها بصدمة ممزوجة بضحكة مكتومة.

وأشعلت سيجارة رفيعة مستوردة، ثم أطلقت سحابة صغيرة من شفتيها الحمراوتين، ليتابع وليد:

- ليكي في البني؟

- لأ أنا كده هحبك.

- حبيب قلبي، سيبيلي نفسك انتي بس.

- لا يا عم أسيبلك نفسي ليه، انت طلعت يتخاف منك.

ردت مازحة.

- ليه بس يا بنتي الكلام ده؟ داحنا خلاص بقينا فرد.

ثم حاول الاقتراب من صديقته التي بدت سهلة المنال.

- بالسرعة دي؟

- إيه عندك مانع؟

قالها ضاربًا بيده على مؤخرة عنقه محاولًا الفتك بناموسة مملة قرصته ولم تراع حميمية الموقف.

- لا يعني، بس إحنا في الشارع.

- أم أي حد يا بنتي، انت خوافة ليه؟ الدنيا ليل أصلًا.

Ok، أنا موافقة بس بشرط.

- أأمري!

قالها محاولًا تجميع شتاته بعدما شعر ببعض «الزغللة» الغريبة في عينه.

- هسألك.. ولو جاوبت عليه، نعمل كل اللي انت عايزه.

- أساسي، اسألي!

رد محاولًا التركيز مع أضواء كشافات السيارات المسرعة، والتي بدأت تتحول لخطوط سيريالية مضيئة، ثم عاد برأسه للخلف قليلًا ليستند على مسند مقعده مبتعدًا عنها مجددًا.

- هتعمل إيه لو دي آخر دقيقة في حياتك؟

- آخر دقيقة ف..حياتي؟!

قالها متعرقًا محاولًا التركيز فيما تقول، مقاومًا رغبة كبيرة في السقوط مغشيًّا عليه.

- جاوب بقى عشان تكسب!

بدا وليد في أسوأ حالاته مستندًا بيده على ذراع الباب مانعًا نفسه من السقوط، يقاوم شيئًا ما أقوى منه، لكنه لم يتجاهل ذلك الزفير الذي اقترب من أذنه اليسرى رويدًا ثم رويدًا.. ليأتيه الجواب بصوت هامس، صوت يحمل في طياته كثيرًا من معاني الخوف.

- مش هتلحق تعمل حاجة.

قالها الصوت هامسًا.

لم يلتفت وليد لينظر إلى مصدر الصوت، بل نظر إلى الفتاة التي ذابت ملامحها في عينيه الناعستين، أصبح جفنه ثقيلًا جدًّا غير قادر على الارتفاع مجددًا كلما أطبق، كأنما علق به حوت يزن طنًّا ونصفًا، دفعت رأسه يد عنيفة جاءت من الخلف ليصطدم بتابلوه السيارة الذي لم يرحم

خوار قواه، كانت دفعة من شخص ما يجلس في المقعد الخلفي للسيارة، شخص ما جلس مستريحًا بعدما حصل على ما يريد.

نظرت الفاتنة في المرآة مبتسمة بسخرية، لترى عينيه القاتمتين، عينين تعرفهما جيدًا.

ضغط حاتم الأسود على زر في قلم يشبه أقلام تحليل السكر ليصدر صوتًا أوتوماتيكيًا..

و تابعت القيادة.

* * *

(20)

الإسكندرية - بعدها بيوم

- متأكد انه هنا؟

قالها يوسف مناولًا سائق تاكسي متجهِّمَ الوجه ورقة فئة العشرين جنيهًا، تفحصها الرجل متأففًا ثم دسها في جيب قميصه وبصق بصقة بعيدة المدى مجيبًا:

- أول يمين.

كانت الرياح قوية للغاية في عروس المتوسط، أطبق يوسف معطفه الرمادي على صدره ورمق ساعته التي أشارت لتمام التاسعة مساءً، لقد رفض أن يستريح بعد ما ألقاه أصدقاؤه هنا وقرر أن يبدأ العمل في أسرع وقت، كانت المرة الأولى التي تخطو فيها قدماه ميامي، سلك طريقه في أول يمين قابله، كان أشبه بزقاق ضيق..في نهايته وجد لافته قديمة كتب عليها كلمة كان يبحث عنها: «بابا ستراتو».

احتل المتجر الدور الأرضي بأكمله، مندثرًا تحت مبنى يبدو وكأن التاريخ قد فقده في حقبة الستينيات، نزل من فوق سلم خشبي مدمر نسبيًا حتى وصل، دفع بابًا خشبيًا قديمًا كتب عليه بالأخضر «Open»، قذفه أحد الأطفال المستكينة على ناصية المبنى المقابل بكلمة فهم مغزاها:

«هتروح النار يله!»، ثم تكفل أحد أصدقائه من المراهقين بالركض وراءه، تردد يوسف لثانيتين وحسم أمره بالدخول.

أصدر الباب صوتًا موسيقيًا مزعجًا كان سببه لعبة معدنية معلقة في سقف المتجر، وقفت سيدة نحيفة قصيرة القامة ترتدي تنورة قاربت عقبيها، تتسلق عقدها السابع بصعوبة، بهت شعرها القصير بين اللونين الأبيض والأصفر، أشارت مودعة رجلًا قصيرًا وامرأة متبرجة فارعة الطول تعلقت بيده، وبيده الأخرى شنطة سوداء بها شيء ما قد أتى من أجله:

- مع السلامة رامز بيه!

قالتها بصوت شبه منبوح متفحصة الثنائي حتى غادرا متجاهلة يوسف تمامًا، بعد خروجهما بثانية فتح ذلك الطفل المشاغب باب المتجر صانعًا بوجهه وجهًا ساخرًا وتقابلت عيناه بشكل يثير الضحك، أصدر صوتًا نابيًا ثم صفع الباب فجأة، صنعت الصفعة ضجيجًا كاد يكسر زجاج الواجهة، ركضت وراءه حتى فتحت الباب صارخة:

- أدي اللـي عايزين «سـياحة» واسـتثمار في بلـد.. واللـه أطلب بوليس ويرميك في السجن مع الحرامي!

هدأت ثورتها بعد ثانيتين وعادت ليوسف محاولة رسم ابتسامة على وجهها المجعد متسائلة:

- أأمرني بابا!

- عايز أتكلم مع مستر إستراتو.

- هو يعرفك؟

- لا.. بس أنا أعرفه.

- ثواني بابا!

كان المكان أشبه بمغارة، إنارة خافتة وثلاجات وأرفف، تشتعل بكل أنواع الخمور والكئوس، وبضع الأنتيكات التي لا يعلم المرء مصدرها أو ثمنها، بالإضافة لثعلبين محنطين ورأس غزال بري، زينت قرونه حائطًا يحكي قصة زوجين قصدا أهرامات الجيزة عندما كانت الصور الفوتغرافية لونين فقط.

تفحص يوسف المكان بنظرة متأثرًا برائحة «السبيرتو» المختلطة ببعض العطور الغريبة والرطوبة المستأصلة، باغته صوتها المنبوح:

- تعال بابا!

قالتها من غرفة في نهاية المتجر ناحية اليمين.

دخل يوسف الغرفة ذات الطابع المميز والإضاءة الخافته المعتادة، مئات من الكتب والتحف صغيرها وكبيرها، وبخور لا يعلم مصدره، لكنه تيقن أنه قد ترك بضعة رواسب بين خملات رئتيه منذ أن وطئت قدماه المتجر.

- استريح يا حبيبي!

قالها رجل في نهاية العقد السابع بعربية أكثر صلابة من السيدة، ضخم الجثة متوسط الطول، يجلس فوق كرسي جلدي كبير الحجم

وأمامه ساعة قديمة يصلحها بمجهر بدائي برز من عينه اليمنى كالمنظار، يحارب سمنة مفرطة وتتدلى شحمة أذنيه بلونها الوردي فوق رقبته البيضاء الناصعة، أصلع ويمتلك عينين زرقاوتين صغيرتين نسبيًّا.

استراح يوسف في كرسي أمام مكتبه الخشبي القديم وتأمل إصلاحه للساعة القديمة ذات السلسلة الذهبية، سرح الرجل في ساعته لبضعة ثوان ثم قالها بعدما فرغ:

- هتاخد وقت كتير، أصل أنا عارف الساعات دي، صعبة بنت كلب.. تقرفك!

- شكلها غالية عليك.

- آه.. كانت بتاعة والدي، تمنها يعدي السبعين ألف جنيه مستريح، فيها ترس بايظ مش لاقي زيه.

قالها الرجل بلهجة يونانية مميزة.

- صعب تلاقيه في مصر.

-و إيه في مصر سهل يا حبيبي؟!

تجرع قليلًا من كأس على يساره ثم أردف:

- ماريا قالت إنك تعرفني.. مين حضرتك؟

- اسمي يوسف.. وسمعت عنك كتير.

-أأمرني يا يوسف!

- عايز منك خدمة.. حاجة أوريجينال.

-عندنا من أول 8٪ وانت طالع.

قالها متابعًا العمل في ساعته مجددًا

- لأ،، اللي عايزه أقوى من كده.

- يبقى أكيد عايز ويسكي يا بيه..

قالها بكسر الياء كثيرًا.

- لأ...أصعب شويّة.

أخرج يوسف صورتين فوتغرافيتين من جيب معطفه وضعهما أمام الرجل، والذي رمقهما بشغف جعله يترك الساعة أمامه بحركة بطيئة، رمق يوسف بصدمة ثم اتجه بنظره لزوجته الصامتة قائلًا:

- Ena lepto Mary!

لم تنطق السيدة بكلمة ولكنها رحلت ممتعضة بعض الشيء، أمسك الرجل بالصورتين وتفحصهما بالعدسة نفسها التي دسها في تجويف عينه الكبير، مرت دقيقتان لم يتفوه فيهما بكلمة واحدة سوى بضع كلمات باليونانية تمتم بها لنفسه، ترك الصورتين وأخرج من عينيه العدسة بأصابع مرتعشة، رمق يوسف مجددًا بنظرة ذعر، تجرع بقية كأسه على مرة واحدة، ثم خاطب يوسف بكثير من الريبة مردفًا:

- انت مين؟

- أنا بشتغل صحفي.. ودي حادثة حصلت في القاهرة.

-و أنا مالي بالكلام ده؟ هنا بنبيع خمرة وتحف يا بيه، الصور دي تبعتها للبوليس.

- في حاجة شدتك في الصورة،، أنا متأكد..

قالها يوسف متحفزًا بعينين ثابتتين.

- ولو.. بردو مش هقدر أساعدك،، لأن ده مش شغلي.. فيه ناس تانيه ممكن تساعدك.

- ماحدش في الطب الشرعي يعرف حاجة عن الخنجر ده، أنا عارف إن ماحدش هيساعدني غيرك.

قالها ثم دس يده في جيبه ليخرج ورقتين فئة المائة ووضعهما على المكتب أمام العجوز اليوناني مضيفًا:

- دي مسألة حياة أو موت،، أرجوك!

أشاح العجوز بنظره بعيدًا عن يوسف لثانيتين، ثم عاد بكرسيه للوراء وهم واقفًا، تحرك بصعوبة تجاه أرفف الكتب العتيقة التي تزين حوائط مكتبه، تحسس أحد كتبه القديمة وأخرجه ونفض عنه غبار الوقت.

فتح الكتاب العتيق ومرر إصبعه القصير فوق الفهرس، قلب في صفحته الصفراء حتى وصل لصفحة رُسِم عليها شخص يقف فوق سفح هرم يشبه هرم سقارة، حوله تجمع بضعة أشخاص ساجدين في خشوع وأمامه شخص ما ملقى على ظهره وتحيطه كثير من الحبال، حبال ربطت بقسوة حول جسده الذي فقد أحد أهم أعضائه، قلبه، والذي حمله الرجل

ذو الجسد الفارع بيده اليسرى، وفي يمناه خنجر كبير الحجم رُسِم شيء على نصله.

- نوكوم..أنا كنت صح.

قالها الرجل مناولًا يوسف الكتاب القديم ليتفحصه يوسف بحاجبين مقتضبين.

- نوكوم؟

أعادها يوسف متعجبًا.

لو قريت عن حضارة المايا تعرفه، النوكوم خنجر بيستخدمه الراجل اللي انت شايفه في الفوتوجراف، فيه مؤرخين بيقولوا على الراجل نفسه اللي بيشيل قلب الضحية نوكوم، كانوا بيضحوا بالبشر، بيشيلوا قلوبهم وهم صاحيين.

- عرفت إزاي إنه...

- شوف الصفحة اللي بعدها!

قالها الرجل ليوسف الذي وجد في الصفحة التي تليها صورة طبق الأصل لخنجر مماثل للذي حصل على صورة منه بهاتفه المحمول، لكن النقوش التي يحويها الخنجر في الكتاب كانت مكتملة عن تلك التي برز نصفها فقط من صدر ضحية المرج، تحت الخنجر وجد رسم بياني يوضح أطوال الخنجر الحجري وألوانه.

- هيلوغريف المايا.. إزاي ماخدتش بالي؟!

قالها متمتًا لنفسه ليرد عليه الرجل:

- هيلوغريف سبيشيال، عمري ماغلط فيها.

-..pattern!... تضحية ممنهجة.

تمتم بها يوسف لنفسه بعدما رفع عينيه عن الكتاب.

صب الرجل بعضًا من الشراب لنفسه وجلس مستريحًا كأنه ركض لمائة متر حواجز وسأل يوسف:

- مين اللي بيقتل؟

- مش عارف.

قالها وصمت ثم أردف:

- بس هعرف.

تجرع الرجل قليلًا مما صب وأشار بيده ليوسف مردفًا:

- واضح إنك واثق في نفسك يا يوسف..أوعى تكون مغرور.

- لسه بيني وبين الغرور مسافة،، الحقيقة إن ده شغلي.. زي ما انت واثق في شغلك بالظبط،، وعارف إني هوصلّه لأني فعلًا هوصلّه.. السؤال بالنسبالي هو: إمتى؟!

نكز الرجل كوبه الزجاجي مبتسمًا وقال بنبرة إعجاب:

- بقالي كتير ماقابلتش حد عارف قيمة شغله للدرجادي.

أضاف يوسف مبررًا:

- كل راجل فوق جزيرته ملك.

عاد الخواجة لساعته وبدا شاردًا لوهلة.. ثم تركها مجددًا بعدما دحرت زكرى ما صمته الممتد، قرر أن يريح ظهره وبدأ بالكلام:

- أنا كنت إيجيبتيوليجيست، مش بس كده.. كنت الأحسن والأذكى.. جيت هنا مصر مع ماري وأنا عندي 24 سنة، جيت عشان حلم.. أنا كنت مجنون بملوك مصر، توت عنخ أمون..خوفو.. كيوبس..و كل يوم كنت بتأكد أكتر إني هلاقي الكنز اللي هيخليني ملك.. بس عارف يا يوسف لقيت إيه؟!

قالها ثم مال بجسده قليلًا ليوسف مردفًا:

- مافيش ملك بيعيش مرتاح.

تجرع مزيدًا من الشراب ودس العملتين داخل الكتاب وناول إياه ليوسف قائلًا باقتضاب:

- أبقى خلي بالك!

هز يوسف رأسه متفهمًا، ثم أمسك بالكتاب..

تصاعد صوت المذيع المتأنق يتحدث عن حادثة سير مروعة على الطريق الدائري في القاهرة، ثم انتقل لحادث دموي آخر عندما أضاف:

- من ناحية أخرى توجه اللواء عبد الجليل نصير رئيس مباحث العاصمة وفريق عمل من النيابة، والطب الشرعي ورجال الشرطة لمنطقة الحسين، حيث عثر بالصدفة على جثة لضحية مشوهة في إحدى البنايات الآيلة للسقوط، وكان واضحًا من التحريات المبدئية أن

جريمة القتل حدثت بنفس طريقة جريمة المرج الشهيرة.. مما يرجح وجهه النظر القائلة باحتمال وجود قاتل متسلسل يقتل ضحاياه بنفس الطريقة البشعة..من جانب المعمل الجنائي أفاد متحدث باقتراب الوصول للجاني...

توقف عبد الرؤوف مجففًا يديه الملطختين بالوحل الداكن بقطعة قماش لم تقل عن يديه اتساخًا، فقد انتهى لتوه من صناعة بعض الأواني والتحف الفخارية المشوهة، هوايته التي لا يعلم لماذا تسيطر عليه بجانب هوايه النحت التي هي أفضل من ناحية الناتج النهائي.

أخرج اسم يوسف من هاتفه النقال وحصل على رشفة عميقة من خليط الشاي بالنعناع، ليرن الهاتف بدون رد..

في مكان أكثر هدوءًا ورومانسية توقف هاتف عن الرنين بعد معاناة استمرت لعشر دقائق كاملة، انتهت برسالة كتب فيها «أنا كلمت مؤمن وعرفت إنك هنا.. لازم أشوفك.. رؤوف».

كان المكان شاليه مزخرفًا يجتاحه الهدوء كالمرض في منطقة بيانكي الشهيرة، غطى الحوائط اللونين الأزرق والأبيض المزركش بصور السمك الكرتوني الممل، ومرآة معلقة على حائط زينه عشرات من صفحات الجرائد وصور رسمت عليها دوائر قاتمة، وملاحظات مكتوبة بقلم «ماركر» أزرق اللون تنتهي بعلامات استفهام، وباب مفتوح جلس أمامه يوسف يواجه أمواج البحر المتكررة، تصدم وجهه أسهم

الرياح المتجمدة لتبعثر خصال شعره فوق عينين مفتوحتين لا تعرفان معنى الإغلاق.

تفحص شنطته ملقاة بجانبه ثم نظر عن يمينه ويساره ليتأكد أنه غير مراقب، بدت الرياح في أوج غضبها وقت الغروب.. لم يجرؤ أحد غيره على الاقتراب من الشاطئ نصف القطبي في هذا التوقيت من العام.. أخرج من الشنطة سلاحه الفضي اللامع وقلبه قبل أن يتأكد من حشوه بالكامل، سمع صوتًا قادمًا من داخل الشقة الساحلية المزخرفة.. صوتًا غير الصفير المسبب بالرياح، والموسيقى غير المتناغمة الناتجة من قطع المعدن المدلاة أمام الباب، والتي أخذ يلهو بها الهواء بداع أو من غير.

دخل بهدوء تتسحب قدماه الواثقتان وبيده سلاحه مطأطئًا الرأس.. تأكد أن الأمر مجرد هاجس عندما لمح وجهه في المرآة صدفة.. وجه شاحب لميت يشبهه كثيرًا.. بدا من الواضح خسارته لبضعة كيلوجرامات في وقت قياسي.. تفحص عظام ترقوته التي بدت أكثر بروزًا.. ثم قصد شنطته بالخارج والتي دغدغتها رياح الصقيع، دفن سلاحه مجددًا في الشنطة واتجه لحائط بطولاته المؤلم، أمسك بقلمه الغليظ وخط شيئًا ما لم يعد يستطيع أن يحويه صدره.. ثم اتجه للخارج مجددًا حتى قصد لسانًا خشبيًّا ينتصف البحر الهائج.

ترك ملحوظته بجانب صورة من صحيفة بها أربع بلاطات مطليات بلون أحمر قاتم رسمت حولهم دائرة وعلامة استفهام.

«كان عنده فرصتين يقتلني!»

تلك كانت خاطرته..

اقتحمت الرياح المكان حتى قاربت على اقتلاع الصور من فوق الحائط..وأغلق الباب نفسه.

* * *

(21)

- فضيلي المنطقة دي كلها يابني!

قالها عبد الجليل مرتكزًا أمام مبنى قديم مشيرًا بجهازه اللاسلكي لناصية شارع مكتظ بالمارة في منتصف حي الحسين، انتبه ضابط وبضعة عساكر ومخبران بائسان لاتجاه يد سيدهم كبضعة دلافين تنتظر إشارة مدربها لتقفز في الهواء، انطلقوا سريعًا ليبعدوا المارة المتجمهرين وبضعة صحفيين جذبتهم رائحة الموت، لم تكن الساعة قد تجاوزت العاشرة صباحًا بعد، نصبوا بضعة حواجز حديدية على بعد عشرة أمتار من مدخل عقار كئيب بدا كمركز للأحداث، حواجز قديمة استقر وراءها بضعة عساكر يتشحهم السواد بدا عليهم الإعياء والحزم، رآهم ذلك الطفل ذو العينين البائستين في طريقهم نحوه، قمحي اللون له عينان خضراوتان وشعر أشقر غير مهذب، كان في التاسعة من عمره.. لكنه امتلك عينين لرجل قد جاوز الخمسين عامًا منذ أمد، طفل يرتدي لباس الفقر والذل بالرغم من ملامحه القوقازية الجذابة.

حاول البائس تفادي الصدام معهم عندما رآهم يتقدمون بكل ثقة كجنود سليمان يدبون الأرض فوق النمل المرتعد، ملأه الخوف على رأس ماله البسيط المكون من تماثيل فرعونية رخيصة وأساور وارد الصين وبضعة ولاعات مزخرفة تجاورها علب سجائر لامعة، لملمهم

بدون ترتيب بأقصى سرعة ممكنة في «فاترينة العرض» الخشبية التي يحملها في كل مكان، طاح المجندان بغضب بالغ في الجميع، لا تفرق ركلاتهم بين الباعة والمارة بشرط ألا يحملوا ملامح غير مصرية، أشار الطفل العجوز إلى عساكر الشرطة بيده اليسرى وهو يلملم بيده اليمنى باقي ممتلكاته:

- تمام يا باشا!. خلاص!

لم تعره الطلائع المتحفزة أي اهتمام، بل أكملت طريقها تضرب هذا وتدفع هذا وتسب هذا إلى أن اقترب منه أحدهم راكلًا الفاترينة الصغيرة بحذائه الميري الأسود صائحًا بعدما «هوش» الآخرين:

- يلاااا! هتتحايل عليكوا ولا إيه!

رد الطفل البائس بعدما تحولت ملامحه البريئة لملامح نمر هائج:

- يا باشا ما خلاص يا باشا! ما قولنا ماشيين يلعن (..) أمك عالصبح!

- طاب تعالى يابن الو(..)!

قالها العسكري ذو الطول الفارع جاذبًا الطفل من ظهر ياقته جارًّا إياه تجاه أصدقائه المشغولين بالدفع والسب، وقع الطفل مرتين في الأرض مقاومًا يد العسكري العملاق محاولًا ضرب يده التي تساوي نظريًّا حجم جمجمته ولكن بدون فائدة، صائحًا بكل حنق:

- سيب القميص بقولك! عليه الحرام من ديني لو الفرشة اتسرقت لولع في ميتين أم الحتة دي باللي فيها.. سيب ياه بقولك!

توقف الجر فجأة من جانب العسكري الغاضب وضعفت قبضته عندما سمع صوتًا عاليًا به كثير من الحزم والغضب:

- بتعمل إيه يا بني آدم انت ؟!

استوقفه مؤمن -الذي صاح بها- مرتديًا نظارته السوداء القاتمة وجاكيت جلديًّا قاتمًا، تلعثم العسكري قليلًا ورد بصوت خافت:

- كنا بنفضي المكان زي ما جال عبجليل باشا يا مؤمن بيه! جام الواد ده سابيلي الدين.

- مش عارف تمشي أمورك مع عيل صغير؟! انت إيه لازمتك انت؟!. سيبه!

قالها بنفس الصوت الهجومي الغاضب ليفلته العسكري الغاضب متمتمًا ببضع الكلمات تعبر عن حنقه، ثم توجه مؤمن بنظره ناحية الطفل بعدما خلع نظارته الشمسية مضيفًا:

- وانت بقى راجل يا روح أمك ؟! بتسبله الدين؟ عايز تتروق يله؟!

- يا باشا مالاكش دعوة بأمي بعد إذنك.

- بتسبله الدين ليه؟

- كسرلي الفرشة يا باشا من غير ما اعمله حاجة، كنت بشيل البضاعة وبقوله خلاص يا باشا ماشي، قام مكسرهالي بجزمته، بص يا باشا!

قالها مشيرًا لرأس ماله المُهَان على جانب الطريق، تفحصه مؤمن بتأفف ثم أضاف:

- روح لمها وتعالى! لو مشيت هخلي يومك اسود من البيادة الميري، يلا روح!

- شعر الطفل ببعض الانتصار وهم بالركض ناحية بضاعته ليزيح عنها التراب، في حين توجه مؤمن بنظره ناحية العسكري بعدما هدأت ملامحه قليلًا :

- إيه يا فرج؟! إفترا وخلاص! ده حتة عيل صغير، دا انت كنت أحسن نفر عندنا.. حسدناك ولا إيه؟

- يا بيه والله كلمناهم 100 مرة، دول عيال ولاد ستين كلب جولالات الأدب ماتسمعش منهم.

- طاب روح انت يا فرج! وهدي أعصابك الله يصلح حالك المكان مرشق أجانب مش ناقصة فضايح..لو حد صور صورة كده ولا كده.. كلنا هنلبس اسود.

تأمل مؤمن المكان مطلقًا لعينيه الحادتين العنان لدراسة كل التفاصيل الممكنة، أخرج حافظته في جيبه الخلفي لتظهر حافظة جلدية أخرى حول خصره تحتوي على مسدسه الميري، قاطعه صوت يعرفه لم يبد غريبًا عن مسامعه:

- شكرًا يا باشا!

قالها الطفل واضعًا الفاترينة بين قدميه.

- إسمك إيه؟!

- سيد.

- ماتشتمش حد تاني يا سيد عشان مازعلكش.

- حقك عليا يا باشا بس هو والله اللي...

- مهما يعمل فيك..حتى لو دبحك.. هات ولاعه!

- أحسن ولاعة للباشا.

قالها بتحفز.

- بكام دي؟

تساءل مقلبًا الولاعة يمينًا ويسارًا متأملًا الصور الفرعونية المرسومة عليها، ثم أشعل بها سيجارة من العلبة التي أخرجها من جيبه.

- بـ5 جنيه، عشان الباشا باتنين بس.

- كمان هتبقشش!

قالها مازحًا مطلقًا بعض الدخان في نشوة.

أخرج من جيبه ورقة فئة 10 جنيهات ووضعها في يده وهم بالرحيل حين قاطعه الطفل:

- الباقي يا بيه!

أشار مؤمن بحركة معناها أن يضعهم في جيبه ثم أضاف:

- لو حد كلمك ابقى اسأل عن مؤمن البحيري.

ثم توقف مؤمن كأنه تذكر شيئًا:

- أبوك بيشتغل إيه يا سيد؟!

هز الطفل كتفه محركًا حاجبيه لأعلى في حركة تدل على جهله بالإجابة ثم أجاب:

- ميت باين.

هز مؤمن رأسه متفهمًا ثم أكمل طريقه إلى مدخل العقار بعدما فتح له السياج الحديدي بدون أن يطلب كبوابات فندق كهربائية، أطلق الحضور البوليسي تعظيم سلام لمؤمن الذي قذف بسيجارته إلى كوم من النفايات على يمين المبنى، ثم شق طريقه بين البصاق وبضع فضلات بلاستيكية حتى وصل لمدخل العقار، بدا العقار ثملًا يفكر مليًّا في الانهيار رغم الدعامات الهندسية التي تجاهد لتبقيه صحيحًا، اخترق السلم الضيق وصعد بخفة للدور الثاني وسط أصوات فلاشات الكاميرا والمحادثات مكتومة ورنين اللاسلكي الذي لا يهدأ، بادله شخص يرتدي بذة بيضاء بوليسية كاملة السلام:

- منور يا بحيري بيه!

ليبادله مؤمن التحية.

- راضي باشا!

واصل الصعود حتى وجد ضالته في الدور قبل الأخير عندما بدأت الضوضاء تنحسر بين صوت فلاش الكاميرا وتحركات رجال الطب الشرعي، وقف ضابطان من المباحث يتوسطهما عبد الجليل بوجه متجهم يراقبون ما يحدث بشغف وصدمة، بينما بدت غرفة أخرى في

الداخل أكثر هدوءًا وصمتًا، كمدينة محرمة، لا أحد يجرؤ على التقدم أو حتى التفكير في الأمر، ألقى مؤمن التحية بهدوء وتكلم لمدة دقيقتين مع رئيسه بفتور واضح في انتهى بتسليمه ورقة بها رسم كروكي لوجه حاتم الأسود، ثم هم بالدخول للغرفة المبهمة، حاول أحد أصدقائه استيقافه لكنه أكمل طريقه للداخل:

في داخل الغرفة بدا الأمر كأنه عالم منفصل عن الخارج، صوت غناء أنثوي يشدو بإحدى روائع فرانك سيناترا:

«I like New York in June، How about youuuuuu?!

I like a Gushuin Tune، How about youuuu?!»

كانت هي، تستمتع بعملها كالعادة بالرغم من كل شيء، لم يمنعها منظر الجثة المشوهة من الغناء، كانت لشاب أسمر ذي شعر ناعم وجسد نحيل، يحيطه بقايا دم متجلط على الأرض، استقرت على ركبتيها النحيفتين، تنظر من خلف نظارتها الطبية الكبيرة الساقطة على أطراف أنفها الدقيق. تحرك فرشاتها بسلاسة وخفة فوق جبهة الضحية، كأنها قطعة فنية تلمعها من الأتربة والعفرة، في حين انشغل رامي بوضع شعرة وجدها على الأرض في كيس بلاستيكي ولصق ورقة بيضاء صغيرة عليه، ثم وضعه على الأرض وقام بتصويره بجانب بقايا سيجارة رفيعة، قاطعت غناءها الخافت وتغيرت معالم وجهها كأن بها مسًا من الجن عندما صاحت:

- رامي!!، كام مرة لازم أتحايل عليك عشان تجيبهولي؟!!.

ثم استدارت صارخه:

- Where is my fucking forceps?!!

ركض رامي بعدها محاولًا إنقاذ حياته وجلس بجانبها واضعًا كل الأدوات التي قد تحتاجها لمائة سنة مقدمًا، تجمدت وأشارت للشخص الواقف خلفها بيدها المكتسيه بجوانتي طبي من غير أن تلتفت:

- مؤمن!

استند إلى الباب متفحصًا المكان قبل أن يتكلم قاصدًا غناءَها:

- الموهبة دي عندك من زمان؟!

- آه!!، شرطي العدالة بيعرف يهرج..كويس..كويس.

- كان نفسي يكون فيه وقت للتهريج..

أضافت بدون إبداء أي دهشة بعدما التفتت:

- بتحب سيناترا يا مؤمن؟!

أجاب عاقدًا ساعديه بعدما رمى السلام بكف يده على رامي.

- أي حاجة غير الكابوس ده ممكن تتحب يا دكتورة.. نفس الكلام؟

- Copy Paste نفس «الكاديفر» اللي فاتت، عنين متخيطة وطعنة تحت الصدر، دم متصفي، وبلاط متلون.. نفس الخنجر.

قالتها بعدما حكت ظهر يدها في مقدمة رأسها مرتين وهمت باستكمال عملها لتضيف:

- الأرقام بس اللي جديدة.

- يوسف في الطريق، كان لازم أقوله عشان نتأكد من...

في تلك اللحظة تنحت جاكلين جانبًا عن الجثة لتظهر كاملة لمؤمن بعد ما كانت تداري نصفها العلوي تقريبا بجلوسها أمامها، انكمش وجه مؤمن من كثرة الاشمئزاز وصاح بعدما أشاح بوجهه بعيدًا واضعًا يده أمام وجهه في حركة تلقائية:

- إيه الأرف ده..؟!، انتي إزاي ما بتتأثريش بالمناظر دي؟!

- في أول 5 سنين..الجثث كانت أزمة بالنسبالي.. وبرده في أول 5 سنين - جواز.. كنت فرحانة.

- بالنسبالي كانوا أول خمس أيام.

قالها مؤمن باستهتار.

ردت تفحصت الجرح القطعي بعدسة كبيرة نسبيًّا ثم أضافت موجهة حديثها لرامي الذي هم بكتابة شيء ما:

- بردو.. نفس السلاح المستخدم في الطعنة هو السلاح المستخدم في رسم الأرقام على وش الكاديفر.

- كلامك وكلام يوسف كان صح.. حادثة المرج كانت بداية.. كل ده كويس. التعديل اللي حصل في الضحايا هو اللي مش كويس.

نظرت إليه جاكلين مرة أخرى كأنها لا تفهم ما يقول ثم أكملت عملها قائلة:

- تقصد وليد؟

- مش بس قصة انه قريب يوسف.. الفكرة في اللي هيحصل بعد كده.. فيه تعديل حصل في اختيار القاتل للضحايا..

ثم حرر يديه مضيفًا :

- لازم نتكلم يا دكتوره!

- كلام كتير.. فعل قليل، إحنا Already اتكلمنا يا مؤمن.

قالتها ووقفت لتدنو من شنطة خاصة بها تركتها بجانب الحائط أخرجت منها ظرفًا أبيض متوسط الحجم ووضعته في كف مؤمن لتضيف بعدما حكت أنفها:

- مختار بتاع الآي تي كبر الصورة بالفوتوشوب.. مش واضحة أوي بس بتنفع.

ثم أشارت له بسبابتها:

- انت ويوسف مديونين لي!

كانت تتحدث عن انعكاس لصورة لنصف وجه القاتل في زجاج الاستوديو القاتم، كانت ملامحه مبهمة كالشبح إلا أنها أوضحت شعره الغزير وتفاصيل جسده التشريحية.

- هنقارنها بالرسم اللي معانا..

أخرج هاتفه النقال من جيبه ليجد اسم يوسف على الشاشة، ضغط على زر الإجابة ومشى قليلًا ناحية سلم العمارة محاولًا وصف مكان العقار ليوسف الذي قارب على الوصول بسرعة مخيفة قياسيًا من الإسكندرية، عاد بعدها مؤمن ليقول شيئًا لصديقته غريبة الأطوار.

- أنا هروح مشوار عشر دقايق.

- Sure!. بقولك! محتاجة خدمة كبيرة، لو تبعت حد من المخبرين يجيبلي سجاير عشان سجايري قربت تخلص..

- أنا معايا سجاير.. بتشربي إيه؟

- كريليا، ويا ريت...

قاطعها صوت موسيقى عذب.

- «بحلم معاك.. بسفينة.. وبموجه ترسينا.. ونبحر تاني....».

وضع مؤمن يده على جراب مسدسه بهدوء وحذر في رد فعل غريزي، تفحصت عيناه الحادتان المكان بشغف يملأه الحذر، في حين تجمدت جاكلين في مكانها مستمعة لتلك الأغنية التي تعرفها جيدًا ولا تعرف مصدرها، تكونت بضع قطرات عرق فوق جبهة رامي البيضاء المائلة للاحمرار وتجمدت الكاميرا في يده، أشار مؤمن للجميع بالتزام الصمت، ثم تقدم ببطء ناحية الجثة ونجاة الصغيرة لا تزال تشدو في موقف لا يحتاج لأي رومانسية إضافية:

«العالم كله بأسراره.. عايش جوايا.. عايش ويايا.. في الرحلة طول مانت معايا..».

رفعت جاكلين يدها في صدمة والملقاط بين أصابعها الدقيقة، تجمدت الدماء في وجهها في حين واصل مؤمن تقدمه ناحية الجثة، مال بجسده ناحية القتيل، ثم أشار بإصبعه ناحية صدره الشخصي لأعلى ثم

لأسفل، ثم أشار لصدر القتيل الذي كاد يتعارك معه منذ ثلاثة أيام في حركة معناها: (تفحصي الجرح الذي في صدره!)

ترددت جاكلين قليلًا ثم حركت يديها ناحية الجرح القطعي العميق وحاولت شق طريقها بالملقاط إلا أنها لم تفلح بينما لا تزال الأغنية تستمر، وضعت الملقاط الطبي جانبًا ثم غرزت يدها في صدره كرجل يبحث عن مفاتيح سيارته في جيب بدلته، ابتلع صدره كفها اليمنى حتى مرفقها، تجمدت للحظة بعد ثوانٍ من البحث، أخرجت شيئًا ما يبدو ككيس بلاستيكي شفاف، زادت حدة الموسيقى، نظرت لما حصلت عليه بدهشة يمكن أن توصف بالذهول.

كان هاتفًا محمولًا يرن بداخل صدر جثة وليد..

فتحت الكيس مخرجة هاتفًا صغير الحجم بتأفف من ذلك الكيس الملطخ بسائل لزج وبقايا دماء متجلطة تشبه الخيط.

- كنت فاكرة إن الجراحين بس اللي بينسوا..

قالتها بوجه متأفف وأضافت:

- Well That was Sick!

ضغطت على زر لإيقاف المنبه الذي دق في ميعاده تمامًا ثم وضعت الهاتف جانبًا وخلعت الجوانتي المغطى بالدماء عن يدها.

- هو عارف إن إحنا هنا..

قالها مؤمن لترد جاكلين بتهكم:

- بأمانة!..الواد creative!

قالتها ورفعت حاجبها بإعجاب مرتدية جوانتي طبي آخر ثم أردف مؤمن:

- هو عايز يقول إيه؟

- مش عارفة..

- مش عارفة!،، هو ده اللي قدرك عليه ربنا؟

- مؤمن! دي قضيتك من أولها لآخرها،، أنا شيلت إيدي منها.

- مافيش مشكلة..

حرك رأسه إيجابًا وصمت لثانيتين وهم بالرحيل لتستوقفه جاكلين:

- All right!.. إستنى! ماتبقاش دراماتيك أوي كده، كفاية أوي الدراما اللي إحنا فيها.

- دراما!. إحنا واقفين نهرج فوق جثة ابن عمة يوسف..ده غير إن كل لحظة بتعدي فيها خطر على حد جديد- جاكلين! لازم تعرفي انه عارفنا كويس.. وعارف كل خطواتنا بالثانية..دي الدراما اللي لازم نفكر فيها.

قالها مؤمن بهدوء لا ينقصه أي جدية وصرامة.

ثم أضاف:

- تمام!!

حركت جاكلين رأسها إيجابًا بعدما فكرت مليًا في كلمات مؤمن التي بدت مقنعة، ثم رفعت حاجبها الأيسر وتابعت عملها.

* * *

(22)

كان هناك بصيص من الأمل على الرغم من بكائها المتواصل، تتذكر كيف طمأنها الطبيب بأن زوجها قد يستيقظ قريبًا، تشعر بقرب اللحظة كلما تحركت يده حركة لا إرادية أو قال كلمة غير مفهومة على سرير الموت، أرادت أن تذهب لتغتسل وتصلي العصر لكن شعورها بقرب اللحظة جعلها تتردد كثيرًا، فهي تريد أن تكون بجانبه عندما يستيقظ، تريد أن تكون أول شخص يخاطبه، تريد الكثير والكثير لكنها لا تستطيع فعل أي شيء، اتخذت قرارها وذهبت وأغلقت عليها باب الحمام وتركته نائمًا بين الأجهزة التي تتصل أسلاكها بكل بقاع جسده كالأخطبوط، يغطي وجهه قناع شفاف متصل بخرطوم رمادي يتنفس منه بصعوبة، يعلو ويهبط صدره مع كل نفس وتعلو معه أيضًا مضخة صامتة تمده بالهواء.

ارتعشت يده اليسرى المتصلة بقسطرة صغيرة قليلًا ثم تحرك إصبع السبابة لأعلى وعاد مرة أخرى لوضعه الطبيعي وسط صفير الأجهزة، لم تمر ثانية أخرى إلا وتكررت الحركة مرة أخرى وسط رعشة ملحوظة من باقي أصابعه، لم تنته المرة الثالثة إلا وارتعش جسده كله كرعشة شخص يصحو من كابوس مؤلم، طرف جفنه مرات عديدة من دون أن ينفتح عن آخره، شعر وكأن جفنه أثقل من شاحنة نقل بضائع يجب عليه رفعها بيد واحدة، بدا ضوء الحجرة الأبيض البسيط أقوى من لسعة برق شتوي

غاضب، بدت الصورة باهتة كما هي أحلامه، تسيح التفاصيل فوق بعضها وتمتزج الألوان ولا تنفصل حتى بعد أن مرت دقيقة كاملة على استيقاظه، شعر أن شخصًا ما يجلس أمامه، أراد أن يصرخ ولكن لم يطاوعه صوته، جاهد ليتحرك لتخذله عضلاته نصف المحتضرة، اتضحت الصورة شيئًا فشيئًا، كانت لشخص يجلس أمامه في ترقب. شعره طويل قاتم اللون يغطي نصف وجهه، يرتدي زيًّا قاتمًا أيضًا، بمعنى أدق.. زيًّا أسود.

- أهلًا بيك!

قالها الشاب.

- أأأ..

- هدي أعصابك، أنا هنا عشان أنا اللي اتكلم.

قالها للبحيري الذي تجمدت الكلمات في فمه كثيرًا وتحركت عيناه يمينًا ويسارًا في رعب، في حين فتحت زوجته الباب مسرعة لتراه مفتوح العينين وتركض تجاهه متجاهلة الشخص الدخيل، قبلت يديه ثم رأسه ودموعها تنهمر كالسيل، حمدت الله وشكرت فضله آلاف المرات المتتالية، هنأت زوجها بعودته مرة أخرى، إلى أن شعرت أن شيئًا ما غير طبيعي في المكان، التفتت لتجد ذلك الشاب غريب الأطوار يجلس مستريحًا مصفقًا بحرارة قائلًا:

- كان نفسي أعيط بس...

- مين حضرتك؟ ودخلت هنا ازاي؟

قام الشاب من مكانه مواجهًا السيدة ومقتربًا منها، تراجعت وتابع هو تقدمه مخترقًا مساحتها الخاصة لتتحول ابتسامته فجأة لوجه غاضب:

- أنا الكابوس!

قالها بصوت غريب ومخيف أشبه بصوت شخص مبحوح الصوت من كثرة الصياح، جاذبًا إياها من مقدمة ملابسها، ارتعشت كثيرًا وصرخت صرخة مكتومة وسقطت نظارتها الطبية على الأرض لتنكسر عدستها، تجمدت وبكت من الخوف كطفلة صغيرة، سقطت على الأرض بعدما عجزت قدماها عن تحمل الأمر، زحفت للخلف في حركة غريزية ماسحة أرضية الغرفة بفستانها الطويل في حين حرك زوجها يده قليلًا مطلقًا نصف صرخة بها كثير من العجز والغضب.

أمسك الأسود بيده النحيفة التي امتدت بها كثير من العروق الزرقاء ويكسوها جلد متهالك مبتسمًا.

- آسف لو أزعجتكوا في اللحظة الرومانسية دي،، بس أنا عندي رسالة للباشا الصغير ولازم أوصلها.

أخرج من جيبه علبة صغيرة سوداء تشبه علب الساعات القيمة ثم أكمل بعدما أخرج من جيبه مقصًا متوسط الحجم، أحمر اللون غليظ المعدن كالذي يستخدم في تهذيب الأشجار، دلفت صديقته ذات الشعر الأحمر الملتهب وأغلقت الباب خلفها لتستند عليه مبتسمة، قبض الأسود على المقص مرتين ليصدر صكيكًا مخيفًا قائلًا:

-Ciao!

ابتسم وأمسك بإصبع والد مؤمن الصغير ونظر للسيدة المسنة قائلًا بحزم:

- لازم يقطع علاقته بالقضية في أسرع وقت.. هنعمل تجربة عملية على القطع دلوقتي عشان.. لو اشتغلنا بإدينا عمرنا ما هننسى.

قالها ليفلت الأب إصبعه من يد الأسود.

- ركز!

استعاد إصبعه وأعاد خصال شعره خلف أذنه.

- ماعتقدش إنك بالغباء إنك تصرخي وتخليني أتنرفز.. صح؟!. صح!

تساءل مشيرًا لزوجته بمقصه اللامع في حين ضحكت كثيرًا صديقته السادية، أضاف واضعًا المقص فوق إصبع الخنصر للعجوز الواهن:

- و لو انه مش من مبادئي إني أدايق راجل عاجز، بس أنا قررت أضحي عشان هدف أسمى. وضعت السيدة يدها على فمها محاولة عدم إصدار أي صرخة، تفحصها الأسود عاقدًا حاجبيه مضيفًا:

- نصيحتنا النهارده!.. مانجربش اللي هنشوفه في البيت.

خرجت صرخة قصيرة من تلك الغرفة الخاصة في المستشفى الهادئ، وبدا الحارس الشخصي المعين أمامها غارقًا في نومه على كرسيه إثر تناوله لشاي لم يكمل نصفه.

وعاد الهدوء للمكان.

* * *

(23)

- تمام كده يا سامي؟.. الـView ده كويس؟

قالتها الفاتنة في منتصف الحسين في ذلك اليوم القاتم، سيطرت ابتسامة خفيفة على ملامحها المميزة بينما أزاحت خصلة شعر شاردة عن عينيها الواسعتين، حاولت التأكد من تناسق ملابسها المكونة من جيبه رمادية مميزة، وقميص حريري ناصع البايض فوق ياقته يوجد شال رمادي ربط بطريقه تشبه الـ«كرافيت»، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة صباحًا عندما امتلأ الشارع خلفها بالمارة وطلاب المدارس الفنية ذات الميعاد المتأخر، يرمقونها بنظرات تكاد تجردها مما تلبس، يسرحون في تفاصيلها مع بعض المارة الذين فقدوا قدرتهم على الحركة وحدث لهم نوع من أنواع الشلل التام.

كان سامي هو فتى الكاميرا ذا الخامسة والثلاثين ربيعًا والصلعة الناصعة البياض والتي أخفاها بطاقية حفرت عليها علامة رياضية شهيرة، وذقن بني هو أعز ما يملك حاليًا، متوسط الطول والوزن يمتلك كتفين عريضتين، يمضغ علكته بقوة دائمًا كأنه يريدها أن يقطعها لأشلاء، لا تفارق وجهه ابتسامة تنم عن استمتاعه بعمله، وجه الكاميرا على فتحة القميص الخاص بها- أي يارا قاسم- انتظر قليلًا ثم رفع عينيه عن الكاميرا الكبيرة التي يحملها ليضيف:

- View تحفة يا مديرة!

قالها بنبرة ساخرة لم تفهمها ثم رجع قليلًا للوراء إلا أنه تفادى سيارة شاهين مسرعة كانت قريبة من دهسه ليصيح بحنق:

- فتح يا بني آدم انت!

لكن صاحب الشاهين البيضاء لم يسمعه منطلقًا بنفس السرعة ليضغط على الفرامل وتستقر السيارة في مكان غير مخصص للركن، نزل مسرعًا على بعد ثلاثين مترًا من زحمة الحسين ولاحظ تجمع المراهقين والمواطنين كالقطيع حول فاتنة ممسكة بميكروفون أمام مصور ما، لكنه علم جيدًا سبب حضورهما لهنا وفي هذا التوقيت، هم بالمشي بعدما أغلق السيارة ولكنه لاحظ أنه نسي شنطته الـ«كروس» في الكرسي الخلفي لسيارته، تجمد أمام السيارة يفكر فيما بداخل تلك الشنطة، قام بإعادة حساباته مرة أخرى عندما أيقن أنه سيحصل على مخالفة لا مناص بالإضافة إلى أن السيارة قد تجر بعيدًا، لكنه لا يريد أمر ضبط وإحضار بجانب ما سبق.

فتح سيارته مرة أخرى ودخل بهدوء حتى تمكن من حقيبته ثم رماها فوق كتفه وهم بالرحيل متمتمًا لنفسه:

- قضية واحدة أحسن.

هرول مسرعًا متجاهلًا شابًا أشار له وقال شيئًا عن المرور وكلمة «الونش»، تجاهله لأنه يعلم تمامًا مقصده، لكنه يعلم أيضًا أنه يمتلك أشياء أكثر أهمية في عقله حاليًا من خسارته لسيارته، أخرج هاتفه النقال

وضغط على اسم مؤمن، وقف في مفترق طرق عند مدخل الحسين ينظر لكل المداخل والمخارج منتظرًا الرد، رد مؤمن على المكالمة وحادثه قليلًا عن العنوان وكيفية الوصول، نظر يوسف لليمين وهز رأسه قائلًا بصوت خافت:

- تمام!

في حين اصطدمت كتفه ببعض المارة ودفعه البعض، وضع إصبعه السبابة على أذنه اليمنى ليقلل من ضوضاء نداء الباعة على الأجانب ثم أكمل:

- بيني وبينك دقيقتين.

قالها وعيناه الرماديتان تتفحصان الحشد الذي تزايد حول المذيعة ذات اللباس الجذاب، والتي بدت تتحدث لكاميرا بكل ثقة وتتجه لداخل الحسين أكثر ثم أكثر ليبتلعها الحسين كما تبتلع الرمال المتحركة ضحيتها.. ساعتها شعر أن شيئًا ما في غير محله، مضى في طريقه مندهشًا من جرأتها وغشامتها في الوقت نفسه، فوجودها في ذلك المكان المزدحم بتلك الأناقة هو قمة الاستهتار - كما يعتقد، اصطدمت كتفه بمجموعة جديدة من طلبة المدارس الفنية تتجه ناحية الحشد في حين قال أحدهم لآخر:

- إيه ده يالاا. دي جامدة أوي، تعالى يا سوري بسرعة!

قاوم يوسف شعورًا ما تملكه بأن شيئًا ما سيحدث لكنه آثر أن يكمل طريقه لهدفه ركضًا، وبالفعل اخترق الزحام.

- هل تكون جريمة حي الحسين الهادئ بنفس تعقيد جريمة المرج الشهيرة، مصادرنا تقول إنها نفذت بنفس الكيفي...

تغيرت ملامح يارا فجأة مقاطعة جملتها:

- ثواني يا سامي! إيه قلة الأدب دي؟!

قالتها عندما التفتت لحفنة من الشباب ذوي الأوجه المثيرة للقلق وبضعة طلبة يرتدون قمصانًا بيضاء شفافة ومن تحتها أكوامًا من البلوفرات غير المهندمة، صدمها عددهم وضحكاتهم غير البريئة، شعرت برعب من نظراتهم التي اخترقت ملابسها كأشعة «الإكس راي»، تجمدت ملامحها وتلعثمت الكلمات تحت لسانها وشعرت بشيء ما سيحدث.

كانت مفاجأة عندما اكتشفت أن مايفصلهم عنها هو متر واحد فقط، رجعت قليلًا للوراء واتسعت عينها عن آخرهما عندما شعرت أن شخصًا ما أو بضعة أشخاص يدفعون الحشد نحوها، زادت ضحكات هؤلاء الذين يحتلون الصفوف الأولى كلما دفع أصحاب الخطوط الخلفية الحشد وتداخلت كلماتهم بين المزاح الجنسي والترقب والصراخ الإيحائي المستفز.. إلى أن أطلق أحدهم صرخة أخيرة..

وبدت كإشارة لبدء الهجوم..

سقط الميكروفون على الأرض ليختلط بالطين، ذلك عندما وضع سامي عدسة الكاميرا للأسفل مصدومًا مما يحدث، تدافع الحشد عليها وسط صراخ جنسي مصطنع من بضع المراهقين ليثيروا به أقرانهم،

تداخلت الأيدي ومُزق القميص الحريري الأبيض، جذب شعرها الناعم بكل قسوة ممكنة، صرخت وكلما صرخت زادت شهوتهم ازدهارًا، كانوا في عداد الأربعين معتد تقريبًا، تراجع المصور للوراء لتتحول صدمته رويدًا لابتسامة حقيرة، وضع الكاميرا على كتفه مجددًا ثم ضغط على زر جعل لمبة حمراء صغيرة تعمل على يمين مقدمة الكاميرا، مضغ علكته بتلذذ وبالابتسامة نفسها وسط صدمات المتدافعين لكتفه، أياد جائعة تمتد لتقطف من الجنة المحرمة ما لا يخصها، جسد يُعتصر وروح تغتصب، تدخل أربعة رجال من البائعين والمارة أخذتهم الشهامة لحمايتها، يضربون ويركلون ما يقابلون من الحشد بكل ما أوتوا من قوة، يسبون ويلعنون لكن لا أحد استطاع أن ينقذها، شعرت بالكدمات تكال إليها والأظافر النتنة تنهش في جلدها الناعم، تبكي ولا تصرخ من الصدمة، وقعت على الأرض وقامت مرة أخرى، بدت كلحظة لن تنتهي، توقف الزمن عندها وسط صراخ وركل وسب وتدافع وضحكات، تمنت لو قتلتهم جميعًا، واحدًا واحدًا بكل هدوء وبرود، تمنت لو تمتلك مدفعًا رشاش أو سيفًا يقطع كل شيء، اتسعت الدائرة المقامة حولها قليلًا كرد فعل لدفاع الشهماء المستميت، حاولت الركض لكن أحد الكلاب المسعورة أمسك بقدمها فوقعت مرة أخرى، قامت مرة أخرى بعدما ساحت المساحيق على دموعها، لم تغلق الدائرة عليها مرة أخرى لأن الرجال الذين تولوا مسؤولية الدفاع عنها كانوا قد تعدوا السبعة، يجاهدون من دون فائدة فهي تفلت كل يد تصل إليها لتجد الأخرى حتى لو كانت يد منقذ، لا تدري من يريد جذبها من المجزرة أو إليها،

انسلخ شاب من الحشد من خلفها وتقدم ناحيتها، قامت من على الأرض مرتعدة تفلت يد هذا وتركل هذا، شعرت بذلك الشخص يقترب منها لكنها لم تلتفت، أكمل ذلك الشخص طريقه من دون توقف كأنه يعلم ما يفعل، مشى بهدوء أمامها في الاتجاه نفسه الذي حاولت هي المشي فيه، فتح كف يده اليمني خلف ظهره، سمعت صوتًا يقول بثقة وهدوء:

- ماتخافيش!

ترددت ثم وضعت يدها المرتعشة بين أصابعه من دون أن تسأله من هو، ضغط بقوة على يدها الضعيفة، جذبها في اتجاهه كما تجذب السيارة المسرعة أوراق الخريف، تحرك للأمام ليقابله حشد كبير يزيد على الخمسين، اقترب منه الحشد بالرغم من المعركة الدائرة بينهم وبين المتطوعين، رفع يسراه التي تمسك بمسدس فضي تجاههم، سقطوا على أعقابهم أرضًا كأنه قد ألقى عليهم سحرًا، وقف التدافع نسبيًّا نحوهم وهو لا يزال يتقدم ناحيتهم بكل ثقة وهي من خلفه، لا تعلم ما يحدث لكنها شعرت بأنه هنا من أجلها، يفعل المعجزات لينقذها من الجحيم من دون أن تسأله عن كينونته، كان لها منقذًا.. كان كالحياة بعد الموت.

رفع يسراه تلك المرة ناحية السماء، لمع مسدسه الفضي في الهواء كنصل سيف روماني، ضغط على الزناد ثلاث مرات متتالية، انطلقت الرصاصات تمحو الأصوات والصراخ، توقف الكل عن الحركة كما يوقف انقطاع التيار صوت التلفاز المرتفع، وقف صامتًا يلوح بسلاحه في وجوه الذئاب المتحفزة، يسيل لعابها في ترقب وحذر، تطلق

حناجرهم صرخات الكبت الممتزج بالخوف، تتراجع..ثم تترقب، تنتظر هفوة لتنقض مجددًا على فريستها الثمينة، تتنفس بغضب، سقطت بضعة أمطار من السماء، سقطت غاضبة على شعره البني ذي الخصال الطويلة ليستسلم فوق عينيه الرماديتين، قالها بحدة أكبر وصوت أعلى، قالها واثقًا رغم تلك الرعشة التي في يده:

- أي كلب هيتحرك هيشوف مخه على الأرض!

أشار ناحية اليسار بالحدة نفسها فسقطوا وتراجعوا، ثم لليمين فحدث نفس الشيء، وجه فم سلاحه ناحية الأمام فانشق الطريق كما انشق البحر أمام عصا موسى، ضغط على كفها الرقيق وأكمل طريقه للأمام بعدما بصق عليهم، التحم المتطوعون مرة أخرى مع الذئاب لينشغلوا عنهم، أكمل الشاب طريقه بها لبناية قريبة وأدخلها في المدخل الخاص بالبناية وسط ترقب المارة، خلع الجاكيت الخاص به ووضعه حولها، ازدادت الأمطار سرعة وغزارة، ارتعدت متمتمة ببضع الكلمات وسط هيستيريا بكاء حادة، أمسكها من ساعديها مقاطعًا نوبة البكاء:

- إهدي!. أنا يوسف.

نظرت في عينيه بعينين مفتوحتين عن آخرهما مصدومة كمن رأت آخر شخص تتوقع رؤيته الآن، تجمدت الدموع في عينيها وتجمد بها الزمن لثانية،

قالتها هامسة من دون صوت تقريبًا:

- يـ..وسف!

هز رأسه موافقًا ثم تأكد من غلق الجاكيت حولها، تجمع بضعة أشخاص وسيدة يحاولون الاطمئنان عليهما وإشباع قليل من الفضول، أشار لهم يوسف بأن كل شيء على ما يرام، ثم أخرج هاتفه النقال وضغط على قائمة الاتصال السريع وتحدث لمؤمن بعدها بثوان، أتى بعد بضعة دقائق مؤمن محاطًا ببضعة مخبرين..

وكان غاضبًا.

أسفل المبنى المشئوم بجانب المدخل بدا كل شيء طبيعيًا، يارا تجلس على كرسي مرتدية جاكيت رماديًا غير متناسق من ناحية الحجم لكنه يبدو جيدًا عليها، على بعد أمتار منها وقف بضعة عساكر ومخبر يتحدثان عن صديق لهما فقد طفلته، وأمامها -أي يارا- استقر كوبٌ ساخنٌ من الشيكولاته لم تلمسه بعد، يتصاعد البخار منه بدون توقف، بجانبها جلس مؤمن وأمامهما منضدة بلاستيكية صغيره، كانت السماء قد هدأت ولكن الأرض قد تحولت لمستنقع من البرك الصغيرة والوحل.

- كويسة دلوقتي ؟!

سألها مؤمن محاولًا الابتسام، حركت رأسها إيجابًا بصعوبة محاولة مجاراته، أشار للكوب الكبير الموضوع أمامها لتشرب منه فحركت رأسها مجددًا بالقبول، أنهى يوسف محادثة تليفونية قصيرة مع صديق له في المطعم قد افتقده بشدة وصمم أن يراه الليلة، حاول يوسف الاعتذار لكنه أصر وذكره بأن له نصف راتب لم يحصل عليه بعد، استسلم يوسف

لإصرار صديقة أخيرًا خصوصًا بعدما تذكر أنه مفلس تمامًا بالفعل، اقترب من مؤمن ويارا، تأكد أن يارا في حالة جيدة ثم سأل صديقه:

- هينفع نطلع دلوقتي؟!

- مافيش مشكلة.

قالها ثم هب واقفًا ليشير لمخبرين ومجند:

- لما توصلوا لعماد بيه خليه يكلمني.. مش عايز حد من العيال يروح إلا لما أعرف مين اللي بدأها.

رد عليه جميعهم بالإيجاب ثم مشوا حتى وصلوا لشارع جانبي أكثر وسعًا استقرت به سيارة «بوكس» محملة بباقي الذئاب الصغيرة المنهكة من الضرب.

كانت يارا هائمة في كوب الشيكولاته كأنها ترى المستقبل فيه، منعزلة عن كل العالم، أشار مؤمن برأسه ليارا في عزلتها الإجبارية، أومأ يوسف برأسه متفهمًا وجهة نظر صديقه بأن يارا يجب أن ترحل سريعًا، بعدما أمست تحمل من ذلك المكان بضع ذكريات مؤلمة.. للغاية.

أِشار مؤمن بيده لمخبر أن يتقدم ناحيته، ثم أضاف بصوت خافت:

- خليك جنب الهانم!

صعد معه يوسف بهدوء في ذلك المدخل الضيق الذي بالكاد يتحمل شخصًا واحدًا، محاولًا تفادي بضع سلمات مكسورة سلفًا، وصلا للدور الأخير ووجدا بضعة أفراد من النيابة منهمكين في كتابة تقرير عن

الحادث، تقدم مؤمن قليلًا للأمام مشيرًا ليوسف بالتوقف لثانية، دخل الغرفة الكئيبة التي لم يكن بها أي شخص غير جاكلين في تلك اللحظة، أشار ليوسف ليتقدم ثم قال له بتأثر:

- سامحني إني ماقولتلكش في التليفون..بس المنظر صعب، حاول تمسك نفسك.

لم يفهم قصده، لكن اتسعت عيناه حتى قبل النظر إلى أي شيء، تحرك للأمام مثقلًا بأكياس رمل في قدمه، يبدو عليه الإرهاق الذي يصل للإعياء، بدا ولأول مرة في أعين صديقه بأنه قد فقد الكثير من الوزن فجأة، قامت جاكلين من أمام الضحية بهدوء، وقف يوسف على بعد متر ونصف من الجثة المتجمدة، سقط بهدوء على ركبتيه غير مصدق لما رآه، وأغمض عينيه لثانيتين.

مرت دقيقة من الصمت حاول مؤمن مساعدته لينهض لكنه رفض، فتح عينيه وظهرت حمراء ملتهبة تملأها الدموع، سأل بوجه حازم:

- الخنجر المستخدم.. نفس الشكل؟

- هو بالظبط.

ردت جاكلين

- نفس تفاصيل جريمة المرج يا يوسف!

قالها مؤمن.

حرك يوسف رأسه مرتين مستنكرًا جملته الأخيرة، ثم نظر له مفسرًا:

- مش نفس التفاصيل...

قالها وأعاد النظر للمعطيات أمامه بتركيز، ارتسمت دائرتان تخيليتان على البلاط الملون بدماء وليد والذي اتخذ شكلًا شِبه حرف V، وخرج سهمان افتراضيان من رقعتين إضافيتين تم طلاؤهما مقارنة بالجريمة السابقة.

أومأ مؤمن برأسه موافقًا وساعده ليقوم بعدما مد له يده، قام بعناء تاركًا يد صديقه متجهًا للخروج، استوقفته جاكلين ورتبت على كتفه وأمسكت ساعده المبتل من المطر، تأكدت أن ظهره للجثة عندما قالت:

- أنا عارفة إن مافيش كلام هيعوضك عن خسارتك، بس أنا لازم اتكلم معاك.

- مش لازم نتكلم.

رد يوسف بصوت واثق متجاهلًا ما تريد جاكلين قولهما.

- لأ لازم.. بلاش تحمل نفسك كل حاجة..، لازم نفكر في اللي جاي.

- قتله عشان ماسافرش.. عايزني استنى.

تابع تمتمته لنفسه بوجه متجمد وعينين دامعتين ماسحا بكم القميص الأبيض الذي يرتديه على وجهه، ثم حاول أن يحصل على نصف نفس من أنفه المحتقن حينما أضافت:

- يوسف! لازم تسمع اللي هقولهولك كويس!، أولًا، شد حيلك!

ثم أضافت:

- ثانيًا..اللي هيحصل في الأيام الجاية غالبًا أصعب من اللي عدى.

واستطردت:

- للأسف.. فيه ناس تانية هتموت.. غالبا ناس تعرفهم.

حرك يوسف رأسه بالإيجاب، ثم تابع:

- كان بيحاول يتغير..

قالها قاصدًا وليد مخاطبًا نفسه في ذهول.

- يوسف! القضية مش قضية قريبك بس! لو السيناريو اللي في دماغي صح يبقى هيمنعك من السفر باستهداف قرايبك أو صحابك.. جهز نفسك لحاجة زي كده!

- أنا عارف إن الوقت مش في صالحي.

- لا في وقت.. المهم انت لازم تختفي الفترة الجاية..

قالتها ونظفت نظارتها بقميصها قائلة:

- لأنه ممكن جدًّا يكون بيعمل ده.

قاطعها مؤمن متدخلًا:

- عشان تظهر ويعرف يوصلك.

قالها مربتًا على كتفه ثم أضاف:

- أنا جيبتك عشان ماكانش ينفع ما أقولكش،، ده غير إني محتاج عنيك تشوف الاختلافات بين الجريمتين..

- ماقولتش ليه في التليفون؟

أشعل سيجارة وأردف بعد ما نفخ الدخان بعيدًا عن وجه يوسف عن عمد:

- آسف إني ماقولتش التفاصيل..عمومًا دي آخر مرة هتظهر فيها لحد ما نجيبه، الواضح إنه عايز يوصلك بأي تمن.

حك مؤمن أسفل منخاره وأضاف بحرج:

-البقيه في حياتك!

- وليد دفع تمن غلطتي.. تفتكر هتفرق معايا بعد كده لو قتلني؟

- هتفرق معانا إحنا!

قالها مشيرًا برأسه ليوسف بالخروج من الغرفة الكئيبة.

- يوسف!

صاحت بها جاكلين ثم أردفت بعد صمت:

- مش كل واحد هيقول كلمتين في جرنال هيشيل ذنب العالم.

حرك يوسف رأسه متفهمًا بينما لم تكن عيناه على وفاق واضح مع ما يقوله رأسه.

توجه مؤمن مع يوسف خارج العقار المترنح، في مدخل العقار أخرج مؤمن من جيبه بضعة أوراق وجواز سفر وناولهم ليوسف الذي تردد لثانيتين قبل أن يمسك بهما، أضاف مؤمن:

- كلام معاذ وجاكلين كان صح.. ده الحل الوحيد.. تذاكر السفر عندك والفيزا على الباسبور.. ابن خالتي هيستناك في أبو ظبي هتسكن معاه

لحد ما ربنا يكرم بشغلانة، في ظرف أبيض فيه قرشين يسندوك لحد ما تقف على رجلك هناك..تذكرتك بعد بكره.. وأوعدك خلال شهر هتصل بيك عشان ترجع.

- ليه مصمم.. تغير صورة ظابط المباحث اللي في بالي؟

كانت رد يوسف الذي ابتسم نصف ابتسامة يائسة، وجاهد ليتكلم بصعوبة.

- يمكن جه الوقت إنك تغيرها.

أجابه مؤمن بابتسامة مشابهة وربت على كتفه مرة واحدة، ثم تابع طريقه خارجًا فهو يكرة كثيرًا تلك اللحظات المؤثرة.

في الأسفل وجد الاثنان معاذ قد وصل بالفعل بعدما وصله الخبر المشئوم، جاء يعزي يوسف ويشد من أزره، ليجد مفاجأة سارة تنتظره أسفل العقار..

يارا قاسم.. بالشيكولاتة.

* * *

(24)

مشى بخطى ثابتة ناحية هدف يعرفه جيدًا، يتمنى أن تنطوي الأرض فتقل المسافة، يتخيل إحساس صديقه القديم عندما يراه، يسمع لهاثه الفرح بلقائه المرتقب قبل أن يحدث، يتخيل قفزاته الرشيقة كأنه يراها، محاولاته للعقه واستماتته للعب معه، يفتقد شكله المميز وذيله الذي تخيله يرقص فرحًا، جاء هاربًا من جحيم يركض خلفه في كل مكان، وندم يتساقط منه أينما وضع قدميه المجهدتين، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة مساءً.

تعالت دقات قلبه عندما اقترب أو ظهرت إحدى التفاصيل التي تذكره بقرب بنايته، لم يشعر بطول المشوار الذي مشاه منذ أن نزل من سيارة معاذ، الذي تكفل بتوصيله لنصف المسافة تقريبًا، لم يشعر أيضًا بأي حنق تجاهه، حتى لو فضل أن يتركه يمشي 10 كيلو مترات أو أكثر على قدمه ليوفر قليلًا من الوقت للأميرة المحاربة، فهو مشغول بكل كيانه بتوصيل يارا قاسم لباب بيتها، ولربما لغرفتها لو قبلت، يتمنى لو أن مؤمن هو الذي قام بتلك المهمة، فقط لأنه يعرف أنه لن يملأ رأسها بصداعه النصفي طوال الطريق لبيتها، مؤمن الذي تلقى اتصالًا من أمه طلبت منه الحضور وشعر شيئًا ما في صوتها رغم محاولاتها المستميتة للنفي، كل هذا مر برأس يوسف في طريقه لبيته الذي افتقده لبضعة أيام.

ظهرت الحديقة الصغيرة على بعد أمتار منه، بلع ريقه كمن تنفس الصعداء بعد سباق طويل، حاول الإنصات لحركة صديقه مبتسمًا لأول مرة منذ أيام لكنه لم يسمع شيئًا، اقترب من الباب الحديدي حتى لامسه محاولًا النظر من خلال فتحاته بتلهف شديد، توقع أن يكون صديقه الحميم قد شم رائحته منذ أمتار بعيدة لكنه لم يلحظ أي أثر أو حركة، حاول مجددًا هزيمة الظلمة ليرى من خلال فتحات الباب، لكن لا شيء يدل على وجود أي حياة، أطلق صفيرًا رقيقًا وناداه بعدما هز الباب قليلًا لعله نائم فيوقظه

- سيز!

تذكر أنه يمتلك المفتاح، أخرج من جيبه مفاتيحه القليلة وأخرج منها مفتاح الحديقة، هم بفتح الباب، كانت الصدمة أن المفتاح لم يعد يعمل، انتابه بعض القلق جعله يهز الباب ببعض العنف ويرفع من صوته قليلًا، شعر أن شخصًا ما وراءه، نزلت عينه المحدقة تدريجيًا وهدأت أصابعه المتشبثة بالباب، لف برأسه ببطء ليجد شبحًا صغير الحجم تحجب الإضاءة السيئة ملامحه، يقف في ثبات كالتمثال، ينظر للأسفل في ذل وضيق ويتدلى شيء من يده الصغيرة يلمس الأرض.

- كنت عارف إنك هتيجي!

قالها بأسى شديد.

- حازم!

- عبد النعيم اتفق مع جوز أمي انه يبيعه ويديله تمنه.

قالها ورمى بين قدميه طوقًا بني اللون في نصفه دائرة فضية اللون حفر عليها كلمة «Cesar».

- انت بتقول إيه؟

اقترب يوسف من الطوق في ترقب، نزل على ركبتيه ولمسه بحذر وبطء كأنه جسم مشع.

- باعه بـ800 جنيه لواحد ماعرفوش، إدى الفلوس لـ«البواب» ولجوز أمي.

- انت اتجننت!

قالها منفجرًا ممسكًا الطوق بيده محدقًا فيه غير مصدق لما يقول الشبح الصغير، ثم أكمل بعدما قام واضعًا كفه على عينيه مصدومًا ليرد عليه حازم بنفس الأسى:

- باعه عشان النجاسة، حاولت اتصل بيك ماعرفتش..

- لو كنت عاوز توصلي كنت هتعرف!. كنت هتعرف!!

قالها صارخًا مشيرًا إليه بأصبعه السبابة بطريقة هجومية بها كثير من العصبية، ثم تحرك يمينًا ويسارًا في توتر ليضيف:

- إزاي تسيبهم يعملوا كده؟! هه؟! أنا اختارتك انت عشان تخلي بالك منه.. هي دي – هي دي– الأمانة؟ ده صاحبك يا أخي، صاحبك! تسيبه يتباع من غير ما تدافع عنه؟

- إزاي اتأكدت إني مادافعتش عنه؟!

قالها رافعًا وجهه تجاه يوسف الذي أضاف:

- لو كنت دافعت عنه كان عمر...

أتى ضوء مباغت من سيارة مسرعة ليكشف عن كل تفاصيل وجهه الصغير، وكانت تفاصيل تكفي لتجعل مصاص دماء جائع ينهار باكيًا بدون مقدمات، وجه لا يوجد مكان فيه لكدمة أو جرح، بل امتد الأمر ليصل لبضع غرز فوق حاجبه الأيسر وعين تكتسي بالأزرق الغامق وفم متورم، شعر يوسف بصدمة جديدة جعلته يعجز عن النطق، نزلت سبابته لترتخي بجانب أخواتها وأعجزته الصدمة عن الحركة.

- ابن الحيوان!!

قالها وهم بالصعود لشقة «الخرتيت» ليلقنه درس منتصف الليل غير آبه بالفوارق الجسدية بينهما، لكن كلمة جديدة من حازم جعلته يتجمد في طريقه للمصعد.

- لو عملتله حاجه.. أمي هتطلق، وهنترمي كلنا في الشارع.

مرت ثانيتان على يوسف الذي نظر خلفه مصدومًا ليقول بنبرة أقل حدة أقرب لنبرة رجل محرج.

- عاد.. عادي،، أنا ممكن أتصرف بعد كده.

- هتتجوز أمي؟

- ماقصدش.. بس..

- يبقى ماتطلعش فوق..لو سمحت..!

- بس أنا.. لازم...

- انت عندك مشكلة كبيرة، أنا لسه صغير بس بفهم.

قالها في طريقه للمصعد ثم ضغط على زر في المصعد لينفتح باب المصعد مضيفًا:

- لو قدرت تحلها، ساعتها ممكن تقدر تحل مشكلتي.

ثم وقف على أطراف أصابعه المختفية في ذلك «الشبشب» الصغير ليضغط على زر في لوحة الأرقام ليتحرك باب المصعد وينغلق أوتوماتيكيًا على وجهه المشوه، لتكون تلك هي آخر كلماته قبل أن تتلاشى صورته البائسة من أمام عَيْنَي يوسف.

هم بالصعود للدور الأول غاضبًا كالثور، وصل لباب مكتوب عليه «شقة المهندس عبد النعيم عايش» ثم ضغط على زر الجرس، مرت دقيقة بينما هو يستعد ليبدأ ثورته التي قد تنتهي بمجزرة، تمالك جأشه وطرد الفكرة المجنونة من رأسه وهم بالرحيل.. نزل مسرعًا ليجد «خضر» في طريقه لغرفته، لمحة الأخير وارتبك.. ثم صنع ضحكة نصف مكتملة وقام بعمل تحيته العسكرية المعهودة قائلًا:

- يوسف بيه - إيه - إيه النور ده؟! والله كنت لسه هتصل بـ...

حركته اللكمة مترًا ونصفًا للوراء ليرتطم رأسه بالحائط، لكن رأسه الصغير لم يتأثر بالصدمة بقدر كبير، لأنه محاط بخوذة مصنوعة من طاقية صعيدي ملفوفة بشال يكفي ليتغطى به طفل رضيع في أصعب أيام الشتاء دون أن يبرد، لكن فكه بدا متأثرًا باللكمة المباغتة، سال الدم داخل فمه ليصرخ من الوجع وتراجع للخلف مرتعدًا، فيما تفحص يوسف قبضته التي بدت وكأنها تهشمت، تجاهل بكاءه وعويله وأسئلته التي من نوعية:

«ليه كده يا بيه؟!»، ثم خاطبه ببرود:

- عايز اسم الواد اللي اشتراه ورقم تليفونه.

- واد مين يا بيه؟! آآآه!.

- الواد ورقم تليفونه يا خضر!

قالها صارخًا ممسكًا مقدمة جلبابه بقبضتيه، دافعًا إياه مجددًا ناحية الحائط ليحمي خضر مؤخرة رأسه بكفه الكبرى.

- أيوة.. أيوة فهمت.. بس يا بيه حج عبنعيم مارضيش يجولنا أي حاجة..و الله يا بيه وحياة ولادي.

تركه يوسف بعنف بعد ثانيتن لكن ملامحه الغاضبة ظلت كما هي، ثم هم بالرحيل مستطردًا:

- انت وهو تستحقو الموت.

ليرد عليه خضر:

- ما كانش العشم يا بيه تبجى دي المعاملة بعد العشرة اللي بينا.

قالها ومسح بعض الدماء من فوق شفته السفلى في شاله المزركش، توقف يوسف من دون أن يلتفت بوجه ناحيته، ثم قالها ببراءة لم تغير من ملامح وجهه:

- ليه يا خضر؟!. دانا بعاملك زي عيل من عيالي.

قالها ثم أكمل طريقه خارج البناية متممًا على قبضته التي بدأت تؤلمه، وقلبه الذي تحطم.

* * *

(25)

تلامس جزء من جبينها ناصع البياض المغطى بخصلة كبيرة من شعرها الحريري مع زجاج الباب الأمامي، ضمت ذراعيها حول جسدها في صمت، تستمع لحكايات لا تتذكر منها أي شيء وسط موسيقى لا تسمعها، تهز رأسها تفهمًا محاولة عدم إحراجه، تسقط دمعة من عينها تمسحها بهدوء وتكمل تحريك رأسها موافقة على هراء لا تعلم له أول من آخر، ظهر اهتمامها فجأة عندما لاح بيتها واقترب، عدلت من جلستها وضغطت على زر أحمر في الجانب الأيسر من الكرسي الفخم ذي الكسوة الجلدية السوداء لتتحرر من حزام الأمان، أشارت له أن يأخذ يمين الطريق ويقف عند المدخل التالي:

- بس.. وقامت مسافرة تاني على النمسا، وماعرفش عنها حاجة لحد النهارده.

ثم أضاف بعد أن أوقف سيارته أمام فيلا فخمة للغاية:

- ياريت نتقابل مرة تانية عشان نتكلم أكتر وكده، ولا انت إيه رأيك؟!

فتحت الباب في طريقها للخروج من سيارته، وألقت بكلمة شكر غير واضحة في حين انتظر معاذ ردًا جديدًا بعد الشكر لكنه لم يحصل عليه، لم يعلم لو أنها لم تسمعه أم أنها لم تهتم لتجيب، أخرج هاتفه الجوال الحديث من جيبه رافعًا حاجبة الأيسر ومضيفًا لنفسه في تعجب:

- شكرًا..!!

ثم ضغط بضعة ضغطات على شاشة هاتفه مستطردًا:

- مابدهاش بقى.

قالها فاتحًا موقع التواصل الاجتماعي «فيسبوك»، لتظهر حالته المزاجية تقول:

- أنا وصلت يارا قاسم يا جدعان، كان يوم صعب جدًّا.

طبع ابتسامة مستفزة بجانب تعليقه، وانهالت التعليقات عليه من كل صوب ونوع، ابتسم بعد قراءته التعليقات ثم انطلق بسيارته مجددًا بعدما تأكد من دخولها الفيلا بسلام.

كانت حزينة وبائسة، يملأها خوف غاضب، تشعر بالألم كلما عاودت الذكريات الصعبة في العودة لذهنها، دلفت لغرفتها من دون أن ترد على أحدٍ من إخوتها أو أمها القلقة عليها، أغلقت أبواب الغرفة، ثم فتحت شباك غرفتها ليتخلل الهواء البارد بين خلايا جسدها، الآن ترى العالم كما لم تره من قبل، وتقسم أنها لم تكن تعرفه.

- يارا هانم! راندا هانم عالتليفون.. بتقول إنها اتصلت بيكي كذا مرة على الموبايل ولقيته مقفول. قالتها خادمتها بهدوء شديد، كانت نحيفة لا تبدو عليها ملامح بؤس أو فقر، نظرت إليها يارا من دون أن تنطق بكلمة واحدة، هزت رأسها ببطء، وذهبت الخادمة.

لم تهتم لتجيب على الهاتف، بل استقرت فوق سريرها المنمق، فتحت سوستة الجاكيت الذي كانت ترتديه بعدما اكتشفت أنها مازالت

تحتفظ به، نظرت ناحية سقف الغرفة الواسعة، أغمضت عينيها لتنزل دمعة واحدة، شقت طريقها لأذنها اليسرى، حام الهواء البارد في غرفتها كروح تائهة، يداعب أوراقًا مفردة على مكتبها ويرقص مع الستائر، ويقتلها ببرود.

تلقى مؤمن رسالة نصية على هاتفه، فتح جهازه «الموتورولا» كبير الحجم نسبيًا لينقسم لجزأين وقرأ رسالة تقول:

- أنا وصلت يارا وجايلك على المستشفى، البت دي مالها يا عم؟!

قرأ رسالته وأغلق جهازه النقال مرة أخرى ثم تأكد من أنه ركن سيارته جيدًا، هم بالصعود للدور الثالث حيث غرفة والده في المستشفى، بدا المكان غير هادئ أو مريح مقارنة بآخر مرة، كل شيء يحدث حوله في طريقه للغرفة ملأ معدته بشعور بارد يقول بأن شيئًا حدث، نظرات وهمسات من الممرضات، وجود بوليسي أكثر من الطبيعي حتى - ولو كان - في مستشفى لضباط الشرطة، استقل الأسانسير للدور الثالث، أخذ نفسًا باردًا عميقًا مخلوطًا برائحة البنج الفائحة في الهواء، انتظر وصول المصعد بفارغ الصبر لمقصده، فتح باب المصعد تلقائيًا ليرى المفاجأة، فريقًا من النيابة وغيره من المخبرين والضباط يتحركون في صمت في كل الاتجاهات، تأكد أن حدسه لم يخذله، ركض ناحية غرفة والده كالمجنون، استند بيديه على حلق باب الغرفة، وجد والده كما هو على سريره لكن بوضعية مختلفة عن التي عهدها عليه، كان نائمًا على كتفه اليسرى مواجهًا للباب، يتنفس بانتظام من خلال قناعه الشفاف،

لاحظ وجود شاش أبيض حول إصبعه الصغير، وبقايا دماء على الملائة ذات اللون الأبيض الناصع، وجد أمه تتكلم بمزيج من الألم والرعب مع رجلين يدون أحدهما أقوالها، تتساقط دموعها مع كلماتها المهزوزة من نظارتها الطبية، تربت على كتفها أخته الصغيرة صاحبة العشرين ربيعًا، صدمة الموقف واتسعت عيناه كمن رأى شبحًا، لاحظ الجميع وجوده بعد بضعة ثوان، حاول الرجل أن يبدأ بالحديث لكن سبقته الأم، ضمته بعنف وانفجرت باكية على صدره قائلة الكثير من الكلمات المتداخلة.

تركها تتلو عليه كل ما بداخلها، تفهم ما حدث وسلم عليه شاب ذو العينين الخضراوتين عرف نفسه كوكيل نيابة، ثم أضاف:

- الأحسن نتكلم بره.

- قالها بهدوء شديد.

قبل مؤمن رأس أمه وسلمها لأخته التي هزت رأسها متفهمة، توجه مؤمن والشاب للخارج في حين انتظر الآخر على كرسيه ممسكًا بقلمه وكثير من الأوراق، قام عسكري يقف على الباب بتحيتهما بالسلام الميري في طريقهما للخارج، مشى وبجانبه الشاب الذي نظر في ساعته، لفت نظره حارس الغرفة يجلس على بعد خمسة أمتار من الباب واضعًا يده على رأسه كأنه يعاني من صداع شديد، يبدو عليه كثير من الإعياء وبجانبه شخصان يتوليان التحقيق معه، في حين التقط شاب يرتدي قفازًا طبيًّا أبيض، كوب الشاي نصف الممتلئ الموجود بجانبه على كرسي ومشى بعيدًا، استوقف مؤمن وكيل النيابة قائلًا في عصبية.

- إحنا رايحين فين..؟!

- خلينا نتكلم في حته بعيدة، الصوت العالي مش كويس عشان الوالد.

- أنا مش همشي متر كمان غير لما أفهم في إيه! إيه الكلام اللي سمعته جوه ده؟

- قول الحمد لله يا باشا! الحاج زي الفل وربنا نجاه.

- مين اللي عمل فيه كده؟

- لسه مانعرفش.

- يعني إيه ماتعرفوش؟!

- مؤمن بيه! اهدى لو سمحت! وبعدين الحاج فاق كمان من الغيبوبة، يعني في أخبار حلوة أهو.

- وماحدش قالي ليه؟

- عشان لما فاق.. - للأسف- لقاهم قدامه.. مالحقش.

- اللي هما مين بقى أصلًا ؟!

قالها بصوت عال أقرب للصياح.

- يا مؤمن بيه بالراحة بس عشان أعرف أشرحلك، ماينفعش كده.

- إتفضل يا باشا!.إتفضل كمل!

مسح مؤمن على وجهه بكفه ونظر بعيدًا في محاولة لتقليل العصبية المسيطرة عليه، ليكمل الرجل:

- أولًا إحنا مانعرفش مين هم، من الصور والكاميرات والتحريات عرفنا انه واد ومعاه بنت هما اللي اقتحموا الأوضة على الوالدة والوالد، و..

- وقطعوا صباعه وخده تذكار، صح؟

ربت الشاب على كتفه محاولًا طمأنته:

- جت سليمة..كان ممكن تكون أصعب من كده.

- طبعًا سليمة.. أومال مش سليمة!

قالها قارضًا شفته السفلى بعنف مستخدمًا إبهامه، مرت ثانيتان فار بعدهما دم مؤمن فجأة كما يفور الحليب فوق النار وهم بالهجوم على العسكري نصف المخدر صائحًا:

- مانا لو موقف مرة عالباب! عمرها ما هتسيب...

استوقفاه مخبر وضابط كانا يقفان أمام العسكري المخدر بصعوبة وقاما بصناعة حاجز بشري أمامه، كأنما توقعا أن يفعلها، فيما وقع العسكري أرضًا من الفزع.

- مالوش ذنب يا باشا!. خدروه، خدروه يا باشا..ماحسش بنفسه.

سيطر الاثنان على مؤمن وساعدهم وكيل النيابة الشاب، تراجع مؤمن فجأة عن فعلته كأنما عاد إليه صوابه في لمحة من الزمن.

- ..خلاص..! تمام!. تمام..!

قالها بهدوء يحسد عليه وثقة لزملائه الذين تأكدوا من صدق نيته وتركوه على مراحل.

حرك مؤمن رأسه متفهمًا، ثم ضرب الحائط بقبضته بعنف شديد وهم بالرحيل، استوقفه وكيل النيابة قائلًا:

- أوعدك بمجرد ما نجيب الواد ده هنعمل عليه أحلى حفلة مافيش مشكلة.

نظر إليه مؤمن بعينين حادتين محركًا رأسه إيجابًا ببطء ليضيف الشاب:

- أنا نسيت أعرفك بنفسي، معلش.. الكلام خدنا.. أحمد موسى، وكيل نيابة قصر النيل.

- ابن رفعت بيه موسى؟

- صح كده يا باشا.

قالها مبتسمًا كاشفًا عن أسنانه بمزيج من الفرحة والحرج.

- تمام.

- آه، نسيت أسألك، بالنسبة للحادثة، في حد معين تحب نشده انت شاكك فيه؟ أي أعداء للبحيري بيه؟

- لا مافيش حد في دماغي، معاك الصور؟

- صور إيه؟

- كاميرات المراقبة بتاعة الطرقة.

- انت عارف إنه ماينفعش أوريها...

- أنا شاكك في حد..

- بس انت لسه قايل مافيش حد في دماغك!

- قصة كبيرة.. قضية بحقق فيها.

- وماله يا باشا نسمعها.

نظر إليه مؤمن بنظرة متفحصة ليقاطعهما ثالث بدا وكأنه مساعد أحمد موسى قائلًا:

- أنا خلصت أقوال الهانم، باشا! لو تقدر تخليها تروح ترتاح شوية عشان أعصابها.. يبقى تمام.. الهانم متأثرة جدًّا.

هز مؤمن رأسه إيجابًا ثم استوقف ممرضة كانت تمر أمامهم في عجلة.

- خدي الهانم اللي في أوضة 212 ترتاح في أوضة تانية وخلي دكتور أعصاب يكشف عليها عقبال ما خلص مع الباشا، لو سألتك قوليلها مؤمن هو اللي طلب مني.

أومأت الممرضة في خضوع وتوجهت ناحية الغرفة، وبالفعل تحركت الأم بجانبها الابنة التي جاهدت لتساعدها على المشي للغرفة المجاورة، نظر لهما مؤمن من بعيد، شعر بكثير من الغضب والحزن يجتاحه، سب الحقير الذي فعلها بأقبح الألفاظ من دون أن يتكلم،.. تخيل نفسه يعذبه وينتزع من قلبه الصرخات، قاطع حبل أفكاره الدموي أحمد موسى:

- إتفضل يا باشا!. إحكي!

تكلم مؤمن قرابة نصف الساعة عمَّا حدث بداية من جريمة القتل الغامضة في المرج حتى الحسين، شارحًا لزميله المهتم نوع المجنون الذي يلاحقونه، والذي يشك أنه هو من بدأ يلاحقهم جميعًا الآن، رد عليه أخيرًا موسى باهتمام شديد:

- طب انت عرفت بيقتل الناس دي ليه؟

- ماحدش عارف،الأولاني نفر أمن مركزي مش لاقيين حاجة عليه، والتاني كان شغال محامي في مكتب الأنصاري!

- أنا بسمع عن واحد بيغتصب النسوان الشمال مثلًا يعذبهم وبعدين يدبحهم، واحد معقد بيقتل العيال الصغيرة، لكن واحد بيقتل ناس عادية.. جديدة بصراحة.

تحرك مؤمن خطوتين للأمام وسرح في طفلين صغيرين يلهوان في القسم المقابل للعناية المركزة، ثم استطرد:

- أنا كنت مستني منه أكتر من رسالة الفترة اللي فاتت، بس كده كتير.. عدى الخط.

دخلا غرفة الوالد حيث يحتفظ «موسى» بصور فوتغرافية حصل عليها من كاميرات المراقبة، قبل مؤمن رأس والده شبه المغشي عليه، في حين هم طبيب ضخم الجثة كان يتفحصه بالخروج من الباب بعدما طمأنه على حالته، سأله مؤمن:

- هيقدر يتكلم يا دكتور؟

- ممكن جدًّا.. إن شاء الله.

أغلق الطبيب الباب وراءه وجلس الاثنان على كرسيين متقابلين، أخرج موسى شنطة صغيرة جلدية، فتحها وأخرج منها ملفًّا مغلقًا ذا لون لبني فاتح، أخرج منه بضع أوراق وبضعة صور فوتجرافية، سلم إياها لمؤمن في يده، اتسعت عينا مؤمن عن آخرهما كلما قلب الصور، تابع أحمد موسى انفعالات وجهه الواضحة ثم قال بهدوء شديد:

- هو..؟!

تابع مؤمن مسح الصور بعينه من دون أن يدرك أن أحدًا يتحدث إليه، توقف كثيرًا عند صورة يمشي فيها الشاب ذو اللباس الأسود بنصف ابتسامة لم توضح كثيرًا من شكله، حيث إن شعره الناعم قد غطى تقريبًا نصف وجهه المقابل لكاميرا المراقبة، احتوى رد فعله على كثير من الاستهانة والتحدي، يطير ذيل معطفه الأسود وراءه، وتتبعه الفتاة بكل ثقة وهي تنظر للأمام، صورة من زاوية أخرى يشير بذراعه ناحية الكاميرا ليخفي وجهه بينما ينظر بكل ثقة للأمام في طريقه للخارج، دقق مؤمن في الصورة ليجد أن الشاب قد أشار بإبهامه للأسفل كأنه يريد أن يقول «سيئ!»، كان هو، نفس مواصفات الشخص الغامض الذي تحدث عنه المخرج ورفاقه تلك الليلة.. تطابق شبه مكتمل.

- مؤمن بيه؟!

قالها أحمد موسى بصوت أعلى لينظر إليه مؤمن مصدوما بعدما أدرك أنه قد شرد للحظة، محركًا رأسه إيجابًا:

- هو.

- عرفت منين إن هو وانت عمرك ما شوفته؟

- أنا متأكد انه هو.. زي مانا متأكد إني بكلمك، 100٪ شبه الرسم اللي سلمته لعبد الجليل.

- يا باشا ده معظم وشه مش باين، ثانيًا عشان تربط الواد ده بجرايم تانية لازم يكون عندك دليل، ماينفعش بالإحساس كده.

- دي تفاصيل شغلي، مش مطلوب منك إنك تصدقني.

- طيب، أنا هاخد الصور، مش هقدر اسيبهالك، من وجهه نظري دي قضية غير بتاعتك.

- مش صح.. هي نفس القضية.

- دي تفاصيل شغلي..!

قالها ساخرًا ثم أكمل مادًّا يده:

- الصور!

تردد مؤمن في إعطائه إياها ثم تذكر أنه في غنى عن صدام جديد مع النيابة، أعطاه الصور بعدما ألقى نظرة أخيرة عليها ثم قال بسخرية:

- كان عندي إحساس إنك مختلف عن بتوع النيابة.

- إحساسك لتاني مرة مش صح يا مؤمن بيه..

قالها بعدما وضع الظرف في مكانه مرة أخرى ثم استطرد:

- أنا كان نفسي فعلًا أساعدك، بس انت اللي مش عايز تساعدنا، عمومًا برده من حقك تعرف ان الواد ده صورته اتبعتت بعد الحادثة علطول

للمباحث ولا الهوا، لا حد يعرف عنه أي قصة ولا حد شافه قبل كده، حتى المسجلين والسوابق عمرهم ما شافوه، وطبعًا ماعندناش اسمه، فرصة سعيدة يا باشا، سلام!

هم وكيل النيابة بالخروج بينما جاء اثنان من أصدقائه ليستقبلوه، أطلق واحد منهم مزحة نابية غير مكترث بالجو العام للمكان، قابلها موسى بضحكة هيستيرية، اخترقهما مؤمن بنظرة غضب مرت خلالهما كطلقة مخترقة الدروع، ثم نظر لوالده بنظرة بها كثير من الشفقة التي تقطر غضبًا، أخرج مسدسه المحاط بجرابه الأسود ووضعه على المنضدة التي أمامه، مسح بكفيه على وجهه كما يغسل المستيقظ وجهه بالماء البارد حتى يفيق، نظر للسقف في يأس، ثم قالها متمتمًا لنفسه بصوت خافت للغاية يملأه خيبة الأمل.

- هبدأ منين؟!

هم بالقيام متوجهًا للخارج بعدما وضع مسدسه في مكانه مجددًا ثم قبَّل رأس والده، نظر لعينيه المغلقتين وقال له بهمس:

- حقك عليا.

شرب قليلًا من الماء من زجاجة بلاستيكية موضوعة على المنضدة على يمين السرير، أغلق الزجاجة ثم نظر مرة أخرى لوالده، ثم همَّ بالخروج واضعًا يده على «كوبس» الكهرباء حتى يقلل من إضاءة المكان، لكن شيئًا ما جعل أصابعه تتجمد على زر الكوبس، صوت ما.. يعرفه جيدًا.

- حا.. تم.

قالها صوت ضعيف للغاية، به كثير من الضعف والوهن، لكنه لم يكن سوى صوت والده الذي استيقظ مجددًا، ذلك بعدما طاوعته عضلات ذراعه الواهنة لتمسك بالقناع الشفاف، ويقولها بضعف شديد، ثم تلاها شهيق عميق بدا في غاية الصعوبة، كأن الهواء يمزق رئتيه ببطء، كانت صدمة جعلت مؤمن المتجمد ينظر بشغف ناحية مصدر الصوت، هب مؤمن بالركض ناحية والده جالسًا على ركبتيه أمامه، قائلًا بكثير من الفرحة:

- حمد الله على سلامتك يا كبير!

- حااتم.. اسمه.. حاتم.

قالها بصعوبة شديدة.

- بتتكلم عن مين..؟

- الولد.. اللي كان.

تابع ثم أخذ شهيقًا آخر بنفس العمق والصعوبة واستطرد:

- اللي كان هنا.

- حاتم..؟

- حاتم.. الإسود..

نظر مؤمن لوالده بصدمة شديدة، تلاقى حاجباه في دهشة وتجمدت الكلمات في حلقه، سأله بشغف تملأه الصدمة:

- تعرفه منين؟

- أعرفه.. عشان أنا...

رَدَّ بعناء شديد ثم أخذ شهيقًا عميقًا وأكمل:

- أنا اللي مربيه.. يا مؤمن.

هم مؤمن بقول شيء ما بعدما فتح فمه، لكن الكلمات رفضت الخروج من فمه.. ضاق صدره بما يحدث من مفاجآت، وانتهى الحوار بينهما.

* * *

(26)

كانت كغيرها من الليالي الهادئة، تحسس يوسف طريقه للبار في صمت بغية ألا يلفت النظر إليه، وجد كل شيء على طبيعته في مطعم وبار «Le Chance» الفاخر، إلا مكانه أمام البيانو، والذي احتله شخصٌ ما، كان رجلًا في نهاية الخمسينيات، ممتلئ الجسد، تنزل ضفيرة صغيرة من شعره الأبيض على ياقة بدلته السوداء، يعزف مقطوعة «Moon light» لبيتهوفن برداثه، كان المطعم نصف مزدحم، استقر يوسف على كرسي طويل أمام البار الهادئ، ألقى عليه منير تحية دافئة بوجه بشوش للغاية، صافحه مبتسمًا لتبتسم عيناه البشوشتان مع كل ملامح وجهه كعادته.

- منور يا مايسترو!

- إزيك يا منير؟

رد يوسف وقد ظهر عليه العناء لينطق كلمة واحدة مكتملة.

- تمام الحمد لله.. إيه؟!.إتحولت إمتى؟

قالها منير ماسحًا كأسًا زجاجيًا أمامه بفوطة بيضاء ناصعة.

- إتحولت؟!

- بقيت مصاص دماء إمتى يا مايسترو؟ انت مش شايف ولا إيه؟ عنيك داخلة لجوه ووشك مصفر، ناقصلك نابين بس.

- عضني خفاش.

علق بصوت خافت ساخرًا بعدما استقر فوق كرسي أمام البار، اتجه بنظرة ناحية عازف البيانو متعجبًا.

- لقيتوه فين؟

- كسبناه في جبنة باندا.

انفجر منير ضاحكًا، ليبادله يوسف بابتسامة حاربت الأعصاب القحفية الاثنتي عشرة لترسمها على وجهه.

- المستر كان بيسأل عليك، مش ناوي بقى؟!

وضع منير واضعًا كوبًا زجاجيًّا كبيرًا، ثم صب فيه قليلًا من المياه الغازية الشفافة المفضلة من جانب يوسف.

- صعب أرجع.

- براحتك، آه، المصلحة دي تبعك.

قالها منير واضعًا ظرفًا أبيض على البار بجانب كوب المياه الغازية، نظر يوسف للظرف محاولًا فهم ما يحدث ليكمل منير.

- بقيت فلوسك.. مصطفى سابهملك النهارده الصبح.

- هو فين مصطفى؟

- أخوه تعب، كان عامل عملية في مستشفى حكومة وجاله فيرس، بس مش عارف إيه بالظبط.

- دي حاجة تزعل.

رد يوسف متأثرًا.

- ده الطبيعي، بقولك! لازم تفكر ترجع بجد.. الناس كلها هنا عايزاك.. وبعدين الزباين بتتعذب يا عم حرام عليك، في ناس كتير سألت عليك بالإسم.

- في حاجة حصلت هتخليني مشغول الفترة الجاية.

- مش مطمن أنا، تغيب كام أسبوع ترجع خاسس النص ومشفوط كده، لو مش يوسف أصلان كنت حلفت ان اللي قدامي ده واحد بيضرب بودره.

- مش طريقتي المفضلة في الموت.

- شكله حوار كبير.

صفق بضعة أشخاص مجاملة للعازف نصف السيئ بعدما انتهى من عزفه وهم بالقيام.

- نبقى نكمل كلامنا بعدين، شكرًا على الساقع!

- براحتك يا مان، بس استنى صحيح! المستر عايز يكلمك في حوار.

- مش هينفع يا منير.. مستحيل أرجع دلوقتي.

- قوله الكلام ده بنفسك معلش، انت عارف دماغه، لو انت مشيت من غير ما يشوفك أنا اللي هتشد.

- بسرعة عشان لازم أمشي.

تفحص يوسف ساعته الفضية في حين تابع منير:

- دقيقة وهيكون قدامك، واهو بالمرة أحط سيديهاية أنضف بيها ودان الـGuest مطرح الـ«التسلخات» اللي كانوا بيسمعوها دي.

ماتتأخرش!

- يا عم لو اتأخرت عليك ناملك شوية، انت آخر مرة نمت إمتى؟..

قالها متجهًا لمنتصف المطعم بدون أن ينتظر الرد.

- سؤال صعب.

تمتم يوسف بها لنفسه بصوت خافت، ثم ألقى نظرة على كتيبة المشروبات الروحية التي أمامه كأنه لم يراها من قبل، بدأت موسيقى كلاسيكية رقيقة ترتفع في كل جنبات المطعم، كان الصوت خافتًا لكن مسموع، غنت مطربة مجهولة «قلبي ومفتاحه.. بقى ملك إديك..» ليحتل صوتها العذب قلب وعقل كل الموجودين في المطعم، نظر يوسف مرة أخرى لساعته وتابع شرب ما تبقى من الشراب من دون أن يفكر فيما يشرب، سرح في تفاصيل حياته الدامية منذ أن بدأ التحقيق في تلك القضية اللعينة، تمنى لو أنه قد استقال قبل أن يكلفه «الرجل البطريق» بتلك المهمة المشؤومة، يتخيل منظر الضحيتين ويطابقهما بذاكرته، تذكر كيف تجاهل الاتصال من عمته وبنتها لأنه لا يعرف ماذا يقول، تملكته القشعريرة عندما تذكر منظر وليد وهو متجمد كقطعة الثلج على الأرض ودمه يزين بلاط الأرضية، تمنى لو أنه لم يحضر ذلك البرنامج، ثم أخذه عقله في جولة ليستحضر ما حدث في الحسين، تلك المسكينة التي تلقت إهانة عمرها، تملكه شعور بالألم أنه لم ينقذها منذ

البداية، ذلك الجسد الذي تسابق الأثرياء والمشاهير للحصول عليه بأي ثمن وفشلوا، ثم انتهى به المطاف على مائدة مجانية لبضعة ذئاب جائعة لا تفرق بين العاهرة والأميرة، يارا قاسم: الأميرة التي سقطت من فوق جوادها في بئر من التوستيسترون والعرق، تمنى للحظة أن يفيق من ذلك الكابوس ليعود مرة أخرى لحياته الطبيعية، تمنى أن يرى صديقه المخلص مرة أخرى.. سيزار.

أخرج من جيب الجاكيت مفكرة صغيرة ملحق بها قلم، بدأ بكتابة بضعة كلمات في صفحة مكتوب التاريخ في أعلاها مسبقًا، كتب على مجلدها الخارجي «الأيام الأخيرة»، ثم ترك قلمه يكتب ما يريد:

«لا ضرر أن تصف قاتلًا في جريدة، الضرر يحدث لو اشتراها..

إثارة قاتل متسلسل.. كان آخر ما أحتاجه،، لقد صنعت كابوسًا من العدم.. رميت حجرًا في بحر من الغضب، أيقظت الشيطان ووقفت أمازحه، أحيانًا يكون أعمق مخاوفك وقتًا لا تجد فيه شيئًا لتفعله، النزهة الإجبارية التي يرغمك الوقت أن تحصل عليها مع عقلك، المشي بين الذكريات الشائكة والصور المؤلمة عاري القدمين، تدمي قدماك الخسائر كما تدميها أكسار الزجاج، ثم تحصل على وجبتك المجانية من الندم.

ها أنا ذا أخسر شيئًا تلو الآخر، أتخطى حدود الجاذبية وأسقط، كلاعب حبل عبث مع فيزياء الاتزان وشرد مستمتعًا بالتصفيق، لقد

أصبح الاستقرار عبئًا ثقيلًا.. وأصبح السقوط حتمًا وفرضًا.. ماذا لو لم يسعفني عقلي؟ أتمنى الخلاص.. من كل شيء».

كتب يوسف ما بداخله ثم وضع المفكرة في جيب الجاكيت مرة أخرى، فتح جهازه النقال وقصد هاتف مؤمن، انتظر لثانيتين حتى يرد مؤمن قالت خلالهما تلك الساحرة:

«قلبـي الحيران يا حبيبي.. وعيني كمان يـا حبيبي.. هجروني وراحو من شوقهم ليك».

ثم رد مؤمن على المكالمة:

- انت فين؟

- في المطعم، مال صوتك؟

- مافيش، حصل حوار كده.

- قول كل حاجة!

- لما نتقابل.

- بس أنا عربيتي مش معايا.

قالها يوسف معيدًا مفكرته لجيبه.

- خد المترو وانزل في أي محطة قريبة وأنا هجيلك.

- مش هينفع المترو، أنا هاخد تاكسي وهجيلك المستشفى.

- مستنيك.

- مسافة السكة.

ابتسم يوسف قليلًا بعدما أغلق هاتفه مجاملة للـ«مستر» الذي حضر بنفسه ليقابله، سلم عليه يوسف بعدما قام من على كرسيه احترامًا، سأله بعدما استقر بالكرسي المجاور له:

- إيه يا فنان؟! تقلان علينا ليه؟!

- بالعكس.

قالها يوسف مبتسمًا نصف ابتسامة.

- أمال في إيه؟! مالك! شكلك مرهق جدًّا، في مشكلة؟

- شوية تعب.

- ألف سلامة، منير سلمك الفلوس؟

- حصل..

- يوسف!، انت عارف إحنا بنحترمك إزاي، فريد بيه بنفسه سألني عليك، أنا قولتله مرهق شوية وأكيد هيرجع تاني.

- أنا عايز أرجع للمطعم بس...

- مابسش ولا حاجه، هترجع لمكانك، الناس هنا محتاجاك، وهنزودلك الفيزا كمان.

- صدقني الوقت مش مناسب حاليًا، أنا آسف جدًّا!

- يعني إيه مش هينفع! يعني أنا أجيلك بنفسي وتقولي الكلام ده؟ يبقى الكلام اللي بسمعه ده بجد بقى؟!

قالها بحدة بعدما تغيرت معالم وجهه.

- انت بتتكلم عن إيه؟

- عن جرايم وتهديدات بالقتل وكلام أهبل مايتصدقش.

قام يوسف مترنحًا من فوق كرسيه الذي كاد يسقط ثم قال:

- مين اللي قالكوا الكلام ده؟

قالها يوسف بعصبية شديدة مشيرًا بسبابته ناحيته وناحية منير الذي تجمد على البار أمامهم.

- إهدى يا يوسف الـGuest بيبص علينا.

- يعني الكلام ده بجد؟!

تساءل متعجبًا وناظرًا ناحية منير الذي بادله نظرة تحمل كثيرًا من الصدمة، في حين بدأت أغنية جديدة لمطربة أخرى تمتلك صوتًا أكثر جمالًا وكلمات أكثر عمقًا وتأثيرًا :

«بحلم معاك بسفينة.. وبموجة ترسينا.. ونبحر تاني.. الريح تعاني.. وألاقيك في عنيك وإديك.. شطي وأماني..».

- إزاي؟! إزاي يجيلكوا الجرأة تعملوا حاجة زي دي؟!

قالها يوسف بوجه حاد للغاية.

- إهدى يا يوسف بس! حاجة إيه اللي بتتكلم عنها؟!

رد منير.

«العالــم كله.. بأسـراره.. عايش جوايا.. عايـش ويايا.. طول مانت.. في الرحلة معايا».

- مالك يابني في إيه؟!

قالها المدير بصدمة.

- مالي؟!. مالي! يا شوية مرضى يا حيوانات!، كان لازم أعرف إنكوا مشتركين في ده م البداية.

- إهدى يا يوسف إيه اللي بتقولو ده؟!

قالها منير ليوسف الذي تراجع للخلف في حركة دفاعية ليسقط الكرسي أرضًا وخلفه يوسف ويصمت المطعم كله، قام من كبوته واتجه الجميع بنظرهم ناحيته في دهشة، أكمل يوسف طريقه للخارج قائلًا:

- أنا عرفت كل حاجة، كل حاجة!! هقفلكم المطعم ده وهرميكوا كلكم في السجن! النهاية قربت!، هوصله.. وهخليه يعترف عليكم! بكره تشوفوا!

قصد يوسف باب المطعم وسط صمت كل من في المطعم عدا نجاة الصغيرة، تحسس المسدس المختفي في جيب معطفه ثم هم بالركض بعصبية، خشية أن يتبعه شخص ما، تركض معه أنفاسه المتقطعة ومخاوفه.

* * *

(27)

استقرت التويوتا الزرقاء الداكنة ذات الزجاج المطلي بالأسود الداكن أمام مستشفى ضباط الشرطة، لم يكن واضحًا عليها أية أرقام سوى يافطة صغيرة سوداء كتب عليها «Number Busy»، بجانبها قليلًا ظهرت علامة أرنب يلبس «بيبون» فوق رقبته بالأبيض، لمع نسر ذهبي فوق زجاجها الأمامي الداكن، بداخلها لم يكن سوى معاذ يأخذ آخر أنفاس سيجارته الأخيرة، يتابع ردود أفعال أصدقائه على الفيسبوك بينما اعتلت وجهه ابتسامة ساخرة كلما قرأ التعليقات، كانت سيارته من الداخل عبارة عن مزيج من موسيقى الـ«Trance» الصاخبة وسحب الدخان الممتزجة بالعطر، قاطع شغفه اتصال هاتفي من زوجته جعل وجهه المستبشر يتجهم، رفض المكالمة ثم وضع الهاتف جانبًا وهم بالنزول، لم يفتح باب السيارة حينما رآها تنزل من التاكسي، متجهة ناحية المستشفى في عجلة، ظهر واضحًا أنها ممرضة قد تأخرت عن ميعاد دوامها، كانت من النوع المفضل لديه، بيضاء، طويلة، نصف ممتلئة، تمتلك بعض الرشاقة وشعرًا أسود طويلًا ملفوفًا فوق رأسها، ترتدي زيًّا موحدًا «يونيفورم» من اللون الأبيض يزينة خط وردي الفاتح، في يدها شنطة كبيرة تحتوي – على ما يبدو – على ملابس أخرى سترتديها بعدما ينتهي العمل.

– سامحني يا (مو).

قالها معاذ لنفسه عندما رآها تعبر الشارع في اتجاه المستشفى، هم بترك السيارة سريعًا وأغلق الباب، أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته وقذفها بعيدًا في الطريق لصيدة الثمين،يلتهمها بعينيه الضيقتين، يرسم ملامح وجهها المكتنز في ذاكرته مطلقًا ما تبقى من دخان في رئتيه ثم استوقفها، وقف بينها وبين بوابة المستشفى التي بعدت عنهما بسبعة أمتار تقريبًا، ابتسم غير مهتم بالفروق الحجمية بينهما، نظرت له بصدمة وقالت

- أفندم؟!. في حاجه؟!

- بصي، أنا مش جاي أضيع وقتك أو أعاكسك، ولا أبهدل نفسي قدام بوابة مستشفى، أنا بس عايز أقولك على حاجة مهمة جدًّا.

قالها بكل ثقة.

- مين حضرتك الأول؟! وتعرفني منين أصلًا؟!

- أنا ظابط جيش، وأعرفك منين؟.. هو ده بقى مربط.. (الفرس).

قالها بسخرية جعلتها تكتم ضحكة أرادت أن تخرج منها عفويًا.

- لو عايزة تعرفي أنا عارفك منين وعايز منك إيه، يبقى تيجي معايا نقعد في أنضف مطعم في مصر ونتكلم وإحنا بنتعشى، وصدقيني! عمرك ما هتندمي.

- أنا مابندمش.

قالتها ورمقته بنظرة إعجاب واستهتار يزينها ابتسامة تقول بكل وضوح (الإشارة خضراء لامعة).

- و أنا معاذ السيد.

رد ساخرًا مادًّا يده ليسلم عليها في حين ضحكت الفتاة بهيستيريا ثم تمالكت نفسها ونظرت لبوابة الأمن خشية أن يراها أحدهم، وقالت وهي تسلم عليه:

- بس أنا ورايا شيفت..!

- ولا أكنك (شيفت) حاجة.. تليفون واحد وهخلي إسمك حضور لآخر الشهر.

أطلقت ضحكة نصف رقيعة ثم نظرت للسماء في حيرة وقالتها بعد بضعة ثوان:

- غلبتني!. وانت ظابط بجد، ولا بتضحك عليا؟!

قالتها في الطريق لسيارته.

- هتعرفي قد إيه أنا ظابط لما تعرفيني أكتر..يا...

- إيمان.

- حلو إسمك.

- وانت دمك خفيف.

- كل دي حاجات بسيطة.

ضغط على زر في ريموت كنترول لتفتح العربية أقفالها منتظرة الفريسة الجديدة لتدخل الشرك بإرادتها الحرة، استقر الاثنان في الكرسيين الأماميين وألقى معاذ مزحة جعلت الفتاة ذات الملامح الجذابة تضحك

بصوت أعلى هذه المرة، وانطلقت السيارة، أضاءت مصابيح التويوتا زئبقية اللون الطريق، أصاب ضَوْؤُها القوي رجلًا كبيرًا في السن يمر في الناحية المقابلة معتكزًا على عصاه، أطلق سبة وتلاها بدعوة خرجت من قلبه ولم يسمعها أحد.

لكن المثير في الأمر أن التويوتا أصدرت صريرًا وتوقفت فجأة في منتصف الطريق.. كأن شيئًا ما حدث لسائقها.

* * *

(28)

أعلنت ساعته الرقمية كبيرة الحجم عن تمام الواحدة صباحًا، كان هو ذلك الشاب المهندم ذا الشعر اللامع والحاجبين الأسودين الكثيفين.. مؤمن.

دفع الباب الزجاجي ليدخل ذلك المطعم الشهير لوجبات الدجاج المقلية السريعة، نظر يسارًا حتى وجد ضالته في منضدة صغيرة يجلس عليها شخص كبير الحجم لا يتناسب مع حجمها، بدا الكرسي الذي يجلس عليه ككرسي أطفال بالنسبة لجسده الضخم، لم يكن سوى أحمد نوح، يلتهم وجبة العشاء الخاصة به في انتظار مؤمن الذي هاتفه منذ دقائق.

- الصوت عالي قوي هنا يا سكانيا!

قالها مؤمن معلقًا على صوت التلفاز العالي بعدما جذب كرسي واستقر بجانب صديقه العملاق.

- إيه يا كبير عامل إيه؟

رد نوح وبقايا الأكل على فمه ورمق مؤمن بصدمة كطفل قد ضبطته أمه يأكل من طعام إخوته في منتصف الليل.

- إيه الجديد؟

تابع مؤمن بوجه صارم متفحصًا الوجبة العائلية التي قد التهم نوح نصفها تقريبًا بمفرده.

- معلش يا باشا لسه سامع على البحيري بيه، ألف ألف سلامة عليه.. أنا...

- من دلوقتي ولحد ما آخد حقي، ياريت ماتكلمنيش في الحوار ده.

قاطعه مؤمن مقاطعًا بهدوء وثقة.

- حقك يا كبير، نخلي كلامنا عن التحقيق أحسن.

- وصلت فين؟

- هقولك بس تاكل معايا الأول، أطلبلك واحدة دينر؟

قالها مغرقًا قطعة دجاج في حوض من الكاتشب صنعة منذ فترة.

- ماباكلش فاست فود، وماباكلش أصلًا بالليل.. خلينا نتكلم في الشغل!

- طاب ناولني الكاتشب اللي جنبك ده معلش عشان الكاتشب اللي معايا قرب يخلص.. وأنا هحكيلك.

بعد تفكير عميق، أطلق مؤمن نفسًا عميقًا مسيطرًا على أعصابه بمعاناة، ثم نظر تجاه زجاجة الكاتشب التي أرادها نوح ليرد:

- دي مسطردة مش كاتشب، مافيش كاتشب هنا.

أشار لزجاجة صفراء على المنضدة المجاورة.

- يعني إيه مسطرده؟!

- انت هترسم؟! مش عارف يعني إيه مسطردة؟!

-أنا ماعرفش يعني إيه بجد؟

- هقولك كلمة وسخة!

قالها مؤمن بحدة.

- والله ماعرف.

- بتحلف بالله؟!

- يا باشا إحنا ولاد كلب تعليم مجاني، معلش، مالناش في الحاجات المودرن دي زيك.

- سكانيا! كمل بقى عشان أنا فعلًا على آخرى!

- ماشي يا كبير، براحتك.. تحرياتنا عن الواد الأولاني، نفر الأمن المركزي، واد غلبان جدًّا، ولا ليه في أي حاجة.. كل الكلام اللي سيادتك قولته صح.

هم بقضم قطعة دجاج كبيرة وتلاها بشفطة عميقة من المياه الغازية ثم أكمل:

- الغريبة انه مالوش تقريبًا أعداء، والأغرب انه شخص عايش حياة بسيطة جدًّا.

- إزاي يعني! أكيد فيه حاجة بيعملها، أو خصلة فيه عملت منه هدف، انت جاي هنا تسمعني نفس كلام العيال اللي معاه في المعسكر!! مافيش مجنون بيقتل الناس بعد ما يعد عليهم حادي بادي.

- صدقني يا باشا مافيش حاجة.

- فكر كويس يا نوح! مافيش أي حاجة شمال عملها؟

- ولا الدموع - بقولك إيه- أبيض.

رد عليه مؤمن بعد دقيقة من الشرود:

- في حاجة مش تمام.

- مش عارف.. والله.

قالها واضعًا إصبعه الصغير بين أسنانه محاولًا إخراج قطعة دجاج علقت بين أسنانه الديناصورية.

- والتاني؟

- كنت فاكر إنك تعرفه أكتر مني!

- أرغي.. قولي حاجة أنا ماعرفهاش!.

- مافيش حاجة معينة.. وليد.. مممم، مدمن طبعًا، مسجل نصب وعنده كام سابقه، بس كن شويه، يعني بقاله بتاع سنة ماتشاقاش، وشغله مع الأنصاري كان يعتبر متغطي يعني، الأنصاري فاتح مكتب المحاماة ده يعني واجهة كده عشان فلوس البودرة اللي عملها زمان يعرف ينضفها لو رجالة «المشروع» هاجوا عليه، وعشان يخش الحزب من غير ما حد يعلم عليه.

- ما تاجرش في أي حاجة الأنصاري؟

تساءل مؤمن ماسحًا المكان بعينيه.

- ولاا حتى تمناية بني.

- مستحيل الكلام ده..يعني انت عايز تقولي...

قالها مؤمن بصوت عال ليلتفت بضع أشخاص في المطعم ناحية الصوت الذي انفجر فجأة، عدل من نبرة صوته وأكمل حديثه بنفس الحدة والعصبية لنوح الذي تجمد الطعام في فمه الكبير:

- انت عايز تقولي إن سفاح قرر يدبح مجند أمن مركزي ماشي في حاله ونصاب قرر يتوب، انت عايز تجيبلي الضغط؟!

- يا باشا أنا مال أهلي أنا، انا جيبت اللي أقدر عليه عن الحتتين، بتسخن عليه أنا ليه؟.

- لأن في حاجة ناقصة..

- ماشي..و أنا حدودي خلصت هنا.. أعمل إيه!

صمت مؤمن ثانيتين بعد أن شرد ببصره بعيدًا وأضاف:

- أنا اللي هعمل!

شرد في زجاج المطعم محدقًا في الشارع ثم في ساعته مجددًا، مرت دقيقة من الصمت لم يسمع فيها مؤمن شيئًا ثم.. رن هاتفه، كان يوسف المتصل، ضغط مؤمن على زر الإجابة وقالها بسخرية سوداء:

- انت جاي مشي بقى.. مش بتاكسي.

ثم صمت لتتسع عيناه عن آخرهما، تغيرت معالم وجهه لترتسم صدمة رجل رآى شبحًا في المرآة، هب واقفًا على قدميه قائلًا:

- انت فين بالظبط..؟

ركض خارج المطعم في ذعر واضعًا الهاتف على أذنه محاولًا سماع شيء ما، استقر بالخارج ثم صاح:

- ألوا. يوسف!. يوسف!

قالها بصوت عال للغاية به كثير من العصبية والخوف، ثم نظر إلى هاتفه كأنه لا يعرفه، ركض تجاه سيارته.. وهو يعلم أنه سيصارع الوقت.

قبلها بساعة..

- ميه معدنية لو سمحت.

قالها يوسف لصاحب كشك صغير افترسه الزمن، يقع فوق رصيف هتك عرضه وتقابله علامة محطة مترو في حاجة ماسة للتنظيف، كان ذلك بعدما ترك المطعم ببعض الوقت.

- التلاجة على شمالك، إتفضل معانا يابا!

كانت رد رجل في الفصل قبل الأخير من حياته، يرتدي «طاقيه» بيضاء مزركشة صغيرة فوق رأسه الأصلع، يقشر برتقالة خضراء كبيرة بسكين صغير.

شكره يوسف وفتح الثلاجة ثم أخرج زجاجة مياه صغيرة، أخرج من جيبه عملتين معدنيتين وضعهما من خلال النافذة الصغيرة، فتح الغلاف البلاستيكي المحيط بعنق الزجاجة ثم وضعه في جيب الجاكيت الذي

يرتديه، بدا هادئًا بالرغم من الإعياء الشديد الواضح عليه، شرب نصفها في مرة واحدة، كأنه تائه في صحاري إفريقيا لم يشرب الماء منذ أمد، سرح في علامة المترو الحمراء «M» وامتلكه الهدوء المسيطر على المكان، تنفس قليلًا من الهواء المجمد الذي كاد يمزق رئتية كالسكين، ثم نظر لساعته للتأكد من نظريته، كانت الساعة الحادية عشر وأربعين دقيقة، تجرع النصف الآخر من زجاجته ثم بحث عن سلة مهملات ليلقيها بداخلها، لم يجد حوله أي شيء يفيده، لكنه لمح بقايا سلة مهملات صدئة بالقرب من علامة الميترو، بدت كبقايا شظية تركتها حرب 73 في متحف حربي، مفتوحة من الأسفل ليسقط منها الزجاج وبقايا الأكل، توجه ناحيتها ووضع الزجاجة بها لتسقط بجانب رفقائها، مشى ناحية حافة الرصيف متمنيًا أن تلقفه سيارة أجرة لصديقه الذي بدأ القلق ينتابه عليه بعد المكالمة الأخيرة، قفزت السيناريوهات السوداء داخل عقله لدرجة جعلته لا يريد أن يفكر في أي شيء جديد، تمنى أن يكون ما يخفيه صديقه أقلهم ضررًا، أشار لسيارة تحمل علامة «تاكسي» تجاهلته، ثم أشار لآخر مر بعد دقيقة، سأله يوسف:

- العجوزة؟

- لا معلش مش هروح هناك.

قالها السائق ماضغًا علكة باستهتار ثم أكمل:

- اركب المترو يا برنس ماحدش هيوصلك هناك دلوقتي، انزل البحوث.. دي أقرب حاجة.

- شكرًا.

قالها يوسف بهدوء وخيبة أمل ثم أضاف بعدما ذهب السائق بسيارته بعيدًا.

- كان نفسي يا برنس!

نظر لعلامة الميترو ثم نظر أمامه مجددًا وحرك رأسه يمينًا ويسارًا بحنق.

لفت نظره نباح كلب بالقرب من السلم المؤدي لمحطة المترو تحت الأرض، صوت جعله يدور بوجهه ناحية الصوت بصدمة ودهشة شديدتين.. لقد كان صوتًا يعلمه.

نظر ناحية الصوت ليجد أن حساباته صحيحة، كان هو، أو على الأقل كلب يشبهه بنسبة مائة وعشرون في المائة، بدا كأنه يبحث عن شيء ما، شم الأرض ثم هرول على سلم المترو للأسفل، كل ذلك على بعد بضعة أمتار من يوسف الذي تجمد من الصدمة ثم صرخ:

- سيزار!!

لم يتوقف الكلب عن الحركة وظل يشم شيئًا على سلم المترو ثم يركض مجددًا للأسفل حتى اختفى، شعر يوسف بالصدمة لأن سيزار لم يشم رائحته من هذه المسافة القريبة، بل ولم يلتفت عندما ناداه، كان هناك شيء غير صحيح..شيء أكثر غرابة من أن تسقط السماء فوق رأسه وينجو بنفسه بدون خدش.

- كابوس.

تمتم بها يوسف، كان اليوم كله ضربًا من الخيال بالنسبة له.. خيال مريض، وها هو ينتهي بمرور صديق عمره بجانبه دون أن يتوقف، أقسم بينه وبين نفسه أنه هو، ركض تجاه السلم وهبط للدور الأسفل محاولًا العثور عليه، خبط في كتف شاب ضخم الجثة وصغير السن، لم يلتفت ليعتذر، ظل يطارد ضالته، نادي عليه مجددًا بنفس درجة الصوت، حاول تقصي أثرة في ذلك المكان الذي لا يفضله، لكن لا شيء، لا أثر له.. تجاهل شعوره بالخوف من الأماكن المغلقة الذي بدأ يتسلل لعروقه لأن شعور أصعب قد تملكه..و أكثر ألمًا.

كانت محطة المترو شبه فارغة، مثل قسم الجراحة في مستشفى عام في عيد الفطر، نظر حوله في ذهول، حاول العثور عليه، لكن لا شيء، كان حوله ما يقرب من ستة أشخاص، اثنان عند جهة القطار، واثنان يقفان أمام شباك الحجز يتحدثان مع الموظف عن شيء ما، وآخر يتحدث في هاتفه في الطريق للصعود على السلم، والأخير، شاب يغطي رأسه بجزء من قميصه الرياضي الداكن الذي يرتديه، يتجه في نفق ناحية اتجاه القطار المقابل بمفرده، واضعًا يده في جيبيه.

توقف يوسف عن الحركة وسكن في مكانه، تمنى أن ينتهي صوت شهيقه وزفيره المتسارعين حتى يتمكن من سماع صوت سيزار، خرج بخار الماء من فمه كالدخان مع كل زفير، انتظر بشغف أي صوت أو خيط ليتبعه، ومرت بضعة ثوانٍ.. ولا شيء.

دوى صوت نباحه في المكان مجددًا، لكن تلك المرة كان من النفق الذي مر منه الشاب ذو الرأس المغطى كالرهبان، اتجه ناحية النفق بسرعة، ركض حتى سمع الصوت مجددًا وتأكد أنه في الاتجاه الصحيح.

عندما انتهى الممر، وجد يوسف نفسه في مواجهة رصيف آخر، وقف عليه ثلاثة أشخاص، رجل وامرأة على أقصى اليمين، وأمامه ذلك الشاب بمفرده، يعطي ظهره للمكان في انتظار قطاره، لا يتحرك قيد أنملة، لسبب ما جلس سيزار بجواره، لكن بشكل معاكس يقابل وجهه يوسف مخرجًا لسانه.. ولاهثًا بقوة، تفحص سيزار الشاب المبهم ولكن لم تظهر ملامحه من تحت الغطاء الذي يحوي رأسه، ثم نظر مجددًا أمامه، ابتسم يوسف وهمسها بفرحة:

- مستحيل!

ركض يوسف ثم استند بيده اليمنى على بوابة المرور الإلكترونية وقفز بخفة من فوق المانع الحديدي دون أن يخشى أحدًا من الأمن أو الموظفين الساهرين ليلًا، لم يهتم أصلًا ليفكر في الأمر، لقد كان لديه شيء أكثر قيمة وقتها.

ما أن قفز واقترب يوسف من سيزار حتى هب صديقه القديم واقفًا، وقف بانتباه شديد محركًا ذيله يمينًا ويسارًا، تقدم يوسف ناحية حافة الرصيف بفرحة وسرعه، مبتسمًا في وجه سيزار الذي ركض ثلاث خطوات للأمام بدوره، فتح يوسف ذراعيه منتظرًا أن يهجم عليه صديقه الذي افتقده بشدة، انتظر حفاوة الاستقبال ومحاولات اللعق المستميتة

كما تعود، حدث ما تخيله يوسف، ركض سيزار ناحيته وهجم عليه، لكنها لم تكن أبدًا هجمة صديق فرح، كانت هجمة كلب مفترس يريد أن يفتك بعدو، تراجع يوسف نصف خطوة للوراء عندما صدمته نبحة قوية من سيزار دوت في المكان كالإنذار، وعاد صدي الصوت بلا رحمة يهز كل خلية في جسده بعنف.

مرت ثانيتان صرخ بعدهما يوسف:

«سيزار!»

لكن كلمته لم تغير شيئًا سوى مزيد من التحفز، اتسعت عيناه عن آخرهما عندما رأى أنياب سيزار لأول مرة تخرج ضده، بل وأصدر زمجرة قوية إضافية تكفي أن ترغم «تشاك نورس» على أن يغير بنطاله بآخر أكثر جفافًا، بدا يوسف، مصدومًا، عاجزًا عن التفكير، متجمدًا في مكانه، أمام وحش صغير لا يعرفه، وحش يقترب منه رويدًا ويطلق نباحه رويدًا، جاهز للانقضاض عليه، بل جاهز للفتك به.

أبت الصدمة أن تنتهي عند هذا الحد، ما زاد الأمر تعقيدًا كان ذلك الشاب الصامت، الذي دار بوجهه ناحية الحدث مثله مثل الزوجين وموظف شباك التذاكر الذي قام من مكانه ليشاهد ما يحدث، تحرك الشاب بهدوء ناحية الموقف المشتعل، كانت المسافة بينهما عشرة أقدام تقريبًا، نزل على ركبته اليسري ونظر ليوسف النصف متجمد، مسح بيده على الكلب الهائج مرتين ليتحول في ثانيتين لقط وديع، ارتخت أذناه في حركة لا إرادية وأخرج صفيرًا لا يكاد يسمعه أحد غير ذلك الشاب

ويوسف، تجمدت الكلمات على لسان يوسف، درسه الشاب بنظرة هادئة ويده لا تزال على الكلب الذي حرك ذيله فرحًا ثم قال:

- ينفع تخوف صاحبك؟!

- عرفت إزاي انه صاحبي؟!

- انت ناديته باسمه.. يبقى صاحبك.

قالها ووقف على قدميه مجددًا لتظهر بعض ملامحه الدقيقة.

رد عليه يوسف بوجه حاد:

- انت اللي اشتريته من عبد النعيم؟

- الحاجات اللي ماينفعش تتباع..أنا بشتريها.

- يعني عارف انه ماكانش للبيع؟!

- تفتكر تفرق مع واحد زيي؟

- انت مين..؟

- أنا راجل من كتر عشقه للتفاصيل، نسي إن الشيطان عايش فيها.

قالها مزيحًا عن رأسه غطاءها، ليظهر من تحته وجه به الكثير من الوسامة القاسية، وعينان قاتمتان قسمهما الوشم لنصفين، وشعر أسود ناعم يشبه كثيرًا شعر النساء، يسقط على عينه اليمنى، بينما تعهدت «توكه» سوداء بالباقي من شعره خلف رأسه، ليشبه كثيرًا جون ترافولتا في «Pulp Fiction».

خذله لسانه ورفض الكلام.. نظر بعيني الصدمة الضيقتين ليرى.. كأنه مريض في اختبار نظر، طابقه بذلك الشخص في الصورة التي حصل

عليها مؤمن من المخرج.. وكان التطابق يكفي ليحفز غدته الكظرية لتروي دماءه بالأدرنالين، أراد أن يتفوه بشيئًا لكن لم يستطع، نظر لسيزار المتحفز ثم أردف موجهًا حديثه للغامض:

- لقيتني إزاي؟

- قدرنا نلاقي بعض يا دكتور، وماتنساش إن انت اللي لقيتني.. انت اللي دعكت المصباح!

قالها وأدار رأسه بتعجب، ثم أومأ برأسه.

- عملت إيه في سيزار؟!

- فيه هو بس..؟!، قولي!، إيه رأيك في خنجر الستة إنش اللي استخدمته؟ عبقري هه؟! لعلمك!..الخنجر الواحد بياخد مني يومين شغل، ماحدش بيتفانى في شغله للدرجة دي اليومين دول.

- وليد والمجند.. قتلتهم ليه؟

- غلط!. ماحدش بيسأل الأسد «بتصطاد الغزالة ليه؟ لأن ده الطبيعي.. ممكن تعتبرني.. ممم.. حد قرر يشق طريقه في السلسلة الغذائية مثلًا!، اللي مش طبيعي بقى.. إن الغزالة تستهدف الأسد.

- العسكري اللي قتلته كان عنده أم بيصرف عليها، ووليد كمان كان بيصرف على أهله.

- والغزالة برده عندها أم.. وأهل..صح؟

- انت مريض نفسي!

قالها يوسف بغضب.

- كفاية مدح أرجوك!

رد الأسود متأثرًا بسخرية.

- دي حقيقة.

حرك الأسود رأسه متعجبًا ثم أردف:

- معظم البشر مرضى نفسيين بدرجة أو بأخرى..شخصياتهم تشبه القماش.. عند الاقتراب منها..تظهر الفراغات أوضح.. خيوط ودلائل- 12/ 7/ 2009.

- كان عندك فرصتين تقتلني.

قالها لامسًا جيب معطفه الأيسر بيسراه مطمئنًا لوجود مسدسه في مكانه.

- يوسف! ماتكلمنيش كده!، أنا راجل طيب جدًّا على فكرة، الأفلام بس إدت الناس فكرة وحشة قوي عن السفاحين..أنا مش عايز أقتلك..حد تاني عايز.. أنا مجرد وسيط.

رد الأسود مستخدمًا يده في شرح الأمر، ثم أومأ برأسه واستدار مواجهًا الرصيف ومعطيًا ظهره ليوسف ليتابع الأخير مستنكرًا:

- الدم مش متعة.. إيه اللي عاجبك في اللي انت بتعمله؟

استدار الأسود برأسه ورد بعدما أعطى يده لسيزار ليلعقها:

- عمرك سألت نفسك إيه اللي هيحصل لو الساحر غلط ورمى الخنجر.. وقتل البنت الجميلة؟ أو.. لو قطعها 3 حتت وماعرفش يرجعها تاني؟ أنا فكرت.. وعجبتني النتيجة.

ربت علي سيزار مكافئة علي لعاقه ثم أردف:

- عمومًا.. أنا دلوقتي مستني المترو.. مش هأذيك، لسه شوية على دورك في الليستة.

عاد بوجهه للأمام منتظرًا القطار التالي، ساعتها علم يوسف أنها اللحظة الحاسمة، دس يده في جيبه بهدوء شديد مستغلًّا انشغال «الأسود» الذي ظل يبحث عن بوادر قطار المترو من دون أن ينظر ناحية يوسف مجددًا.

- في عالم موازي، كنت هتفكر قبل ما تقتل الغلابة.

قالها محاولًا مجاراة الحديث كي لا يلتفت الأسود تجاهه.

- و انت كنت هتفكر قبل ما تكتب المقالة.

رد بفتور محركًا رأسه نافيًا في أسف:

- Ciao

أشار مودعًا بظهر يده متابعًا بحثه عن القطار، في اللحظة نفسها التي اتخذ فيها يوسف قراره بالفعل، أخرج المسدس بخفة شديدة، ظلت يده ترتعش رعشتها المعهودة بالرغم من أنها لا تزال بجانبه.

- هتقدر تشيله؟!

قالها الأسود من دون أن يلتفت ليوسف الذي وقف مواجهًا له، واضعًا فوهة المسدس في مواجهة الأرض، صرخت السيدة الواقفة مع زوجها على يمين الرصيف صرخة بسيطة عندما لمع لهما المسدس الفضي، طمأنها زوجها وابتعدا في الحال، رد يوسف:

- بتتكلم عن إيه؟

- استدار بوجهه ناحية اليمين، تجاه المرأة المذعورة وزوجها، محدقًا في أرضية الرصيف، ورسم نصف ابتسامة على وجهه وأضاف:

- حاسس انه تقيل عليك.. هتقدر تشيله؟

ظل سيزار ساكنًا لأول مرة، ليرد يوسف:

- و أقدر أقتلك كمان!.... آآه!

تأوه يوسف حينما هم برفع ذراعه ليصوب ناحيته، شعر بألم شديد، كأنه يحاول اقتلاع شجرة معمرة يصل طولها لثلاثين مترًا بيد واحدة، كاد يخلع ذراعه اليسرى من كتفه، استسلم للألم، سقط المسدس من يده أرضًا، أمسك بعدها بذراعه في ذعر، ثم رمق الشيطان الذي أمامه بنظرة غضب لم تحرقه حيًّا.

- بص حواليك! الدنيا مليانة خنازير، (لوكي) بيقول إن الخنازير احتلت البلد، «التع...» بقى جزء من حياتنا.

قالها من دون أن يلتفت.

- مين لوكي؟

-.. الراعي الرسمي للدوري اللي بنلعبه.

حرك يوسف رأسه مستنكرًا بعدما أطلق زفيرًا عميقًا من أنفه:

- نهايتكم المشنقة.

- انت فعلًا متخيل اني هقبل على نفسي موته كلاسيكية زي دي؟

قالها ثم استدار متعجبًا.

- الناس اللي قتلتهم ما كانوش خنازير، لو عاوز تشوف الخنازير بجد إطلع على مجلس الوزرا، أو مجلس الشعب، أو حتى اطلع على القصر..انت بتقتل الغلابة عشان سهل توصلهم.. ماتحاولش تبقى ذكي!

- أي حد يقبل يعيش بين الزبالة والفضلات وياكل منها.. بياخد اللقب، أنا ماقدرش أقتل الخنازير كلها.. ما عنديش سكاكين كفاية.

قالها وأخرج من كفه اليمنى لفافة بها بضعة ورود حمراء برية نضرة بعد أن حكه بكفه اليسرى كخدعة سخرية.. أمسك بواحدة من الورود البرية وشمها مضيفًا:

- اللي بعمله ده (ديمو)..يمكن يعجب حد وهيشتري المنتج.

ثم حك كفيه مجددًا لتختفي الورود الحمراء ماعادا الواحدة التي احتفظ بها.

عدل من وضع خصلة من شعره الداكن خلف أذنه بخنصره وأضاف بعدما أعطى ظهره ليوسف مجددًا:

- أوعدك! في يوم من الأيام هتفهم قصدي.

قالها وتنفس من الوردة بعمق ليرد يوسف:

- ماجدش هيكمل بعدك! ماحدش هيفتكرك!

- عارف يا يوسف! انت بتفكرني بمدرس الرسم بتاعي..كان محبط جدًّا لدرجة إني اضطريت أعزمه على شاي بالسم!

بدأ القطار بالظهور حينما أضاف يوسف ممسكًا بذراعه اليسرى:

- انت عايز إيه؟

دار الأسود بجسده مجددًا ناحية يوسف الذي بدا متألمًا للغاية من ذراعه قائلًا:

- الوقت بيهاجمك أنا عايزك تدور عليا قبل ما دورك ييجي.

قالها بوجه متحمس للغاية ثم أضاف:

- أو تسيب إيدك وتتفرج،، انت هتموت يا يوسف.

بلع يوسف ريقه برعب بعدما تحررت يده نسبيًّا، إلى أن استطرد أخيرًا بنبرة مترددة:

- لو أنا نهايتي الموت.. انت نهايتك جهنم!

ثم رمق المسدس الملقى على الأرض بنظرة رجاء وغضب.

- يوسف!.. لأ!. خلي رؤيتك أعمق من كده.

.. ركز!

أشار بسبابته مجددًا وأردف:

- أنا وانت فتحنا أبواب جهنم مع بعض.

قالها رافعًا يده في حركة استعراضية لتنفتح وراءه أبواب القطار شبه الفارغ ثم أضاف:

- وهندخلها مع بعض.

دخل سيزار مسرعًا من خلال الباب المفتوح وسط صريخ بنت مراهقة صدمها وجوده، وهلع شاب أخذ خطوة احترازية للوراء وسيدة كبيرة في السن.

- سيزار.

نادى يوسف صديقه الجاحد بقوة ثم تذكر أن أمامه حاجزًا لا يستطيع المرور منه، لمح زجاجة عصير فارغة ملقاة على الأرض، ترك ذراعه والتقفها بيمناه وكسر قاعدتها في الأرض بسرعة ووجهها ناحية الأسود الذي رفع بدوره وردته البرية لمستوى وجه يوسف والتي أصبحت -في لحظة ما- خنجرًا ذا نقوش، تحرك يوسف بظهره ببطء ناحية الباب الذي قارب على الإغلاق وذراعه اليسرى لاتزال نصف معطلة عن العمل، لم يعلم ساعتها إن كان الأسود قد غير الوردة بحركة خادعة أم أن الأمر أبعد من ذلك.

- خلينا نروح بيوتنا من غير ما نجرح مشاعر بعض.

قالها الأسود ساخرًا.

- لو اتحركت هقتلك!

قالها يوسف.

- هتعرف؟!

- هعرف أوصلك!

كانت رد يوسف وصمت بعدها الاثنان، أنزل الأسود يده لجانبه ثم أضاف:

- أكيد.

قالها مبتسمًا ومحركًا رأسه إيجابًا، ثم تغيرت ملامح وجهه لوجه أكثر عنفًا، رجع بيده للخلف في حركة استعدادية لقذف الخنجر، ثم قذفه ناحية رقبة يوسف والباب يغلق نفسه أوتوماتيكيًّا، حاول يوسف أن يحمي وجهه بحركة غريزية، أطلقت السيدة صريخًا واضعة يدها على عيني مراهقتها الصغيرة، رآه يوسف يطير في اتجاهه كالسهم، يخترق الهواء بنصله العريض، وتلك النقوشات الغريبة، يعلمه جيدًا من الصور، يعلم أنه قد أنهى حياة الكثيرين من قبله، توقف الزمن للحظات، رأى فيها يوسف كثيرًا من الاحتمالات المؤلمة، لم يكن هناك أي حل آخر سوى انتظاره، ليخترق ما شاء من رقبته، كانت النهاية كما تبدو، وجاءت أسرع مما يتوقع.

* * *

(29)

أسهبت مذيعة الأخبار في غرفة يارا قاسم في فجر اليوم التالي، كان من الواضح أن «مونولوج» التلفاز هو الشيء الوحيد الحي داخل غرفتها الكبيرة، تجمدت وجبة من السانداوتشات بجانب كوب لبن كبير وضع منذ فترة على منضدة صغيرة.

- إيه يا بنتي السقعة دي حرام عليكي!

قالتها راندا وهمت بإغلاق النافذة الزجاجية بسرعة.

كانت يارا تجلس كما هي منذ وصولها، تضم ساقيها كأم تحمي طفلتها من الموت، يسكن يدها اليمنى «ريموت كنترول» أصبح جزءًا منها لا إراديًا، كانت عيناها مفتوحتين كالموتى، تابعت راندا كأن شيئًا لم يكن، جيبتلك الأيس كريم اللي بتحبيه وكيسين شيبسي عشان نبوظ أم الدايت ونسهر نتفرج على ال(TV) كيف مابدنا.

- أجابها الصمت لتتابع:

- حبيبتي، يورا.. مالك؟!

قالتها مقتربة من يارا لتضمها، في حين ظلت يارا متجمدة كأنها لا تريد الانكسار، مرت بضع ثوان إلى أن ردت بالحزم نفسه:

- سامي قالك؟

أنهت راندا وضع الأم الحنونة ورجعت برأسها للوراء لتنظر في عيني يارا بدهشة كأنها لم تتوقع سماع هذا السؤال الآن.

- حبيبتي انت عنيكي وارمة قوي، كنتي بتعيطي؟

- قالك؟

قالتها بثقة وهدوء.

- حبيبتي، ده موقف ممكن يحصل لأي حد يعني، إنسي كرمالي بليز!

هزأت يارا رأسها إيجابًا لراندا التي تركتها وهمت بفتح البالطو الذي ترتديه، ثم جلست بجانب الكيس البلاستيكي الضخم وأخرجت منه علبتي أيس كريم كبيرتين.

- سامي صور اللي حصل.. أنا شوفته.

قالتها يارا بشرود.

- صور شو؟!

- انتي عارفة كويس أنا بتكلم عن إيه.

ردت يارا بحزم.

- إبن المرة «الـ...»، والله لأوريله الحيوان هاد، حبيبتي البلد كلها تحرش وكبت جنسي، وأي واحدة معرضة للي حصل ده وكله بيهون مع الوقت، يعني أنا عمري ما حصلي حاجة وحشه؟ دانا مرّة...

قاطعتها يارا متحدثة لنفسها في حسرة لم تخلُ من الغضب:

- هتبقى فضيحة.

لترد عليها راندا بكل حزم:

- لا لا، بعد الشر، إنسي الوهم ده! ثانية واحدة.

أخرجت راندا هاتفها النقال بسرعة وغضب وهمت بالاتصال بسامي:

- هطلع ميتين أمه الحيوان ده، لو راجل يعطي اللي صوره لحدا.

بعد أقل من دقيقة رد عليها سامي بصوت نائم للغاية:

- إيه يا ريري!

- أنت عملت شو النهارده في الحسين؟!

قالتها بلهجة وعيد جعلتها تهز قدمها اليمنى بعصبية.

- بتتكلمي عن إيه بالظبط؟! هو الساعة كام أصلًا ؟

- هتستعبط يا سامي؟! انت عارف أنا بتكلم على إيه كويس يا حقير! عملت شو بالفيديو؟

صرخت بصوت أعلى.

- أنا.. عملت ده لمصلحتها، عشان لو حبت تعمل محضر تعرف تجيب حقها.

- مصلحتها إيه يابو مصلحتها انت! ده بدل ماتساعدها؟! تقوم حالًا وتفتح الكاميرا، هستنى تدقلي أو تبعتلي رسالة إنك مسحته، القيامة بلشت خلاص ولا شو؟! ماعادش فيه أباضايات ولا رجالة خلاص؟

- رجالة إيه بس انتي مجنونة! دول كانوا بتاع 100 واحد.

- ماليش فيه..الفيديو ده يتمسح حالًا من على الكاميرا، انت نزلته على الكومبيوتر؟

- لسه مافتحتش الكاميرا أساسًا.

- تفوق م النوم وتتصل بيه أو تبعتلي رسالة بعد ماتمسحه، ووالله يا سامي لو عرفت إنك خبيت منه حتى نسخة، لاخرب بيتك وأسجنك وأبهدلك، فهمت علي؟

- هدي أعصابك يا راندا يطقلك عرق ولا حاجة.

قالها ساخرًا كأنه توقع تلك المكالمة.

- أما نشوف.

أغلقت الخط، ثم نظرت ليارا المهتمة بالحوار وقالت مبتسمة:

- خلاص الموضوع خلص، سامي جبان ومش هيعمل حاجة.

هزت يارا رأسها إيجابًا وسادت دقيقة من الصمت ألقت فيها راندا بجسدها على الأريكة، ثم فتحت علبة المثلجات الخاصة بها قائلة:

- يلا إغسلي وشك وتعالي ننم شوية! أنا هنسيكي اللي حصل ده في 3 دقايق.

اتجهت يارا للحمام الصغير في أقصى يمين الغرفة مثل الطفل المطيع، في حين غرست راندا إصبعها السبابة في الأيس كريم نصف المتماسك، ووضعته في فمها مستمتعة بطعم الشيكولاته المفضل لديها:

- مممم تقبرني! عارفة يا يارا! متهيألي ماحدش مجنون غيرنا ممكن ياكل أيس كريم في عز البرد غير عمرو ديبا...

ثم رن هاتفها النقال رنة قصيرة ليعلن عن وصول رسالة قصيرة من سامي، ابتسمت راندا بعدها نصف ابتسامة وقالت بسخرية:

- وأدي يا ستي الفيديو راح كمان، إبسطيها بقى منشان الله!

- أنا كويسة.

ادت يارا أخيرًا وهي تجفف وجهها من الماء في حين سرحت راندا في الرسالة التي قالت:

- أي خدمة..، نزل على اليوتيوب وانتشر على التليفونات والنت كمان.

ثم أغلقت الهاتف واستطردت بعدما ساد الارتياح على وجهها:

- يدوم حبيبتي.

* * *

(30)

بالعودة للمترو

اتجه قطار الأنفاق بسرعته المعهودة مخترقًا الظلام والصدمة، تعلقت يد يوسف اليسرى في مقبض لتفادي السقوط، لم يعلم بماذا يشعر بعدما رأى الموت بعينه، لم يتخيل أن يتحول ذلك الخنجر الطائر لبضعة خفافيش طارت أمام وجهه ثم اصطدمت بباب القطار عندما أغلق تلقائيًا، ثم وجدت طريقها لسقف المحطة المظلم.

ظل يتذكر كيف ابتسم ذلك الشيطان المجنون عندما رأى رد فعله بعدما رمى الخنجر، ظلت عيناه مفتوحتين عن آخرهما تشاهدان الحوائط تركض خوفًا من أمام القطار، يشعر بعلو صوت دقات قلبه يزداد سرعة وضجيجًا مع كل ثانيه، تلك الفوبيا اللعينة.. لا تنتهي أبدًا.

اقترب خطوة أخرى من الباب على أمل تنتهي هذه المأساة وينفتح ذلك الباب المشؤوم، لعن بداخله الحالة المملة التي تصنع منه طفلًا كبيرًا كلما أغلق عليه باب، نظر جانبه ليرى تلك السيدة تحتضن حفيدتها وعيناهما موجهتان ناحيته في ترقب وذعر، استند برأسه على الباب، جاهد ليتنفس بصعوبة بالغة، تذكر كيف خرج سيزار من الباب الآخر للعربة في اللحظة الأخيرة، شعر بالرعب يتخلل كل خلية في جسده، إنها الأن تسيطر عليه.. فليحرق الله كل الأماكن المغلقة.

«مش قادر أتنفس هنا» همس بها يوسف لنفسه وأفلت يده اليسرى، وأخرج هاتفه النقال من جيبه بصعوبة، ضغط على اسم مؤمن، وضع الهاتف على أذنه، أغمض عينيه التي قاربت على الالتصاق بزجاج الباب كعيني طفل يشاهد العالم من خلف زجاج حافلته المدرسية، خبط برأسه مرتين على الباب متمتمًا لنفسه ومخاطبًا الباب:

- إفتح!.أرجوك!

رن هاتف مؤمن لمرتين ثم أجاب مؤمن في الثالثة:

مؤمن:

- انت جاي مشي بقى مش بتاكسي!

- أنا قابلته يا مؤمن.. دي مؤامرة..كلهم مشتركين فيها..كلهم.

- انت فين بالظبط..؟

- أنا ركبت المترو اللي طالع من محطة السادات ماعرفش رايح.. ألو!.. ألو!. مؤمن!

نظر إلى هاتفه النقال بعينين غاضبتين للغاية، لقد كان شيئًا أبعد مما يتصور أن يخسر الخط لا لأن الشبكة سيئة، بل لأن البطارية نفدت.

استقر القطار في محطته التالية ولم ينزل أحد أو يركب القطار أي شخص، ثم استقر في التي تليها.

فتح البابان إلكترونيًا ومن خلفهما يوسف الذي بدا وكأنه ينظر لانعكاس صورته على زجاج أحدهما، بدا أكثر هدوءًا على الرغم من

شكله المزري، بدت المحطة فارغة تمامًا إلا من بعض الأشخاص، وبائع مناديل يجلس على الأرض الباردة واضعًا رأسه بين ركبتيه وأمامه «فرشة» بها كثير من المناديل والولاعات، لم يظهر منه إلا رأسه النحيف ذات الشعر الأبيض القصير، استقر يوسف على الرصيف بينما تابع ركاب العربة طريقهم للصعود، تنفس يوسف قليلًا ثم نظر حوله في ترقب، تفحص ساعته مرة أخرى والتي أشارت لقرب الواحدة صباحًا ثم اتجه ناحية سلم الصعود لمحطته المبتغاة، تابع التنفس بعمق ثم مسح بضع قطرات العرق من فوق هامته، تحركت أقدامة المنهكة بتردد وخوف، اختلس النظر حوله ليتأكد أن أحدًا لا يراقبه، ثم تابع مشية تجاه السلم، قبل أن يأخذ خطوته الأولى على السلم الذي نظر لنهايته ولم ير أحدًا عند قمته، وضع يده اليمنى على «ضرابزين» السلم البارد وأخذ خطوته الأولى.. ثم الثانية والثالثة، تابع الصعود ثم نظر مرة أخرى لنهاية السلم عندما اقترب من المنتصف، صدمه شيء رآه جعل قشعريرة باردة تبقيه في مكانه..

كان مستقرًا في نهاية السلم يرمقه بنظرة بها الكثير من التحدي، يضحك برعشة واضحة ويتجهم وجهه مجددًا..جبهته مغطاة بعرق غزير وأصابع يده اليسرى ترتجف بشدة، طقطقها بعنف مستخدمًا يده اليمنى ثم حك بها فروة رأسه ذات الخصال المموجة، ترتسم على وجهه ابتسامة متوترة، كان ينتظره، لم يصدم يوسف كل هذا، فقد قرر أن يصعد سلمة أخرى، لكن شيئًا ما طبع في ذاكرته بعدما نظر للأرض مجددًا، شيئًا داكنًا تحملة يده اليمني، شيئًا مصمم للقتل.

قبل أن يشهر المجهول مسدسه في وجه يوسف، توقف يوسف مرة أخرى لكنه لم يرفع عينيه في تجاهه، تجمد لثانية كأنه ينظر إلى شيء ما في حذائه ثم..

قفز.. أمر قدميه أن تدفعا جسده كله للوراء، طار كالبهلوان المحترف للخلف، سمع صوت الطلقات تمر بجانبه بقسوة، تذكر أنه ليس ببهلوان ولا بمحترف، لقد كان رد فعل سريعًا لكنه لم يفكر بعواقبه.. لحظة اصطدامه بالأرض.. وقد حان وقت التفكير.

كانت خبطة عنيفة كادت تختلع كتفه اليمنى من مكانها.. تلك التي شعر بها عندما صدمته الأرضية القاسية، تلاها صفعة أخرى لمؤخرة رأسه جعلته يشعر أن المكان قد بدأ في الدوران به كلعبة ملاهي مجنونة، دار مرتين فوق الأرض حتى وصل إلى حافة الحائط، استخدم ذراعه اليمنى ليجر بقية جسده خلفه ويختفي عن أنظار ذلك المضطرب للحظات.

تعالت أصوات شهيقه وزفيره المتقطعين ثم بلع ريقه مرة أخرى محركًا رأسه للوراء في ألم بالغ، أمسك بكتفه اليمنى شبه المدمرة ثم نظر على يمينه ليرى أحد الأشخاص يختبئ تحت كرسي انتظار وبجانبه ذلك المشرد المكتئب، الغريب أن المشرد لم يتحرك بعدما سمع الجميع صوت ضرب النار، بل ظل كما هو، يحضن ركبتيه وبداخلهما رأسه، مثل طفل يبكي أباه المتوفى، أو مثل رجل ضارب بماله في البورصة وخسره في ضربة واحدة.

أو مثل أحد رجال الأسود، ينتظر لحظته المتفق عليها ليهجم على فريسته..

أخرج وجهه المزين ببضع علامات الـ«شقاء» من آثار المطاوي وغيرها، مبتسمًا أيضًا، قام من مكانه بخفه، مخرجًا من جيبه شفرة كالتي يستخدمها الحلاق وقام بتقليبها بمهارة بين أصابعه في طريقه ليوسف الذي اتسعت عيناه عن آخرهما، ضغط على قدميه وقام من مكانه بعدما وجد نفسه بين شقي الرحى، قام بصعوبة ممسكًا بكتفه المصابة، يمشي بصعوبة بعدما اكتشف أنه جرح ركبته اليمنى، يلهث من الخوف والمجهود، جرى بصعوبة بالغة ناحية سلة مهملات لعلة يجد شيئًا يدافع به عن نفسه، تذكر أنه لم يرمِ عنق الزجاجة التي كسرها وأنها لا تزال بجيب معطفه، أخرجها ليجدها تهشمت تمامًا، ألقاها في وجه الأشعث والذي أكمل تقدمه ناحيته بدون تردد وتلك الابتسامة المخيفة لا تزال على وجهه.

واصل الشقي اقترابه غير آبه حتى مرر مطواته على صدر يوسف بخفة وسرعة شديدة وتابع مشيه كأنه لا يرى يوسف، ثم توقف عن الهرولة ودار يواجه يوسف مجددًا، نظر إليه يوسف مرتعدًا ثم إلى صدره الذي بدأ يشعر ببعض الصقيع والألم به، كان ذلك الصقيع سببه أن الهواء البارد قد تخلل قميصه عن طريق الفتحة الكبيرة التي صنعها الشقي، والألم مصدره القطع العريض أيضًا الذي تكون في صدره، وضع يوسف يده على صدره غير مصدق لما يحدث، ثم نظر لكف يده ليرى الدماء في راحة يده، نظر إلى الشقي مجددًا في ذعر قائلًا:

- هو ليه لازم بالطريقة اللي بكرهها؟

قالها ثم تحسس قصافة أظافر رخيصة أخرجها من جيب بنطاله الخلفي، وبها سكين صغير يكفي ليقتتل به زوج من الفئران بدون إصابات بالغة.

عاد الشقي ليعيد الكرة مرة أخرى وفي طريق عودته قذفه يوسف بسكين القصافة بعنف ويأس، كان القدر رحيمًا به قاسيًا على الأشعث، فلم يكن يتوقع أن يستقر سلاحه المزري في أسفل عنقه أعلى عظمة الترقوة ويسقط، لكن الأخير توقف ونظر للقطع بعدما تلطخت يده بدمائه متعجبًا، ثم ركل القصافة بحذائه بعيدًا غير مهتم بالدماء التي خرجت من أسفل رقبته.

تراجع بدوره للخلف ناحية الرصيف الفارغ من القطار مبررًا:

- أأأوكيه!.. ماكنتش عارف إنها هترشق!

غضب الأشعث وهم بالركض ناحيته، شعر يوسف ألا سبيل للتراجع، إلا أن يقذف بنفسه مجددًا، ولكن لقضبان المترو تلك المرة.

ركض ناحيته الأشعث بأقصى سرعة بغية أن يأخذه ويهبط به على القضبان الحديدية، قفز يوسف بجسده ناحية اليمين في آخر لحظة تاركًا الأشعث الغاضب يسقط وحيدًا، سقط يوسف على الأرض مجددًا ثم نظر ناحية الشقي الذي بدا مصابًا من هول القفزة، لكنه شعر أن شخصا آخر يشاهد ما يحدث.

كان هو، ذلك الضاحك المرتعد، يشاهد كل شيء بعدما نزل من فوق السلم لأسفله، يضحك ضحكته المكتومة الغريبة، يرتعد كأنه هو الخائف، ثم رفع يده اليمنى مجددًا، مصوبًا مسدسه ناحية يوسف المستلقي على الأرض منهكًا كليًّا، نظر إليه يوسف باستهتار، وقد علم أن تلك هي النهاية، أخذ يتنفس بنفس الصعوبة البالغة، منتظرًا أن يطلق رصاصة الرحمة عليه، كانت أطول لحظة، أصعب من الرصاصة نفسها.

انتظر يوسف النهاية، وانطلقت الرصاصة، لكن الغريب أن ذلك المعقد لم يطلق رصاصته بعد؛ لأن رصاصة أخرىٰ اخترقت فخذه اليسرى من الخلف، رصاصة أرغمته على السقوط على الأرض أمام يوسف، أمسك بفخذه وصرخ ثم واصل الضحك الهيستيري المكتوم، كان شيئًا غريبًا ليوسف أن يرى رد فعل كهذا، تملكته الصدمة عندما أكمل المعقد ضحكاته وأخذ يطلق الرصاص ناحية السلم، يطلقه ضد رجل من النوع الذي لا يخشي أحدًا.

.. كان مؤمن.

قفز الشقي من فوق رصيف المترو ممسكًا بفخذه اليمنى بعدما أيقن أنه الطرف الخاسر في تلك المبارزة، كانت لاتزال تلك الضحكة على وجهه، تلقاه صديقه الأشعث المصاب حتى لا يسقط مثله بدون مساعده، تابع التصويب ناحية الشرطي الثائر، والذي تابع بدوره إطلاق النار ناحيته وسط صمت تام وترقب ممن في المحطة، اخترقت رصاصة من مسدس مؤمن حافة الحائط الفاصلة بينه وبين الشقي المجهول، تابع

مؤمن التقدم والتصويب بعدما وجد زاوية تصويب أفضل وتابع الشقيان تراجعهما مع تقدم مؤمن، واصلا التراجع خلف غطاء من الطلقات المتتالية حتى اختفيا في نفق المترو المظلم، مستندين على بعضهما كجنديين في معركة استقيظا من نومهما على مشهد مروع، توقف مؤمن عن إطلاق الرصاص واقفًا على قدميه، موجهًا يده اليمنى الحاملة للمسدس بكل حزم ناحية البقعة السوداء التي ابتلعت المجهولين، بجانبه كان يوسف الملقى على الأرض مثل الجثة الهامدة، ظل مؤمن متجمدًا بنفس الطريقة كلاعب رماية أوليمبي ينتظر اللحظة الحاسمة ليطلق فيها رصاصته المحظوظة، كفترة اختبار لمصداقية هروب الاثنين، وضع مسدسه جانبًا بعدما تأكد أن النفق قد ابتلعهما تمامًا، نظر ليوسف الملقى أرضًا، ثم نظر لسقف المحطة بعينين غير مستقرتين، يسعل قليلًا ثم يهدأ، جلس مؤمن على ركبتيه بجانبه، رامقًا النفق المظلم بنظرة ناريه، ثم أخرج من ظهره جهاز لاسلكي، ضغط على زر فيه وتحدث فيه بثقة وهدوء، بالرغم من الدماء التي تساقطت من صدر يوسف ومنها إلى أرضية المحطه، لم يتفوة يوسف بأي شيء، لكنه ظل ينظر للسقف كطفل يشاهد الحياة لأول مره، ثم رمق مؤمن الذي بدوره أمسك بكفة الملطخ بالدماء، وفقد الوعي.

شق شعاع شمسي رفيع طريقه لينير زجاجة عطر ماركة «جيرلين» موضوعة على منضدة خشبية قيمة، مستديرة في حجم كرة التنس أو أكبر قليلًا، أضاءت الزجاجة مثل حجر سحري في قصة خرافية قديمة،

استيقظت على ضوئها بعد نصف ساعة فقط من النوم، كانت أطول مدة تنام فيها منذ الحادثة الكئيبه، كانت الساعة قد قاربت على الثامنة صباحًا، كانت غرفتها كغرفة مراهقة مستهتره، علب سجائر فارغة وطفائة بها الكثير من أعقاب السجائر البيضاء من النوع المفضل لدى راندا، علبتين فارغتين من المثلجات الفاخرة وضع الأكياس النصف مملوئة بالمقرمشات المستوردة بينما سقط بعض منها على الأرض، تلفاز مفتوح بصوت عال، وجهاز تحكم عن بعد قارب على السقوط من يدها الصغيرة، كانت قناة أغاني شهيرة تعرض أحدث الفيديوهات بينما تكتب في شريط الأخبار أسفلها بعض النميمة عن نجوم الفن والمجتمع، أمسكت بزجاجة العطر، رشت منها قليلًا في الهواء للتنفس منها، نظرت على سريرها للتأكد أن صديقتها لم تعد نائمة، كانت راندا قد رحلت بالفعل منذ قليل، قامت وسط حطام الليلة السابقة، وضعت بعض الفوارغ والرماد في كيس بلاستيكي كبير وجدته، بينما هي تنظف قليلًا من الفوضي وجدت سيجارة ملفوفة فوق المنضدة، بدا كأن صديقتها تركتها لها عن عمد، وضعتها يارا بين شفتيها المكتظتين وهمت بإشعالها، لكنها تركت الولاعة مشتعلة أمام عينيها لثانية، تنظر إليها كأنها لم ترَ نارًا من قبل، صمتت لثانيتين ثم تركت زر الغاز ليرتفع مرة أخرى في ولاعة راندا الفضية.

حركت رأسها رفضًا وألقت بالسيجارة ذات الشكل المخروطي المغري في الكيس البلاستيكي ثم وضعت الكيس في سلة المهملات، صدمت وجهها بماء ساخن في الحمام الخاص بغرفتها وجففته سريعًا

بمنشفة بيضاء، أرادت أن تغير المحطة الغنائية الحمقاء، مدت يدها الحاملة لجهاز التحكم واضعة إصبعها السبابة فوق زر تغيير القناة، كان صوت أغنية هيفاء وهبي يخترق طبلة أذنها بلا رحمة، تجمدت لبضع ثوان كأن ساحرًا ما قد ألقى عليها لعنة، كأنها تراقب شيئًا ما، لم تحرك رمشًا، لم تتنفس حتى، بل ظلت كما هي تنظر للتلفاز اللوحي بعينين مفتوحتين عن آخرهما، كأنها ترى ملك الموت، يدها معلقة في الهواء كأنها في صورة فوتوغرافية.

«الكل يتحدث عن فيديو التحرش للمذيعة الشهيرة في الحسين.. هل حد سمع تعليق من يويو؟.. ولا ربنا ما (قسمش)..!!».

سقط جهاز التحكم من يدها أرضًا، امتلأت عيناها بالدموع، سقطت دمعة عندما أغلقت عيناها في ألم كأنها لا تريد أن ترى شيئًا، قامت من مجلسها ووقعت على الأرض بعدما تعثرت في سجادة طوت نفسها لتسقطها، انهارت، ذرفت دموعها، وضربت الأرض بقبضتها مرارًا وتكرارًا فاغرة فاها من شدة البكاء.

غابت عن الوعي لنصف ساعة فوق أرضية غرفتها الباردة، قامت في حزم بعدما جففت دموعها، تنظر حولها كالتائهة، أيقنت أنه لم يكن حلمًا سيئًا، ارتدت بنطالًا من الجينز وبلوزة زرقاء قاتمة وفوقها معطفًا أسود، اختارت أكبر نظارات الشمس حجمًا، ثم ارتدت «بنيه» رمادي فاتح فوق شعرها، لحفت كوفية حول رقبتها الرقيقة، وألقت ذراع شنطة «كروس» رمادية على كتفها اليمنى، بينما استقر جسد الشنطة على يسار خصرها،

رفعت نظارتها ومسحت بظهر يدها أسفل عينيها بسرعة، استنشقت بصعوبة خلال أنفها المزكوم، ثم نظرت لسكين رفيع موضوع في طبق به بقايا طعام وشوكة، أمسكت السكين ووضعته في شنطتها بعصبية، ثم توقفت للحظة، وألقت نظرة متمعنة على الجاكيت الخاص بيوسف، وأطلقت زفيرًا غاضبًا.

* * *

(31)

«ضبطنا له الجرح.. هيبقى كويس» كلمات ظلت تتردد في عقل مؤمن البحيري.

قالها الطبيب المشرف على حالة يوسف، ظل يشاهده ويتذكر كيف تحول صديقه الجديد إلى شخص آخر، تلك الرعشة التي تملكت يده على بلاط المترو البارد بعدما أنقذه، لقد كان شهرًا صعبًا بالفعل، بل الأصعب في حياته.

بعد ثوان عاد الطبيب مسرعًا يتحدث بحدة مع شخص من خلال سماعة هاتف محمول لاسلكي تطلق وميضًا أزرق ساطعًا، سأله مؤمن رامقًا يوسف بأسف:

- مافيش أمل يلحق طيارته بكره؟

رد الطبيب بعدما تحقق من شيء في هاتف كبير الحجم في يده:

- هو ممكن سعادتك بس صعب شوية.. لأنه نزف دم كتير جدًّا ده غير الارتجاج اللي جاله والكدمات اللي خدها.

- تمام.

أومأ مؤمن خائب الظن واختفى.

بعدها بساعة..

استيقظ فجأة كقلب عاد للحياة بصدمة كهربية، لم يقدر على فتح عينيه عن آخرهما لشدة الضوء، صوت جهاز القلب وقسطرة موصلة بظهر يده وبضعة أسلاك على صدره المصاب نصف العاري، كانوا كل ما أدركه.

تلاقى عالمه مع الواقع، واستغرق الأمر ربع ساعة كاملة ليعلم ما يحدث وأين هو، تذكر أن مؤمن قد وصل به لهنا، تلك المستشفى الباردة، شعر أن جسده كله مبعثر على ذلك السرير الأبيض، تسرب الألم رويدًا لكل خلايا جسده مثلما يخترق الحبر جزيئات الماء، شعر أنه يستيقظ من موت لا من نوم.

- افتكرتك هتنام أكتر من كده.

قالها صوت يعلمه جيدًا، صوت كان يجعله يشعر بالحياة سابقًا.

- دكتور رؤوف!

رد يوسف ثم تلاها بزفير عميق يعبر عن مدي الارتياح الذي شعر به لأنه رآه.

- حمد الله على سلامتك!

- حاسس بصداع جامد.

- بالنسبة لواحد خبط أرضية المترو بالروسية..الصداع إنجاز.

- الساعة كام؟

- 4 الفجر.. مؤمن قالي إنك ممكن تلحق الطيارة.

- مش هسافر.. في حاجة لازم أخلصها قبل ما أسافر.

قالها بصعوبة شديدة واضعًا كف يده فوق عينه مقاومًا الضوء الشديد.

- كفاية مخاطرة.. انت دلوقتي مش في أحسن حالاتك.

- مافيش مخاطرة.

- لأ فيه، وفي كل مرة هتخاطر ممكن جدًّا تدفع التمن، افتكر اللي حصل في إشارة المرور، سفاح مصنع الكيماويات، ودلوقتي قاتل متسلسل.. مافيش حد هيلعب ملك وكتابة 3 مرات وينتظر نتيجة واحدة.

- كل حاجة ماشية كويس يا دكتور.. أنا كويس ماتقلقش- آآآه.

قالها محاولًا الاعتدال.

ليرد عليه عبد الرؤوف:

- متأكد؟، مؤمن قالي كل حاجة..الأسود.

- قابلته في المترو..

- دي حرب يا يوسف.. انت رميت نفسك وسط حرب.

- حرب ماختارتهاش.. المقال.. أنا ليه كتبته؟!

اعتدل الدكتور رؤوف وهمَّ قائمًا مستخدمًا عكازه، اتجه ناحية طاولة وتجرع قليلًا من الماء في كوب زجاجي ثم استطرد:

- لما كنت في ألمانيا، جاري.. - دكتور جامعة - حكالي مرة عن تجربة غريبة بيعملها كل سنة، كان بيسيب ساعته ومحفظته وتليفونه،، حتى عربيته.. ويسافر أبعد مسافة ممكنة، كل مرة مكان مختلف، يشوف ناس مختلفة، لا يعرفهم ولا يعرفوه، ساعات بيجوع، ساعات بينام في الشارع، ساعات بيشتغل كناس أو بيغسل صحون.

- والسبب!

- السبب غريب.. في الأول قولت عليه مجنون، بعد كده فهمت.. عرفت إن في راجل ممكن يعمل حاجات كتير أوي عشان يكسر روتين حياته، عشان يجاوب على سؤال بيسألة الملل (لو حياتي اتغيرت، هبقى مين؟).

- هو جاوب على السؤال ده كتير، كان بيراهن دايمًا على قدرته انه يتحمل أي ظرف، ودايمًا كان بيكسب الرهان.. وبيرجع لبيته فخور انه في أي نهاية، كان بردو راجل ناجح.

- وافرض اتقتل في مرة من المرات.. أو حصله حاجة.

- ممكن طبعًا.. بس الواحد لما بيتملكه الملل، مابيفكرش في النتيجة، أي راجل مؤمن بالجنة - ممكن - في لحظة من لحظات حياته يتمني يروح للنار ويشوف شكلها، اعتبره نوع من أنواع الفضول، ده طبيعي، بس الأكيد بعد ما يروي فضوله، هيتمنى انه يرجع تاني.. انت كتبت المقالة وانت عارف انها مخاطرة..

قالها شاردًا لنفسه ثم استدار موجهًا كلامه ليوسف:

قبل ما تبدأ رحلتك لجهنم، كان لازم تتأكد إن تذكرتك ذهاب وعوده.

ثم أشار بسبابته ليوسف مضيفًا:

- إستغل الفرصة اللي قدامك! حل القضية.

- هحلها.. أوعدك!

- كويس.. بس قبل ما تتحمس لازم تعرف كويس مين هو.

- لما قابلته اتأكدت من كلامي، شيطان مريض، إنسان بيعشق الشر زي ما غيره بيعشق الحياة.

- مش صح.. بص للصورة الكاملة! إحنا مش الخير، والشر مش جبهة معادية هنقف نتفرج عليها وإحنا عارفيين إننا مش منها، كل إنسان في الدنيا دي عنده سبب للي بيعمله، حتى لو مش واضح.

قالها ثم ناول يوسف كوب من الماء شرب منه يوسف شربة واحدة ليكمل:

- الأسود مجرد شخص عادي، عشان تعرف توصله، لازم تعرف هو ليه وصل للمرحلة دي.

ثم تابع:

- المهم دلوقتي إنك تستريح.

ربت الدكتور رؤوف على كتف يوسف، استند يوسف بيديه فوق حافتي السرير وتلامست قدماه مع بلاط الأرضية البارد في استعداد

واضح للقيام، مرت بعدها بضع ثوان من الصمت أضاف بعدها عبد الرؤوف متفحصًا ساعته:

- أنا عارف إنك هترجع، المهم إنك تفتكر إن الحل دايمًا.. هنا..

قالها مشيرًا على رأس يوسف بإصبعه السبابه، حرك يوسف رأسه موافقًا ثم أضاف عبد الرؤوف متابعًا:

- في موضوع كده..و أنا لازم أعرفك انت أول واحد..أنا احتمال أسافر الخليج قريب لأخويه، هقعد عنده شهرين، ممكن تيجي معايا هناك لحد ما الدنيا تهدى شوية.

- الوقت إتأخر للحل ده، في ناس بتتأذى بسببي.

تابع عبد الرؤوف مازحًا:

- هحاول أقابلك تاني قبل ما سافر..لحد ما يحصل،، حاول ماتخلصش على نفسك.

ابتسم يوسف، بعدها مرت دقيقة من الصمت ظهر فيها على وجهه مزيدًا من الإصرار.

مرت نصف ساعة، جاءت بعدها الممرضة محملة بحقنة، تتحدث مع طبيب الدوام صغير السن عن «كولون» ابنتها الذي «نتشه» مسمار في تختة المدرسة وكيف تعاركت مع مدير المدرسة بكل أنواع السباب والفنون القتالية من أجل هذا «الكولون» المقدس الذي يساوي 35 جنيهًا، لكنها تجمدت عند باب الغرفة، كمن رأت عفريتًا لتوها، سألها الطبيب:

- في إيه؟!

تجمد بجانبها عندما وجد السرير بلا مريض فوقه، خاليًا إلا من بضعة أسلاك وملاءة ملقاة على الأرض، بدا كأن المريض قد عاد للحياة فجأة، بعدما وجد قميصه الأبيض وإرتداه ومن فوقه المعطف الخاص به، ورحل.

تأهبت قطة تعبث في صندوق قمامة بحثًا عن منيو الإفطار، ذلك عندما سمعت صوت أقدام يقترب بانتظام كما اقتربت الشمس من الإشراق، كانت أقدام تمشي بهدوء وثقة، تضغط الأسفلت كأنها تريد أن تخرقه، توقفت قدماه السوداوتان بجانب الصندوق نصف المفرغ دون أن يلتفت، نظرت إليه القطة وأطلقت مواءً ناعمًا، أكمل طريقه بينما تبعته القطة، مشت بجانب ذيل معطفه الداكن، مشت بجانبه كأنها هو، تملأها الثقة كأنها تعرف أين تذهب، لم تنظر بجانبها، لكنها قفزت فوق ظهر سيارة ومن ثم إلى كتفه اليمنى، لم يتأثر بالمرة، بل تابع السير، تابع حتى وصل لمبتغاه عند جانب الطريق، توقف هناك يتنفس الفجر الجليدي، كان صباحًا لم يكتمل بعد، أشارت الساعة إلى الخامسة صباحًا.

- صديق جديد؟!

همس بها رجل غامض قاصدًا تلك القطة المتحفزة، صوته يبدو كصوت رجل في الخمسينيات، يرتدي طاقية رياضية زرقاء داكنة، من تحتها جاكيت محكم الغلق، واضعًا يديه في جيبي المعطف.

- عسكري جديد.

رد حاتم الأسود مبتسمًا، كان يبدو عليه أنه قد طمس وشمه بلون الجلد ولملم شعره بالكامل للخلف.

- بتعرف تجند كويس.

قالها الغامض، ليرد عليه الأسود:

- كل دي حاجات بسيطة، ما بتدخنش ليه؟

ظهرت من العدم يده اليمنى سيجارة وضعها في فم الغامض، ثم رج يسراه ليظهر عود كبريت مشتعل بين أنامله، تنفس الغامض من سيجارته بتلذذ ليتابع الغامض:

-سمعت إنك عملت تغيير في الخطة.

- تغيير درامي شوية.. بس عبقري.. سادي..

قالها قابضًا أصابعه ومكشرًا عن أنيابه لتكشف القطة عن أسنانها مثله بغضب بدون أن تصدر أي مواء.

- مافيش مشكلة.. هو يستحق الموت.. المهم يموت في الترتيب الصح.

- المتعة ابتدت.. خلي عندك ثقة فيا!

- عقارب الساعة بتدور أسرع، المباحث عرفت حاجات كتير.

- إحنا أسرع.

-الخبطة الجاية فين؟!

- لو قولتلك، يضيع عنصر المفاجأة.

-مش هيضيع.. لو أنا عرفت ماحدش هيعرف.

- يبقي إيه لازمة إنك تعرف؟

-المهم إنك تنفذ صح.

- عندك شك؟!

-لأ.. بس عندي مشكلة مع الفشل.

- يبقى ماعندكش مشكلة معايا.

قالها الأسود بتحد واضح، لتترك القطة تنظيف مخالبها وتنتبه.

-خلص الليسته قبل ما الدنيا تولع أكتر.

- ههههه.. تولع أكتر.. حلوه.. تولع.. أكتر.

تغيرت معالم وجهه بطريقة درامية، استطرد بصوت مخيف:

ده منظر راجل هيخاف لو الدنيا ولعت أكتر؟

قالها ممسكًا بياقتي الغامض لتزمجر القطة في شراسة.

- لأ.. بس لو غلطت، هتولع انت كمان.

لمعت عينا حاتم الأسود وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، قاطعها صوت أتى من قريب لشخص ثالث.

- بطايقكوا يا بهوات.

قالها مخبر، أقصر قليلًا من الاثنين، أسمر البشرة يرتدي جاكيت واسعًا عليه وبنطلونًا قماشيًّا، حليق الرأس وله عينان بنيتان بارزتان.

تفحصه حاتم الأسود بينما نظر الرجل الغامض للأرض مخفيًا عينيه في هدوء تحت الطاقية، بدا أن شخصًا آخر ينتظر على بعد ستة أمتار من ثلاثتهم، كان مخبرًا آخر يتأهب للهجوم في حالة تعرض صديقه للخطر.

- أوه انت بتكلمنا! معلش ماركزناش عشان كنا بنخطط لمؤامرة شريرة.

قالها الأسود بسخرية ثم أضاف مضيقًا عيناه:

- ممكن تعيد الجملة دي؟!

- إيه! مابتسمعش يا روح أمك، طلع بطاقتك انت وهو!

نظر إليه الأسود بتعجب كأنه يرى كائنًا فضائيًا، كذلك القطة السوداء الساكنة فوق كتفه اليمنى التي مالت برأسها اندهاشًا، اقترب بوجهه منه قليلًا ثم قالها بسخرية:

- مياوو.

لم تكن مجرد كلمة قالها الأسود بوجه متجمد، لكنها كانت إشارة للهجوم:

- ميخاووو!!

صرخت بها القطة ثم طارت على رأسه لتستقر بمخالبها في وجه المخبر كالخفاش، تصرخ بكل قوة كأن مسها سحر، بينما يصرخ هو ويتراقص كالمجنون، يحاول إبعادها عنه بأي طريقة ممكنة، تدخل

المخبر الآخر، ركض بسرعة ناحية صديقه لينقذه، في تلك اللحظة اختفى الرجل الغامض كأنه لم يوجد.

بمجرد أن اقترب المخبر من صديقه، طارت القطة مجددًا ناحيته، وقع أرضًا محاولًا تفادي ذلك الوحش المجنون، قفزت القطة بعيدًا وتابعت الركض حتى اختفت، نظر مرة أخرى لصديقه ليجد وجهه مغطى تمامًا بالدماء والجروح، مشوهًا لا يكاد يظهر منه شيء، لم تكن تلك المشكلة فقط، كانت المشكلة الأكبر أن خنجرًا طل بنصله الحجري على رقبته المغطاة بالدماء، خنجرًا يحمله حاتم الأسود، والذي وقف خلف المخبر المصاب يحتضنه حاملًا خنجره بتمكن، متأهبًا لذبحه في أي لحظة، ظل المخبر المصدوم في مكانه على الأرض، غير مصدق لما جرى، يشاهد صديقه المترنح يلاقي حتفه المؤكد.

– سيبه يا باشا! حقك علينا! سيبه وإمشي وماحدش هيكلمك.

قالها المخبر محاولًا القيام من على الأرض، مشيرًا بكفه في حركة دفاعية.

نظر إليه حاتم بتعجب ثم إلى الضحية التي بين يديه، ثم قالها بسخرية:

– بطايقكوا يا بهوات..!

أخرج المخبر الحر حافظته ورمى منها بطاقته على الأرض، ثم أخرج الأسود حافظة المخبر المشوه بيده الأخرى، ورماها بجانب البطاقة الملقاة على الأرض بعدما قرأ اسمه وقال:

- أنفع مخبر؟!

ظل الرجل المشوه رافعًا رأسًا عاليًا في ذعر، منتظرًا نهايته المحسومة، ليرد المخبر الآخر:

- تنفع يا باشا.. تنفع ونص.. بس سيبه الله يكرمك!

ضحك حاتم ضحكته المعهودة ثم تغيرت ملامح وجهه بعدما أخرج من معطفه طوقًا أشبه بطوق الكلاب لكنه معدني، ضغط على زر به فانفتح، لوح به أمامه قائلًا:

- دلوقتي مع فقرة الساحر.. مبروك،، صالح أول واحد هيجرب طوق السعادة..الطوق اللي لو شيلته هتحس فعلًا بسعادة!

وضع الطوق حول عنق المخبر الذي حاول المقاومة، أغلق الطوق ميكانيكيًا لتظهر عليه ساعة رقمية صغيرة، سيطر الأسود مجددًا على ضحيته بالخنجر، ثم قال جملته الأخير:

- مع مراعاة الشروط والأحكام!

قالها وزام ثم ابتسم فجأة لدرجة أن أسنانه ظهرت لامعة، ثم دفع «المخبر» بعنف تجاه صديقه، تلقاه المخبر الآخر ثم تفقد الطوق المعدني الغريب بذعر، بدأت الثواني في العد التنازلي، اختفى حاتم مهرولًا في الشارع الجانبي من دون أن ينظر وراءه، يغني في هيستيريا:

- نار في جلبي يامه نار.. نار نار يامه.

- نار حريجة يامه نار.

قالها ثم نظر في ساعته ثم أكمل بنفس اللحن ولكن بصورة أبطأ:

«نار... نار... يامه...» مشيرًا بإصبعه السبابة كأنه مايسترو يعزف.

دوى انفجار كبير وراءه مصحوبًا بصريخ الصديقين، وسارينة بضع سيارات تكسرت زجاجها، تصرخ بدورها لتنبه أصحابها، أو لتنعي الفقيدين.

* * *

(32)

أشارت الساعة إلى الحادية عشرة صباحًا عندما ضغط مؤمن على زر الاتصال مجددًا، ظل اسم معاذ واضحًا على شاشة هاتفه، لكن الرد كان واحدًا من تلك السيدة التي لم تتزحزح عن رأيها «الهاتف الذي طلبته غير متاح حاليًا..» لعنه أكثر من مرة ولعن كسله المفرط، تساءل بصوت غير عال عن نهاية استهتاره حتى في هذا التوقيت الحرج، تفحص ملفًّا ما في يده ورقي أصفر اللون، وضع الهاتف في جيبه وطرق الباب مرة واحدة ثم سمح لنفسه بالدخول.

- Good God!.. الجو تلج يا مؤمن، انت كده هتتجمد.

قالتها جاكلين متفحصة مؤمن الذي ارتدى قميصًا أبيض فقط على بنطاله الأسود.

- وصلنا فين؟

- أها.. ده أحسن سؤال يتسئل النهارده بصراحة.

تأهب رامي لإلقاء السلام عليه بدوره تاركًا ميكرسكوب كان ينظر فيه.

- إزيك يا كابتن؟ أمال.. فين يوسف؟

- في المستشفى، محتاج وقت عشان يعوض الدم اللي خسره.

أطلقت جاكلين زفيرًا طويلًا به كثيرًا من خيبة الأمل والصدمة، وشاحت بنظرها للسماء واضعة كفيها أمام وجهها كأنها ستصلي، سلبت منها الصدمة حتى القدرة على الكلام، تابع مؤمن موضحًا :

- الأسود ورجالته طلعوا عليه في المترو إمبارح، أنا عايز قهوه.

اتجه مؤمن لنافذة المكتب متفحصًا شيئًا ما، كأنه يخشى أن يراقبهم أحدًا ثم جلس أمامها.

تجمدت جاكلين لكن طمأنها ثبات مؤمن الانفعالي على حياة يوسف لتضيف:

- أنا حاسة انك مطمن.

لم يرد عليها مؤمن منشغلا بإشعال سيجارته الجديدة.

- لحقته في الوقت الصح.

- وال.. الأسود..؟

قالها رامي بتوترة المعهود.

- لما وصلت مالقيتش غير رجالته، المهم إن يوسف كويس، الدكاترة بيقولوا أسبوع بالكتير ويخرج.

- هو حالته صعبة؟

تساءل رامي ملامسًا نظارته الطبية.

- ارتجاج في المخ وجرح قطعي في الصدر.

نفخ مؤمن نافخًا دخان سيجارته بإستهتار يشوبة اليأس، لتعلق جاكلين بصدمة.

- My God!..

الوقت مش في صالحنا يا مؤمن!. أنا محتاجة مساعدة أكتر عشان أقدر أفيدك.

- وأنا مش مقصر.

قالها ملوحًا بالملف ذي الغلاف الأصفر ثم استطرد:

- ده تقرير عنه، من أول ما لبس بامبرز.. لحد مالبس أسود،، لو فيه تقصير بيحصل في القضية دي يبقي منكوا انتوا.

- That's something

تمتمت بها لنفسها بعد نفس عميق ثم أمسكت بالملف محركة إبهامها فوقه بهدوء كأنها تداعبه نظرت لمؤمن مجددًا مضيفة:

- لفت نظرك أي ملاحظات مش طبيعية؟!

صمت لثانيتين سيطر فيهما على أفكاره ثم أضاف:

- بغض النظر عن إنه دبح أمه واتورط في حفلات عبدة الشيطان والعاهة المستديمة اللي عملها لعيل وهو لسه عنده تسع سنين، لأ.. تقدري تقولي طبيعي.

قالها مؤمن ببرود ثم حرك رأسه يمينًا ويسارًا مرة واحدة مستنكرًا.

- ماخيبتش ظني.

علقـت جاكليـن وهـي تفـض الملف بسـكين، ليـرد مؤمـن بغضب واضح:

- بس انتوا خيبتوا ظني.

- أها.. من حيث الجثة اللي اتخللت عندكوا ومافيش أي جديد.

- للأسف وصلنا.. لـ.. معلومات قليلة.

قالها رامي ليصدمه مؤمن بعاصفة ترابية غاضبة:

- مش فاهم يعني إيه معلومات قليلة؟!! حبة بـ5 جنيه مثلًا !!!

- إهدى! بالشكل ده المستشفى هتزيد واحد.

قالتها جاكلين بهدوء غير معتاد.

- جاكلين! انتي عارفة إن مافيش وقت نضيعه في كلام مالوش لازمة، إمبارح بالليل..

لاحظ علو صوته فتراجع قليلًا في نبرته مضيفًا:

- إمبارح بالليل يوسف كان هيتدبح قدام عيني، ودلوقتي رامي بيقولي معلومات قليلة، أنا محتاج إجابة سهلة على سؤال سهل: وصلتوا.. لحاجة.. في.. الجثة؟!

- عرف كلمة «حاجة» !

ردت جاكلين محركة قدمها بتوتر.

- حاجة يعني خيط، دليل، أي حاجة.

- للأسف لأ.

قالها رامي.

- شكرًا !!

رد مؤمن بصوت عال مشيرًا لرامي بيده بكثير من العصبية.

- سيب التقرير وأوعدك ان هيبقى فيه جديد.. روح ريح شوية، أعصابك تعبانة.

- أعصابي كويسة وفي حاجة لازم تعرفيها،، الواد ده مش غبي .

- بمعنى؟

- قبل ما يهرب كان في هندسة، هندسة اتصالات، واضح من درجاته في الجامعة انه ذكي جدًّا، مش بس كده، من التحريات بتاعتنا عرفنا إن عصابة الأسود مشهورة بحاجة واحدة.

- اللي هي؟!

تساءلت جاكلين بعدما أشعلت سيجارة.

- صناعة الأسلحة، الأسود.. بيصمم أسلحة.

مرت دقيقة كاملة كان الصمت القاتل عنوانها.

- أنا ابتديت اتشائم.

تمتمت جاكلين بوجه عابس لنفسها، بدا مؤمن شاردًا واضعًا شفته السفلية بين أسنانه بواسطة إبهامه، كان يقرضها باستمرار بعصبية، قاطع صمته ليرد عليها:

- مش انتي لوحدك، أنا حاسس اننا بنلف في دايرة مفيهاش جديد.

- ولا هيبقى فيه!

جاءت كالصاعقة على ثلاثتهم، جاءت من شخص يقف عند باب المكتب.

- أكيد بتهرج!

قالتها جاكلين بصدمة شديدة لصاحب الجملة، ليتابع مؤمن بدوره:

- انت اتجننت! إزاي سابوك تمشي من المستشفى؟!

- مستحيل توصل للخيط وانت بتدور في الطريق الغلط.

قالها يوسف متجاهلًا دهشتهم.

- تقصد إيه؟!

- الأسود خريج هندسة اتصالات.

- So..?

- لو هيكتب رسالة، مش شرط يخبيها في اللحم والدم.

- الموبايل!

قالها مؤمن بذهول.

- مستحيل!

علقت جاكلين.

- مش مستحيل.

كان رد يوسف عليها.

- بس إحنا شيكنا على الموبايل،، ومالقيناش حاجه.

قالها رامي، ليردف مؤمن مشيرًا بسبابته:

- ممكن جدًّا يكون في حاجة ماشفنهاش.

- ده مجرد موبايل يا جماعة.

علق رامي ضاغطًا على نظارته الذهبية لتعود مرة أخرى لمكانها أمام عينيه الصغيرتين.

- وافرض انه مش مجرد موبايل؟!

قالتها جاكلين ثم قامت من مقعدها بحماس شديد. صائحة:

- ناديلي مختار وخليه يحصلنا على المعمل!

حرك رامي رأسه إيجابًا وهرول سريعًا ناحية الباب، ليضيف يوسف رغم إعيائه:

- الحفلة بدأت.

* * *

(33)

ماتت الحياة في قلبها كما يتجمد نهر مياس شرق جبال الأورال في نوفمبر القاسي، كان ذلك شعورها عندما شاهدته يتجه ناحية مكتب طبع عليه كلمة «المخرج» ضاحكًا وبيده هاتفه النقال، يتحدث مبتهجًا دون أن يلحظها، كانت تنتظره قرب الحمام، مختفية وراء مبرد المياه المعدني ولباسها غير المعتاد، تسللت يدها إلى شنطتها بهدوء، أخرجت السكين وخبأته تحت كم القميص، انتظرت بدون تردد، كصائد غزلان يعرف أن فريسته ستأتي للنهر لتشرب في أي وقت، لم تخشى أن يعرفها أحد، لم تخشَ أي شيء.

- هتعرف لما أجيلك!

قالها في طريقه خارجًا من غرفة سمير الشوربجي الفخمة ثم ألقى سيجارة في فمه وأشعلها ووضعها بين إصبعيه، تذكر أنه يريد أن يفرغ مثانته الثقيلة، اتجه إلى الحمام ليجده فارغًا من الزوار، وضع سيجارته في فمه وأخرج بضاعته، أطلق زفير ارتياح مخلوطًا بدخان سيجارته، نظر على يمينه كأنه شعر بشيء ما، تأكد أنه لا شيء ثم نظر أمامه مجددًا، ألقى حمله ثم أغلق سوستة بنطاله وأمسك بسيجارته، اتجه مباشرًا ناحية الباب لتقذف به المفاجأة للخلف، لم تكن المفاجأة سوى طفاءة السجائر المعدنية احتضنت وجهه حاملة توقيع يارا قاسم، جعلته يأكل

نصف السيجارة مع بضع من أسنانه وكثير من الدماء، وقع أرضًا كالكوب المسكوب، ترنح لثانيتين حتى استوعب ما حدث له، تحسس وجهه وأنفه المصاب ثم نظر لكفه الدامية المرتعشة في ذعر، نظر ناحية الباب ليجدها واقفة بكل ثقة، تنظر إليه من خلف نظارتها الشمسية بترقب، تلمع في يدها سكينة صغيرة خرجت من تحت كمها في صمت، وبيدها الأخرى طفاءة ثقيلة تركتها لتستقر.

- كان لازم تغسل إديك!

قالتها بهدوء شديد، ليرد عليها، مشيرًا بكفه في حركة دفاعية.

- يارا! الموضوع مش زي مانتي فاهمة، أنا.. كنت همسح الفيديو فعلًا، لكن.. غصب عني.. غصب عني حاجة حصلت.

- و أنا بردو غصب عني.

تقدمت في حركة هجومية، تحرك للخلف ماسحًا بلاط الحمام بملابسه بسرعة قائلًا في توسل وذعر:

- راندا هي اللي دفعتلي.. دفعتلي فلوس.

تجمدت، كانت جملته قاسية، حادة كرصاصة في القلب، تنفست مرتين بصعوبة وألقتها بحزم:

- ماتجيبش سيرتها على لسانك الوسخ!

- والنعمة!.. وحياة بنتي اللي في المستشفى هي اللي دفعتلي الفلوس لما قولتها همسحه، قالتلي خد الفلوس دي عشان علاج مريم بس وزع الفيديو.

- حيوان كذاب!..راندا مستحيل...

- لا مش مستحيل، راندا بتغير منك من زمان وكلنا عارفين، انت الوحيدة اللي مش عارفة، أبوس إديكي أنا عايز أربي بنتي، أرجوكي!

تابعت يارا التنفس محاولة التأكد من أنها في حقيقة أم كابوس، نظرت إليه نظرة إخترقته بها كثير من الغثيان والقرف، همت بالرحيل تاركة سامي بوجه مغطى بالدماء.

- أنا آسف.

قالها ليارا التي توقفت في طريقها للخروج، ثم نظرت إلى يسارها قليلًا ولم تلتفت، وتابعت المشي..لا تعلم لأين.. لكن تملكتها رغبة شديدة في الخروج من ذلك المكان..كأنه يخلو من الهواء.

* * *

(34)

حامت تعويذة الصمت فوق المعمل القديم في مصلحة الطب الشرعي، كان أبعد ما يكون عن معمل، زجاج مكسور وأجهزة نصف معطلة، كان أشبه بمعمل فيزياء في مدرسة حكومية مهجورة.

استقر مختار على «بنش» المعمل وأمامه «فولتاميتر» وهاتف نقال مفكك لأكثر من ثماني قطع، وجهاز به شاشة خرج منها سلكان اتصلا بالـ«بوردة» الخاصة بالجهاز كأخطبوط يمسك بفريسته الممزقة، سحب نفسًا متقطعًا ينم عن إصابته ببرد شديد، ثم نظر ناحية جاكلين قائلًا:

- ولا حاجة.

- متأكد؟

- زي مانا متأكد من إسمي.

- والذاكرة بتاعة الموبايل؟

- ماعليهاش غير الأغنية بس.

- «مخ» بليز!. دوّر! أكيد هتلاقي حاجة تفيدنا.

- مافيش، حاولت والله بكل الطرق.

- أنا اتخنقت.

قالها مؤمن متحركًا بعدما أطلق زفيرًا عميقًا للغاية شاردًا ببصره بعيدًا.

نظر يوسف ناحية رامي الذي بدا متوترًا كالطفل الذي فقد أبويه، قائلًا بهدوء:

- لسة معاك الجيل الأول؟!

- الجيل الأول؟!

- موبايلك! الجيل الأولاني.

تحسس رامي موبايله الذي وضعه في جيبه، ثم أخرجه بسرعة ليجد أن هاتفه قد استلم رسالة نصية، فيما بدأ صوت شفرة موريس في العلو تدريجيًا من الصوت الخافت للصوت المتوسط، بدا وأن يوسف قد سمع صوت شفرة موريس منذ بدايتها وأيقن نوع هاتف، برر رامي:

- آه.. أنا.. مابحبش التليفونات الجديدة قوي.

- كويس إنك محافظ عليه.

- كويس إن الحادثة ما أثرتش على ودانك.

قالها مؤمن معجبًا بحاسة السمع الحادة عند يوسف، ليرد ببطء:

- المهم ماتأثرش على دماغي.

أضافت لتضيف جاكلين:

- اللي هيأثر على دماغك هو الإرهاق وعدم النوم، انت آخر مرة بصيت في المراية إمتى؟

- في إزاز المترو..بالمناسبة، فيه شرخ صغير في العدسة اليمين، عند الساعة خمسة.

أشار يوسف لنظارة جاكلين الطبية لتنزعها جاكلين عن وجهها وتفاجأ بوجود شرخ صغير للغاية، عقبت بسخرية:

- Oh Crap!..الولد كويس!

- أنا كده خلصت.

- تمام يا «مخ»..Thanks !

هم مختار بالخروج بعدما لملم كل ما أحضره للمعمل.

تشابكت أصابع جاكلين ثم ضغطت عليهم ليخرج صوت طقطقة قوي، حركت رأسها يمينًا ويسارًا قائلة:

- طيب بما إننا مالقيناش حاجة،، كلمنا بقى عن اللي حاول يقتلك.. الأسود،، شكلة عامل إزاي..

-..زي ما بنتخيله في أحلام اليقظة.

قالها وفتح جزءًا من قميصه متممًا على جرحه الغائر.

- مؤمن قال إنه ماكانش لوحده.

- اتنين من رجالته، مافيش حاجة فيهم مميزة، بس الـ..

- بس إيه!

قالتها أثناء نصبها لحاسبها النقال ثم همت بكتابة شيء ما.

- اللي لاحظته إن كان فيهم واحد بيترعش بطريقة غريبة، وبيضحك بهيستيريا، حتى بعد ما مؤمن ضربه بالنار.

- كويس إن كان عندك وقت تلاحظ.

علق مؤمن بسخرية لم تخلُ من الإعجاب، لتردف جاكلين:

- Inappropriate psychological response.

- ده اللي عايز أقوله!

- تقصد انه سكيزوفرينك.

قالتها بعدما تجمدت أمام اللابتوب الخاص بها.

- مخدرات وعزلة..ممكن جدًّا.

رد يوسف محاولًا عدم التركيز في تفاصيل المعمل لكن عينيه خانتاه كالعادة وأخذت مئات الخطوط التخيلية تخرج أمامه وفي نهايتها كتبت ملاحظات من نوعية «لمبة مكسرة، فطر في جانب الحوض وغيرها»، علق مؤمن ساخرًا:

- آه.. شيزوفرينيا بقى والهلك بتاع الأمراض النفسية ده.. صح؟!

- لاحظت عرق في وشه أو على ضهر إيده مثلًا ؟

قالتها جاكلين متجاهلة مؤمن، ليرد يوسف:

- مالحقتش.. مش متأكد.

- العيال دي عايشة عالحقن والبودره،، أقطع دراعي الواد ده سكيزوفرينك.

عادت جاكلين ببصرها لحاسبها النقال مرة أخرى ليتابع مؤمن بتأفف:

- يا دكتورة الله يكرمك، الكلام اللي حضرتك بتقوليه ده صعب أوي، دي عيال كلها شمال ومسجلين خطر، لو إتمسكوا والصحافة سمعت

الكلمة دي، تاني يوم هيروحوا على مستشفيات الصحة يكاكوا زي الفراخ وبعدين هينزلوا الشارع تاني ويركبونا،، وبعدين.. مافيش حاجة اسمها انفصام في الشخصية – مع احترامي– العيال دي عارفة هي بتعمل إيه كويس.

– ومين قالك إن الشيزوفرينيا انفصام في الشخصية؟! إنسى السينما!. الشيزوفرينيا مرض مصاب بيه أكتر من نص المرضي العقليين، في إحصائية بتقول إن 1٪ من البشر بيعانوا منه بشكل أو بآخر.

قالتها جاكلين، ليرد يوسف:

– الفصام.

– بالظبط، بالعربي اسمه الفصام، دكاترة كتير بترشح المخدرات كسبب رئيسي للإصابة بيه، مريض الفصام أو الشيزوفرينيا بيكون مهزوز ومضطرب، مابيقدرش يتعامل مع العالم الخارجي بسهولة، دايمًا بيميل للعزلة أو الخوف، غالبًا بيسمع أصوات لناس مش موجودة غير في خياله مثلًا، ساعات ممكن يضحك من غير سبب مقنع، أو يعيط في مواقف المفروض يضحك فيها، يعني تقدر تقول نوع من الجنون مش أكتر.

قالتها جاكلين ماطة شفتيها متجهة بنظرها لرامي الذي شارك متعجبًا:

– بس.. الأسود.. هيستفيد إيه لو اختار رجالته من المرضى؟

–مريض الفصام سهل إنك تقوده، عشان دايمًا تابع، وممكن السيطرة عليه.. بالخوف، والـ...

قالها يوسف لتضيف له جاكلين:

- المخدرات.

- ثانية واحدة..أمال إيه اللي واجعين دماغنا بيه في الأفلام ده؟

تساءل مؤمن بتعجب، ليضيف يوسف:

- بالظبط، في الأفلام والروايات بيظهر مريض انفصام الشخصية التعددي اللي تقصده، واللي هو حاجة تانية خالص، في نظرية بتقول انه خيال وانه غير موجود، وأنا بميل ليها.. مع إن الـ«APA» اعترفت بوجوده رسميًا.

أردفت جاكلين:

- الأمريكان اعترفوا بوجوده فعلًا.. وللإنصاف!. في دكاترة كتير بتقول انه مرض حقيقي، وأنه غالبًا بيكون شخص طبيعي مر بتجربة صعبة وهو طفل، اغتصاب، ضرب مبرح مثلًا، وبيهرب من الكلام ده بتعدد الشخصية.. ماتنساش إن في عيلة كل حد فينا على الأقل واحد بيتكلم وهو نايم.. ده في حد ذاته صورة من صور تعدد الشخصية.

- أعرف واحد كان بيمشي وهو نايم..

قالها رامي منظفًا نظارته

- المشي أثناء النوم مش دليل قاطع، حتى لو تطور، لكن.. خلينا مانساش إن في كتير من حالات مرض الصرع بيقوم المريض بعمل أشياء غير طبيعية بعد النوبة الصرعية من غير ما يعرف، فيه تصرفات عجيبة جدًّا

إتسجلت،، زي ناس قلعت هدومها وقطعتها،، ناس تانية سرقت، أو قتلت.. وبتصحي مش فاكرة أي حاجة..

قالها يوسف، ليرد مؤمن باستنكار:

- كل ده مايا كلش معايا.. اللي أعرفه عن علم النفس إن العالم ضعاف الشخصية والدين بيعبروا عن الضغط اللي عليهم بالجريمة، بس..غير كده كلام مايجيبش تمنه.

- وليه ماتقولش إن زي ما في حد ممكن يعبر عن الضغط بتحوله لقاتل، واحد تاني ممكن يفصل نفسه عن ذكرياته بشخصية جديدة ليها أهدافها وحياتها؟

قالتها جاكلين، تساءل رامي:

- يعني.. إيه ليها حياتها؟!

فسر يوسف:

- علماء النفس بيقولوا إن أي شخصية مختلقة بتكون مستقلة، يعني كل شخصية جديدة ليها تفاصيلها، حتى في نبرة صوتها وضغط الدم.. عمومًا العلم لسه في جدال عن المرض ده، ودكاترة نفسيين كبار بيأكدوا انه مش موجود.. Medical Hoax.

- طبعًا هجص..مافيش تعدد شخصية.. جسم البني آدم مش لوكاندة عايش فيها 600 شخصية، لو على كلامكم يبقى الفصام بس هو اللي ممكن يكون حقيقي.

قالها مؤمن وأشعل سيجارته ثم توجه للنافذة مضيفًا :

- عمومًا..أنا هقول لنوح يدور في ملفات المستشفيات النفسية في مصر من باب الاحتياط، يمكن يلاقي حاجة عن العيال دي..

أمسك بهاتفه النقال ليختار كلمة «سكانيا» من قائمة الاتصال السريع.

- وإيه الخطوة الجاية؟

- نفكر..

قالها يوسف، أشار له مؤمن بهاتفه:

- انت لازم تسافر.. هجيبلك تذكرة جديدة.

- وفر فلوسك..أنا وانت عارفين إيه اللي هيحصل.

كانت رد يوسف، ليثور مؤمن أمامه مشيرًا بسبابته:

- انت.. أكيد بتهزر.. أكيد.. بتهزر!

- طيب، إيه رأيكو نشغل حاجة تساعدنا على التفكير، وأهو بالمرة شوية إلهام.

قالتها ضاغطة على زر في اللابتوب الخاص بها لتبدأ نجاة الصغيرة في إضافة جو من الهدوء، والرعب.

«بحلم معاك بسفينة، وبموجه ترسينا.. ونبحر تاني..».

نظر مؤمن بعينين مصدومتين ليوسف الذي شعر بقشعريرة في كل جسده، ثم لجاكلين مجددًا، تابع بعدها مؤمن مكالمته مع نوح، في حين سألها يوسف.

- دي من الشريط اللي اتبعتلي؟

- لأ.. من الموبايل.. «مخ» نزلها على اللاب.

قالتها جاكلين.

حرك يوسف رأسه إيجابًا ثم أضاف:

- في حاجة في الأغنية دي.

- ولا أي حاجة.. إسمع إسمع!

مرت دقيقتان، قام فيهما يوسف بتركيب كل الكلمات المذكورة في الأغنية في كل الاتجاهات الممكنة كلعبة الميكانو، حاسبًا عدد الحروف والكلمات، لعله يجد شيئًا مكررًا أو مميزًا، لكن لا شيء، جلس على الكرسي المجاور لجاكلين في هدوء. في حين بدا رامي مشغولًا بمسح نظارته، وانتهت الأغنية.

راقب يوسف مؤمن المشغول بهاتفه بعيدًا عنهم عند شباك المعمل، ثم نظر لرامي مجددًا واستطرد:

- رسالة يا رامي.. موبايلك!

- بتسمعها إزاي قبل ما نسمعها إحنا؟

- قوة ملاحظة.

قالها رامي مبتسمًا محاولًا إخراج هاتفه القديم متفحصًا إياه في عجلة في حين قالت جاكلين ساخرة ليوسف:

- مش مطمنة أنا للرسايل دي، رامي شكله بقى روميو.

أضاف رامي مندهشًا :

- مافيش رسايل.

نظر يوسف أمامه مجددًا محركًا رأسه متفهمًا في حين أضافت جاكلين:

- أوت دي يا دوك!

نظر إليها يوسف رافعًا حاجبه الأيسر ومحركًا رأسه إيجابًا مجددًا كأنه يريد أن يقول «هذا يحدث بعض الأوقات»، ثم تجمد للحظة كأنه تذكر شيئًا واتسعت عيناه عن آخرهما في حين فعلت جاكلين نفس رد الفعل لتضيف بذهول:

- مستحيل.

- لأ! مش مستحيل.

نظرا بسرعة لشاشة اللابتوب على مشغل الأغاني الذي اقترب من الصفر بعد انتهاء الأغنية ثم أمسكت فارة التحكم وأعادت آخر 8 ثوان في الأغنية وضغطت على زر في لوحة المفاتيح ليصبح صوت الأغنية في أعلى مستوى ممكن، واقترب الاثنان من الكومبيوتر، كطفلين يسترقان السمع من باب حجرتهما.

أغلق مؤمن هاتفه بعدما قال«هكلمك تاني..» ثم اتجه ناحيتهما مندهشًا، رجعت جاكلين برأسها للوراء ونظرت لمؤمن بدهشة بالغة قائلة:

- شفرة موريس!

- هنحتاج «مخ».

- شفرة موريس؟!

- الخيط كان في الأغنية.

- أهلًا وسهلًا...

قالها مؤمن في صدمة.

مرت نصف ساعة كاملة، حاول فيها مختار تكبير الرسالة المبهمة مستخدمًا برامج صوتية محترفة على الحاسب الشخصي الخاص به، فيما استندت جاكلين بكوعها على الـ«بنش» وفي يدها سيجارة تحترق.

- أنا برنس!

قالها مختار مبتسمًا بعدما رفع السماعتين عن أذنيه.

- «مخ»! Come on، ده الطبيعي بتاعك، قولي إنك ترجمتها Please.

- «مخ» في الخدمة دايمًا، لبنان.. (15)..(2).

- لا يا راجل؟!

تابع مختار بلهجة دفاعية.

- لا والله، فعلًا هو ده المكتوب.

لوح مؤمن بعصبية قائلًا:

- داحنا بنلعب بقى؟!

شردت جاكلين قائلة:

- يقصد إيه؟!

- أي حاجة، ممكن يكون الضحية الجاية لبناني مثلًا.

- وإيه 15 دي بقى؟ سنة مثلًا ؟.. بالله عليك قولي كلام أصدقه!

قالها مؤمن مطلقًا زفيرًا عميقًا للغاية، ثم مسح بكفيه عن وجهه في يأس واضح.

- مش.. يمكن يكون.. «إحم».. عنوان.

- صح!!،، يابن الصايعة!. Oh..Sorry! .. أسفة.

- 15 ميدان لبنان.. عمارة رقم 15، شقة اتنين!

قالها يوسف بتشكك، ثم حدق مؤمن في وجه رامي الذي ازداد حمرة كعروس في ليلة زفافها ثم قال بثقة:

- لو طلع الكلام ده صح..

لم يكملها، أمسك بجهاز اللاسلكلي متجهًا بسرعة للباب بعدما بدأ إشارته، تبعه يوسف وجاكلين في عجلة.

الأن أصبح لديهم جميعًا شيء..

* * *

(35)

تراصت سيارات الشرطة بأشكالها المختلفة كقطع حلوى في فاترينة عرض، تتوسطهم سيارة إسعاف واحدة، بدت بجانبهم كقطة قفزت من فوق عمود إنارة فوجدت نفسها في سيارة مليئة بكلاب صيد مدربة، كان ذلك أسفل عقار رقم 15 في منطقة ميدان لبنان المزدحمة دائمًا، رمى مؤمن سيجارته إلى حتفها مراقبًا المكان من خلف نظارته السوداء، في حين أشار عبد الجليل لضابط قوات خاصة يرتدي زيًّا مميزًا أسود اللون، تغطي عينيه نظارة قاتمة، يرتدي «طاقيه» رياضية داكنة عليها علامة القوات الخاصة، أومأ برأسه متفهما، ثم ضغط بدوره على زر في جهاز صغير معلق ناحية كتفه وتمتم بشيء ما بكل ثقه، لحظة وانفتح ظهر سيارة شرطة سوداء اللون في حجم الأتوبيس الصغير تقريبًا، خرج منها خمسة رجال يشبهونه لكن بعتاد أكبر وخوذة حديثة بها مصباح كهربي صغير مطفأ. كان اثنان منهما يحملان قطعة إسطوانية كبيرة من المعدن.

- أزرق؟

قالها القائد مبتسمًا في ثقة يلوك علكته الكبيرة بتلذذ، لينظر إليه الفريق محركًا كل منهم رأسه إيجابًا بثقة.

أخرج سلاحه وشد جزأه ليحذو الباقي حذوه، ثم اتجهوا لمقصدهم جميعًا وفي مقدمتهم القائد، صعدوا السلالم للدور الأول في اتجاه

الشقة الثانية، الشقة الوحيدة التي لا يعلم أحد في العمارة من يقطنها، ففي الطريق للعقار قامت تحريات سريعة طلبها مؤمن جائث بنتيجة مرضيه، العمارة بالكامل مؤجرة لمدد طويلة ماعدا شقتين، واحدة تخص المالك إضافة إلى الشقة المجاورة التي يفضل إيجارها لمدد قصيرة كشقة مفروشة، كان الأكيد في الأمر والمثير للريبة أيضًا أن شخصًا بنفس مواصفات الأسود قد استأجرها لأسبوعين، بل وطلب منه أن يحصل على البدروم كمخزن لشركة منسوجات مستقبلًا فوافق صاحب العقار على الفور.

نزل يوسف من سيارة مؤمن محاولًا أن يرى ما يحدث بوضوح ونزلت معه جاكلين، كان المكان مزدحمًا للغايه، توقف المارة في فضول ليشاهدوا الفيلم «الأكشن» الحي الذي يحدث في المنطقة، أصبحت السيارات تمر بصعوبة خلال الشارع المقابل.

توقف القائد أمام الباب ثم خلع نظارته عن عينيه ووضعها في جيب بنطاله، أشار بمسدسه ناحية الباب في صمت، تمركز صاحبا القطعة الإسطوانية أمام الباب ومن خلفهم قائدهم، بدت ثقيلة للغاية، تراجع بقية أفراد الفريق الثلاثة بعيدًا عن الباب خشية أن يكون هناك فخ ما، وجه القائد فوهة مسدسه للباب في حين نظر إليه الاثنان بهدوء تام كأنهم لا يستطيعون الكلام، حرك رأسه إيجابًا لينظر الاثنان أمامهما في حزم، حركا معًا الاسطوانة الحديدية للخلف مرتين وفي الثالثة صدما الباب بكل عنف، كسر الباب وبقي جزء من الخشب عالقًا في «الكالون» الذي

لم يتأثر، مرت ثانية طوية انتظر فيها ثلاثتهم أي مفاجأة غير سارة، في حين تحفز قائدهم موجهًا سلاحه يمينًا ويسارًا مترقبًا أي حركة، كانت الشقة هادئة تمامًا وشبه خالية إلا من بضعة كراسي قديمة وكنبة تحتضر، كان المطبخ أمامهم خاويًا إلا من بوتجاز فوقه بضع أكواب فارغة، وصنبور تنزل منه نقاط متتابعة حتى فاض الحوض أسفله.

- ألفا..تعامل!

قالها القائد للثلاثة المتراجعين ليتدخل أحدهم ويلقي قنبلة صوت صغيرة، دوى انفجار بسيط ناتج عن القنبلة، تدخل اثنان من الثلاثة كل منهم صوب سلاحه في اتجاه عمودي على الآخر، انتظرا قليلًا ثم قال أحدهم.

- أزرق!

تقدم الاثنان الآخران واستندا على مدخل باب الغرفة الأولى، ألقى أحدهم قنبلة صوتية أخرى بالداخل من دون أن يرى شيئًا، انفجرت القنبلة ثم دخلا بعدها بخمس ثوان كاملة ليجدا مزيدًا من الفراغ، لا شيء سوى غرفة فارغة، أعادها أحدهم في اللاسلكي المعلق قرب صدره:

- أزرق!.

تدخل القائد يمضغ علكته بعنف ومن بعده الوحيد غير المرتبط من الفريق الذي تقسم فجأة لفرق صغيرة ثنائية العناصر، تقدما ناحية الغرفة الثانية ليجداها مثل الأولى، لكن توسطها سرير يفتقد كل شيء إلا الملل،

ودولاب قديم مفتوح على مصراعيه ولا يوجد به شيء، تأكدا أن الغرفة خاوية ثم قالها الرئيس مجددًا من خلال اللاسلكي:

- أزرق.. مافيش أي أثر.

تجمع كل منهم في الممر الفاصل بين الغرف كطلاب جامعة ينوون الذهاب للكافيتيريا بعد محاضرة طويلة مملة، خلع اثنان منهم خوذتهما وقال أحدهم.

- عبد الجليل ده هيتحط عليه جامد، قلق الداخلية كلها على الفاضي.

رد الآخر مازحًا:

- مش كان زمانا بنكمل ماتش مانشيستر دلوقتي يا كابتن؟

نظر القائد لحذائه متجاهلًا كلماتهم البائسة، سرح قليلًا لثانيتين، تتبع خطًّا رفيعًا من المياه قادمًا من غرفة بعيدة مغلقة على أقصى اليمين، ثم نظر لهم قائلًا بغضب شديد:

- مين اللي شيك على الحمام..؟!

نظروا جميعًا لبعضهم البعض بعدما اكتشفوا أن كل فريق اعتقد أن الآخر قد ذهب هناك.

- أووف!

صاح بها أحدهم لائمًا على نفسه مرتديًا الخوذة مرة أخرى، ثم تقدم هو وزميله في محاولة لتعويض عقدة الذنب على هذا الخطأ الكارثي، كان الباب مغلقًا، تقدم الاثنان ومن خلفهما القائد الغاضب في حين

انتظر الثلاثة الآخرون، نظرا لبعضهما البعض وذلك الصوت يسيطر على المكان، صوت شبيه لصنبور المطبخ، نقاط متتابعة متساقطة من صنبور ما بالداخل، نظر أحد أفراد الفريق الثنائي لصديقه ليحرك صديقه رأسه تفهما، ثم للقائد المتأهب.. أشار بأصابعه: «1، 2..، 3» ثم حرك الباب فجأة، كان المكان مظلمًا للغاية على الرغم أن النهار لا يزال في أشده، بدا أن صنبور البانيو يسرب نقاطًا من الماء، والغريب أن البانيو ممتلئ عن آخره، الأغرب كان ذلك الثلج الكثيف المغطي للبانيو، قطع متوسطة من الثلج بدا أن شخص ما قد وضعها منذ وقت قريب لا يزيد على بضع ساعات، لكن هذا لم يكن كل شيء.

- إيه ده!

قالها أول شخص في الفريق بغثيان شديد عندما وجد أن هناك جثة ما تحت الثلج والماء البارد.

وضع القائد يده في الماء غير الممتزج بالدم، وأمسك الضحية من كتفها مخرجًا رأس الجثة للهواء.

- القلق ماطلعش على الفاضي.

كانت جثة شاب في بداية الثلاثينيات، قصير القامة، عاري الصدر، عيناه مغلقتان بنفس الطريقة الدموية، نفس الخيط اللعين، محفور رقم على كلا خديه، وخنجرًا يختبئ بداخل صدره.

- كابتن.. الأرض!

نظر القائد للأرض السيراميكية المطليّة بلون أحمر داكن لم تزح منه المياه الكثير، كانت أربع بلاطات كاملة مغطاة، ترتيبها جميعًا أفقي تشبه حرف الألف لكن بدون همزة.

حرك القائد المذهول رأسه إيجابًا، ثم انحنى مساعده الآخر والتقط شيئًا من فوق الأرض.

- بطاقة!

ناولها للقائد ثم خلع خوذته بدوره مثل زميله، ضغط القائد على زي اللاسلكي في بدلته ثم قال بذهول شديد كأنه فقد النطق:

- عمليات خاصة!

جاءه الرد في أذنه اليسرى خلال سماعة دقيقة ليستطرد:

- تم السيطرة على الموقع بنجاح، لا سلبيات للفريق، تم اكتشاف جثة شاب ملقاة داخل بانيو.. الجثة... مشوهة، بها طعنة نافذة بالصدر، و..- و-.. مصفاة.. من الدم...

قالها ثم بلع ريقه بصعوبة وأضاف:

- توجد آثار دماء على أرضية الحمام، وتوجد بطاقة شخصية تخص الضحية، الاسم :....

حاول التركيز لقراءة الاسم في الحمام المظلم، في اللحظة نفسها تقدم الثلاثة الآخرون في اتجاه الحمام ببطء بعدما شعروا بتأخر الفريق.

ضغط أحد الاثنين المصاحبين للقائد على زر الإضاءة بغية أن يساعده، ناسيًا أنه من غير المفروض فعل هذا، نظر إليه القائد ثم إلى البطاقة التي يمسكها في يده اليمنى محاولًا قراءة الأسم.

كان يقف أمام البانيو بالضبط، أشاح بنظره للحظة إلى انعكاس صورة اللمبة الواضحة على ظهر الماء، تغيرت معالم وجهه تمامًا كأنه قد رآى شبحًا في المياه، نظر للثلاثة الذين اقتربوا في طريقهم لزملائهم في الحمام بعدما جرفهم الفضول، أشار لهم بكف يده قبل أن يدخلوا من باب الحمام بثلاثة أمتار.

- أخضررررررررررررررر!..

قالها صارخًا بصوت هز المكان كله، لينفجر الحمام في ثانية من الزمن، تتناثر الأشلاء مع الحطام، وتقذف موجة من التضاغطات والتخلخلات الثلاثة الفضوليين للوراء لمترين أو أكثر.

ثم ساد الصمت.. ولكن صوت خرير المياه الناتج عن الصنبور لم يصمت.

بعد مرور عشر دقائق تحولت الشقة المشئومة لمشرحة كبيرة، يفوح منها رائحة الـT.N.T والجلد البشري المحروق، صرخات ألم ونداءات بائسة من بعض الناجين على أقرانهم الصامتين، تحول المكان لماشية السوق بمجرد دخول وكيل نيابة وبعض رجال الشرطة من بينهم مؤمن، أجهزة لاسلكي لا تصمت، وعمال إسعاف ينقلون جثتين نصف متفحمتين من الفريق الخاص، ونقالة أخرى لثالثهم في ذلك الحمام

الدموي وقد بقي حيًّا بالرغم من إصابته المميتة، مسعفين يعالجون أحدًا من الثلاثة المحظوظين، في حين أن الاثنين الآخرين بديا في حالة يرثى لها من الحزن واليأس، أحدهما يبكي بحرقة شديدة كالأطفال، أطلق رامي - مرتديًا كمامة شبية بالتي ترتديها جاكلين - فلاشًا سريعًا من الكاميرا على طاقية سوداء نصف متفحمة ملقاة على الأرض، أمسكتها جاكلين بعد ذلك بقفازها الطبي ووضعتها في كيس بلاستيكي.

- مش قادرة أصدق اللي بيحصل.

قالتها بصدمة شديدة وخيبة أمل من خلال الكمامة التي ترتديها فوق أنفها، ثم ضغطت بظهر يدها على نظارتها كيلا تسقط.

- 3 ماتوا؟

تساءل مؤمن الواقف مثل الطفل المشتت، يصارع شعورًا بالذنب يهمس في أذنه أنه هو المسؤل عن موتهم، ردت جاكلين:

- 2.. التالت احتمال يعيش.

ظهر يوسف تائهًا وسط فلاشات الكاميرا وأصوات التحاور نصف الصامتة بين وكيل النيابة وأحد أفراد المباحث. وقف يتفقد العضو الوحيد من الفرقة الخاصة وهو يبكي بحرقة، يشاهده وهو يقاوم كل من يريد أن يلمسه أو يحركه، مصابًا بانهيار عصبي حاد، يجلس على الأرض كالطفل الغاضب.

- كانت في اللمبة؟

لم تعلق جاكلين واكتفت بإيماءة من رأسها، كان يبدو أنها تتجاهل التحدث مع مؤمن لسبب ما، تابعت فحص الدم الموجود على الأرض، رشت من سائل موجود في زجاجة بلاستيكية صغيرة على الدم، ثم أخذت عينتين عن طريق عصاتين صغيرتين في آخرهما قطنة صغيرة تشبه تلك الخاصة بتنظيف الأذن، تابع رامي بدوره تسديدة بضعة لقطات للجثة المتفحمة داخل البانيو، في حين بدا لون الماء داكن ومعكر، وبدا أن الثلج كله قد اختفى.

- إزاي 2 ماتوا وأنا شايف جثتين لسه طالعين حالًا من هنا؟ وأدي التالته أهي.

قالها مؤمن مشيرًا برأسه للجثة المتفحمة لتزيح جاكلين الكمامة قائلة:

- «الكاديفر» دي كانت هنا من الأول..

توجه مؤمن للداخل بسرعة من دون إذن للدخول، حاول النظر للجثة المتفحمة في البانيو، صدمه المنظر فأشاح بوجهه بعيدًا كأن شخصًا قد لطمه فجأة، وضع منديلًا على أنفه وحاول التقرب مجددًا قائلًا بصعوبة:

- مين هو؟

نظر رامي لجاكلين كأنه يخجل أن يقول شيئًا، ثم نظر مرة أخرى لمؤمن الذي جاهد لينظر مجددًا، أشارت له جاكلين أن يطلعه على السر بإيمائة من رأسها.

- لقينا دي في إيد.. في إيد كابتن الفرقة.

قالها مخرجًا كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا من جيبه به بطاقة صغيرة نصف متفحمة كتب عليها:

«معاذ السيد محمد خطاب»، وعليها صورة لشخص يعرفه جيدًا، شخص يعرفه منذ أمد.

استغرق الأمر نصف دقيقة من التدقيق، كأنه يريد أن يتأكد أنه لا يحلم، ظل المنديل على أنفه وفمه فيما رقرقت عيناه ببضع دمعات سقطت على الكيس، بدا كأنه على شفا انهيار عصبي، ينظر إلى جاكلين تارة وتارة للبطاقة غير مصدق، قال بذعر:

- لأ.

- البقية في حياتك!

ردت جاكلين، ثم أعادت الكمامة مرة أخرى في توتر وحزن متابعة عملها.

تجمد رامي بالكاميرا غير مدركٍ لما يجب فعله، في حين شعر مؤمن كأن شبحًا ما يقف خلفه، لم يكن شبحًا، كان يوسف، يقف متجمدًا كالثلج، وعلى خدة الأيسر دمعة صامتة تكاد تتجمد، كان وجهه متماسكًا للغايه، ليس غاضبًا.

أو حزينًا، تلك النظرة التي يعرفها مؤمن جيدًا، لقد توصل لشيء أو قرار ما، قد يكون جيدًا، أو في تلك المرحلة، دمويًّا.

- معاذ مات يا يوسف.

قالها مؤمن غير مصدق ثم أكمل:

- قتله..

ظل يوسف متحجرًا كأنه لا يسمع أي شيء، أخافهم صمته، نظر إليهم يوسف نظرة بها كثير من الغموض، ثم هم بالرحيل مسرعًا.

- إلحقه بسرعة يا مؤمن! هيعمل في نفسه حاجة.

قالتها جاكلين لمؤمن المصدوم من رد فعل يوسف، صمت مؤمن لثانيتين ثم هم بالركض خلف يوسف.

مشى يوسف بسرعة في الشارع بوجه صارم ويدين مخبأتين في جيبي معطفه، تتساقط دموعه فوق وجهه المجهد الحاد،، ابتعد لمائة متر تقريبًا حينما ظهر مؤمن من ورائه يناديه:

- يوسف!

- يوسف!. أقف بقولك!

هرول ليسبق يوسف ويدفعه لحائط عمارة سكنية بجانب الرصيف من صدره.

- عايز تروح فين؟!. عايز تنتحر؟.. هتهرب زي الجبان،، هو ده اللي انت عايزه؟!. هو ده؟!

نظر له يوسف بعينين محدقتين وعجز عن النطق.

- إمبارح وليد، النهارده معاذ، كل ما نستسلم كل ما هو يكسب.. فكر بقى.. كفاية سلبية!

قالها ممسكًا بمعطف يوسف بقبضته كأنه يعاركه.

تابع:

- فكرك لو انت مت كل ده هينتهي؟ بالعكس!. هيكمل بردو، وأنا اللي هبقى بعديك.. إسمع كلامي يا يوسف!. فكر! أرجوك!

قالها ثم ترك ياقتي الجاكيت ومضيفًا في حسرة.

- أنا مش هقدر أكمل ده لوحدي.

استند بظهره على الحائط بجانب يوسف، ومرت بضعة لحظات من الصمت:

- الوقت أسرع مني.

قالها يوسف كأنه يناجي نفسه:

ثم نظر لمؤمن نصف المنهار، وتابع بعدها طريقه بخطوات ثقيلة.

..لم يلحق به مؤمن في تلك المرة.

* * *

(36)

- مافيش حاجة اسمها نلغي، يارا هتيجي حالًا، يا هطربق أم الاستوديو ده عاللي فيه!

قالها المخرج ثائرًا بأعلى صوت، في حين ارتعد كل من في الاستوديو من وجهه الذي أصبح في قمة الاحمرار، حاولت راندا تهدئته لكنه رفض كل المحاولات، أخذ يسب ويلعن ذلك الحقير «سامي» الذي تسبب في كل ما يحدث له وللمنتج بل وللقناة أيضًا، فشلت كل محاولات راندا في إقناعه بتأجيل الحلقة لحين إيجادها أو التعاقد مع بديل.

في نفس اللحظة، وفي الحمام الخاص بالدور الثاني الواقع به الاستوديو، وقف شاب يصفف شعره الأسود الطويل أمام مرآة الحمام، يرتدي قميصًا أبيض اللون وبنطالًا أسود قاتم ضيق، أمسك بفرشاة تشبه تلك التي تستخدمها السيدات في عملية التبرج ومسح بها حول عينه ووجهه كأنه يرسم شيئًا ما، لم يكن سوى حاتم الأسود يطمس وشمه بمسحوق له نفس لون الجلد.

ما أن انتهى إلا وسمع شيئًا ما من خلال السماعة الدقيقة المثبتة في أذنه اليسرى، ابتسم قليلًا ثم خرج من الحمام، وقف أمام الزجاج الغامق الفاصل بين الطرقة والاستوديو، يشاهدهم يهلعون ويتحركون في كل

الاتجاهات كالحمقى، يتحاورون ويثورون بدون صوت، كأنه فيلم أمريكي صامت قديم.

- 10 دقايق على الهوا!

قالها شاب يرتدي سماعة متصلة بمايكروفون وبيده بضعة أوراق متوترًا.

نظر المخرج لسقف الاستوديو مصدومًا ثم مسح بكفه على وجهه، أخذ يسب ويلعن سامي مجددًا ثم نظر للشاب صاحب التصريح الأخير قائلًا :

- هشام!. إتصلي بمدحت بيه، قوله محتاجين نأخر البرنامج ساعة كمان، قوله عملت حادثة وبعتنا حد يجيبها، قوله أي حاجة، المهم الهوا يتأجل.

- مافيش هوا هيتأجل.

قالتها متألقة بصورة غير طبيعية، في طريقها للكرسي الفارغ أمام الكاميرات، تركض بجانبها «ماكييره» تحاول بشتى الطرق الوصول لوجهها بفرشاة قاتمة لتكمل عملها، جذبت الورق من يد هشام في طريقها مبتسمة، ثم علقت على قصة شعره الجديدة وسط ذهول كل من في المكان، واصل المخرج فتحه لفيه في حركة لا إرادية، ثم لاحظ أنه الوحيد الذي أخذه الذهول لذلك الحد فبلع ريقه وخفتت ضربات قلبه المتسارعة، وتقدم ناحيتها يشاهدها جالسة كملكة فوق عرشها ومن حولها تجمع المساعدين.

- يارا!.أنا..أنت.. حمد الله على السلامه..حاولنا نتصل.

قالها بذهول شديد.

- معلش.. تليفوني ضاع مني ماعرفتش أستقبل مكالمات.

- يارا!. لو ماكنتيش جيتي كنا هنروح في 60 داهية.. الشغل..

- أنا موجودة.. ده المهم، بمناسبة الشغل، محتاجة شوية تعديل في فريق الإعداد.

- ما.. فيش مشكلة يعني، بعد الحلقة نتكلم زي ماحنا..

- لا.. دلوقتي..، دلوقتي نتكلم.

قالتها مناولة إياه ورقة، أمسك بها وقرأها سريعًا بعدما رمقها بنظرة بها كثير من الدهشة، عقد حاجبيه بشدة ثم نظر إلى راندا التي وقفت بعيدًا تحرك قدمها بعصبية وتنظر بتحد.

بعدها بدقيقة.. كان هو خلف الكواليس.. واقفًا يشاهدهم جميعًا فاردًا يديه أمام خصره لكن قبضتيه كانتا ململمتين، اقترب قليلًا من الزجاج الغامق ليشاهدها عن قرب، كانت تجلس أمام عينه مباشرة على بعد أحد عشر مترًا فقط، تجلس على ذلك الكرسي الفاخرة بثقة وزهو، واضعة قدمها اليمنى فوق اليسرى، وأمامها سمير الشوربجي يقفز مثل الضفدع في أوج غضبه.

اقترب أكثر حتى اقتربت شفاهه من تقبيل الزجاج، وأخرج نفسًا ساخنًا من فمه الضيق، ثم رسم بسبابته شيئًا، ثم ابتسم..، نظر في ساعته

ثم فرد ذراعيه كعادته رافعًا وجهه للسماء في تعبير عن السعادة اعتاد عليه، وهم بالرحيل تاركًا يارا قاسم جالسة في زهو، وفوق رأسها تاج مرسوم بحرفية شديدة، أخذ يخفت لونه.. حتى انتهى.

- العقد ده بجد؟

قالها سمير الشوربجي مندهشًا.

- 5 دقايق هوا.

صاح صوت عال.

- معاك قلم تمضي؟

- يارا!.. انت بتحطيني في موقف صعب..!This is Deep shit

- كل الاختيارات قدامك.

- و لو صممت نأجل الكلام ده؟

- يبقى هي تيجي تقعد مكاني.

قالتها بابتسامة واثقة ثم نظرت ناحية الكاميرا.

- 3 دقايق.. جاهزة يا آنسة يارا؟

حركت رأسها إيجابًا، ليصيح سمير في كل من حوله.

- كله يمشي!

- يارا بليز..!. لازم نتكلم قبل قرار زي ده..- دي-.. دي صاحبتك قبل مانا حتى أعرفها..إزاي؟!

- بص كويس لعيني وأنا بتكلم يا سمير!، وبعدين اسأل نفسك، ده شكل واحدة تبيع صاحبتها ببلاش؟! وبعدين بصلي واسأل نفسك تاني.. ده شكل واحدة جاية تتفاوض..؟!

- مش مصدق اللي بيحصلي النهارده بجد..أنا اصطبحت بوش مين النهارده!

حرك رأسه مستنكرًا لتضيف يارا بحدة وثقة:

- إمضي! أو وسع من قدامي.

نظر إليها متعجبًا من جرأتها وإصرارها، ثم أخرج قلمًا من جيب بنطاله وانتظر لثانية..ثم وقع.

- دقيقتين.

- أنا مش مصدق إنك عملتي كده.

قالها معيدًا القلم لجيبه مرة أخرى.

- في حاجات كتير مش هتصدقها الفترة الجاية.

قالتها مبتسمة للكاميرا حتى لا تلفت النظر لها من قبل الحضور.

التفت سمير ليجد راندا تنظر إليه بكثير من الغضب المكتوم، تحرك قدمها بنفس العصبية، عجز عن النطق لثانية، حاول التقدم ناحيتها لكنها ألقت زجاجة مياه كانت في يدها على الأرض بعنف وهمت بالرحيل بسرعة وثورة، بعدما علمت كل شيء بدون شرح.

- Two ..Three..

صاح بها رجل ثم أشار بأصبعه ليارا التي قالت بثقة.

- أهلًا بكم.

هرولت راندا بسرعة الضوء، لم يستطع أحد اللحاق بها، اتجهت ناحية السلم ولم تنتظر المصعد، نزلت تسب وتلعن كل الملل الممكنة، لاحظته واقفًا أمام المبنى الواقع به الاستوديو.. لفت نظرها شعره الأسود الطويل وتصفيفة شعره المميزة، تناست غضبها وقالت:

- يا الله!

تمتمت بها لنفسها بصوت يمكن سماعه، كان مستقرًّا خارج المبنى جامدًا في مكانه كالتمثال كأنه ينتظر شخصًا ما، اقتربت منه محاولة رؤية وجهه.

- دخيلك، معاك كبريت أو ولاعة، هطق.

أخرجت سيجارة من علبة السجائر وأخفت الولاعة داخل شنطة يدها.

نظر لها من دون أن ينطق كلمة واحدة، ثم نظر أمامه مجددًا في نفي مباشر.

- يلا هي جت عليك يا زلمة!

قالتها بخيبة أمل لكنه ظل جامدًا في مكانه، لم ينظر ناحيتها مجددًا، انتظرت لنصف دقيقة كاملة انتصرت فيها الرغبة على الكرامة حينما قالت:

- ماكنتش أتصور زلمة شيك وستايل متلك يسيب ماجموزيل متعصبة واقفة كده لوحدها في الشارع ومايردش حتى عليها؟!

نظر لها مجددًا لكن بدون أن يبتسم، كأنه تذكر شيئًا ما، ثم نظر لساعته مجددًا، في نفس الوقت الذي كادت تدخل فيه راندا في غيبوبة أو سكته قلبية من كثرة رغبتها في الذهاب معه لأي مكان.

- يا أخينا!..إيش لونك؟

توقفت سيارة هيونداي كبيرة الحجم حمراء اللون، وبداخلها فتاة يتدلى شعرها الأحمر الطويل على كتفها الرقيق، نظرت له بمزيج من الثقة والإعجاب، فتاة يعرفها جيدًا، لكنه عاد بنظره للعوب الغاضبة، تسللت أصابعه إلى باطن كفها اليسرى ليمسك بيدها ويقربها من شفتيه، قبّل باطن يدها الناعمة ثم قال بصوت هادئ للغاية:

- أسود.

ترك يدها وهم بالرحيل للسيارة، ومازالت الفتاة بداخلها تنظر لها بكثير من الغموض.

تجمدت راندا في مكانها، غير مصدقة لما حدث، شعرت كأن روحها كادت تخرج من جسدها لثانية، شعرت أن شيئًا بداخل كف يدها، نظرت لتجد مشط كبريت فضي اللون، لم تستهلك أيًا من أعواده، نظرت مرة أخرى للسيارة، لتجدها قد رحلت.

كانت الخامسة إلا قليلًا، تراخت أعين الشمس قبل سبات عميق، وقف حينما وقف يوسف محدقًا بحائط بطولاته المخضب بجميع

المقالات والصور التي لها علاقة بحادثة المرج ومن تبعها، تعلو أصوات الأفكار المتشابكة داخل عقلة كأنها تتعارك، وترتسم الخطوط الوهمية والدوائر التخيلية أمام عينه، دائرة على كلمة في مقالة وسهم يخرج من خنجر حجري مميز بداخل صورة باهتة تصف التضحية في حضارة المايا، دقيقتين لم يتحرك فيهما كأنه شل تمامًا أمام ذلك الجدار المشئوم.. تعالت أصوات الأفكار وكلمات مؤمن وجاكلين في ذاكرته على النحو الذي أرغمه على أن يغمض عينيه تدريجيًا، كان يريد أن يستخلص صوتًا واحدًا أو فكرة واحدة، أشار بعدها بكف يده ناحية الحائط ليصمت.. كأنه كان يسمعه..

فتحت عيناه بغتة، تفحص كف يده المرتعشة ثم اتجه مسرعًا لزجاج النافذة بعد أن تذكر شيئًا ما أراد أن يخطه.. قاطع رسوماته التي خطها على زجاج الشباك بقلم «ماركر» عندما سمع صوتًا ما أتي من الخارج.. صائحًا:

- مين؟!

ترك رسوماته التي تعبر عن أشكال البلاطات الملونة في كل حادثة قتل شهدها وصمت مستمعًا لصوت الأمواج المتناحرة ودقات الساعة، لكنه أقسم أنه سمع صوتًا ما.. ألقى القلم وخرج باحثًا عن مصدر الصوت، خرج من الباب بحذر ونظر يمينًا ويسارًا، ليجده واقفًا عند ذلك اللسان القريب من الشاطئ، يرتكز على عكازه الداكن بجانب صخرة متوسطة الحجم مربعة الشكل يخرج منها جزء معدني يبدو أنه صمم لتحمل منه،

يطير زيل معطفه الصوفي مع الهواء البارد، ينظر إلى الأمواج الزرقاء القاتمة كأنه يرسمها في ذاكرته بعناية؛ يودع محبوبته الذي سيواريها الدهر بعد الرحيل، وقف بجانبه يوسف بعدما خطي بهدوء على اللسان الخشبي، كأنه كان يعلم بقدومه.

- كنت فاكرك سافرت.

هز عبد الرؤوف رأسه قليلًا متفهمًا من دون أن يلتفت، ثم قال بهدوء:

- أنا بحب الإسكندرية أوي يا يوسف.

اتجه بنظره لأول مرة ليوسف وأضاف:

- مالك؟

- قتل معاذ..

- عرفت الأخبار.. البقية في حياتك..

- ده مش كل حاجة، 2 كمان ماتوا بسببي، من الشرطة.

- حاسس بندم؟

قالها عبد الرؤوف ليمسك يوسف بحجر ويلقيه في البحر مضيفًا:

- هي دي اللحظة اللي كنت بتكلم عنها.. مكسب وخسارة.. وما بينهم أنا.. حاسس بالموت.

- يبقى اخترت تخسر.

أنا ما اخترتش أي حاجة..

- صح! بس افتكر دايمًا إن الحرب بين الحق والباطل - للأسف - مابقتش اختيارية.. السؤال هو: مين هو الحق.. ومين هو الباطل؟

-الخير هو الحق.. والشر هو الباطل.

- زمان قريت قصة عن راجل فضل يحارب قوي الظلام طول عمره، لحد ما اكتشف إنه أعمى، والحقيقة إن الضلمة اللي كان بيحاربها، كانت حياته، كان عايش جواها.

- إزاي ماخدش باله؟!

-لأنه افتكر نفسه صح، لأنه في وسط المعركة الواحد صعب يلاقي وقت يتأكد من مكانه..

زمان قولتلك بس ما فهمتنيش.. الضلمة مش جبهة معادية، ساعات ناس كتير بتموت عشان قضية مالهاش وجود.. ساعات الحق والباطل مابيفصلش بينهم خط واضح.. ووقتها.. كل الألوان بتتشابه.. فكر!. لسه قدامك وقت عشان توصل.. عشان تحل الأزمة.

- الحل صعب.. الطريق اللي مشيته كان غلط من الأول.. حتى الاستنتاجات اللي كنت متأكد منها كانت سراب مش أكتر.

- الطريق اللي مافيهوش سراب مش حقيقي.. كمل!. مافيش شيء صعب.

- لأ في! الصعب إني أستنى دوري!!. أنا مش هستنى لما يعمل في زي ما عمل فيهم.

- يبقى أوصل للحل..!

- هحلها بطريقتي..

قالها متفقدًا الحجر بعينيه ليتفحصه عبد الرؤوف مثله ثم حول نظرة ليوسف مرة أخرى قائلًا.

- إيه؟ خلاص هتخيب ظني؟!

- انتظار الموت أصعب من الموت نفسه، لو أنا مش موجود، الكابوس هيخلص، كل واحد بعد كده هيصحى ويكمل حياته، ماحدش هيفتكرني.

ثم صمت لثانية مضيفًا:

- وماحدش هيموت بسببي.

- وانت خدت ضمانات من الشيطان إمتى؟! مش يمكن تموت ويكمل؟! مش يمكن وجودك يمنع كابوس أكبر.

- كابوس أكبر؟! فكر لثانية واحدة!.أنا كل يوم زيادة بدفن فيه حد يعرفني، مستحيل أستنى أكتر من كده، مش هلعب قمار على حياتك أو - أو- على حياة مؤمن.. لو أنا مت اللعبة هتنتهي.. فاهمني!. تنتهي.

- يا خسارة.

قالها ثم واصل طريقه لخارج اللسان معتكزًا على عصاه، تاركًا ما تبقى من يوسف خلفه في ذلك المكان الخالي من الحياة.

أخرج يوسف مفكرته وخط بها:

لم أعد أحتمل رؤية نفسي في هذا الحلم المميت الذي علقت به، لم أعد أحتمل أن أخسر شيئًا جديدًا، لقد أصبحت لعنة على كل شيء يعرفني، يتحول كل ما ألمسه لرماد هش.

أما هو.. فقد أصاب حينما قال إن الأمر كله كان اختيارًا بحتًا، مجازفة سيئة - رسمها قلمي - ألقت بحياتي الباردة في قلب الجحيم.. نحن نبحث عن الجنة في الأرض.. وفي الجنة سنبحث عن الأرض.

و الآن، سأحيا فقط لأرى ذلك اليوم مرارًا وتكرارًا، اليوم الذي أقاتل فيه مع الوقت جنبًا لجنب، ثم أتقاتل معه، اليوم الذي أصبح فيه أعمق مخاوفي أن أنسى ما حدث لمن أحببت، أو ألَّا أتذكرهم،، أو أن يمر اليوم.

بعدها بخمسة أيام

- وبعدين لقيتلك 4 نسوان بجلاليب سودة طالعين من الجيب وابن الجذمة فضل قدام ماتحركش، روحت أشوفه لقيته وشه محمر ومزنهر آخر الشارع.. هاء هاء هاء.. قولتله بتعمل إيه هنا ياد يابن المره؟ بقولك إيه! ماعرفش ينطق.. كانت تلك إحدى قصص أحمد نوح الخيالية عن مغامرة مثيرة من مذكراته كشرطي لا يقابل في طريقه سوى الشواذ والعاهرات وأصحاب الجنس الثالث، نظر إليه مؤمن مندهشًا، لا من تلك القصص التي تشبه كتب الجنس التي انتشرت في ثمانينيات القرن السابق، ولكن من قدرته على الضحك والكلام بعد ما مروا به جميعًا

منذ أقل من 24 ساعة في تجربة ميدان لبنان الدموية، أطفأ محرك سيارته عندما وصل للعنوان المنشود في منتصف حي السيدة زينب، ثم سأله بصوت فاتر:

- وصلت لحاجة في موضوع الأرقام؟

تغيرت ضحكة نوح المستفزة، وتحول وجهه دراماتيكيًّا لوجه صارم، نظر أمامه مستطردًا:

- وديتها المركز، في الأول افتكروها كود لجملة أو رسالة، وبعدين تاريخ.. شوية بهايم مابيفهموش حاجة، عمومًا اللي يريده ربنا هيكون يا عم.. ماتحرقش دمك!

- قدامك 48 ساعة يا سكانيا، يا تقولي الأرقام دي بتحكي في إيه، يا هتكلم مع عبد الجليل وهخليه يجيب حد يقولي، وماتحرقش دمك!

تفحص الدور الثاني من بيت قديم زين الدور الأول منه بالطوب الأحمر فقط بدون أي طلاء، علقت قرب بابه لافتة صغيرة كتب عليها منزل قدري العطار.

شد أجزاء سلاحه ودسه في ظهر بنطاله وتأكد من أن الجاكيت لا يظهره، وهم بالنزول من السيارة، ليتمتم نوح بغضب:

- يا دين أمي على الكلام عالمسا.

نزل بدوره من السيارة بوجه عابس، تجاهله مؤمن ثم تحدث من دون أن تنزل مقلتيه من على الدور الثاني من تلك البناية المشبوهة قائلًا:

- مش عايز قرارات فردية، مهما يحصل ماتتعاملش مع حد فوق.. إلا لو أنا أتعاملت الأول.. أمين؟!

- تمام يا باشا أوامرك..

قالها نوح بلهجة رسمية مشيحًا بوجهه بعيدًا في غضب ليرد عليه مؤمن بلهجة أكثر سلاسة.

- سكانيا، نركن مشاكلنا على جنب دلوقتي ونخلص المصلحة دي صح، إحنا معناش أمر تفتيش ولا دياولو، لو قدورة شك لحظة ورجالته سخنت هنتخرتأ..

- تمام يا باشا بس...

- مابسش، نخلص المصلحة دي وبعدين نعض في بعض براحتنا.

قالها ثم استطرد:

لو اللي في بالي تم، هنطلع من هنا ملوك.

- و لو ماتمش؟

قالها نوح باستهتار.

- يبقى مافيش حاجة خسارة في دم معاذ.

وصلا للباب الخشبي القديم، أحاطتهم رائحة نتنة للغاية بدت كعلامة مميزة للحي كله، ضغط مؤمن على جهاز «إنتركم» رسمت

بجانبه – بطريقة سيئة – علامة تشبه جمجمة صغيرة ترتدي نظارة قاتمة وعظمتين تعامدا أمامها، كان الجهاز مختفيًا بجانب الباب غير المتناسق مع الجو العام للمنطقة الشعبية، انتظرا قليلًا ثم جاءه الرد من صوت شاب به كثير من الحيوية والترقب يسأله عن كينونته، اقتربت شفتا مؤمن من جهاز الإنتركم كأنه سيقبله ثم تمتم بكلمة واحدة، انفتح بعدها قفل الباب أوتوماتيكيًا في مشهد يشبه علي بابا والمغارة، نظر مليًّا لنوح كأنه يريد أن يقول له شيئًا ثم صعدا.

لم يكن وصف «مغارة علي بابا» بشيء بعيد عما رآه الغاضبان، فقد كان السلم أشبه كثيرًا بسلم قصر لا منزل متواضع، مظلم للغاية لكنه صمم بعناية وبذخ، تعالت أصوات الموسيقى الشعبية واختلط الهواء برائحة الدخان والجنس، توقف الاثنان عند جلباب «بلدي» أنثوي فاتن، ومسدس أمسكت به الفاتنة ذات مساحيق التجميل المبالغ فيها وعلكة تلوكها بروتينية شديده، تفقدت الاثنين بفتور، ثم رمقت مؤمن بنظرة معناها «مش بطال»، وفتحت الباب من ورائها ليخرج ضوء شديد كاد يصيب الاثنين بالعمى.

في الداخل كان عالم آخر بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ، رائحة الحشيش والخمر المعتق تعانق عبق العاهرات وضحكات السكارى، حاو مغربي يفترش الأرض يلهو بثعبان كوبرا أمام أساطرة المخدرات في مصر القديمة، يتكئ كل منهم على فتاة أو اثنتين، يمر بجانبهم مؤمن وصديقه ليشعر الجميع بهما، كأن لهم رائحة مختلفة جذبت أنوفهم كما

يجذب الدم القروش البيضاء، هي رائحة المباحث، أكثر منها رائحة الاختلاف.

في طريقهم لهدفهم المنشود تعالت ضحكات غير بريئة لكنهما مرا كأنهما لم يسمعا شيئًا، كان الجميع منزوع السلاح إلا الأطفال فقط، يحتفظ كل منهم بمسدس أو اثنين، ومنهم من يحتفظ بما هو أكثر من ذلك، كانت أعينهم أقدم عمرًا من جثة فرعون، وأكثر عمقًا من البحر الذي ابتلعه، الجميع يرمقهم بترقب لم يغيره نظرة مؤمن المتزنة، في الطريق تفحصتهما مقلتا شاب أسمر مفتول العضلات يقوم بتقسيم كميات من البودرة على ميزان صغير بالتساوي، كانت أمامه منضدة جلست بجانبها طفلة صغيرة تناوله بضعة أكياس، وتناولهما نفس النظرة التي أعطاها كل من مروا به منذ دخولهما، نظرة تقول: «غير مرحب بكما».

قبيل النهاية ببضعة أمتار، شاهدا مراهقة نصف مكتملة الأنوثة تطوف وبيدها الخمر لتملأ كؤوسهم سحرًا، لقد كان عالمًا يحكمه كل من ابتعد عن القبر.

استقرا أخيرًا أمام منضدة جلس عليها أربعة لاعبين، تشابهت خصائلهم غير المريحة للعين إلا واحدًا، بدا مختلفًا عنهم جميعًا، حتى الكرسي الذي يجلس عليه كان أشبه بكرسي العرش، يرتدي نظارة شمس قاتمة اللون لا يعكس زجاجها أي صورة، على يساره مالت الحسناء التي قابلاها واضعة رسغها على كتفه النحيلة، كان غليظ الوجه مع أنه هزيل الجسد، حليق الرأس وأسمر اللون، تمسك أنامله المغلفة بعقيق الخواتم

بيضع ورقات كوتشينة لامعة، بدا أن الحسناء قررت أن تشاركه رؤية الورق كأنها تلعب معه ضد الثلاثة، امتلأت المنضدة بالنقود بأشكالها وألوانها، همست الحسناء بشيء في أذنه، وضع الكروت أمامه ثم قالها بصوت مبحوح:

– انبسطوا شوية يا معلمين!.فاصل ونرجع.

قالها لأصحابه الذين رمقوا الثنائي بنظرة غير مريحة بعدما هدم لذتهم في منتصفها، تحرك الجميع بعيدًا ليخلو المكان من الجميع إلا كبيرهم وفتاته التي اعتدلت ليقول ذو النظارة القاتمة:

– البحيري باشا بنفسه؟!

– إيه يا قدورة الحلاوة دي؟ ولا ألف ليلة..

– هذا من فضل ربي..

– الإزاز ده عازل يا قدورة؟!

قالها متفحصًا زجاجًا قاتمًا مبطنًا للشقة الكبيرة التي احتلت الدور الثاني كاملًا، دار قدورة بوجهه ناحية نوح متفحصًا إياه بصمت، ثم توجه مرة أخرى لمؤمن قائلًا :

– مين الكوكو؟!

ليستطرد مؤمن محاولًا إنقاذ الموقف قبل اشتعاله:

– الباشا اسمه نوح.

– أنا مش هرد احترامًا بس لبحيري باشا لكن...

- مالكنش! أقعد عشان نعرف نتكلم يا نوح باشا، ماتزعلش! استريحوا يا بهوات!

قاطعه قدورة مبتسمًا، وامتص غضبه الذي قارب الانفجار بحنكة لتتدخل الفاتنة قبل أن يجلس الاثنان أمامه.

- الميري يا بشوات!

قالتها قاصدة أسلحة الاثنين، رمقها مؤمن بنظرة حادة ثم استطرد موجها حديثة لـ«قدورة»:

- ينفع الكلام ده يا قدورة؟!

كانت بلهجة تحذيرية أكثر من أنها تساؤل، ليشير الأخير بيده لفتاته بحركة بسيطة جعلتها تغير من وضعها الهجومي لآخر أكثر تساهلًا، تفحصها نوح بشغف مبتسمًا لترمقه بنظرة بها كثير من الغثيان وتسأله:

- بتبص على إيه يا كوكو؟!

رد عليها نوح بكثير من الغضب كأنه وجد شخصًا يمكنه النباح في وجهه أخيرًا بدون خسائر:

- أبص براحتي، ولو ماتلمتيش، هقطعك شرايح زي الطمطماية وأمضغك وبعدين أتفك.

لم يعلما من أين خرج ذلك المسدس بسرعة الضوء، لم يكن واضحًا خروجه من فتحة جلبابها أو أسفل المنضدة، لكنه خرج متجهًا بقوة صوب رأس نوح الضخمة، منتظرًا ضغطة بسيطة من سبابتها على الزناد ليفجره

أشلاء، أخرج مؤمن سلاحه في حركة غريزية موجهًا فوهته تجاهها لتنشق الأرض عن طفلتين أخرتين بمسدساتهما الصغيرة، توأمتان ذواتا عينين خضراوتين لامعتين حليقتي الرأس، جذبتا أجزاء أسلحتهم تجاه مؤمن وصديقه لتستطرد الفاتنة الغاضبة:

- وهتمضغني إزاي يا كوكو من غير رأس؟!

تحفز مؤمن ملوحًا بسلاحه الذي شتت فوهته طفلتا «الفاليكير» المتهيئتين للفتك بهما، في حين صمت نوح كالسمكة، منتظرًا رصاصة الرحمة من ملاك الموت.

تجمدت الثواني وحدق الجميع في الضحيتين المحتملتين بينما لم تتجمد الموسيقى الهابطة.

- الكلام معايا أنا يا ست البنات.

قالها مؤمن لتوجه الفاتنة سلاحها صوبه، ثم أضاف موجهًا حديثه لقدورة:

- الناس اللي تحت لو زعلوا هتقلب بغم.. وإحنا مش عايزين حد يزعل..إحنا هنحكي في مصلحة وهنمشي علطول.

- مصلحتك حاجة يا باشا والكوكو حاجة تانية، ده خلاص كده، إنساه!. راح فدا الوطن.

قالتها الساحرة موجهة سلاحها مجددًا لنوح الذي وضع يده ببطء على سلاحه محاولًا إخراجه لترد إحدى التوأمتين:

- نصيحة.. ماتحاولش.

رفع نوح يده عاليًا في وضع استسلامي، بينما واصل مؤمن تشتته بين صغيرات الفالكير- النسخة الشعبية - أضاف قدورة بهدوء وثقة:

- صاحبك داس على الخط يا باشا.

- وأنا اللي كنت جاي عشان أفيدك يا قدورة!! هو ده الواجب اللي خدته؟.. ينفع؟!

قالها مؤمن مشتتًا بسلاحه بين الغاضبات.

- إطلع انت منها يا باشا ماحدش هيمسّك، بس سيبلنا الكوكو.

حاول مؤمن مرة أخرى مع الفاتنة المهانة محاولًا إنهاء الأزمة:

- أنا أعرف إن الضيف مهما كان ليه واجب.

- أمين! بس إحنا لينا حق يا باشا، ومنطقتنا هنا بره دايرتك.

ردت الفاتنة.

- صح، انتي صح يا ست البنات.

رد مؤمن وتجمد لثوان بدا كأنه اتخذ خلالها قرارًا ما، ثم وضع سلاحه على المنضدة مستطردًا:

- والحق عندي.

وجهت مسدسها ناحيته ورمقته بنظرة اندهاش يمزجها الإعجاب، ثم نظرت لـ«قدورة» الذي لم يندهش من جرأته مضيفًا:

- البحيري باشا اعتذر بنفسه يا شهد، واترفع عليه سلاح في بيتي.. أكتر من كده مايصحش.

صمتت لثانيتين، ثم هبطت ذراعها بجانبها رافعة حاجبها الأيسر لتتغير معالم الهجوم في وجهها وتعود عضلات وجهها للحياة، لم تخفي من عينيها تلك النظرة الشهوانية التي اخترقت جسد مؤمن ببطء شديد، دبت الحياة مرة أخرى للجنة السوداء، وانفض المولد وجلس مؤمن بجانب نوح المذهول، رمقه بنظرة كفيلة لتصيب بنطاله ببلل، ثم توجه بعينيه لـ«قدورة» الذي أردف:

- مصلحة إيه يا باشا اللي تعبت نفسك وجيت عشانها؟

- حلمت حلم غريب يا قدورة وماحدش هيفسره غيرك.

- حلم؟!.. وماله!.. خير يا باشا.

- خير يا قدورة، في الحلم كنت ماشي في أمان الله بحفر في الأرض بدور على حاجة ضايعة مني، وقابلت خفاش جاي من بعيد، وقام عاضضني في صباعي، وانت عارف، صباعي غالي عليه جدًّا.

- كمل!

- وبعدين ببص على يميني لقيت نهر أبيض زي اللبن..و انت بتحارب عشان تعوم وماتغرقش..بس.. فمديت إيدي عشان ألحقك..و بعد مالحقتك بصيت انت في كف إيدك لقيت الدم.. قومت قايلي.. ماتزعلش يا باشا.. أنا هجيبلك الخفاش.

- طاب يا باشا.. ماجربتش تتصل بخط تفسير الكوابيس.. 19840.

- طاب ماتيجي معايا نتصل بيه مع بعض من المباحث؟

- وهتاخدني إزاي يا باشا؟!

- عيب يا ملك الأبيض،، تفتكر تفوتني؟

قالها ووضع ورقة مطوية في حجم الكارت تقريبًا على الطاولة، رمقها قدورة بتمعن، ثم حرك رأسه موافقًا بعد لحظات من التفكير، أضاف:

- ماشي، تفسير الحلم عندي.. بس اللي أوله شرط آخره أمين،، أنا هشوف الورقة دي.. لو أمر نيابة والنية صافية وجاي تعمل مع قدورة واجب وتحذره، نبقى حبايب، وهخلصلك المصلحة وقتي، طلعت فاضية لا سمح الله، يبقى ليا عندك حق، وحق كبير قوي.. وهيخلص بردو وقتي.

همت يده بالوصول للورقة، لامست أنامله نصف الورقة ليضع مؤمن أنامله بدوره على النصف الآخر مانعًا إياها من الوقوع في يده، عادت الحسناء مرة أخرى بكوب واحد من الشراب لتضعه أمام مؤمن، متجاهلة نوح الذي أخذ مقعد المشاهد مما يحدث.

- إيه يا «دارة»؟!، هو انا ماليش نفس ولا إيه!. طالما مافيش أمان يبقى نلعب بقى على الورقة.

أخرج جهازه اللاسلكي ووضعه بجانب سلاحه والورقة مستطردًا:

- لو الورقة فيها أمر تفتيش، هعمل زي ما الكتاب بيقول، ونبعت بقى نجيب بقية الدبابير ونقلبها باللو، مافيهاش، يبقى ليك عندي حق، كلامك ؟!

صمت قدورة لثانيتين بينما لا تزال أنامله معلقة بين قبول الرهان أو الرفض، تعالت ضربات قلب مؤمن الذي يعلم جيدًا أن ذلك الهادئ قد يتحول لسفاح عديم القلب في ثانية بمجرد فتحه للورقة، يعلم جيدًا أن مراهقات الفاليكير سوف يلتهمونهما بدون رحمة في تلك المدينة التي جرد فيها الرجال من أسلحتهم، يعلم أن أصدقاء «قدورة» من أصحاب الباع الكبير في تجارة الصنف يحملون أطنانًا من السلاح تم تحريزها بمجرد دخولهم منطقة نفوذ قدورة، لكنهم قد يستعيدونها في ثانية بصوت صغير قد يصدر من احتكاك إصبعي الوسطى والإبهام الخاصين به، فقدورة ليس بمجرد تاجر المخدرات عديم الرحمة، بل هو أكثر من ذلك.. في عرف السوق هو العراب.. الأب الروحي.. القائد وكاتب كل دساتير مواطني الجريمة.. هو من يحدد من يقتل ومن يدفع الثمن ومن يغفر له.. هو الذي يضع القوانين والتي تسري على الشرطة قبل رواد نادي الإجرام.. كان بالنسبة لهم مثل جيفارا للثوار.. وإلفيس للمطربين.

كان آخر شيء يريد مؤمن تخيله ما سيحدث له ورفيقه عندما يكتشف قدورة أن أحدًا قد استغفله وقطع عليه لذته ملوحًا بورقة ملخص محتواها:

- عرض ADSL..بالإضافة لراوتر مجاني.

تعالت ضربات قلبه مجددًا في حين تفحصهما نوح بترقب، مرت ثانيتان أخريان حافظ فيهما مؤمن على ابتسامته الواثقة، تغيرت ملامح

الفاتنة وقبضت بهدوء على سلاحها مجددًا في انتظار إشارة جديدة، شعر مؤمن بتأهب الكثير من ورائه لالتهامه، حافظ على هدوئه وثقته، نظر قدورة إلى الفاتنة ثم مرة أخرى إلى مؤمن، ثم تحررت الورقة المطوية من أنامله الغامقة الدقيقة، وعاد بظهره للوراء مجددًا وأخرج سيجارة ملفوفة من علبة صغيرة بنية اللون بجانبه ووضعها في فمه لتشعلها له الفاتنة بسرعة، التهم نفسًا عميقًا اختلط مع الشك في خملات صدره، ثم أطلقه مضيفًا:

- ما عاش ولا كان اللي يشك في الباشا.

قابلها مؤمن بابتسامة ثقة تاركًا الورقة ملقاة على الطاولة، تصرخ طلبًا أن يفتحها أحد ما ليرى الخديعة، لكن أحدًا لم يجرؤ، عاد مؤمن بدوره للوراء ثم ألقى سيجارة في فمه، هم بإشعالها ليجد عبقًا قويًّا من الياسمين يخترق حيزه، كان يخص الفاتنة التي مالت لتشعل السيجارة بنفسها.. تشعلها للرجل الذي يملك من الجرأة أكثر مما يملك فريد شوقي في أفلام الأبيض وأسود، رجل تسري ثقته بنفسه بين شرايينه كالدماء حرك رأسه مبتسمًا في مجاملة للفاتنة التي صرحت له مباشرة برغبتها، ثم توجه بحديثه لقدورة مجددًا:

- غني يا منير!

ابتسم قدورة وأخرج نفسًا عميقًا آخر ثم قال بعدما رجع برأسه للوراء كأنه يتذكر موقفًا من ذكريات الطفولة مستطردًا:

- الخفاش اللي انت عايزه مش تبعنا، لما عرفنا اللي حصل للبيه الكبير، وبعدها صاحبك أبو دبورة صفرا - الله يرحمه بقى- استغربنا من الطريقة، إطقسنا عشان نعرف مين اللي عملها، في الأول وصلنا لحارة سد، بيني وبين نفسي قولت.. مين اللي شايل من الباشا قوي كده؟ اللي جابلي أرتيكاريا الطريقة.. التيبة نفسها مش بتاعتنا، ولا حتى بتاعة حد نعرفه، لأن حتى لو حد شايل من البحيري باشا الصغير لازم يعدي عليا الأول عشان ياخد الكارتة، وأنا مايرضنيش إن حاجة تحصل من ورايا.. انت عارف.. ماعنديش هزار في الطرطشة.

حينها أضاف مؤمن:

- الطرطشة وصلت لأبويه وصاحبي.

- وده أول خط عداه اللي وصل للبيه الكبير، لأن مافيش طرطشة على الأهل، القانون بيقول.. اللي يخش البرتيتة يخرج بطوله، يا إما مايخرجش.. أي حد عندنا بيعور أم أو أخت أو أخ أو حتى كلبة حد في البرتيتة.. بيدفع الغرامة.

- تعرفه ولا ماتعرفوش يا قدورة؟!

- عيب يا باشا،.. انت عارف قدورة، لو قدورة مايعرفش يبقى مين اللي يعرف؟!

قالها ثم أطلق سحابة أخرى من الحشيش وأكمل حديثه:

- الراجل بتاعنا في النيابة جاب الصور وعرفنا انه حد من بره الدايرة، واد بيلعب مع نفسه، عامل نفسه معلم على شوية عيال معاتيه.

- تسمع عن الاسود؟

قالها مؤمن بحزم.

- تسمع عن الأشكيف؟

- للدرجادي مشهور؟

-مش قصة مشهور، قصة أصلي ولا من وحي الخيال..إحنا كنا زيك يا باشا.. كان كل اللي عندنا إسم، دا حنا حتى كنا فاكرينه مش موجود أصلًا، سمعنا عنه قصص وحكاوي زي حكايات أمنا الغولة وأكتر، افتكرنا التجار الصغيرين عاملينه خيال مآتة عشان يخوفوا بعض..بس طلع حقيقي.. وإديه متعاصة ومش فارق معاه أي حاجه.. ده غير إن ناس كتير بتحلف انه مخاوي.

- أصطاده منين؟

- حلو السؤال، شوف يا باشا! من بيجي 3 شهور الواد حسن برغوت كان مدنجل في أرافة من بتاعة الأكابر، شاف «هربانة» ورجالته ماشيين في عز الليل، عرفهم من لبسهم، ماحدش في الكار بيغلط فيه،، أهو.. ياما قولتله غير أم لبس الأبيض وأسود ده.. المهم...

- وده إيه علاقته؟

- سألتني، أجاوبك أنا بقى، برغوت حكالي قصة صعب تتصدق، بس حاول تشتري من قدورة يا باشا.. أبيض؟

- كمل!

- الليلة كانت زي أفلام السيما، ولولا إن برغوت حلف 100 يمين كنت دبحت أمه - بس الواد - شهادة لله عنيه فعلًا كانت بتشر رعب.. ودي أول مرة أشوفه كده.

- شاف إيه؟!

- شاف سواد يا باشا.. شاف «هربانة» بيدبح هو رجالته زي الفراخ.. شاف الخفاش وهو بيمصمص في دمه.. شافه وهو بيطلع من الهوا زي العفاريت، بس الغريبة.. إنه ماكانش لوحده.

- تقصد إيه؟

- برغوت بيقول إن كان فيه راجل مستخفي ورا شجرة بعيدة عن الشكلة، أول ما الرز استوى وخلاص رجالة «هربانة» هتعض في كلاب الأسود، فرد نبلة من بتاعة الأولمبيكيات، وضرب السهم زي الطلقة، كل سهم براجل، وماجلاش ولا مرة، زي مايكون طول عمره بيعملها، كان بينه وبين برغوت - مافيش - 5 ولا 6 متر بكتيره، برغوت خاف لا يشوفه يقوم نشه زغروف في دماغه، برغوته كان مستخبي ورا قبر، اتسحب ومسك جزع شجرة وخبطه واحدة وطلع يجري، وفعلًا، في اليوم اللي بعده عرفنا إن اللي فاضل من «هربانة» ورجالته..هو طقم الأبيض وأسود.

- فين الأرافة دي؟

- فين الواجب بتاعنا؟!

قالها لمؤمن الذي أمسك بالورقة وقطعها لمئات القطع بثقة قائلًا:

- بعد التفتيش في مقر المشتبه به، لم نجد أي حرز مخالفًا للقانون، وبعد الاطلاع على بعض المعلومات من مصادر موثوقة، علمنا أن المشتبه به قد لقي حتفه في عراك حدث مؤخرًا بمنطقة السيدة نفيسة،.. وجار البحث عن الجثة.

ثم استطرد:

- أمين يا ملك ؟!

- أبيض.

قالها ثم أكمل:

- خفاشك في قرافة مصر الجديدة، بس ماتنساش، ممكن يعمل كتير، خلي بالك!

- ماتقلقش! المهم - مش هوصيك- إحنا ماشوفناش بعض في الحلم.

قالها واضعًا سلاحه في ظهر بنطاله مجددًا بعدما هم بالوقوف، ليميل قدورة بجسده ناحيته، ويزيل عن عينه نظارته القاتمة كاشفًا عن عينين أقل ما يقال عن لون مقلتيهما «الأبيض الناصع» مستطردًا:

- ولا أكني شوفت حاجة.

ليقاوم نوح رغبة عارمة في فتح فمه من الصدمة، ويحاول جاهدًا عدم إظهار صدمته وتوتره، إلا مؤمن، الذي هز رأسه متفهمًا، كأنه كان يعلم أنه سيرى رد الفعل هذا، بل كأنه تأكد من حدوثه.

* * *

(37)

ألقى تمثال سعد زغلول لعنته على مشاة الميدان المسمى باسمه بعروس المتوسط، أتبعها بصقة من رجل عابس استقرت على الأسفلت بجانب جملة «مافيش فايدة» والتي تكفل مراهق برسمها في وقت سابق للذكرى، استقرت سيارة يارا قاسم «الفولكس فاجن» في تمام الساعة الثالثة عصرًا، محاولة الاتصال بهاتف يوسف الذي تركه بدون شحن كالعادة، لعنت حظها ثم أجرت اتصالًا آخر بمؤمن، والذي شرح لها مكان الشاليه الخاص به تفصيلًا، مترجيًا إياها أن تهتم به بعدما فقد الأمل في خروجه من شرنقته، توجهت يارا بسيارتها للمكان المنشود، أطفأت محرك السيارة وتأكدت أنها أمام الشاليه الصحيح، طرقت مرتين على الباب، لم تسمع سوى صوت الأمواج المتصارعة، حاولت السيطرة على شعرها المتطاير كفراشات المساء، ثم أحكمت حول جسدها معطفها الوثير، تنفست قليلًا من رائحة البحر وطرقت مرة أخرى لتكتشف أن الباب غير مغلق، دفعته بهدوء وسمحت لنفسها بالدخول.

كان هو.. لم يكن مذبوحًا أو ميتًا، لم يكن شبحًا.. كان هو، لكن وجهه الشاحب كان شيئًا ملفتا، نمت لحيته البنية الناعمة بشكل واضح، وازرقت شفتاه كثيرًا، بدا كأنه لا يتنفس، فقدانه المزيد من الوزن جعله أشبه بهيكل العظمي، دب مزيد الرعب في قلبها، حاولت تحريكه كي

يستفيق، بدا كأنه لا يستجيب، نادته أكثر من مرة، هزته بعنف، نادته برعب، استفاق فجأة، فتح عينيه عن آخرهما كأنه شعر بزلزال يقذفه من قمة يأسه لأعمق مخاوفه، أمسك بذراعها كأنه يعاركها، تجمدت يارا من الصدمة، منحته ثانيتين ليتيقن فيهما أنه لا يحلم، كررت جملتها ليتأكد:

- أنا يارا يا يوسف.. أنا يارا!

أيقن خيرًا أنه لا يحلم، تمسك بذراعها أكثر، ثم رددها ببراءة طفل بصعوبة:

- أنا قربت.. جدًّا.. صدقيني!، المشكلة.. بس..

تمعنت في عينيه الدامعتين، وحركت رأسها محاولة إيهامه بتصديقه، سقطت من عينيها دمعتان أبتا أن تتركا كحلها كما هو، تابع سردة لنظريته بعدما حاول الوقوف مرتين:

- في حاجة بتجمع برقم «6» وبينهم كلهم - بصي! - بصي هنا!، الضحايا كلهم اتقتلوا بنفس الطريقة، دي معناها إن عندهم نفس السبب اللي خلى الإسود يقتلهم، حتى لو مالقيتش أي تماثل بين التلات ضحايا في العمر أو أسلوب حياتهم.. ولا حتى الأسامي، يبقي مش فاضلي غير الأرقام اللي...

- هتوصل.. أنا عارفة إنك هتوصل..أنا عايزاك تهدى شوية.

قاطعته ثم قامت وجذبته من يده كطفل يرفض الاستحمام، ثم استقرت به في الحمام وأحضرت مقصًا وقصت أطراف شعره الذي قارب كتفه، خففت من ذقنه ثم أحضرت منشفة وبللتها بمياه ساخنة

من الصنبور وسمحت لنفسها بخلع معطفه وفتح قميصه، برزت عظام صدره النحيف، بدأت بتنظيفه من بقايا الشعر واليأس، تمحو عن عينيه المجهدتين ألوان الرعب وصبغات الندم، لكنه لم يتحرك، لم تنطق شفتاه بكلمة واحدة، ظل كما هو، ينظر للمرآة بفم نصف مفتوح وعينين نصف مستيقظتين، لقد مرت أسابيع منذ أن رأى نفسه في المرآة، وها هو، ينظر لشبحه، شبحه الذي تكفَّل ملاكه الخاص بتحويله لأقرب صورة ممكنة من صورته الآدمية، نظفته وأتت بزجاجة عطر تركها مؤمن في المكان سابقًا، تنفستها لتتأكد من أنها مناسبة ثم رشت على جسده نصف المبلل، وهو لا يزال يتعرف على شكله الجديد في المرآة، جففت بطرف المنشفة الآخر جسده ثم زررت قميصه مجددًا، ساعدته على القيام ووضعته على أريكة ثم غمرته بلحاف وجدته بالقرب، إلا أنه لم ينم، لم يستلق ليفرد ظهره بأي حال، ظل جالسًا كما هو يقسم لنفسه أنه لا يحلم، يقسم أنه رآها، يقسم أنها هي، اختفت من أمامه، ثم عادت لتجلس بجانبه، تسقيه عصيرًا ليقاوم الجفاف الذي اجتبى كل خلية في جسده، استجاب لها ليكتشف أنه لم يشرب منذ أمد، كل ما يتذكر أنها قالت بضع كلمات كان آخرها أنها تثق به، ثم تركت له بعض الطعام كان حصيلة ما وجدته في ثلاجة الشاليه شبه الخاوية، ثم رحلت، رحلت كما ترحل الأحلام، تاركة طعمًا مرًّا من الوحدة.

إنها تثق به..

عاد يجر أكياسًا من الرمل والوهن، استقر في مطبخ كهفه البائس المقابل للأمواج المتسارعة واضعًا رحاله، كان يحمل شنطة ظهر سوداء

اللون وضعها برفق شديد، ثم أخرج منها أشياء بدت ليس لها أدنى علاقة بمأساته، ففي النصف الأول الخارجي من الشنطة أخرج سلسلة طولها ثلاثة أمتار تقريبًا، تنتهي بشيء يشبه المخلب المعقوف، كالذي يضعة القرصان في يده الخشبية في أفلام هوليود، ثم أخرج شيئًا أشبه بالأصفاد معلقًا بها مفتاح، حرك المفتاح للتأكد من عمله ثم أخرج النسخة الإضافية ووضعها فوق منضدة خشبية بجانبه، بدت عيناه الزائغة تعرف جيدًا ما تفعل، سمع صوتًا ما وذهب ليتفقد مصدره بعد أن تأكد من إغلاقه للباب هذه المرة، وصل ليجده ينظر حوله في دهشة:

- واضح إنك أنشط من اللي كنت فاكره.

قالها متفحصًا الحائط بدهشة.

- مؤمن! أرجوك الموضوع مش محتاج رعب أكتر.

رد يوسف بعدما تنفس الصعداء.

- أنا خبطت بس يمكن انت ماسمعتش.

- الحاج كويس؟

- بدأ يمشي.

- والحماية؟!

- 24 ساعة، يوسف انت آخر مرة بصيت فيها في المراية إمتى؟!

- انت جاي عشان تسألني عن شكلي؟!

- لأ.. جاي أعزمك على رحلة.

قالها لتبدو كأي شيء غير مزحة ليوسف الذي عقد حاجبيه ليضيف بعدها مؤمن بثقة:

«رحلة صيد»

أطلق الصمت أذرعه حولهما، وتجمدت عيناهما، ثم حرك يوسف رأسه متفهمًا.

في الطريق للقاهرة تابع مؤمن:

– لو معلوماتنا صح، يبقى كل حاجة هتمشي كويس. وصلت لحاجة؟

– مش كتير، كل شغلي الفترة اللي فاتت كان على الخنجر.

– تاني هيقولي الخنجر!، تفرق في إيه يعني خنجر أثري من خنجر بيتباع في سوق السلاح؟ مش ده بيقتل وده بيقتل؟

– خنجر المايا كان بيستخدم في التضحية، الأسود بيضحي عشان سبب معين..

– سبب ديني مثلًا؟

– مش عارف..بس اللي متأكد منه إن طول الخنجر ليه علاقة بالموضوع، أنا كلمت جاكلين، توقعاتي كانت صح، طول النصل في الـ3 جرايم كان واحد.. حوالي 15سم.. بقياس الأسود 6 إنش.

– دماغك رايحة بعيد أوي يا يوسف..تفرق إيه 6 إنش من تمانية؟!!..

– إيه احتمالية إنك تصطاد عشر سمكات نفس الطول والوزن؟

هـي نفـس احتمالية إنـه ينحت أكتر مـن خنجر فيطلعـوا نفس الطول بالمللي.. فكر يا مؤمن معايا..نفس الطول بالمللي!

أطلق مؤمن زفيرًا عميقًا ثم تساءل:

- إزاي لاحظتها؟

- مالحظتهاش.. هو قالي في الميترو»، واحد بيقيس بالإنش في بلد بتقيس بالسنتيمتر، وكل خنجر بيعمله نفس الطول..لا معلش.. مافيش صدفة مع راجل بيعشق التفاصيل..

- الشيطان يكمن في التفاصيل..

أنا دورت في النت والكتب، شـفت كل أشـكال خناجر التضحية في حضـارة المايـا وأطولهـم، محدش قال نصـف كلمة عند طـول محدد.. مافيش 6 إنش.

- إحنا في دايرة مقفولة..

مؤمن وغاب كلاهما عن الحديث لما يقرب من عشر دقائق، تابع يوسف شروده عند مدخل القاهرة، يتخلل الهواء أصابع يده التي سبحت في الهواء كالطير، تلك الحركة التي أدمنها كما تدمن الطيور التحليق في الفراغ.

أشار مؤمن للزجاج، حرك يوسـف رأسه إيجابًا ثم أدخل يده داخل السيارة مرة أخرى، أغلقه مؤمن زجاج السيارة محاولًا تفادي صوت الهواء بعدما فكر في عمل مكالمة هاتفية مهمة، أوصل هاتفه بسماعات السيارة ليرد عليه صوت يعرفه جيدًا هو ويوسف:

- سبحان الله - بقولك إيه! - كنت لسه هكلمك، انت مكشوف عنك الحجاب يا باشا.

قالها نوح بصوت عال كعادته، ثم هم واقفًا في مكتبه متجهًا لملف وضعه بجانب التلفاز الذي يعمل على الوضع الصامت، جذبه واضعًا الهاتف بين أذنه اليمنى ورقبته واتجه خارجًا من مكتبه في عجلة، لم يلاحظ تلك الورقة التي سقطت من الملف المكتظ، ورقة وقعت أرضًا أغلق عليها باب المكتب لتسكن في صمت، ليرد مؤمن:

- غني يا نوح!

- العيال بتوع مركز المعلومات هم اللي-بقولك إيه- غنوا علينا، شوف بقالهم قد إيه وفي الآخر بيقولوا مش عارفين الأرقام دي ملتها إيه، بيقولوا غالبًا تواريخ.

- ولاد الكلب الأغبية! بعد العطلة دي كلها! عباقرة بروح امهم! ده أي عيل صغير كان ممكن يقول انه تاريخ يعني، طب وصلت لأي حاجة مهمة حصلت في التاريخ ده؟ ماتقوليش ماخدتش ورق؟!

- لا يا باشا خدت ورق طبعًا، الدوسية معايا أهو بقلب فيه، كان شهر شمال بصراحة مليان حوادث.

- وبالنسبة لليوم..؟!

- اليوم لسه طبعًا، لو الكلام صح يبقى الأرقام كانت أرقام سنة وشهر.. اليوم بقى المفروض هيتكتب على...

- الجثة الجديدة.

قالها بصوت خافت ليسمعها مؤمن الذي بادلة بنظرة شرود.

- كمل يا نوح!

- الشهر ده مليان حوادث نفس يعني، قتل على اغتصاب على انتحار

- بقولك إيه! - فيلم رعب، أهو.. مكتوب حتى قدامي (في شهر ديسمبر سنة 88 حدثت 20 حادثة نفس تتنوع بين القتل والانتحار والاعتداء الجنسي).

- ابدأ بالأغرب!

قالها مؤمن ليبدأ نوح من الجزء المفضل له:

- مكتوب يا باشا، في 11 ديسمبر سنة 88 تعاونت فتاة مع عشيقها لخنق والدها ليلًا وذلك لشكه في سلوكها المشين في جريمة بشعة حدثت في الجيزة.

- غيره.

وفي 13 منه قامت مطلقة في القليوبية بتمزيق جسد طليقها المحامي بعدما طلب منها تسديد إيصالات أمانة غير حقيقية، استدرجته لبيت عمتها ووضعت له منومًا في الشاي و...

- يا نوح بقولك حاجة غريبة.. حادثة غريبة!!.. ركز!

- حادثة غريبة!.. في عيل قتل صاحبه بعد المدرسة في أسيوط.. ودفنه في الصحرا، وفي كمان عم اغتصب بنت أخوه في الشرقية وأخوه قتله.

- الأيام والأسامي؟

قالها متجهًا بنظره ليوسف الذي أخرج قلمًا وبدأ يدون بالفعل.

- العم اسمه.. وحيد عبد الحليم والأخ اللي قتله اسمه.. رأفت.. وده كان يوم 18 منه، بالنسبة للعيل اللي قتل صاحبه، العيل اسمه راجي أمين سعيد، والمجني عليه اسمه أبانوب سامي عبد السيد والجريمة تمت يوم 15 ديسمبر 88.

- في حاجة تاني؟!

- لأ... ثواني.. آه.. مكتوب بردو في نهاية التقرير حاجة، سنة 88 في حادثة حصلت في جمرك بورسعيد، عيل مهرب من القاهرة، إتمسك في بورسعيد واتعكش لما جاب دم من كل حتة.. العساكر ضربوه بعصيان الأمن المركزي لما باظ يا عيني، شكلها اتمسك كام مرة قبل كده وماحرمش.

- وبعدين؟..

- مش عارف، واضح إن التقرير ناقص، بس عمومًا هو مات بعدها بيومين في مستشفى في القاهرة، في كلام انه مات بنزيف داخلي، في القصر العيني، لكن التقرير النهائي بتاع الطب الشرعي قال انه مات نتيجة جرعة مخدرات زيادة.

- الإسم والتاريخ؟

- التاريخ مكتوب، 21 ديسمبر 88، لكن الإسم تصبر عليه سيكا كده أكلم بتوع المعلومات تاني أشوف الواد ده إيه نظامه.. عمومًا العيال دي بتتعكش كل يوم في جمرك بورسعيد مافيش جديد يعني.

- طيب.. إتأكد إن مافيش حوادث تانية وإبقى كلمني!

- أوامر يا باشا..

أغلق مؤمن الخط ونظر ليوسف الذي كان قد انتهى من كتابة الحوادث وتفاصيلها ليعلق الأخير بصوت هادئ:

- بالنسبالنا اللي بيحصل نهاية العالم، بالنسبالة هو لوحة بيرسمها، هي دي المشكلة.. محتاجين تفسير للأرقام

- انت ليه مهتم بالأرقام؟،، في حوارات وألغاز تانية عاوزين نحلها.. العيون المتخيطة، طريقة نحت الخنجر مثلًا، أنا سمعت إن عبد الرؤوف عنده هواية نحت عجيبة..

- لو حلينا الألغاز نعرف بيقتل ليه.. لو حلينا الأرقام نعرف مين هو.. وماتحاولش!،، ماتحاولش تلمح!.

قال جملته الأخيرة بوجه أكثر صرامة، ليرد مؤمن:

- إيه اللي مخليك متأكد..؟

رمقه يوسف بنظرة نارية، وضح مؤمن سؤاله:

- بتكلم عن الأرقام..

عاد يوسف لهدوئه مستطردًا:

- القتلة المتسلسلين - أو السيكوباتيين - عمومًا بيحبوا الأرقام، في معظم الأوقات بيعبروا بيها عن نفسهم -على الرغم من كل ده - مافيش شيء أكيد.. كل اللي بقوله مجرد احتمالات.

- عمومًا، لو هي لوحة زي ما بتقول.. أوعدك إننا هنفهم تفسيرها النهارده.

- إيه اللي مخليك متأكد؟

صمت مؤمن للحظة ثم رد بوجه به كثير من الثقة:

- عشان بيكاسو هو اللي هيشرحهالنا.

قالها وضغط على بدال الوقود لينطلق مسرعًا ناحية هدف انتظره كثيرًا، هدف لو لم يصل إليه في الوقت المناسب، سيدفع الجميع الثمن غاليًا.

* * *

(38)

ركض مسرعًا وسط صمت القبور التي ملأت عالمه رعبًا وخوفًا، يخترق الليل والذعر بقدميه الصغيرتين، يقع أرضًا فيلوث ثيابه الراقية ثم يقوم فينظر وراءه في ترقب وذهول، ثم يكمل مضماره اللانهائي ويتوقف واضعًا كفيه فوق ركبتيه الصغيرتين، يلهث وقد تملكه التعب، وسبح الإرهاق في دمه الفقير حتى وصل رئتيه، صوت أنفاسه المتقطعة تتعالى وقطة أطلقت مواءً هما كل ما سمع، لكنه نظر خلفه مجددًا بعينين خضراوتين تناقضت ما تحمله من أسى مع ثيابه المترفة وشعره الأشقر المهذب.

أشعل منظر القبور المتناثرة قلبه رعبًا، وكاد يشتعل شعره شيبًا، قرر الركض مجددًا في العراء الداكن، لكنه اصطدم تلك المرة به، وجده أمامه، يخرج من العدم، ينظر إليه بعينين ثاقبتين، ينظر كنمر مبتسمًا من كثرة الزهو، يعلم حتمية المصير المؤلم الذي سيلقاه ذلك الطفل لاحقًا، كغيره من الضحايا.

- و أنا اللي قولت إن البسين مافيهوش سمك؟!

قالها الأسود مبتسمًا.

- انت مين؟!

- أنا هنقذك، ماتخافش! مين بيجري وراك؟!

- أنا كنت مع بابا بنعزي ماما وبعدين، بابا - بابا- كان جنبي و.. و..

- ماتخافش!. هنتصل بيه دلوقتي وهنجيبه عشان يطمن عليك.

- أنا خايف أوي، أنا حسيت إن فيه حد بيجري ورايا.

قالها بصوت أشبه للبكاء.

- ماتعيطش! كل حاجة هتبقي كويسة، صاحبي هييجي دلوقتي وهناخد موبايله عشان نكلم بابا قولي الأول!. نفسك في إيه؟

- نفسي أشوف بابا..

- ممم! ولحد ماتشوف بابا، مانفسكش في..ها!.. إيه ده؟ مصاصة!

أخرجها من يديه الفارغتين في حركة استعراضية.

- عملتها إزاي؟!

- أنا ساحر..

- يعني إيه؟!

قالها الطفل ببراءة ليتقدم نحوه الأسود خطوتين ويجلس القرفصاء أمامه مبتسمًا مضيفًا:

- أنا اللي كنت بتشوفه مع ماما في السيرك وبعدين تسألها، هو فعلًا عمل كده؟!

قالها بمزيج من السخرية والبراءة مناولًا الماصة للطفل.

- أنا خايف.

- وأنا هنسيك الخوف.

ابتسم ثم تراجع للخلف واقفًا وقالها بحرفية:

- إيه رأيك أعلمك خدعة يا... إسمك إيه؟!

- إسمي يوسف..

- اسم جميل، وأنا حاتم، هعلمك خدعة أنا بسميها خدعة الساعة المستخبية.. تحب تجربها؟!

مسح الطفل دموعه وابتسم متحفزًا وبيده ماصة لم يأكلها بعد.

- بس أوعى تعلمها لبابا، لأن اللي هتشوفه دلوقتي سر بيني وبينك.. إتفقنا؟

- إتفقنا..

قالها ببراءة.

- الساعة.. تمنها غالي ودايمًا مابنساش ألبسها عشان الوقت مهم..

كشف كم معطفه الأسود الطويل مستعرضًا ساعته الثمينة ليغطي الساعة بباطن كفه المفتوحة ويزيح كفه لتختفي الساعة حرفيًا.

- الساعه!.. woops!.. فين الساعة؟!

شمر عن ساعده محاولًا إيجادها لكنها قد اختفت تمامًا، لينظر ناحية يوسف «الصغير» في دهشة مضيقًا عينيه مستطردًا:

- واضح إن فيه حد خدها.. يا ترى مستخبية فين..؟.. فين؟!.. في جيب يوسف مثلًا ؟!

- لا مش معايا..

- متأكد؟

ثم صمت متجهًا بنظره ناحية جيب بنطاله الواسع، ثم غمز له بعين واثقة وأضاف:

- ما تشوفها كده يا يوسف!

وضع الطفل يده اليمنى في جيبه ليجد شيئًا ثقيلًا بداخله، أخرجه ليجد ساعته ذات الزجاج اللامع في يده، نظر لها بدهشة جعلت فكه السفلي يسقط.

- إزاي؟!

- أنا السحر يا حبيبي..

قالها بعدما اقترب من الطفل متكئًا على ركبته اليمنى ثم أضاف مبتسمًا:

- السحر اللي مافيهوش خدع سينمائية.

ثم فتح كف يده ليضع فيه الطفل الساعة مندهشًا.

- أنا عايز أروح.. عشان.. خايف.

- طيب نعمل آخر خدعة قبل ما نكلم بابا؟! مش هتندم.

خطا خطوتين بعيدًا عن الطفل البريء الذي لم يعلم أن الخدعة القادمة مؤلمة للغاية، ابتسم ابتسامة باردة عندما أعطى الطفل ظهره ثم استدار رافعًا يديه في استعراض:

- فقرة.. السهم فين.

قالها ليظهر جزء من نصل السهم بين باطن يده اليمنى وكم المعطف ليراه الطفل ويشير الطفل ببراءة ناحية يده اليمنى قائلًا:

- أهو!. شوفته.

مال حاتم الأسود بكمه ناحية صدر الطفل البريء، تلك الحركة الدموية التي فعلها مسبقًا مع رجل يهوى الملابس سيئة الذوق، أضاف مبتسمًا:

- كويس، ركز بقى معايا يا يوسف عشان ده الجزء الصعب، والمفضل عندي في نفس الوقت، ركز لأن في حاجة مهمة هتختفي.. وأنا...

قالها فاردًا أصابعه تجاه صدر الطفل.

طار إصبعا الخنصر والبنصر من يده اليمنى بسرعة رهيبة، تناثرت معه الدماء فوق وجه الأسود تزامنًا مع صوت طلق ناري أطلق من قريب، لم يتأوه الأسود أو يترنح، بل ظل ينظر متعجبًا ليده المنفجرة، ثم لمصدر الطلقة، خرجت من الطفل صرخة صدمة جعلته يركض بعيدًا، ليس إلى الفراغ، لكن إلى مطلق رصاصة الرحمة، مؤمن البحيري.. والذي أضاف:

- قصدك حاجتين!

قالها مقتربًا منهم، واثق الخطى يمشي ملكًا، واضعًا سلاحه بجانبه.

- أي!

رد الأسود ساخرًا عاقدًا حاجبيه في دهشة، محركًا رأسه مستنكرًا، وممسكًا بيده التي انفجر منها الدم كزجاجة شامبانيا فاخرة.

- كان لازم نتقابل من زمان..

علق مؤمن ليظهر من ورائه أربعة ضباط قوات خاصة موجهين أجهزة الليزر لقلب الساحر المصاب في انتظار أي حركة مفاجئة لصناعة لوحة سيريالية دموية من صدره.

- وانت كان لازم تتأخر شويه..

- لو كنت لمسته كنت دفنتك بالحيا.

قالها ثم توجه بنظره لصديقه الصغير:

- شكرًا يا سيد!. الهدوم دي بتاعتك، في هدوم تانية ليك في العربية وظرف صغير، هتلاقي واحد من رجالتي مستنيك هناك، هو هيروحك لحد البيت، هستنى منك تليفون تقولي إنك وصلت...

- ربنا ما يحرمنا منك يا باشا.

قالها بلهجته الطبيعية ثم نظر لحاتم الأسود الذي بادله ابتسامة إعجاب دبت في قلبه الصغير الرعب، ممسكًا بجرحة الدموي مستطردًا :

- عرفت إزاي؟!

- مكانك! لا دي حكاية سهلة أحكيهالك بعدين.

قالها مؤمن للأسود الذي تفحص بدوره الطفل الواشي بعينين كادا يخترقاه، نفى محركًا رأسه يمينًا ويسارًا وأضاف مصححًا:

- عرفت إزاي إني باكل العيال الصغيرة؟!

ابتسم ولم يحرك عينيه بعيدًا عن الطفل.

- سيد! روح انت دلوقتي.

قالها مؤمن لسيد الذي نظر إليه برعب، لم يكن مصطنعًا هذه المرة، ثم توجه بحديثه للأسود بعدما شد أجزاء مسدسه موجهه إياه لرأسه.

- إركع!

انشغل اثنان من القوات الخاصة بتفقد المكان، ليرد الأسود:

- هتقبض عليا يا باشا؟!

- هعد لـ3.. 1..

- قتل مشتبه به بدون مقاومة، قضية كبيرة يا باشا.. مش خايف؟

- 2.

- هدي أعصابك! انت تكسب!

قالها واضعًا يديه وراء رأسه راكعًا على ركبتيه مبتسمًا، ومن ورائه تقدم أحد الضباط، كبل يديه وقدميه، ثم تراجع مفسحًا الطريق لمؤمن الذي تقدم وراءه قائلًا :

- أهلا بيك يابن الو«...!».

ثم دفعه بكل قوة بحذائه ليسقط على وجهه.

لم تتلاشَ منه الضحكة الساخرة.. بل ظلت على وجهه حتى حينما لمح يوسف يقف بعيدًا واضعًا يده في جيبي معطفه.

* * *

(39)

- مش مجنون.

قالها يوسف متمتمًا لنفسه، محركًا رأسه نفيًا، محدقًا في عدوه اللدود ذي البدلة الحمراء ذات الكم القصير، عاقدًا ساعديه متفحصًا ردود أفعاله من خلف ذلك الزجاج المميز، زجاج صمم ليظهر الجالس في غرفة الاستجواب ولكنه يبدو كمرآة من داخل الغرفة، حيث جلس الأسود على كرسي معدني مكبل اليدين بسلسلة طولها نصف متر بينما تكفلت أخرى بتكبيل قدميه ناصعة البياض، تدلى شعره الأسود المتفحم فوق عينه اليمنى، حركه بأصبعه الوسطى خلف أذنه متكئًا على المنضدة التي أمامه وكان واضحًا أن أحدًا قد لصق شاشًا فوق جذور إصبعيه اللذين أصبحا في حكم التاريخ، في نهاية الطاولة وضع كرسي لا يشغلة أحد، التفت مؤمن الذي بدا أقل إهتمامًا بما يحدث لكلمات صاحبه قائلًا :

- ولا هيفرق معايا.

قالها بنفس نبرة الصوت الخافت على الرغم من وجودهما في غرفة عازلة للصوت.

- قبل ما تمسكه جاتلي لحظة افتكرت إن كل اللي بيحصل ده تهيئات مش حقيقي، افتكرت إن أنا اللي مريض.

- في شغلانتي مافيش حاجة اسمها تهيئات يا دوك!، الحياة في المباحث واضحة، أبيض لدرجة تصدمك، أو أسود لدرجة الاكتئاب..

قالها واضعًا جاكيت بدلته على كرسي ليظهر قميصه الأبيض وفوقة حزام يحمل مسدسًا زين صدره، أضاف يوسف بصوت خافت أقرب للهمس:

- إمبارح وأنا في عربيتك، شفت قطتين بيتخانقوا مع بعض، ركزت أكتر، لقيتهم كيسين فاضيين والهوا بيحركهم، الخط بين العقل والجنون مش عريض زي ما انت فاكر، عمرها ما كانت أبيض واسود.

- طبيعي إنك تقول كده لأنك ما بتنامش، ولا بتاكل ولا بتشرب، وكمان أعصابك تعبانة، كتر خير الدنيا إنك لسه ماسك نفسك، أي حد تاني كان زمانه انهار، انت عارف الكلام ده أكتر مني.

قالها مؤمن مستمتعًا معه برؤية الأسود مكبلًا على كرسيه كسمكة قرش حبست في حطام سفينة شفافة، رد يوسف مقلبًا عينيه في الأسود كأنه يدرسه:

- لازم تعرف مين اللي عليه الدور.

- هعرف، ولو ماقالش هدخل عليه اللي يخليه يقول، ولو نزلت عايزك تبقى معايا على خط تليفون مفتوح عشان لو وصلت لحاجة تقولي.

حرك يوسف رأسه إيجابًا، ليضيف مؤمن متعجبا وهو يشاهد حاتم الأسود يتفحص يده المغطاة بالشاش بكل شغف، تساءل بدهشة:

- مين ده؟!

لم يرد عليه يوسف، بل ظل يراقب هدوءه وعينيه المتفحصتين لجنبات الغرفة الضيقة المحتجز بها، لم يبد عليه أي توتر، بل ظل يقلب عينيه كأنه يحاول تفسير معادلة كميائية، حتى دخل مخبر مغلقًا الباب خلفه، وقف على بعد مترين ونصف منه من دون أن يفتح فاه بكلمة واحدة، واقفًا منتبهًا في انتظار سيدة ليدخل ويبدأ التحقيق، كان من الواضح أن وجوده في الغرفة فقط لزيادة عنصر الحماية.

انتهت دقيقتان من الصمت، تفحص فيها حاتم الأسود المخبر مبتسمًا، حيث وقف الأخير انتباهًا كقلم رصاص يقف بين أقرانه، تجمد محاولًا عدم النظر إليه مباشرة بعدما سمع عنه تلك القصص المخيفة، لكن خانته عيناه أكثر من مرة ليرمق وجهه الغريب سريعًا ثم ينظر أمامه مجددًا، ليكسر الأسود فترة السكون مبتسمًا :

- بتكره الوشم بتاعي؟.. استوحيته من حضارة المايا، افتراضًا إنك تعرف حضارة المايا.

قالها محاولًا النظر للمخبر المتوتر بينما أزاح شعره عن نصف وجهه، رد عليه الصمت ليكمل:

- قالولك ماتردش عليه؟! بتعاملوا الضيوف كده؟!.همم!

ونظر أمامه بخيبة أمل ماطًّا شفتيه، ثم تابع:

- انت مافيش منك vibration؟!. ها؟.. مافيش!. خسارة.

- أنا عارف انت زعلان ليه، عشان موقفينك حراسة من غير مسدس، مابيدوش المخبرين مسدسات..صح؟.. معاملة عساكر شطرنج.

قالها الأسود مستنكرًا محركًا رأسه يمينًا ويسارًا، ثم أضاف ماطًّا شفتيه بأسف.

- صدقني العنصرية وصلت لكل حاجة -حتى أنا- زعلان إني أشوفها في الشرطة.

حرك خصلة من شعره خلف أذنه مجددًا بأصبعه الوسطى وأضاف حينما نظر له المخبر بمزيج من الرعب والغضب:

- أنا عمري ما بحس بالفخر لما بقتل مخبر، على فكرة أنا مش عديم الإحساس زي ما صحابك قالولك، أنا مجرد..راجل عنده حلم.

حرك يده اليسرى فوق اليمنى كساحر يقذف سحره، لتظهر يده اليمنى ملفوفة بشاشها الأبيض مفتقدة لإصبعيه وتابع:

- في زمن اختفت فيه الأحلام.

مرت دقيقة أخرى دعا فيها المخبر البائس الله في سره أن يصمت ذلك المختل، لكنه تحدث مجددًا:

- شايف!

قالها مداعبًا نملة متوسطة الحجم عبرت فوق ذراعه اليسرى تمشي قليلًا ثم توقفت عن المشي، ثم أكملت طريقها، ظل يراقبها بعينيه الواسعتين حتى دخلت إلى قبضته، ليقبض عليها دون أن يقتلها، مكملًا حديثه مع صديقه الصامت:

- خلينا نكسر التلج اللي بينا،، أنا هعلمك حركة سحرية هتعجبك، وبعد كده تقدر تعلمها لابنك، اسمه مصطفى صح؟

نزلت الجملة الأخيرة كوحدة تكييف كاريار خارجية سقطت فوق رأسه بغتة، نظر ناحيته بغضب وأفلت لجام لسانه مخالفًا التعليمات الصارمة:

- عرفت ازاي اسم ابني يابن الكلب؟!

قاطعه الأسود الذي نظر لقبضته التي لم تخرج منها النملة بعد، كأنه اكتشف شيئًا مضيفًا:

- ركز!

خرجت النملة من جانب قبضته أكبر حجمًا عشرات المرات في حجم صرصور صغير للغاية، تمشت بصعوبة فوق قبضته ثم تجمدت، وبدأت في فرد أجنحتها البيضاء الشفافة ليضيف:

- كبرت.. بقت ملكة، لكن للأسف!

اقترب منها كأنه سيقبلها ثم قالها هامسًا للنملة كأنها تسمعه:

- Fly Cinderella!

طارت فجأة كالسهم، تعرف طريقها جيدًا، لتخترق فتحة أنف المخبر اليسرى مباشرة ناحية جيوب أنفيته لتصيبها بنجاح وتنفجر بداخلها بركة دماء صغيرة ليخرج خيط دموي من أنفه ويصاب بالدوار ويحيطه الرعب، جرى ناحية الباب مرتعدًا، محاولًا إخراج النملة الإرهابية من داخل أنفه، لم يستطع لكنه ظل يتأوه ويخبط باب الغرفة بعنف حتى فتح له أقرانه، ساعدوه للخروج من غرفة الشيطان ليظهر من خلفهم صديقهم الذي لا يهابه، مؤمن.

دخل كهفه غير آبه لما حدث للمخبر المسكين، نظر له متفحصًا ابتسامته الباردة ثم نظر مرة أخرى للباب الذي خرج منه المخبر المذعور، أغلق الباب ثم جلس أمامه مخترقًا عينيه الكحيلتين بنظرة تحد واستهانة، ثم قالها ببرود:

- أسلوبك استعراضي.

قالها مشعلًا سيجارة بعود كبريت رماه أمامه على المنضدة بجانب دوسيه أزرق وضعه للتو، أجابه الأسود بهدوء شديد:

- ده جزء من الخدعة.

- كان ممكن أسيب صحابه عليك!

- وأنا كان ممكن أقتله!

- واضح إني لازم أعلم عليك عشان تتهد شوية.

قالها منفثًا دخان سيجارته في السقف باستهتار.

- خلينا.. - خلينا- مانجيبيش سيرة التعليم أحسن..أنا وانت في بينا تاريخ لسه ما بردش.

وكرر محاولته لوضع شعره خلف أذنه اليمنى، ليرد مؤمن ثائرًا:

- كلمة تانية.. وهفشخك.. فاهم!

- وأنا اللي كنت فاكرك Straight.

رد الأسود باستهتار شديد، اعتدل مؤمن وأخرج زفيرًا مختلطًا بضحكة مكتومة مستطردًا:

- فكرتني بالكلام اللي قريته عنك، هنا في التقرير، بالصور..تحب تسمع؟

اقترب الأسود برأسه من مؤمن وقالها بصوت أقرب للهمس:

- غني!.. يا منير.

اتسعت عينا مؤمن في صدمة وغضب شديدين، ما لبث أن تمالك نفسه وحرك رأسه إيجابًا في تحد مضيفًا:

- يعني.. سمعت انك اتمسكت مع العيال بتوع قصر البارون، حفلات جنس جماعي وطقوس سحر أسود وعبادة - أستغفر الله- شيطان ومخدرات.. و...

ثم صمت لثانية وأكمل رافعًا حاجبه الأيسر:

- وشذوذ.

- شكلي حلو في الصور ؟!

- شكلك عجلة، إيه!. مش ناوي تدافع عن نفسك؟

- الحياة بوفيه مفتوح.

قالها قالبًا كفيه تجاه السقف في استسلام ثم أكمل:

- مش كل واحد هيدوق السوشي هيبقى ياباني..

- وانت بقى دوقت السوشي يا روح أمك؟!

تساءل مؤمن بترقب ليرد الأسود بلهجته المستهترة:

- من باب العلم بالـ«كيك».

- كويس!.. يعني انت معترف إنك عجلة.

رد عليه الأسود بوجه حاد:

- أنا قولت إن حياتي الشخصية مش هتفرق معاك، بس عمومًا هقولك على معلومة حصري، أنا جربت حوار الـSatanism ده عشان أشوف أخره ايه، حضرت حفلات، بس مالقيتش نفسي معاهم...

- بعد ما روقوك صح؟

قالها مبتسمًا متابعًا قراءة الورق.

- آه..اسمع! لو هنفضل نقلع بعض البنطلونات مش هنكسب حاجة، أنا ممكن أقول عاللي عملته مع الحاج في المستشفى ويتسجل هنا مع التحقيق والداخلية كلها تعرف فبلاش تـ...

أخرج مؤمن مسدسه ووجهه لمقدمة رأس حاتم الأسود الذي تجمد حتى أضاف مؤمن بلهجة بها كثير من التحدي:

- لو تقدر تجيب سيرته، قول!

- ده اللي أنا بتكلم فيه.

قالها الأسود مشيرًا للمسدس ثم أكمل:

- تستفزني عشان أقول، فأقول، والأدرينالين يجري في دمك جنب النيكوتين، فتقتلني وتخسر تفاصيل كتير تنفعك أكتر بكتير من حياتي الجنسية وعبد الجليل يزعل.. وتخسر شغلك.. وتتسجن.

قلب كفيه مجددًا وحرك رأسه بتعجب، تجمد مؤمن لبضع ثوان بوجه صارم ثم أعاد سلاحه مرة أخرى للوراء.

- إتكلم!

- تحكم ممتاز بنوبات الغضب، بص! المهم في موضوع تاريخي ده إني ماحبيتش يبقى ليه زعيم، عارف!. أنا من النوع اللي بيحب هو يبقى الزعيم..

- والعيل اللي كنت عايز تقتله، كنت عايز تخلص عليه ليه؟

- يعني.. طلعت بكام عادة من حوار الـsatanism ده، إدمان بعيد عنك زي السجاير.

- بتقتلوا العيال الصغيرة؟

- في مصر قليل، بس بره كتير، وبعدين أنا كنت هقتله عشان جعان.

- نعم؟!

- كان نفسي في كبدة طازة.. صغيرة في السن.. الدستور بيكفل لكل مواطن إنه ياكل الوجبة اللي عايزها.

قالها الأسود وبلع ريقه بصعوبة.

- وده دستور إيه يا روح أمك؟

-.. دستور الغابة يا باشا.

- آه.. وانت بقى عايش في غابة؟

- كلنا.. ماشيين بمنطق الغابة، الأقوى يستمر ويفرض قوانينه، الأضعف يموت.. سهله!. شوف!. أمريكا مثلًا.. شوف الصين.. حد يقدر يحتلهم؟.. لكن أمريكا احتلت، والصين لو عايزة تحتل هتحتل.. إحنا بنطبق قانون الغابة وإحنا لابسين فيونكات..

قالها ثم تغيرت نبرة صوته ليكمل:

- أنا عندي مشكلة مع الفيونكات!

- ده كلام الهبل، فيه قانون في الدنيا.. فيه مجلس أمن.. لو الحياة سايبة كده ماكانش كلب زيك إتمسك.

- وفيه دولة كاملة إتمسحت من على الخريطة واتحط مكانها دولة تانية عشان أمريكا وبريطانيا قالوا تتحط، تعرف اسم الدولة دي يا باشا؟

- أعرف اسم أمك..

- ها..ها.. طيب بلاش نروح بعيد..قولي!. تقدر تسيب بيتك من غير ما تقفل الباب؟.. هيحصل إيه في مراتك وولادك وفلوسك؟ جرب سيب عربيتك في الشارع دايرة وارجع شوفها مرة تانية، مش هتلاقيها.. أنا بكلمك على عربية، مش على إن الشرق الأوسط أكبر مصدر لقطع الغيار البشرية في العالم، ولا على تجارة البشر والجنس في البلقان، ولا على المدابح والمجازر اللي حصلت وبتحصل كل يوم في أفريقيا.. مافيش حاجة واحدة في الدنيا ممكن تثبت إن الإنسان مش حيوان ذكي، بالعكس، يمكن الحيوان هو اللي إنسان غبي.

- كنت هتقطع الولا وتاكله؟

- حاجة زي كده.

- وكنت هتستفيد إيه.

انفجر الأسود ضاحكًا بعد نظرة حادة ثم تمالك بأسه بصعوبة قائلًا :

- هستفيد إيه؟...هههه! دي عملية بيولوجية عادية جدًّا، مانا قولتلك، القوي بياكل الضعيف، عمرك شوفت بقرة بتسأل تمساح وهو بياكلها: (هو حضرتك بتستفيد إيه؟!)

قال الجملة الأخيرة بلهجة مستفزة ساخرة، ليرد مؤمن بتأفف:

- من إمتى وانت بتاكل لحوم البشر؟

- هو مش لحم البشر بالمعنى الحرفي، الكلمة دي قاسية أوي، أنا بس بحب الكبدة.. مابتحبش الكبدة؟.. بتبصلي بقرف ليه؟ مستغرب؟! كان فكرتك عن اللي بياكلوا بشر إزاي؟.. تخين وعنده سنان سودة وعنيه متنفخة؟ انسى كل اللي شوفته في أم بي سي أكشن Fright Night.. الحقيقة دايمًا مختلفة.

- كنت هتقتله عشان تاكل كبدته؟

- هممم.. عمرك جربت كبدة فريش سخنة، صغيرة في السن؟.. هه؟.. فاتك كتير!. صدقني!

صمت مؤمن ثم أضاف:

- عمرك جربت سنان فريش كبيرة في السن؟

- سنان؟!

قالها لتقذفه قبضة مؤمن نصف متر للخلف بعنف، ليدمى فمه وتنفجر الدماء على صدره، استغرق الأمر ثانيتين حتى يستوعب الصدمة، بصق سنَّتين كسرهما مؤمن من صفه السفلي.

- فاتك كتير!

بلع الأسود دماءه بطريقة مقززة للغاية كأنه يستلذ طعمها، ثم بدأ في الضحك هيستيريًّا ليضيف:

- دلوقتي ابتديت تفهم!

- ماتقلقش.. كل لما تحن قول لي!

قالها مطقطقًا قبضته ثم أضاف متفحصًا الملف الذي أمامه ببرود شديد دون أن ينظر للأسود مستطردًا:

- إنت اللي فجرت الشقة بتاعة ميدان لبنان؟

- عايز شاي.

- قتلت الناس ليه؟

- هاتلي شاي وأنا أقولك.

- الضحية الجاية كانت هتبقى مين؟

- كانت؟!

قالها الأسود رافعًا حاجبه بتعجب.

- ليك حد بره هيخلص؟

- هو.. هيخلص.

- واحد من رجالتك؟

رد مؤمن مقلبًا بضعة ورقات.

- لا لا لا.. رجالتي..- رجالتي- زي مانت شايف، غلابة يعني،ماينفعش يعملوا حاجة من غيري، أنا بتكلم عن.. «لوكي».

كان الأسود الذي يقترب من المنضدة شارحا وموجهًا شعره لمكانه خلف أذنه، كانت الدماء قد وصلت لقميصه بالفعل.

- لوكي!

- بالظبط.

- انت بتخرف ياله؟!

- حد يقدر يخرف قدام المباحث؟

- ده واحد أجنبي يعني بيساعدك؟..لقيته فين؟

- أنا مالقيتوش..تقدر تقول هو لقاني.. كانت ليلة باردة مملة.. شوفته في المقابر..كنت هقتله..بس شدتني فيه حاجة..كان فيه حاجة غريبه.. حكالي وجهه نظره عن الخنازير.. كان عايز يقتلهم.

قالها وبصق بعض الدماء عن يمينه.

- وانت بقى اللي بتقتلتهم له؟

- مؤمن! إسمعني كويس! اللي عملته ده عمل خيري، لأول مرة قررت أنفذ حلم راجل تاني غيري، هو يحلم.. أنا أنفذ..

قالها واقترب من مؤمن مضيفًا :

- هو القاضي.. أنا العشماوي!

قالها بهدوء وثقة شديدين رامقًا مؤمن بنظرة نارية.

- مين هو؟

- أتمنى لو أعرف..صدقني!

صمت ثانيتين ثم استطرد:

- بس هو بردو راجل عنده رؤية، ويمكن ده اللي جمعنا.. هو شايف إن كل الخنازير لازم تموت، بس ماكانش قادر ينفذ ده لوحده، لأنه..

- لأنه إيه؟

- مش مهم.. المهم إن في النهاية لازم تعرف انه مجرد وحي.. بس لو عايز تعرف عن الضحية الجاية هاتلي يارا هنا.. تعمل معايا لقاء حصري.. وأنا هقول كل حاجة.. على الهوا..فاضل 3 ضحايا.

- يارا مين؟

- إيه يا باشا.. نسيت صديقتك المشتركة مع يوسف؟.. لحقت؟

- ياله انت هتتمرجح كمان كام أسبوع زي الدبيحة، كبيرك شهرين، تقولي إنترفيو.. إيه؟ وزير يا روح أمك!

- لازم تيجي..لازم أكلمها.

- ولو ماجيبتهاش..؟

- يبقى تاخد كرسي وتقعد جنبي تتفرج، وبعدين كل دقيقة بتعدي مش من مصلحتك يا باشا، مش يمكن!. تعرف تنقذهم!..و بعدين تاخد نيشان الواجب..و يتسمى شارع بإسمك..مدرسة..أي حاجة.

صمت مؤمن لدقيقة قام بتجميع أفكاره جميعًا فيها على قدر الإمكان، يتفحص المجنون العاقل الماكث أمامه، الذي بدا كأنه يلهو برسم شيئًا ما بأصبعه المختلط بالدماء على المنضدة المعدنية البيضاء، كان يلطخ إصبعه بالدماء من فيه ثم يعود ليتابع الرسم، حتى جاء رد مؤمن بعد بضعة ثوانٍ صامتة:

- و إيه اللي يضمنلي إنك هتنفذ كلامك؟

- ده جزء من اللعبة يا باشا..لازم أديك خيط حقيقي عشان عنصر التشويق..جربني ومش هتخسر.

- أنا مش هخسر، عارف ليه!. عشان أنا قاعد دلوقتي قدام كرسي فاضي.. اللي فيه راجل ميت.

- مش خايف على يوسف؟.

- لو حصله حاجة... ها....

- هتقتلني؟ هتقتل راجل ميت؟!.

قالها مبتسمًا ثم أضاف واثقًا :

- يارا تيجي، ومعاها كوباية شاي كبيرة، هتكلم معاها، وهتعرف كل حاجة، الجميل في الموضوع ان لسه الضحية الجاية ما بقتش لحد اللحظة دي ضحية، والأجمل، إنك لو مسكت لوكي قبل ما ينفذ، القصة هتنتهي.

نظر له مؤمن حنقًا مقاومًا رغبة ملحة في لكمه مجددًا ليطعمة بقية أسنانه، لكنه قرر بعد خمس ثوانٍ صامتة أن يقوم من مكانه حاملًا ملفة الأزرق وغضبه، خبط مرتين على الباب ثم اختفى، وظل الأسود مجددًا في كهفه وحيدًا.

* * *

(40)

تحققت أمنية حاتم الأسود تلك المرة، فأمامه جلست يارا قاسم بشحمها ودمها، تخفي ترددًا وخوفًا خلف صرامتها المعتادة، وكما أمر مؤمن البحيري، حارس مسلح يقف جاهزًا تلك المرة لأي خرق للقواعد ليغرس في جسده كثيرًا من طلقاته، والذي لم يكن سوى أحمد نوح، وكما أمر سيادته أيضًا، الكاميرا تعلق أمام المنضدة على حامل بدون «كاميرا مان» وبجانبها مايكروفون كبير الحجم، فالغرفة- من وجهة نظره- لا تتحمل أكثر من ثلاثة أشخاص.

- مش محتاج أفكرك هو خطر قد إيه.

كانت آخر كلمات مؤمن التي رنت في أذنها كثيرًا وهي تتفحص بضعة وريقات بين يديها الرقيقتين.

تابع يوسف مشاهدة الموقف دون أن تطرف عيناه، إنتهت فترة جس النبض حينما بدأت هي بالكلام:

- الكاميرا جاهزة، والشاي قدامك.. اتفضل اتكلم.

- قبل ما نتكلم لازم تشربي حاجة.

- احنا مش في كافيه، من فضلك أتكلم عشان ورايا شغل تاني.

- انتي ضيفتنا، مابحبش أشرب لوحدي.. أنا مصمم.

رمقته يارا بنظرة احتقار ممتزجة بدهشة لتنادي على الحارس وتطلب منه أكبر كوب ممكن من القهوة غير المحلاة، مرت خمس دقائق سيطر الصمت قبل أن يستقر كوب قهوة زجاجي كبير أمامها يقابل كوبًا ورقيًا من الشاي أمامه.

- نبدأ منين؟

- نبدأ من سنة فاتت.

- إيه اللي حصل بالظبط؟

- قابلت شخص أوحالي بفكرة، لو اتنفذت هتسيب علامة في عقول الناس.

- فكرة قتل؟

- أنا بسميها حاجة تانية، بس ممكن نقول كده.

- يعني انت معترف إنك مسئول عن كل الجرايم اللي حصلت؟

قالتها يارا ليصمت بعدها الأسود ويقترب بوجهه منها بهدوء لتتراجع يارا قليلًا، أضاف الأسود بعدما أزاح خصال شعرة ليظهر الوشم الذي يخفي نصف وجهه:

- نص.. نص مسئول.

حاولت يارا إظهار عدم تأثرها بثقته ب نفسه عندما سألته:

- على أي أساس اخترت الضحايا؟

- أنا بقتل الخنازير..اللي هم عساكر الشطرنج.

- خنازير إيه وعساكر شطرنج إيه؟!

- هو اللي مسميهم كده.. أنا ماليش دعوة!

- بردو لسه ما جاوبتش على سؤالي..

- همم.. كل اللي بيغمض عينه خنزير، عسكري شطرنج اتخلق عشان يموت.. وبما إن معظم الناس عساكر.. يبقى الكل ضحية محتملة.

قالها وعاد بظهره ثم شرب الكوب كله على مرتين مضيفًا:

- وأنا بموت في الأوبن بوفيه.

- عايز تقول إنك هتقتل البلد كلها يعني؟

-.. بالعكس أنا بفيدها، عساكر الشطرنج شخصيات خطر على البلد، جيش سلبي لازم يتمسح من الوجود عشان يبقى عبرة، أنا لسه ماقتلتهمش كلهم.. أنا قتلت مجموعة عشوائية..

- وإيه علاقة ده بعسكري الأمن المركزي.. الضحية الأولى؟

- ده كان بداية، أسعد كان دموي..كلب مطيع للأوامر غمض عنيه ونفذ كل اللي مطلوب منه.. ده بالنسبة لـ«لوكي» خنزير.

- لكن التحريات بتقول إن مافيش علاقة بينه وبين يوسف؟

- صح.. ماكانش لسه كتب المقالة.. هو أنا بس اللي حران ولا الجو فعلًا حر؟

قالها محاولًا جذب ياقة قميصه بتأفف.

- والمحامي؟.. ورائد الجيش؟

- كلهم مجرد عساكر شطرنج وسخة.. مش لازم أشرح كل حاجة.. حاولي تستنتجي!!

- بس انت مش إله عشان تحكم على الناس.

- وانتي مش إله عشان تحكمي على اللي بعمله.

- ماحستش بالندم بعد ما قتلتهم بالبشاعة دي؟

- مافيش ندم، جحيم راجل.. روتين راجل تاني، القتل بالنسبالي دش بارد في عز الحر.

- روتين؟! اللي عملته ده فعل قبيح وجرم.. حتى الحيوانات مابتقتلش بعضها بالصورة دي.

قاطعها الأسود:

- Bla Bla Bla.. غلط!. كلامك غلط!. القتل جزء من أي مجتمع حيواني، الذكور بتقتل بعضها في موسم التزاوج، بيقتلوا الحيوانات الأضعف عشان ياكلوها حتى لو كانت من نفس الفصيل، القتل والموت جزء من الحياة.. من غيره.. الحياة تنتهي.

- مين لوكي؟.. هل ده اسم حركي؟

- يعني.. أنا اللي سميتهوله بصراحة.. أصله مالوش إسم.

قالها مجففًا بقايا الدم السائلة على فمه بجزء من قميصه.

- اللي أعرفه إن لوكي هو اسم إله العذاب والعقاب عند الفايكينج،، هو ده الإسم اللي تقصده.

- I loveee you!!!

رد ساخرًا.

تابعت يارا بوجه قاتم:

- لوكي حد من رجالتك؟ مسجل خطر أو مجرم أوحى ليك بالـ...

- هو مش حد، مش بشري لدرجة إنك تقولي عليه حد.. مش شيء مادي.

- أمال هو إيه يا حاتم؟ ماهو لو مش بشر هيبقى ملاك أو جن..؟.

-.. مش مهم هو مين، المهم انه سابقنا بـ100 خطوة.

- واضح إنك جايبني عشان تضيع وقتي في كلام فارغ وفوازير.

- 18 شارع المنيل. الدور الخامس.

قالها بوجه صارم.

- إيه ده؟

- مكان الضحية الجاية.

انتفض مؤمن بجانب يوسف الذي مازال عاقدًا ساعديه محللًا ردود أفعال حاتم الأسود، إرتدى الجاكيت الخاص به بسرعة شديدة وأمسك بجهازة اللاسلكي وقالها بسرعة:

- إبدأ إشارة.. ميم 5.. ميم 5.. برجاء توجه القوات الخاصة بدايرة المنيل لـ18 المنيل، معلومات عن ضحية جديدة من سفاح المرج، يرجى اتخاذ الاحتياط لخطورة الموقف من عدمه...

ثم نظر ليوسف مضيفًا:

- لو فيه جديد كلمني!

حرك يوسف رأسه إيجابًا بعدما فك ساعديه ليقول:

- خلي بالك!

بالعودة لغرفة التحقيق.

- بس انت قولت إنك هتقول أسامي الضحايا..مش أماكنهم.

قالتها يارا بصدمة.

- هتزعلي لو رجعت في كلامي؟

- لا انت كده فعلًا هتضيع وقتي في تهريج ولعب مالوش لازمة، الإنترفيو انتهى! لملمت أوراقها، ليرد الأسود:

- مين جاب سيرة اللعب؟.. اللعب هناك.. في الحسين.. مش هنا.

- انت قولت إيه؟!

اعتدلت واقفة على قدميها بعصبية، ليرجع الأسود بكرسيه خطوة للوراء في صدمة.

- هدي أعصابك!. دي حادثة ممكن تحصل لأي واحدة في مصر، التحرش مش نهاية العالم.. كده أو كده في حد هينول الشرف في يوم من الأيام.

- يا حيوان! يا...

قالتها يارا بغضب بالغ ليرد عليها الأسود ساخرًا مكشرًا عن أنيابه صانعًا ذئبًا غاضبًا بوجهه.

- كلمة تانية وهضربك بالجزمة!. فاهم!

حاول نوح تهدئتها بعدما اقتربت من الأسود أكثر من اللازم موجهة سبابتها في هجوم.

- أنا سمعت إن الرجالة انبسطت هناك.

لم تشعر بنفسها إلا وهي تفلت يد نوح لتقترب منه وتصفعه، لكنها لم تكن تتصور أن ينتهي الأمر بهذه السرعة الرهيبة..

لم يأت في خيالها أن سرعة رد فعله والتي قد تصل لجزء من الثانية، فيدها التي حطت على وجهه لم تصل إليه، بل أمسكها بيده اليسرى غارزًا ظفره الطويل بها لتصرخ ثم قام من كرسيه وأمسك بيمناه نصف السليمة كوب القهوة الساخن وقذف ما فيه في وجه نوح الذي اشتعل وجهه قبل أن يقرر بدوره الهجوم، هشم الكوب في زجاج المرآة على يساره لتتحول يد الكوب لمقبض سلاح غير محدد الشكل، وضع سن الجزء المكسور الحاد على رقبة يارا التي احتضنها الأسود من ظهرها بقسوة، حاولت المقاومة بشدة وفشلت، واستسلمت.

- هششش!.. بلاش تخليني أوريكي حاجة أسوأ من التحرش.

قالها ليارا بصوت خافت التي بدت وكأنها وعيت أنه لا يمزح، خارت قواها مع أنها ممسكة بساعده الأيسر الذي التف حول رقبتها كالثعبان.

- سيبها تمشي!

قالها نوح راجيًا.

- مش ملاحظ إن الأوضة ضيقة أوي للمشي؟!

قالها الأسود بسخرية ثم أضاف محكمًا سيطرته على يارا:

- عايز أكلم يوسف.

- يوسف مش هنا، إيه اللي هيجيبه في مكان زي ده..

كان رد نوح.

- يوسف هنا.

- صدقني مش هنا..

قالها نوح مشيرًا بيده بتوتر.

- أنا عارف انه هنا.

واستدار الأسود قليلًا ومعه يارا حتى أصبح وجههما مقابلًا لزجاج المرآة وظهره للحائط، ينظر في منتصف الزجاج، تمامًا لعين يوسف التي لم تغلق منذ أكثر من خمس ثوانٍ، توقف الزمن لحظة، تأكد فيها يوسف أنه يراه، يراه جيدًا.

- سيبها ماتخلنيش أضربك بالنار.

قالها نوح موجهًا مسدسه محاولًا تجاهل الألم الذي يعتري عينيه الحمراوتين.

- هعد لـ3.

- مش محتاج تعد لـ3.

قالها يوسف الذي ظهر أمامهما بعدما فتح الباب، ثم أردف:

- انت كنت عايزني من الأول.

- يوسف!. بقالنا كتير ماتكلمناش.

- ليه 6 إنش؟ مستحيل تكون صدفة..

- همم!، استنتاج ذكي..قربت جدًّا.

- انت كنت بتدور عليّا.. سيبها!، خلينا ننهي المشكلة.

- أوعدك إنها هتنتهي.

- ليه أنا بالذات.

- ماتبصلهاش كده!. -هششش!-.. ماتبصلهاش كده يا يوسف! أنا مش عنصري.. انت.. مجرد.. كلب ميت على الطريق.. العربيات بتدوس عليه عشان مش شايفاه، الموضوع عمره ما كان شخصي، لو ماكنتش كتبت المقالة دي، كان واحد غيرك هيكتبها، وكنت هنفذ الليستة من قرايبه.. ده اللي بيحصل في الروايات لو الشرير مهووس بالقراية.

- انت جاتلك أكتر من فرصة.. بس انت ماقتلتنيش في المترو.. ولا في البيت.

- غريزة حيوانية.. القطط بتلعب بالفريسة بتاعتها قبل ما تاكلها..

- وأنا دلوقتي موجود قدامك.

- النهاية هتبقى جميلة أوي يا يوسف، أتمنى إنك تبقى موجود لحد ما تشوفها.

حاولت يارا أن تفلت منه مرتعبة لكنه أحكم سيطرته عليها لتبكي من الذعر، همس لها:

- ماتخافيش من الموت! كلنا هنبقى على منيو الدود في يوم من الأيام.

قالها ثم نظر ليوسف مردفًا :

- انت في لغز يا يوسف، لغز لو حليته.. هيتغير شكل الدنيا قدامك، ومش شايف حد غيرك يقدر يحله، وعشان أديك فرصة.. هقولك دلوقتي جزء من الحل.

قالها ونظر مباشرة لعيني يوسف مضيفًا:

- حتى في الغابة الأسد بيدي فرصة للغزالة إنها تجري قبل ما يقتلها.

- الموضوع ده يخصني أنا وانت..سيبها!.

قالها قاصدًا يارا.

- هسيبها، لأنها هي الجزء الجديد من اللغز، كنتي عايزة تعرفي إسم، إتخيلي!.انتي آخر طلب للوكي.. هيتعامل معاكي بنفسه، انتي الجثة اللي بعد جثة المنيل، وصدقيني، ماقصدتش أي تلميح جنسي.. هتعيشي عشان تموتي في يوم تاني!

دفعها الأسود تجاه يوسف ليلتقفها، تحسست رقبتها مذعورة بعينين تقطران رعبًا بينًا، غير مصدقة أنها نجت من الموت المحقق، في حين لوح الأسود بسلاحه قائلًا :

- ده قدر أي راجل تسيطر عليه فكرة مجنونة، الأفكار تقتلك، أو تموت جوه منك قبل ما تقتلك.

صوب نوح سلاحه متأهبًا لإطلاق النار، بينما لوح الأسود بيده في حركة استعراضية كالتي يفعلها الساحر دائمًا وقال كلمته الأخيرة:

«هابرا كادبرا!!».

مستخدمًا الشفرة التي صنعها من الكوب.. انفجرت نافورة دم من رقبته التي قطعها بكل حرفية على شكل نصف دائرة، ارتمى على كرسيه مجددًا، ينظر إلى يوسف الذي فقد القدرة على الكلام في حين صرخت يارا رعبًا محاولة منع عينيها من رؤية المنظر، فغر نوح فاه في صدمة لما يرها في حياته كلها، ولا حتى في أساطيره التي يحكيها.

لكنها - أي يارا - سقطت، بعدما فقدت الوعي.

كان أصعب شيء هو تلك الابتسامة.

ظلت على شفتيه حتى بعد أن تحركت عيناه للسقف.

ظلت في ذهن يوسف.. لا تفارقه.. لا يعلم كيف فعلها..

* * *

(41)

لم يظهر مبنى المباحث بهذا الشكل يومًا ما، كان أشبه بعش دبابير ركله أحدهم بقدمه بغتة، خرجت سيارات الشرطة بصافراتها المدوية مصحوبة بكل العتاد الممكن، كأن الحرب قد اندلعت، الكل يهرول خارجًا حاملًا العتاد والسلاح خارج المبنى، في غضون ثلاث دقائق أصبح المبنى شبه خاو إلا من الموظفين الأساسيين وبضعة ضباط، الغريبة أن ضابطين قد سبحا عكس اتجاه التيار صاعدين سلم المبنى تحتك أكتافهما بأقرانهما المهرولين في الاتجاه المعاكس، الكل يترك المبنى تجاه العنوان الجديد، بدا الأثنان وكأنهما لا يريدان أن يرى أحدٌ وجههما حتى ابتلعهما المبنى.

في سيارة نوح التي تطوع لقيادتها بعنف بالغ تجاه المستشفى، لم يكن يشغل بال يوسف سقوط يارا مغشيًا عليها، كان يعلم أنها ستنجو بعدما تفحص نبضها، ولم يشغل باله النهاية الدراماتيكية لحاتم الأسود، ولا حتى العنوان الذي لفظه، بل احتل كل جنبات رأسه ذلك الرسم الذي رسمه على المنضدة البيضاء بدمائه، ذلك الحصان المرسوم بدقة، حصانًا يشبه كثيرًا حصان الشطرنج.

كانت يارا بين يديه فاقدة للوعي حينما رسمت أمام عينيه رسومات تخيلية لبلاطات ملونة في أماكن الجريمة.. طابق معظمها مع قطع شطرنج من ذاكرته، لتكتمل الصورة..

«فلسفة الحياه.. أرض.. جيشين..».

«تقصد عسكري الأمن المركزي؟..».

«الفيل.. يتحرك بالورب.. ما ينفعش يعيش في خط مستقيم..».

«إمتى هتمشي صح يا وليد؟.. إمتى هتبطل لف ودوران؟..».

«و المحامي.. ؟.. ورائد الجيش؟..».

«رائد الجيش..».

«الطابية هي الدبابة البدائية، حركتها في خط مستقيم.. رمز مهم للجيش».

«معاذ مات».

«مجرد عساكر شطرنج وسخة!!..».

«الحصان هو القطعة الوحيدة اللي ممكن تعدي أي حصن،، مهما كان المانع».

«إفتح يابني! مباحث..».

رن هاتف مؤمن الشخصي باسم يوسف، رد بالرغم من انهماكه بالسواقة ليلقيها يوسف:

- بيقتل بتسلسل الشطرنج..«6 إنش» كانت رمز للـ6 ضحايا.

- 6 ضحايا؟!

- يوسف!

قالها مؤمن بصدمة ليتابع يوسف:

- العسكري هو مجند الأمن المركزي.. أسعد، الفيل اللي مايقدرش يتحرك في خط مستقيم هو المحامي النصاب.. وليد، الطابية بتتحرك في خط مستقيم، رمز الجيش.. معاذ، ودلوقتي الحصان.. القطعة الوحيدة اللي بتقدر تخترق أي حصن من غير ما توقفها حدود.

- اللي هو؟!.

- ظابط البوليس.

قالها يوسف بوجه يملأه الخوف، ليلاحظ مؤمن خلفه سيارة حمراء هبط زجاجها الداكن وخرج منها يد بها مسدس وجه ناحيته، شعر أن جسده كله قد تجمد، ظل يوسف ينادي عليه بدون أن يتلقى رده، ذلك لأن لعبة الموت قد اختارته تلك المرة.

* * *

(42)

دائمًا ما يضعك القدر أمام الاختيارات، غريبها وأغربها، عندها يصبح سكوتك -نفسه- اختيار..و الآن عليه أن يختار.. مؤمن البحيري.

في تلك اللحظة كان ينطلق بسرعة مائة وعشرين كيلو متر في الساعة على الطريق الدائري، وخلفه سيارة هيونداي حمراء داكنة يخرج منها مسدس جاهز لإصابته، هو يعلم أنه لن يستطيع أن يخرج مسدسه بالسرعة الكافية، ولو استطاع لن يمكنه أن يصيب هدفًا متحركًا في وضع معاكس، فهو ليس بساحر، كما يعلم جيدًا أن فرص إصابته كجسم متحرك على طريق سريع لن تتعدى العشرين بالمائة، لكنه لم يعط للاحتمالات مساحة الاختيار، ولم يضيعْ ثانية أخرى في التفكير أو الصدمة، وضغط بكل قوة.. على المكابح..

دوى ضجيج عالٍ ممتزج بصفارة مزعجة.. أراد أن يصيب السيارة المنطلقة خلفه بشيء أكبر حجمًا من رصاصة، سيارته.

لم تتحقق أمنيته عندما ضغط المكابح بكل قوة، ودارت سيارته الميتسوبيشي لفة كاملة حول نفسها، لكن لحسن الحظ، عطل رد فعله خطة قائد السيارة الحمراء من الضغط على الزناد لحاجته للسيطرة على سيارته ومنعها من الارتطام، لتدور الهيونداي أيضًا بدورها حول مركزها، بينما أطلقت جيب قادمة من الخلف صوتًا غاضبًا بعد أن انحرفت عن

مسارها كي لا تصدم الهيونداي وتمحوها من الوجود، ومرت ثانية، أخرج فيها مؤمن مسدسه ووجهه للهيونداي في إعلان عن تعديل شروط المسابقة، فصاحب الزاوية الأفضل الآن هو مؤمن، والأهم، أن الركض الآن سيكون في اتجاه سيارات الطريق الدائري الغاضبة، عكس الاتجاه.

لم يكن يتصور سائق الهيونداي أن تتبدل الأمور بهذه السرعة المجنونة وبحركة واحدة، ولا مؤمن نفسه، لكنها الحياة، وقد قالت نعم لرد فعل مؤمن، الذي بدأ الرهان بطلقة من مسدسه كادت تصل لإطار الهيونداي الخلفي ولكنها حادت قليلًا، ليبدأ السباق مجددًا، انطلقت الهيونداي بسرعة مجنونة تشق طريقها.وسط سباب وأضواء تحذيرية من القادمين من الخلف، وأيضًا بضعة «كلاكسات» رافضة ومستنكرة، وبضعها قاسية تتكلم عن شيء يخص أم السائق، تفادت الهيونداي نصف نقل كادت تنقلب من الحركة المفاجئة، ثم بعدها وميكروباص صغير أزاح لها الطريق بعدما شعر بجنون سائقها، يتبعها مؤمن بلا هوادة، و..

عصف أتوبيس صغير بالجانب الأيمن من الهيونداي ليقذفها على يمين الطريق بعدما دارت حول نفسها مرتين، لتصطدم بسور الطريق وتستقر، ضغط مؤمن على مكابح سيارته مجددًا ومال بسيارته ناحية اليسار «يمين طريقه» وتوقف الأتوبيس ليصطدم بسيارة مسرعة خلفه وتطوعت سيارة أخرى وأكملت سلسلة الاصطدامات ليقف الطريق تمامًا وتطلق السيارات أضواء الانتظار، هبط مؤمن من سيارته ممسكًا

بسلاحه موجهًا إياه «لنصف» الهيونداي المشوه، ولم يتحدث أي من أطراف الحادث بعدما رأوا أن هناك شقًّا لم ينته بعد من الأمر.

تباطأ مؤمن قليلًا منتظرًا أي رد فعل ممكن من صاحب السيارة، لكن لاشيء، لا رد، مجرد مزيد من الصمت، مد يده اليسرى بهدوء فاتحًا بابها الأمامي بينما لا تزال يمناه ممسكة بمسدس جاهز للحديث، فتح الباب وكانت الصدمة.

فتاة في العشرينيات من عمرها، شعرها الأحمر الطويل يتدلى فوق بشرتها البيضاء الناصعة، فتاة يعرفها جيدًا وليد، أو كان يظن أنه يعرفها، يسيل خيط من الدم فوق جبهتها، تتحرك بصعوبة شديدة وتمسك ضلوعها بتألم، نظر إليها مؤمن مصدومًا، كأنه يرى آخر شيء يتوقع أن يراه، ظن أنه يحلم، لكن الأمر لم يكن كذلك، إنها هي من رآها في صور المستشفى اللعينة، أخرج جهازه اللاسلكي من جانب الجاكت الذي يرتديه، وتمتم ببضع كلمات كان من ضمنها إسعاف، جلس على الأرض ممسكًا بمسدسه بيأس، ترجل بضع أشخاص يقتلهم الفضول، حاول بعضهم استيضاح ما يحدث، ظل مؤمن ساكتا للحظة إلى أن قال أحدهم: «أنا دكتور..».

في العنوان المجهول تجمعت أسراب الشرطة والأمن المركزي وخبراء المفرقعات، يقسمون أنهم لن يأكلوا الطعم هذه المرة، أكثرت الكلاب نباحها أمام باب الشقة المنشودة، واستعد فريق المفرقعات بملابسهم التي تشبه رواد الفضاء، ممسكًا أولهم بدرع طويل يشبه الذي يمسكه رجال الأمن المركزي، فتح الباب بعدها، انتظروا لثانيتين ولم

يحدث أي انفجار، لم تتناثر الآهات والأشلاء، لم يحدث أي شيء، مرت نصف ساعة حضر بعدها مؤمن ولا يزال الصمت باسطًا سيطرته، صدمته كلمة ضابط لا يعرفه عندما قال: «الأسود انتحر..».

توقف مؤمن قليلًا محاولًا إضافة عنصر جديد من المفاجآت لجدوله المزدحم.

- طاردتني سيارة تريد قتلي بداخلها فتاة إعلانات غاضبة.

- والآن مات الشاهد الرئيسي والوحيد مسلسل اليدين والقدمين في غرفة لا يوجد بها أي سلاح وسبيل للموت بعدما دلنا على مكان الضحية الجديدة.

تجاهل مؤمن الرد وسأل الضابط: «الجثة بتاعة مين؟..».

أكمل الضابط مرتبكًا..

- مافيش جثة..

- مافيش جثة؟

أعادها مؤمن مبتسمًا بسخرية على حاله.

- مافيش غير حاجة واحدة.

قالها الضابط.

- حاجة إيه؟

- الأحسن إنك تشوف بنفسك.

لم يكن يتوقع مؤمن أن يراها مكتوبة على الجدران..

(ها ها ها !).

كتبت بخط عريض من الدم على حائط الشقة المهجورة. لا متفجرات لا جثث.. فقط تلك الضحكة الساخرة التي احتلت كل الحائط.. وعلبة صغيرة داكنة ملقاة على الأرض تشبه علب المجوهرات.

لم يجد أي مشكلة في إضافة تلك الملحوظة لجدول اليوم الدموي، انحنى وأمسك بالعلبة الداكنة، تخلله شعور بأن الجميع يحدق به لثوان، فتح العلبة ليجد شيئًا ما داكن اللون بداخلها، شيء يبدو كالجلد.. شيء بشري.. شيء يخص والده.

مرت بضعة لحظات ولم يرتد لمؤمن بصره، لمس ما بداخل العلبة ثم نظر أمامه بثبات، ضغط على أسنانه بعنف لكنه بدا متماسكًا بعض الشيء.

حدثه أحد الضباط بصوت خافت:

- لقيناها قدام الحيطة أول ماجينا، الناس عايزينك في المباحث.

لم يلتفت مؤمن إليه بل حرك رأسه للضابط متابعًا اللوحة الفنية المرسومة على الحائط مردفًا:

- أنا عرفت اللي حصل للأسود..

- أأأ.. الموضوع مالوش علاقة بالأسود.

نظر له مؤمن غير مصدق أن هناك سطرًا جديدًا يجب أن يضيفه لجدوله المزدحم بالجنون قبل أن ينتهي اليوم، لم يسأله مؤمن، بل فضل الصمت.

* * *

(43)

مسرح الجريمة، اعتاد مؤمن أن يكون بارا للخمور واللذات وتدافع الأدرينالين جنبًا لجنب مع التوستيرون، أو في مدينة مظلمة من المقابر، أو في منطقة زراعية مهجورة، أو حتى شقة ما في حي ما، لكن لم يتخيل أبدًا أن يقف هكذا، مثل المتفرج في الدور الثاني من مبنى المباحث الجنائية، أمام باب اللواء عبد الجليل، أو المرحوم عبد الجليل، يرى فلاشات الكاميرا تضيء عينه وماضيه مع أخيه الأكبر، الذي تصارع معه دائمًا، لم يكن يعلم أن الضابط المقصود ليس هو وأن المطاردة كانت مجرد تمويه، خدعة جديدة أطعمها الشيطان لهم جميعًا..لم يكن يتخيل أن يرى عبد الجليل ملقى على الأرض وبرأسه طلقة من مسدس مكتوم، وفي صدره يستقر خنجر من نفس النوع الذي استخدم من قبل، بل وأن عينيه قد حاكهما شخص ليس بنفس البراعة السابقة لكنه أراد أن يقلد الطريقة المتبعة، شخص قد حفر رقمين آخرين على وجهه الخمري، ولون بلاط الأرضية بشكل يشبه حرف «L».

جلست جاكلين بجانب الجثة وبجانبها رامي، تكدس المكان بعشرات الضباط يشعر جميعهم بالغدر والغضب، يشعر مؤمن بأضعاف أضعافهما، يرى جاكلين وهي تمسح عن عينيها بضعة دموع عن غير عادة، لتترك مكانها لرامي وتهم بالرحيل، وجدت مؤمن في انتظارها ولم تتمالك نفسها وسقطت الدموع منها واحدة تلو الأخرى، رفعت نظارتها

الكبيرة محاولة تجفيف عينيها بظهر يدها بعيدًا عن الجوانتي الطبي، لم يستوقفها مؤمن الذي خضبت نصف وجهه دمعة بعدما عجزت عيناه عن تصديق ما ترى.

لم يتمالك نفسه هو الآخر، بل توجه خارج المكان بعينين مرغرغتين بالدموع، يرى جاكلين وهي تحرق سيجارة وتحاول التماسك ثم تفشل، ويوسف الذي كان واقفًا عند الباب غير مصدق، واضعًا يديه في جيب معطفه كعادته، ولكنه لم يعترض مؤمن الخارج بقوة، سمع سيلًا من التوبيخ والسباب من بعض الضباط الغاضبين له، لكنه ظل واقفًا يشاهد. مصير عبد الجليل، الرجل الذي لم يرحم رجال الأسود سنه، رجلا الأسود اللذان دخلا المبنى في غفلة من مالكيه، دخلا عكس التيار، وصعدا السلم إلى الدور الثاني، استغلا الارتباك وخروج الجميع تجاه الهدف الوهمي، استغلا انتحار الأسود الدراماتيكي وركض كل من كان داخل المبنى لغرفة الاستجواب الدموية، فضرب أولهم حارس المكتب بطلقة من سلاح مكتوم، ولحقه الثاني قبل أن يسقط أرضًا وينتشر الضجيج، ثم دلف الثاني بدوره على عبد الجليل مقاطعًا جملته «انت إزاي تسمح لنفسك...» برصاصة في الرأس.

ثم أنهى عمله في ثلاث دقائق، ليس بنفس جودة سيده، الذي صنع دائرة في عنقه قبلها بدقائق، لكن بالقدر الذي يوصل الرسالة المطلوبة، والتي كتبها أحدهم على جدار الشقة.

استوقفت جاكلين مؤمن باكية:

- أنا ماكنتش أتخيل انها هتوصل لهنا.

- إحنا خسرنا.

قالها مؤمن ثم أضاف محدثًا ذاته بصوت خافت غير مصدق:

- كانت خدعة، العنوان وموت الأسود كان مجرد تشتيت.

- ليه عبد الجليل، ليه مش أي ظابط تاني؟

- لأنه يعرفني.

تمتم بها يوسف لحاله بالعًا ريقه بصعوبة بالغة لينفجر مؤمن بوجهه:

- بالمناسبة بقى!، أحب أقولك إن محاولتة قتلي كانت مستحيلة، كانت تمثيليه، أنا عايز أفهم!! انت إزاي عرفت كل ده؟!. إزاي عرفت إن اللي هيتقتل ظابط؟.. وليه مش أنا؟

- لأنك عمرك ما غمضت عنيك.. دي النقطة اللي ماخدتش بالي منها.

- وليه بقى أختار العسكري الغلبان ده مع أنك ماتعرفوش؟

- لأني ما كنتش لسه كتبت المقالة.

- ومين بقى اللي أوحى للأسود بالفكرة الجميلة دي.. هه!..مين؟!

- ماعرفش، أنا أصلًا مابلعبش شطرنج، عبد الرؤوف هو الـ..

- عبد الرؤوف! الدكتور عبد الرؤوف؟!

قالها مؤمن بإعجاب وغضب ممتزجين، كأنه توصل لشيء ما.

- ما له عبد الرؤوف؟!، أي حد في الدنيا عارف ان القطع بتتحرك كده.

- كل الناس تعرف القطع، بس مش كل الناس بترتبهم كده يا دكتور.. فوق بقى!

- اللي بتفكر فيه ده مستحيل.. جنون!!

- لأ.. أبعد من الجنون.. أبعد بكتير.. شوف اللي بيحصلنا وقولي فيه إيه مستحيل أكتر من اللي إحنا فيه.. هه؟.. بص حواليك واشرحلي انت! بص حواليك!!.

- الإسود قال أن فيه واحد أوحاله بالجرايم.. اسمه لوكي.

- لا يا راجل؟!. وانت مصدق بقى الكلام ده؟ وده أدور عليه فين؟.. في السينما؟.. ده اسم ألفه الأسود من دماغه، اللي بيشتغلنا كلنا من الأول هو سي زفت بتاعك، عبد الرؤوف.

- ماتتكلمش عنه كده!!

- أنا أتكلم عنه زي مانا عايز.. وهجيبه هنا زي الكلب.

- انت بتفكر غلط!

قالها صارخًا.

- اللي بيفكر غلط هو اللي كتب مقالة هيجت عليه وعلينا واحد مجنون، اللي بيفكر غلط هو اللي خلانا ندّبح ورا بعض زي الفراخ، هو ده اللي بيفكر غلط، مش أنا.

قالها ورحل غاضبًا.

تجمد يوسف في مكانه عندما أصبحت الكلمات حادة مثل الشفرات، أمسكت جاكلين بساعده بعدما هم بالرحيل قائلة:

- عبد الجليل كان عزيز عليه.

حرك يوسف رأسه مقاومًا رغرغة ملأت عينيه وهم بالذهاب.

وقف لعشر دقائق أخرى يشاهد جثة عبد الجليل للمرة الأخيرة، ثم ذهب للمستشفى ليطمئن على حالة الضحية القادمة، يارا، تذكر أنه تركها وحيدة مع «سكانيا» الذي بالكاد يستطيع حماية نفسه، شعر أنه من المستحيل أن يطلب من مؤمن أي حماية شخصية ليارا بحجة أنها الضحية الجديدة، فقرر أن يكون هو حمايتها، بلا سلاح، أو جسد يعينة على القتال، بلا أي شيء.

توجه لخارج المبنى متجاهلًا كم السيارات والتجمع الشرطي غير الطبيعي المسيطر على مدخله، أخرج هاتفه النقال وضغط على اسم «سكانيا»، ثوان ورد صوته، صفعته المفاجأة حينما سأله عن حالة يارا، قال له إنها جيدة لكنه قد تركها، ذلك حينما خاطبه مؤمن أن يتوجه للمباحث في الحال، بل وما زاد الأمر تعقيدًا أنه – أي نوح – قد طلب منه مؤمن منذ دقائق الحصول على عنوان الدكتور عبد الرؤوف في الإسكندرية، حيث إن مؤمن- في طريقه للقبض على عبد الرؤوف على الفور.

- ويارا، الهدف الجديد! الضحية الجديدة؟!! سيبتها لوحدها؟

علق يوسف مصدومًا.

- والله أنا مش بودي جارد يا ريس، كتر خيري أوي كده اني وصلتها واطمنت عليها، وبعدين – بقولك إيه- انت شوفت بعنيك، ما الواد دبح نفسه قدامك.. خلاص الحدوتة خلصت.

- قبل ما تخش على المكتب بتاعك، هتعرف الحدوتة خلصت ولا لسه.

قالها واتجه للمستشفى.

أيقظها صوت جهاز قياس نبضات القلب، لتشهق في رعب كأنه انتزعها من أعماق عقلها المرتعب، كان يطلق صافرتين كل مرة، نظرت حولها مندهشة أيقنت أنها قد مرت لتوها بكابوس ما، ثم تفحصت يدها المتصلة ببضعة أسلاك، وملابسها التي تغيرت تمامًا لتصبح رداء أبيض كالذي يرتديه المرضى، كانت بمفردها، يحيطها رائحة عقيمة، تعلمها جيدًا وتكرهها كثيرًا، رائحة المستشفى.

قامت مسرعة ونزعت الأسلاك عن يدها ووضعت قدميها في خفين دافئين لابد أنهما ينتميان للمكان، شعرت بالبرد يتغلل داخل جسدها كالفيروس فغطت جسدها بمعطفها الطويل ثم وقفت أمام باب غرفتها المغلق، ترددت ثانيتين، وفتحته، لكن شيئًا في قلبها جعلها تشعر ببرودة أقسى من التي شعرت بها في كابوسها، فمنظر نافورة الدم الخارجة من رقبة حاتم الأسود، وكلماته الأخيرة عن أنها الضحية القادمة، كل ذلك جال في خاطرها كنسور جائعة تدور فوق تائه في صحراء، شعرت بالخوف، خوف يمتزج بوحدة وإحساس بالخطر يتخلل روحها، لا تعلم مصدره، لكنها شعرت أن شيئًا يحدث، ويحدث الآن، أرادت أن تصرخ، لكنها شعرت أن أحدًا لن يسمعها.

كان الممر أمام حجرتها مزدحمًا بالمارة.

- مش معنى إن الكرياتين عالي يبقى لازم Renal Failure، فيه حاجات تانية بردو لازم نبص عليها.

قالها طبيب صغير السن حليق الرأس لآخر يمشي بجانبه ممسكًا بملف مفتوح من أمام يارا، التي بدت مختفية لا يراها أحد.

جاءت من أقصى اليمين ممرضة تهرول بعدما سمعت صوت نداء في الإذاعة المركزية، وبضع أقارب أحد المرضى في الاتجاه المعاكس يمزحون عن شيء ما، و..

شخص قادم من اليمين، يمتلك جسدًا نحيفًا متوسطًا في كل شيء، وشعرًا أشيب كله لا يتناسب مع سنة الذي لم يتعد الثلاثين، يحمل «بوكيه» ورد رأت تحته كل مخاوفها، جزء معدني أسود، يبدو وكأنه جزء من مسدس جاء من أجلها، جاء ليقتلها في غرفتها، ثم يفعل بها مثلما فعل بكل الضحايا..

تصاعدت نبضات قلبها لدرجة أنها لم تعد تسمع غيره، اتسعت عينها رعبًا، تجمدت، عجزت عن الحركة والكلام، تمنت أن تتبخر وسط الزحام لكنها لم ولن تفعلها، رآها، ابتسم لها ابتسامة خبيثة، تسارعت ضربات قلبها أكثر، مرت اللحظة ببطء، كان يقترب منها بكل ثقة، ينتظر اللحظة المناسبة ليقذف ببوكيه الورد ويخرج مسدسه الذي أصبح واضحًا مثل الشمس لها، ويدفعها للداخل، ثم يقتلها، ستفقد دمها وسيرسم به لوحة فنية، سيحيك عينيها كالنعل القديم، سيغرز في صدرها خنجره الموشوم، سيفعل كل شيء، أصبحت المسافة بينهم ستة أمتار، توقفت عن التنفس حتى نسيت أنها لا تتنفس.. أنه الموت ولم يأت ليمزح..

- ماتخافيش!

قالها ولم تر وجهه، لكنها رأت يده التي مدها وراء ظهره، مرتديًا بالطو طبيًّا أبيض كأنه طبيب، كان هو من فعلها أول مرة.. في الحسين.. كان هو..

دست يدها بين يديه كالطفلة الصغيرة التي تشبثت بكف أبيها، جرها وراءَه، حاولت مجاراته في هرولته، كان يتجه في عكس اتجاه الأشيب، يقابله، وجهًا لوجه.. ينظر له في عينيه الضيقتين، تزداد ابتسامة الأشيب بعدما تعرف على الطبيب المزيف ذي اللحية البنية الخفيفة، فقد ترك على صدره علامة صنعها هو من قبل، كانت نقطة الالتقاء عند باب أحد المرضى كبار السن، يجلس على مقعدة المتحرك بجانب غرفته ذات الباب المفتوح، في انتظار ممرضته التي بدت وكأنها تحضر شيئًا ما من داخل غرفته، عند نقطة الالتقاء، لم يعطه يوسف أي فرصة لإخراج مسدسه من بين زهوره الحمراء الداكنة، لكنه دفعه دفعة قوية، جعلت توازنه يختل ليجد المقعد المتحرك له بالمرصاد، ليسقط بداخل الغرفة وتتساقط الورود مع مسدسه الأسود المزود بكاتم للصوت.

- سامحني.

قالها يوسف لنفسه قاصدًا الرجل الكبير الذي أصابه الهلع، ركض بعدها يوسف كالمجنون ووراءَهُ يارا التي عاد لها الأمل من جديد، صرخت الممرضة عندما رأت المسدس يسقط منه أرضًا، قام من عثرته سريعًا موجهًا المسدس إلى الممرضة التي رفعت يدها تلقائيًّا ليسقط منها ملف المريض وكوب بلاستيكي، لم تتفوه بكلمة بعدما أيقنت أنه يعرض عليها حياتها أو صرخة أخرى، خبأ المسدس في ظهر سرواله

الأسود ليغطيه بالجاكيت الذي يرتديه، تجمع المارة ليروا ما حدث، تركهم يتفقدون الممرضة المذهولة والورود الحمراء المبعثرة أرضًا، وهم بالركض في نفس اتجاه ركض يارا ويوسف، انعطف يمينًا ليجد الممر وقد خلا تقريبًا من الناس، مشى بهدوء، وتوقف أمام اختيارين، إما أن يكمل طريقه للنهاية، أو يفتح بابًا كتب عليه «سلم الطوارئ».

- لازم تمشي دلوقتي!

قالها يوسف ليارا في السلم المظلم الخاص بالطوارئ.

- أنا عمري ما خفت وانت معايا.. أنا مش همشي.

نظر إليها، عجز عن قول أي شيء، مسح بإبهامه دمعة سقطت من عينيها السوداء الساحرة، ثم أضاف:

- لازم تمشي، هنا إحنا صيد سهل.. مافيش وقت.

- أنا مش عايزة أعيش من غيرك.

قالتها ممسكة بيده تعتصرها بعنف.

- اللي ربنا عايزه هيكون.

قالها شاردًا ثم استطرد بعدما أيقن أنه لا يملك المزيد من الوقت:

- هتلاقي تحت مخرج من المستشفى، خدي أول تاكسي وروحي بيتك، استخبي هناك لحد ما أكلمك أنا أو مؤمن، أنا هعطله.

- اوعدني اني هشوفك تاني..

قالتها ليصمت يوسف لثانية، ثم قالها بعينين صادقتين:

- أوعدك اني هعمل أي حاجة عشان تعيشي.

أمسكت بيده وضمتها بقوة لوجهها، أفلت وجهها وأمسك يدها الباردة وقالها بحزم.

- دلوقتي يا يارا..دلوقتي!.

أفلتت يده بصعوبة ودموعها تتساقط مع خطواتها المتسارعة، سمع الأشيب صوت خطوات تنزل من على السلم المعدني في اللحظة التي هم فيها بالرحيل، تجمد للحظة ثم ابتسم ابتسامته الباردة، فتح الباب بهدوء، نزل ببطء شديد مخرجًا سلاحه المفضل هذه المرة، شفرة الحلاقة الكبيرة، وكأنه يريد أن يستمتع، نزل السلم المظلم رويدًا محاولًا عدم إصدار أي صوت يذكر، واصل النزول حتى وصل لنهاية السلم المعدني، شعر كأنه سمع صوت إنذار في الطابق العلوي، يشبه صوت إنذار الحريق، توقف لثانية ليسترق السمع حتى وضح الصوت تمامًا، وأصبحت الضجة واضحة، سمع صوتًا آخر أشبه بغاز يتسرب، نظر أمامه ليجده يخترق وجهه وأنفه، شلال أبيض من طفاءة حريق اندلعت في وجهه النحيف، بلع منها واستنشق الكثير، أخذ يسعل، ويحرك الشفرة في جميع الاتجاهات ليصيب من يحملها، لكنه بدا أن شبحًا يحملها، لا شخص، احترقت عيناه من أثرها ليحاول جاهدًا مسحها من المسحوق الأبيض الحارق، أصيب بالعمى المؤقت في مكان يحتاج كشافًا كهربيًّا لترى فيه بوضوح، سمع صوتًا آتيًا من خلف الشلال الأبيض الذي لم يتوقف:

- انت شميت كمية ثاني أكسيد الكربون تساوي 40 ضعف اللي ممكن يتحمله الشخص العادي، الأعراض: «صعوبة في التنفس نتيجة تجمد خملات الرئة، وده لأنه غاز بارد».

تعالى صوت سعاله كصوت شخص قتلته السجائر على فراش الموت، أكمل الأشيب محاولته لقنص أي ضربة للهدف غير الموجود ليكمل يوسف الأعراض موجهًا شلاله الأبيض:

- ده غير الاختناق.. بسبب منع الدم من أنه يتحد مع الأكسيجين اللي رئتك - أصلًا - مش قادرة تستخلصه من الهواء، النتيجة إن الأكسيجين مش واصل للمخ أو باقي الأنسجة، نفس أعراض الغرق، لكن في حالتك، اسمها تأثير بوهر.

تجاهله الأشيب وتابع تسديد طعناته المتوترة بعشوائية منتظرًا الهجوم من أي جانب، أحاطه الهواء الأبيض حتى سقط أرضًا راكعًا على ركبته اليمنى، يشعر بكثير من الاختناق ليضيف يوسف سؤاله:

- السؤال دلوقتي، إزاي أنا معاك وبتنفس؟!

ليجيب على نفسه بعربية فصحى:

- يستخدم غاز ثاني أكسيد الكربون في إطفاء الحرائق لأنه ثقيل نوعيًّا، لأنه يتجه دائمًا للأسفل.

قالها لينظر الأشيب فوقه مسدلًا مسدسه، ليجد خيال يوسف، الذي تعلق بباطن السلم الواقع فوقه، ممسكًا بطفائة كبيرة الحجم ومحيطًا

وجهه بشال صنعة من البالطو الأبيض، ليرمي عليه الطفائة وتصطدم برأسه مباشرة، ويسقط شبه ميت ليضيف يوسف.

- الموت عمره ما كان معضلة.

قالها محررًا وجهه مما يغطيه.

قبلها بثلاث دقائق، وقفت يارا أمام المستشفى التي دب الهلع فيها، وخرج منها الكثيرون، أشارت لتاكسي اقترب منها، دخلت بسرعة في الكرسي الخلفي، غير مصدقة أنها نجت، تعلق نظرها بمخرج الطوارئ، أطلقت سيارة خلف التاكسي نفيرًا ليتحرك السائق مرغمًا منتظرًا كلمة من زبونته الصماء، والتي تداركت الموقف وقالتها بثقة بعدما مسحت بواقي دمعاتها:

- صلاح سالم لو سمحت.

قالتها وتعلق نظرها بمخرج الطوارئ مجددًا لعله يخرج في أي لحظة، أرادت أن تقفز من السيارة مجددًا وتدخل لتنقذه، غلبها شعور بالخوف، اتخذت قرارها:

- وقف العربية!. وقـ...

نظرت لترى في عينيه شيئًا أخافها أكثر من كل كوابيسها المرعبة، شيئًا ظهر في المرآة، جبهة متعرقة وشعر غير مصفف على طريقة معمر القذافي، وضحكة بها كثير من المرض، يحاول أن يكتمها.

أرادت أن تفتح الباب وتهرب، لكن شيئًا استوقفها، ألم شديد أحست به في ركبتها اليسرى، ألم ما لبث أن انتهى، لترى يده قد غرست

قلمًا يشبه قلم قياس السكر بجانب ركبتها، فقدت الاتصال مع نصفها السفلي، ثم أمسكت بيده التي لم تتزحزح، وأرادت قول شيء ما، شعرت بأن جفنيها ثقيلان.

استسلمت للنعاس.

بعدها بساعتين كان يوسف في الإسكندرية محاطًا بمناخ شتوي غير مستقر، الرؤية التي انتابته بأن مؤمن قد يكون في طريقه لإهانة مثله الأعلى كانت سببًا آخر يجعله يتمنى الموت، لم يتطرق تفكيره لأي مما حدث، بل لما سيحدث، أخرج هاتفه الذي أشارت بطاريته للنصف إلا قليلًا وهم بطلب رقم يارا، متمنيًا من كل قلبه أن تكون قد وضعت هاتفها في جيب معطفها قبل أن تترك غرفتها، رن الهاتف من دون رد، ما أن مرت ساعة وربع حتى وجد نفسه في أحضان عروس البحر الأبيض، حاول الاتصال بهاتف عبد الرؤوف المنزلي لعلمه بكرهه الشخصي للتكنولوچيا والهواتف المحمولة، لم يحصل على أي رد، تمنى أن مؤمن لم يسبقه له، أعلن هاتفه عن استلام رسالة من رقم مجهول، فتحها يوسف لتستغرق بعض الوقت في التحميل، كانت رسالة مصورة من هاتف يارا.

رسالة مؤلمة..

صورة تستحق كل نوبات الغضب ومحيطات البكاء..

صورة بها يارا وهي فاقدة الوعي ومقيدة في مكان ما غير واضح.

نزل على ركبتيه منهارًا..

كانت السماء مبهمة كأفكاره، درجة الحرارة قاربت العاشرة سليزيوس، وتوقع الجميع هطول أمطار غزيرة، ولم لا!.

تغيرت الخطة، تجاهل ما سيحدث لعبد الرؤوف ودخل كهفه على الشاطئ، ليجد حائط بطولاته، الصور والمقالات والأبحاث، جميعها تنظر إليه ساخرة، أخرج مفكرته وخط سطوره الأخيرة:

«اليوم أيقنت الحقيقة كما هي.. لا جمال فيها ولا روح..

اليوم تأكدت أن هذا هو منطق الحياه..

عندما تخشى الوحدة.. يطبق عليك الحظ قبرًا..

اليوم أيقنت أن بعض الأخطاء قد خلقت للخلود رأيته يقاتل بلا هوادة حتى آخر رجل في جيش افتراضي، قاتل ليحصل عليها، جائزته قبل الأخيرة، حصدها بسببي.. أمقته وأمقت نفسي.

لن أحمل العار منتظرًا دوري في هذا العذاب، أعلم ما ينتظرني بعدما أنتهي، أعلم أن نهاية الجحيم جحيم أكبر منه، أعلم.. وألعن كل ما فعلت وما سوف أفعل، بعدك يحين دوري يا ملكتي، فلنجعل النهاية واحدة.. اليوم ننتهي معًا».

رمى مفكرته أرضًا، ثم اختفى ورجع بتلك السلسلة ذات الثلاثة أمتار طولًا، تأكد من صلابتها، ثم أحضر القفل الصغير والزجاجة الكبيرة التي وضعها بجانب صورته مع أخية فوق التلفاز، خرج اتجاه البحر ليجد نبوءة الأرصاد الجوية تحققت، مشى ضد الهواء العاتي والمطر المنهمر، ضد الفشل والأخطاء القاتلة، عندما وصل لنهاية لسان الموت ركع على

ركبتيه، كانت بجانبه الصخرة التي ظلت على عهدها، تنتظره ليحتضنها، ليغرقا معًا، كان الشفق قد أطلق خيوطه الحمراء فوق الشاطئ، ينير له طريق ليس له، لمسها كحبيب يداعب حبيبته، وضع الخطاف الحديدي في الحدوة الحديدة الخارجة من الصخرة الوحيدة، ثم أمسك الطرف الآخر من السلسلة وربطها حول قدمه بعنف شديد متممًا عليها كيلا تخذله، أتم فعلته بوضعه القفل في طرف السلسلة ثم أغلقه، أخرج من القفل مفتاحة وهم برميه، تذكر كلمة عبد الرؤوف:

- ذهاب وعودة.

هكذا قالها..

نظر إلى المفتاح ووضعه في جيب معطفه، أشاح بوجهه للسماء التي بكت حزنًا عليه وعلى مصيره، سقط المطر على وجهه وشعره الطويل الذي أغمى عينيه.

مرت أكثر من دقيقتين لم يغادر نظره تلك الزجاجة والمركب الخشبي الباقي بداخلها منذ أمد، أمسك بعنق الزجاجة وهشمها في الصخرة، أمسك بالمركب الخشبي الصغير وتفحصه بعين دامعة، ثم انحنى يقربه من الماء التي ساقته بعيدًا رغم المطر.

- انت حر!

قالها للمركب بفم فغر ووجه مجهد، ثم ألقى بالشهادتين رغم علمه بأنهما لن يُقبَلا، ودفع الصخرة، هبط معها ليرتطما بالماء بعنف، سقطت أسرع منه، جرت قدمه للأسفل بغير رحمة، شعر وكأنها قد تخلع قدمه

عنه، لكنه استسلم، هبطت سبعة أمتار حتى استقرت، واستقر هو معلقًا قبل المنتصف، فاردًا ذراعيه بجانبه، تشاهد عيناه السطح وخيوط الشفق، ويسمع صوت المطر ويراة يسقط غير آبة به، أغلق عينيه بعدما خرجت من فمه فقاعة هواء صغيرة.. واستسلم..

إنها النهاية..

«**عقلك بيخدعك!**».

«سنة 88 في حادثة حصلت في جمرك بورسعيد».

«هحل اللغز ده».

«كاميرا بتسجل كل حاجة.. وبتتفاعل معاها».

«نسيت اللي حصل لأخوك..؟!».

«في حاجات مابتنتهيش بالوقت..».

«حادثة مات فيها مهرب صغير».

«مريض تعدد الشخصية شخص عادي..».

«مابنامش كويس».

«مافيش حاجة إسمها لوكي..».

«مش شيء مادي..».

«سابقنا بـ100 خطوه».

«حاجات مابتنتهيش بالوقت..».

«كل شخصية جديدة ليها تفاصيلها».

«حتى في نبرة الصوت وضغط الدم».

«رمق علبة سجائر على الكرسي المجاور له».

«انت كويس؟..».

«بيقتل كل اللي يعرفني..».

«المرض النفسي هروب من واقع أصعب».

«مش قادر أتنفس هنا..».

«العالم كله.. بأسراراه.. عايش جوايا..».

«خلي رؤيتك أعمق!».

«كان عندك فرصتين تقتلني».

«..المهم يموت في الترتيب الصح».

«أعرف واحد بيمشي وهو نايم».

«أبعد من الجنون..».

«هيتغير شكل الدنيا قدامك».

«شيئًا ما يألمه في كتفه».

«مسك جزع شجرة وخبطه».

«حاجات مابنتهيش بالوقت».

«جمرك بورسعيد».

«مات بنزيف داخلي..».

«عقلك بيخدعك!.».

«إمتى آخر مرة بصيت في مراية؟..».

...

«في النهاية لازم تعرف انه مجرد وحي».

«زي ما قولت..أنا العشماوي..».

«أنا العشماوي».

فتحت عيناه ورأى الرعب، وأصبح لديه شيء يهابه أكثر من الموت، أراد أن يصرخ لكنه لم يستطع، أراد أن يطلق صرخة من أعماقه.. تقضي على صمت البحر البارد الميت، حاول إفلات السلسلة لكنها أبت، تذكر أنه يحتفظ بمفتاح في جيبه، دس يده المرتعشة في جيبه باحثًا عنه، أمسك به، شعر بانتهاء الأكسيجين في جسده، قاوم للوصول للقفل اللعين، أعاقته الرؤية غير الجيدة، يحرق الماء المالح مقلتيه كالنيران، حاول وضع المفتاح في القفل، فشلت يداه المرتعدة وسقط المفتاح، حاول تحريك أصابعه في الفراغ كي يمسك به، فشل، الخطاف الحديدي! لاحت له الفكرة، قرر أن يغوص بضعة أمتار ويحرره - أي الخطاف - من الصخرة ومعه نفسه، لكن الأكسيجين قد نفد بالفعل، فلن يكفيه الأكسيجين للصعود لسطح الماء فكيف يغوص أكثر؟! اتخذ القرار وقاوم رغبة رئتيه في استنشاق الماء، غاص ثلاثة أمتار إضافية حتى انتهت السلسلة، أمسك الخطاف بيد الخوف...

مرت دقيقتان ونصف من الصمت منذ نزوله، تساقط فيهم المطر بغزارة فوق سطح الماء الأملس الهادئ، انتهت فترة الانتظار بعدة

فقاعات تفلت سطح البحر حتى خروجه في النهاية، فتح فمه عن آخره باحثًا عن الهواء، يستنشقه بشغف وحب، بغضب وبكاء، يضرب بيدية البحر ليقترب من الشاطئ، يضرب البحر الغاضب مجددًا حتى خرج من الماء، زحف على الشاطئ من دون أن يقف، لمس برأسه التراب المبلل كأنه يسجد، بكى بهيستيريا و...

قالها مرارًا وتكرارًا بكايًا.

- لأ...

- لأااا

و استسلم للرمال فاقدًا للوعي.

بورسعيد 27-12- 1988:

- الأجرة غليت ربع جنيه يا جماعة.

قالها سائق البيجو «7 راكب» ليثور رجل قد كتب العمر قصائد البؤس على وجهه:

- ليه يا بني؟.. حرام! ربع جنيه مرة واحدة؟

السائق: يابا الدولار زاد وهيعلى كمان كام يوم، بيقولوا هيعدي الـ80 قرش.

-طاب مش لما يبقى يوصل يابني!

- ما هو كل حاجة غلوها علينا يا حج زيت العربية، والبنزين، وقطع الغيار، انت عارف الناس مابترحمش،، وبعدين- لا مؤاخذة - اللي عنده اعتراض يتفضل وحقه علينا.

- توكل على الله ياسطي ربنا يستر طريقك، هنعمل إيه يعني، قالها شاب للسائق الذي نظر خلفه، وأخرج بظفر أصبعة الصغير شيئًا عالقًا بين أسنانه ليجد كرسيًّا واحدًا شاغرًا، نظر إلى خارج النافذة ناحية قهوة صغيرة مدمرة لا يجلس عليها إلا القليل، أحدهم رجل نحيف أسمر البشرة، يضع قدمه اليمنى فوق الكرسي الخشبي الذي اعتلاه، وبيده اليمنى جوزة يقبل فوهتها فرنسيًا ويطلق نفيرًا أبيضا كقطر يعمل بالفحم، ألقى السائق التحية عليه وأضاف:

- إيه يا عم بيسا! هنمشي ولا هنعمل إيه؟

أشار إليه التنين البشري بيده في حركة معناها «الصبر»، ثم أخرج سحابتين من منخاره، أدار رأسه لليمين قليلًا ناحية ممر ضيق للغاية ينتهي ببضعة أشخاص يعملون في صمت، ليجهر بصوت أجش:

- ألاباندا! خلص عشان سمرة كومبليت.

خرج بعدها بدقيقة واحدة شاب نحيف يمتلك شعرًا مجعدًا نسي - عن عمد - أن يحلقه، تتدلى سيجارة من فمه، حاملًا في كلتا يديه كيسان ثقيلان، يهرول مسرعًا تجاه «شنطه» السياره، استقر خلفها وسمح لنفسه بفتحها ودس أشياء تشبه الأنابيب في أماكن غير ظاهرة في الشنطة، كانت في الحقيقة الكثير والكثير من البنطلونات الجينز، ملفوفة بقسوة ومثبتة بشريط لاصق لتأخذ حجم الأنبوب الغليظ وذلك لتقليل مساحة السطح، ظهر من خلفه طفل صغير يلهو في ساعة يد بدت جديدة، يسقط شعره البني الناعم فوق جبينه الأبيض، يرتدي ملابس مهندمة، يقف بين الأكياس الفارغة والكارتون الملقى أمام عتبة «الممر»

الضيق، حتى خرج شاب في بداية العشرينيات، يرتدي كثيرًا من الملابس بطريقة شبه كوميدية، بضعة معاطف فوق بعضها، وثلاث بنطالونات، وحذاء بدا جديدًا، والعديد من البلوفرات، لينظر إليه الطفل متعجبًا، ويبادله الشاب بنظرة مبتسمة أرادت أن تمحو حرجًا.

- شكلي يضحك أنا عارف، بس هطلعلك فلوس المدرسة من المصلحة دي.

- بص! مكتوب التاريخ والوقت.

قالها الطفل متجاهلًا كلماته مشيرًا للساعة الرقمية الفضية في يده.

- مبروك يا عم، جيبتهالك اهو زي ما وعدتك.

- شكرًا.

قاطعهما السائق:

- يلا يا طارق، شهل يابا عشان نخلص.

جلس طارق كشوال من القطن على الكرسي الفارغ، وجلس الطفل على ساقه اليمنى المقابلة للنافذة، أدار السائق سيارته المحتضرة، وأرغم الكاسيت القديم ذا اللون الأسود على بلع شريط شفاف، لتشدو الساحرة بترنيمتها:

- بحلم معاك.. بسفينة، والموجة ترسينا،، ونبحر تاني،، الريح تعاني وألاقيك، في عنيك وإديك شطي وكياني، العالم كله.. بأسراره.. عايش جوايا عايش ويايا.

أخرج الطفل يده اليمنى من الشباك عندما تحركت السيارة، صانعًا طائرًا بكفه الرقيقة، يطير ضد تيار الجو البارد.

- أقفل الشباك يا كابتن معلش الجو سقعة.

قالها أحد الركاب لطارق الذي قال للطفل الحالم بدوره

- يوسف! قولتلك بلاش الحركة دي، دخل إيدك!

و أدار مقبض الباب لينغلق الزجاج..

مضت خمس دقائق حتى وصلا لمنفذ التفتيش الجمركي، تغير وجه السائق كثيرًا عندما لاحظ الضابط الذي تجمع حوله المفتشين كالجراد.

- يا دين أمي على الحظ، أنا اصطبحت بوش مين النهارده! هي ناقصة أم فريد الصغير على المسا.

قالها ليتحول وجه طارق من الأبيض للون الأحمر القاتم ليضيف:

- بلاش يا سمره، وقف العربية أكنها باظت، ده شراني ابن كلب.

- أوقف إيه يا عم؟ هتقضى بإذن الله ماتخافش، ياما دقت عالراس طبول.

تقدمت البيجو حتى وصلت لنقطة التفتيش، نزل السائق وناول أحد المفتشين بضع ورقات حمراء مطوية بين أصابعه، فتح المفتش الشنطة متظاهرًا بتفتيشها ثم أغلقها، أشار الضابط لمفتش آخر للذهاب وتفتيش السيارة، أخرج الأخير كشافًا «بطارية» من جيبه واختبره في يده قبل أن يسأل السائق بلهجة غير مريحة:

- رايح فين يا سمرة ؟..معاك إيه؟

- القاهرة يا باشا،، مافيهاش حاجة، أبو جاد غربل ميتين أبوها.

قالها السائق غاضبًا قاصدًا المفتش الأول.

أضاء المفتش بطاريته في أعين الركاب بعدما فتح الباب، لم يجرؤ أيٌّ منهم على الاعتراض، استقر الضوء على طارق الذي بدأ يتعرق بالفعل، أشار لمفتش آخر ليفتح الباب المقابل له، قائلًا :

- انزلوا يا أفنديه!

اشتعل السائق غضبًا:

- جرى إيه يا أبو جاد بقى، الله! ما تقول للباشا حاجة يابو جاد، حد الله ما يرضي حد اللي بيحصل فينا ده.

تجاهل المفتش كلمات «أبو جاد» الذي أكد له أن العربية «مافيهاش حاجة»، ثم أشار المفتش الغاضب لعسكريين يرتديان ملابسهما السوداء القاتمة، وفي يد كل منهما عصا غليظة، نزل طارق مرتعشا ومن قبلة «يوسف»، وبعدة بقية الركاب، تحرك خطوتين قبل أن تأتيه الصفعة على وجهه من حيث لم يدر، كان هو، «فريد الصغير» غاضبًا كجمرة من النار، وتلا صفعته ركلة قوية، كانت بمثابة طلقة مسدس «Revolver» في ميدان سباق الخيل.

قبل أن ينفجر طارق معترضًا على الركلة انطلقت العصي الغليظة بغير رحمة على جسده، تؤلمه وتكسر عظامه، قام أحد العساكر بسحله، في حين أكمل الآخر ضربه بدون هوادة، مصحوبًا ببعض السباب الذي

يبدأ بـ«يلا» وينتهي بوصف عهر أمه في كل مرة بعبارة أدبية مختلفة، وسط صرخات طارق ومحاولته التملص مما يحدث له، وقسمه أنه لن يسكت عما يحدث، ونجاة الصغيرة لا تهتم:

- العالم كله، بأسراره.. عايش جوايا.

و يوسف يشاهد أخاه وسط الجموع، تاركًا يديه بجانبه، متجمدًا كلوح من الثلج لا يذوب، لكن قطرة واحدة ذابت من عينه، وسط بضع عبارات الحسرة و«الحسبنة» من المشاهدين، و..

- باشا!. وشة مزرق جامد.

قالها أحد العساكر للضابط الواقف زهوًا كطاووس مصاب بالبواسير يخشى أن يجلس.

- يعني إيه «مزرق»؟

- ماعرفش يا باشا، سيادتك فجأة لقيناه ما بيتكلمش ووشه مزرق.

- خدو منه اللبس ومشوه من هنا.. يلا مش عاوز أشوف وشه.

- تمام سيادتك.

أفاق بعد كوب ماء بارد صب على وجهه، ثم صرخ من الألم، ممسكًا بفخذه وذراعه، عاونه سائق آخر ليركب سيارة أخرى أمرها الضابط باصطحابه للقاهرة بأسرع وقت، جلس يوسف بجانبه هذه المرة ممسكًا يده اليسرى، يشعر برعشة شديدة وعرقًا ينهال من جبينه، طوال الطريق أخذ السائق يدعو على «فريد الصغير» بالعذاب والانتقام جراء فعلته.

وصلا للقاهرة وأمام أقرب مستشفى عام توقف السائق الشهم، عاون طارق على النزول بعدما تورم أسفل عينيه وأصبح عاجزًا عن الحركة تقريبًا، استقر به الأمر في عنبر الطوارئ، بعدها بيوم وقف طبيب أمام يوسف، ذلك البائس المصدوم، وربت على كتفه قائلًا:

-أخوك ماقدرش يستحمل، الناس هنا أتأخروا عليه، كان عنده نزيف داخلي.. استلمناه متأخر.

ثم أكمل:

- أنا عارف ان سنك صغير، بس عايزك تبقى عارف انهم هيغيروا الكلام ده في الورق عشان الظابط مايتأذيش، لو وصلت للمحكمة، ماتغيرش رأيك، قول كل اللي حصل، عمو اللي هناك ده هيوصلك لأهلك، البقية في حياتك!

نظر إليه «يوسف» بنظرة بها شيء آخر غير الحزن، ورحل.

الإسكندرية الآن:

هرول مسرعًا في وسط الطريق، يسابق الوقت والمطر، تتساقط منه قطرات الماء المالح ليغسلها ماء المطر على الأسفلت، كان الشارع قد فرغ من المارة تقريبًا بينما احتمى البعض من المطر الجنوني في مداخل العمارات، انتهى به الأمر أمام زجاج سوبر ماركت كبير، دخل مسرعًا لينفتح الباب أوتوماتيكيًا، يشق طريقه بوجه عنوانه الغضب، تاركًا سيلًا من الماء والطين خلفه، غير آبه بعامل يرتدي يونيفورم أنيقًا يجفف مدخل السوبر ماركت، نظر له العامل مصدومًا ثم تفحص المطر في

الخارج في اندهاش، ظل في طريقه بين الأرفف، دقيقة حتى استقر أمام فاترينة عرض سجائر، بحث بعينه عن نوعية معينة ثم أخذ واحدة منها وسط ذهول كل من في المتجر، توجه للفتاة التي جلست أمام حاسوب مزود بجهاز لمعرفة السعر، تجمدت العلكة في فمها حينما رأت كمية الماء المتساقط منه وشعره المبتل الذي أخفى عينيه، وضع العلبة أمامها، ليصنع كم معطفه بركة صغيرة من الماء على المنضدة، واصلت دهشتها لثانية، ثم استدركت أن الرجل في حاجة شديدة لعلبة السجائر ولا يمزح، أخذت العلبة ومسحت بياناتها وطلبت منه إثني عشر جنيهًا، ليخرج من جيبه ورقة بعشرين جنيهًا تحتاج كثيرًا من التجفيف قبل الاستعمال، وضعها أمامها على الطاولة وأخذ العلبة من دون سؤال وهم بالرحيل، نظرت الفتاة للشاب الذي جلس على الجهاز المجاور لها في صدمة ولم تتفوه بكلمة واحدة.

بعدها بعشرين مترًا، استقر داخل صيدلية شهيرة للغاية، وتشتهر بوجود الأدوية المستوردة والمهربة بها، طلب حقنة سكر فارغة وسأل عن دواء قد سأل عنه بالفعل في الهاتف قبل أن يأتي، نظر له الطبيب ذو العقد الخامس من أسفل نظارته متفحصًا إياه ليرد:

- كنت بسأل عن pesticide اسمه جلوبال.

- انت اللي كلمتنا في التليفون؟.

قالها الصيدلي بلهجة رقيقة للغاية.

- أيوة أنا..

تفحصه الصيدلي مجددًا ثم أردف:

- هنحتاج شوية وقت عشان نشتريهولك من بره..

رد يوسف بأسى:

- أنا محتاج المنتج ده دلوقتي.. عندي مزرعة وكل يوم بيعدي بخسر فلوس.. الفيران في كل حتة.. أرجوك!

تفحصه الرجل مجددًا من خلف نظارته بنظرة ثاقبة ثم ابتسم واختفى لثوان وعاد وبيده كيس أسود به شيء ما قائلًا :

- 350 جنيه بس..

ناوله يوسف المال وهم بالرحيل ليستوقفه الرجل مازحًا :

- خلي بالك..الصيدلية فيها كاميرات.

حرك يوسف رأسه إيجابًا.. ورحل.

كان وجهه يقطر غضبًا وإصرارًا وهو يمشي مهرولًا في طريقه، حينما سمع كلماته:

- يوسف! الحمد لله اني لقيتك، مؤمن بيدور عليا، في حاجة غريبة بتحصل.

توقف يوسف تحت المطر ونظر على يساره، ليجد دكتور عبد الرؤوف يقف وراءه بدون عكاز، يشير بيده تجاهه في ترقب.

- الناس اتقتلت بنفس ترتيب الشطرنج اللي قولتهولي...

قالها ثم تابع طريقه ناحية الكورنيش بالقرب من البحر.

هرول خلفه عبد الرؤوف بقدم تلتوي عجزًا محاولًا مجاراة سرعته واستطرد:

- بس أنا ماقتلتش حد، انت عارف كده كويس.

- أنا عرفت كل حاجة.

قالها من دون أن يتوقف.

- إزاي مالاحظتش ان مؤمن هو الوحيد اللي عاش، همم؟! هو الوحيد اللي ماتقتلش، الإسود قتل عبد الجليل بداله.

- مؤمن ماكانش ينفع يتقتل عشان مش سلبي، مؤمن ضد النظام، الأسود بيقتل الخنازير.

- ومين اللي عرفك الكلام ده؟

- أنا عارف.

- أقف كلمني هنا يا يوسف، رجليه ماتستحملش الجري ده كله.

- بتمشي إزاي من غير عكاز؟

قالها يوسف بوجه حاد متابعًا هرولته.

- يوسف! مؤمن هو الوحيد اللي عاش، لازم تقتله.. مؤمن بيخدعنا كلنا.

- فين عكازك؟

- مؤمن هو لوكي.

- مؤمن مش لوكي.

- أنا بقولك لازم تقتله!

- مش هقتله!

- لازم تصدقني! اسمع كلامي يا يوسف. لازم تسمع كلامي يا إما كلنا هنموت.

قالها ليقف يوسف في منتصف موقف الأتوبيس ويدور بوجهه ناحيته صارخًا بحنق شديد:

- مش هسمع كلامك!!. مش هسمع كلامك!. لأن أنا لوكي... أنا السبب.

- انت بتكلم مين؟!

قالها شاب ينتظر تاكسي وقف على ناصية الرصيف على بعد مترين من يوسف.

- بتقول إيه؟

رد يوسف متعجبًا.

- بتتكلم مع مين؟

- أنا.. كنت بكلم...

قالها وعاد بوجهه للدكتور عبد الرؤوف ليجده قد اختفى تمامًا من الوجود كالشبح، بلع ريقه بصعوبة واستطرد بصوت يخلو من الثقة.

- كان هنا.

- مين اللي هنا؟

هز يوسف رأسه إيجابًا بعينين مصعوقتين، ثم انصرف راكضًا، تتساقط دموعه، يقاوم رغبة ملحة في البكاء انتصرت عليه، يركض حتى لا يلحظ أحد انهياره.. حتى وصل لمكانه، شاليه مؤمن البحيري.. وأغلق الباب بسرعة.. ثم جلس أرضًا ملاصقًا الباب بظهره يتنفس بصعوبة، ويبكي بحرارة.

اقتحم مؤمن البناية التي يقطنها الدكتور عبد الرؤوف بمصاحبة أحد أضخم مخبريه حجمًا، كان متأكدًا من العنوان الذي أخبره أحمد نوح بتفاصيله، صعد السلالم ركضًا وخلفه «هرقل» حتى استقر أمام بابه البني، أخرج مسدسه وأشار له بإيماءة من رأسه ليرجع المخبر للوراء وينقض على الباب محدثًا ضجيجًا عاليًا، لكن الباب لم ينفتح، عاد المخبر مرة أخرى للوراء وهم بالانقضاض على الباب ليساعده مؤمن تلك المرة لينكسر الباب ويسقط المخبر أرضًا ثم يقوم في حين تمالك مؤمن توازنه قبل أن يسقط، نظر للمكان بصدمة كبيرة ودهشة ملأت كل جنبات قلبه، فالشقة بدت مهجورة منذ فترة، كل الأثاث مغطى بملاءات بيضاء لحفظه، أعطى مؤمن أمرًا للمخبر بتفقد الغرف من الداخل، رأى بضع سكان العمارة يقفون عند الباب يملأهم القلق.

قالها لاهثًا:

- مباحث.

ثم مشى متعجبًا يتفحص محتويات الشقة، من كراسي وتلفاز قديم ولوح شطرنج كبير مغطى أيضًا.

طمأنه المخبر بعدم وجود أي شخص ليضيف أحد سكان العمارة:

- الدكتور رؤوف سافر لأخوه السعودية من شهر.

حرك مؤمن رأسه إيجابًا وأشار للمخبر الذي خرج بدوره من الشقة قائلًا للسكان:

- كله يشوف مصلحته!

ليصبح مؤمن وحيدًا داخل الشقة، مترددًا مثل الأسد الغاضب، يمشي مضطربًا ببطء بين الآثاث المغطى، لينتهي به المطاف أمام لوح الشطرنج.

أخرج هاتفه النقال وضغط على اسم «سكانيا» وانتظر قليلًا حتى رد عليه نوح ثم قاطعه مؤمن مضيفًا:

- لا العنوان صح، لأ.. سافر.. عايزك تعرفلي فعلًا طلع السعودية ولا لأ.

رد عليه نوح بالإيجاب بينما رصدت عيناه ورقة سقطت أسفل مكتبه مسبقًا لينحني ويلتقطها، ثم قرأها عاقدًا حاجبيه:

- باشا!. أنا عارف ان الموضوع مالوش علاقة بالدكتور رؤوف، بس أنا لقيت ورقة كانت ناقصة من ملف الحوادث اللي كنا بنتكلم فيه، الولد اللي مات قدام أخوه الصغير في حادثة بورسعيد، اسمه طارق، طارق عبد التواب أصلان.. مش الدكتور يوسف اسمه.. ألو!

صمت مؤمن لبضعة ثوان كأنه أصيب بشلل.. وسقط الهاتف أرضًا من يده، أغمض عينيه وتحول وجهه للوحة فنية تتحدث عن الرعب..

وأخيرًا.. نزل على ركبتيه أرضًا، ونظر إلى سقف الشقة محاولًا التحدث إلى الله.. من دون أن ينطق بأي كلمة..

اليوم أصبح الجحيم حقيقة.

قبلها بخمس دقائق كان يوسف قد انتهى من فعل شيء ما في مطبخه.. شيء ما تطلب بعض استخدام كأس وحقنة سكر رفيعة، ثم شرب كمية كبيرة من الماء وأرسل رسالة نصية لمؤمن.

أراح رأسه على الأرض، وأغمض عينيه لكن صوتًا ما أفاقه..قام بصعوبة من فوق الأرضية الباردة وقصد المطبخ ليجده..

كان هو لم يتغير، بيد أن بضعة كدمات قد اختفت من وجهه الهادئ..

حازم.

- إزاي وصلت هنا؟

قالها يوسف بدهشة مشيرًا بسبابته.

- صاحبك قال لي على العنوان.

رد حازم متجهًا للصالة. ليسأله يوسف وهو يتتبعه:

- وانت تعرف مؤمن منين؟

- في حد كان عايز يشوفك.

قالها مشاهدًا حائط يوسف الذي ملأته الجرائد.

- أنا سألتك سؤال محدد..تعرف مؤمن منـ...

قاطعه صوت صدمه كالقطار من ورائه:

- مش هتقولي حمد الله على السلامة الأول؟

كان شاب في نهاية العشرينيات يشترك مع يوسف في بشرة فاتحة وعينين رماديتين، لكنه يمتلك شعرًا داكنًا وفكًّا عريضًا، يرتدي معطفًا كبيرًا بدا متسخًا بعض الشيء.

- طارق!

صاح يوسف بشغف وصدمة، ليرد طارق بتأثر بالغ:

- كل اللي بيحصل مؤامرة يا يوسف...كان لازم تاخد بالك من الأول.

- أنا خلاص فهمت اللي بيحصل..ماتقلقش..صدقني.. أنا هصلح كل حاجة.

- كان لازم تاخد بالك من الأول..قبل ما يعملوا فيا ده.. شايف!!

قالها طارق ليدير وجهه ناحية اليسار ويكشف عن جرح عميق في رأسه.

- طارق..لأ!!!

صاح يوسف مشيرًا بيده توسل وانهيار.

- شايف يا يوسف!. شايف!.شايف عملوا فيا إيه بسببك..بسبب طلباتك ومصاريفك.

قالها وجرد جسده من المعطف لتظهر فانلته البيضاء مغطاة بدماء كثيفة أسفل إبطه وكليته.

- طارق!.لا يا طارق!!.لا...

قالها يوسف منهارًا ليسقط أرضًا تغطي عينيه الدموع ويخضب خده البلاط البارد الذي امتزج ترابه بدموعه الغزيرة وبكائه الهيستيري، ليتابع طارق:

- انت غمضت عنيك عن اللي حصلي.. وقفت تتفرج زيهم..مش هنسى أبدًا اللي عملته.

ألقى طارق معطفه بجانب رأس يوسف الذي بدأ في الارتعاش بشدة، ثم وقف حازم بجانب طارق.. واختفيا.

بدأت الرعشة والبكاء الهيستيري في التحول لكلمات غير مفهومة من يوسف، كلمات بدأت تخرج متلعثمة ومبهمة وغاضبة، يكررها مجددًا كأنه يحلم.. تتساقط معها خيوط رفيعة من لعابه وقطرات من دموعه على الأرض، يضم سبابته وإبهامه معًا كأنه يقسم على شيء ما بكل غلظة ووعيد وتتشنج عضلات وجهه ليكرر كلماته المبهمة..و انتصر الصمت كعادته.، لكن شيئًا ما قد حدث ليوسف.

توقف قلب مؤمن بعد قراءته الرسالة، هاتف نوحًا مجددًا وطلب منه أن يحدد مكان هاتف يوسف النقال، مرت عشر دقائق هاتفه نوح بدوره قائلًا:

- في بيانكي، ثواني هقولك العنوان..

ليرد عليه مؤمن واثقًا:

- عارف العنوان، لو اتحرك قولي!

قالها ثم أدار محرك سيارته وانطلق بأقصى سرعة.

مرت نصف ساعة، استشاط مؤمن غضبًا ليلكم مقود السيارة، كان ذلك بسبب حادث مروري ناتج عن المياه الغزيرة، نظر في ساعته مجددًا متمنيًا ألا يغادر يوسف مكانه، قرأ رسالته الجديدة التي بدت أكثر غموضًا من الموت نفسه:

- راقبني عشان توصل ليارا.

مرت أربعون دقيقة كاملة.. وصل بعدها مؤمن للمكان المطلوب، أطفأ محرك سيارته وهم بالخروج ليجده أمام عينه، يمشي بثقة ناحية الشارع الرئيسي، كان هو، لكن مؤمن أقسم بداخله أن شيئًا ما فيه مختلفًا عن زي قبل، عيناه لم تحمل تلك النظرة التي اعتادها، بل والأصعب، أنه كان يدخن بكل شراهة.. يوسف أصلان يدخن مبتسمًا!. ماذا بعد أيها العالم؟!

وقف أمام الشارع الرئيسي يتفقد المارة حتى استقرت سيارة تاكسي أمامه، يقودها شخص قد طارده من قبل بمسدس في مترو الأنفاق، شخص قد حصل على يارا قاسم منذ سويعات بسيطة، تذكره مؤمن جيدًا وتذكر كيف وضع بصمته على فخذه مسبقًا. وانطلقت السيارة، بعد أن قذف يوسف – أو لوكي– سيجارته، وتبعهما مؤمن.

استقر التاكسي أمام مصنع مهجور يقع في أبو رواش خارج حدود الإسكندرية، نزل السائق الأعرج ويوسف «الذي هو ليس بيوسف»، رمى سيجارة أخرى وبدا عليه الامتعاض من طعمها، كان وجهه غريبًا،

يبدو عليه الاستهتار، لكن عينيه تحملان كثيرًا من الغضب، تفحص المكان حوله ثم هم بالدخول خلف خادمه الأعرج، في حين توقفت سيارة مؤمن على بعد كاف من المكان، طلب مؤمن دعمًا وتأكد من وجود ذخيرة كافية معه ثم ترجل.

في الداخل كان كل شيء مدمرًا تقريبًا، مصنع مهجور متروك منذ سنتين، به بضع أجهزة معطبة، وسلم معدني كبير يصل للدور الثاني الذي يفترض أن يكون به مكتب المدير، في الدور الثاني كان معمل القتل، بضعة خناجر حجرية من نفس النوعية المفضلة للمجرم الراحل، وقليل من إبر الخياطة الخاصة بالأطباء، ونفس نوع الخُيط الداكن، بالإضافة لفرشاة خاصة بالرسم، وزجاجة بها مانع تجلط.

بدون مقدمات فتح الخادم غرفة مغلقة خاوية لسيدة، ليجد فيها يارا وقد عبثت يد الأعرج بعينيها الجميلتين وحاكتهما، كانت فاقدة للوعي كطفل نائم بعد يوم حافل، اقترب منها وجلس القرفصاء بجانبها، تفحص عينيها بتلذذ، ثم حرك رأسه إيجابا وخرج ليغلق الأعرج الباب ويعود الظلام مرة أخرى، لم يكن يبدو على «لوكي» الارتياح لسبب ما، اقترب لوكي من راديو كاسيت قديم موضوع فوق طاولة دموية تمتلئ بالأسهم والخناجر المزخرفة، حرك بكرة الراديو القديم لتخرج من موسيقى مشوشة تلاها حوار ثم نشرة...

لكنه قال واثقًا بصوت يشبه صوت رجل في الخمسينيات:

- لما ييجي دور يوسف...

قاطعه صوت ماسورة أسقطها مؤمن بكتفه رغمًا عنه، أشار لوكي برأسه للأعرج أن يتحرك وفي الحين، أخرج الأعرج مسدسه وقاوم ضحكة مكتومة، تعرقت جبهته، وهم بالنزول.

ضغط لوكي في تلك اللحظة على زر في الراديو كاسيت القديم ليبدأ شريط ما في الدوران، وتشدو نجاة بأنشودتها الهادئة المريحة للأعصاب.. بحلم معاك.

على الجانب الآخر تمنى مؤمن أن أحدًا لم يسمع صوت الاصطدام الذي أحدثه عفويًا، تقدم بسلاحه بهدوء ويسر في جو مظلم يملأه العفرة.. تمنى ألا يؤخره القدر ثانية أخرى عن الحقيقة، فهو يريد أن يعلم ما يحدث ليوسف ويارا.. ويريده الآن..

شدت نجاة الصغيرة بترنيمتها المميتة مرة أخرى.. وجه مؤمن فوهة مسدسه بسرعة ورعب تجاه الصوت.. اقترب ببطء باحثًا عن مصدر الصوت المنتشر بحذر، ثم تابع طريقه لتصدمه طلقة مسدس حكت في كتفه الأيمن، ألقى بجسده خلف الطاولة واختفى، في حين تقدم الأعرج ومسح المكان بعينيه كاتمًا ضحكاته، مالبث أن هبط إلا وسمع صوتًا جديدًا لشيء معدني قد سقط..

التفت لمصدر الصوت، خلف السلم المعدني ليهمس صوت في أذنه:

- رجلك عاملة إيه؟

هوت ماسورة معدنية على معصمه الأيمن ليسقط المسدس أرضًا بعدما تكسرت عظمة عضده تمامًا، أمسك الأعرج معصمه تلقائيًا بألم،

ليهوي مؤمن بالماسورة مجددًا على فخذه المصابة، ليسقط الأعرج ألمًا، رمى مؤمن الماسورة وأخرج مسدسه من ظهر بنطاله وصوبه تجاهه قائلًا:

- نادي عليه.

قالها متفحصًا الجرح السطحي الذي سببه له ذلك المريض في كتفه.

نظر له الأعرج مجددًا مرتعشًا ومحاولًا مقاومة ضحكة جديدة ليثور مؤمن بصوت غير عال:

- نادي عليه بدل ما فرتك دماغك.

.. قالها وسقط مسدسه من يده؛ ذلك لأنه لم يعد يشعر بيده اليمنى، فالسهم الذي استقر في كتفه اليمنى جعل الشعور بأصابعه شبه مستحيل، نظر لأعلى السلم المعدني ليجده واقفًا، حاملًا قوسه المفضل، وبفمه سيجارة تحترق، وتحترق مقلتاه معها غضبًا.

- كنت بتدور عليا؟

قالها بصوته الغريب، وتجمد مؤمن في مكانه ونزل على ركبتيه متألمًا.. ثم تفحصه ساخرًا:

- واضح انك اقتنعت بموضوع السجاير.

ثم نظر بتأفف لكتفه المنفجرة بالدماء.

* * *

(44)

قبلها بدقيقتين جلست كطفلة تملكها اليأس بعد أن فقدتها الحافلة، تضم ساقيها المتجمدتين لصدرها في رعب، تحرك يديها المكبلتين باحثة عن شيء.. أي شيء.

كان شعورٌ بالغثيان يقذفها في دوائر لا تنتهي، حرب ضارية بينها وبين مخدر احتل قلاعًا شاهقة بين جنبات عقلها، وخوف يملأها كما ملأ الهواء المكتوم ذلك القبر المعتم.. لا شيء هنا سوى الصمت، والحائط، ولسعة برد ظالمة تطعن ظهرها وقدميها مرارًا.

اتسعت حدقتا عينيها، كانت محاولة غريزية يائسة لرؤية أي شيء ممكن، محاولة أجهضها ظلام لون محيطها، تقاطعت شهقات الرعب مع نبضاتها المتسارعة عندما اكتملت الصدمة..

في تلك اللحظة راودها إحساس قوي بأن ما يمنعها عن الرؤية ليس الظلام فحسب، بل شيء أكثر سادية وقتامة، مرَّرت أصابعها المرتعشة فوق جفنيها بترقب لتطلق صرخة ذعر نصف مكتملة.. كانت تعلم.. ولذلك استندت برأسها إلى الحائط البارد، صديقها الوحيد الذي يشاطرها الصمت.. وقتها أيقنت أنها لن ترى مهما حاولت، وشقت دمعة يأس مختلطة بدماء متخثرة طريقها فوق وجهها.. سقطت ككرة جليد باردة الإحساس.. مسحتها بكفها الصغيرة لترسم لوحة سريالية سوداء.. كونها الدم والكحل والألم، صرخت صرخة غضب، ولكمت الحائط

بهيستيريا ويد مرتعشة، هدأت ثورتها بعدما علمت أن مصيرها محتوم.. أنه دورها..

و صوت ما.. يضيف بُعدًا جديدًا من أبعاد الخوف، صوت أفاقها من ذلك الكابوس الحقيقي، أشبه بصوت راديو يتنقل صاحبة بين محطاته المشوشة، موسيقى ثم حوار ثم نشرة، كلمات متلعثمة تشابكت كبيت عنكبوت مكتمل لتنتهي بأغنية عتيقة مبهمة، لحنها الناعم يحمل كثيرًا من الرعب..

ثم ضجيج..بدا كعراك، جذبها زحفًا للباب، ألصقت أذنها به لتنصت، تعالت صوت نبضاتها حينما سمعت صوته، فهي تعرفه جيدًا..

صوته لها كصوت الخلاص.

بالعودة للمصنع..

استسلم مؤمن لرغبة ملحة له في السقوط على ركبتيه مصابًا، تفقد جرحه الغائر المنفجر بالدماء وبجانبه يرقد المختل المصاب، بعدها نظر ليوسف «لوكي» الذي دخن سيجارته بشراهة كم دون أن يزيلها من جانب فمه، ليقولها مؤمن ساخرًا:

- يوسف!

قالها وتفحص السهم المستقر في كتفه بتأفف وضيق ليضيف:

- دايمًا عندك الجديد يا يوسف.

حاول المختل الحركة تجاه المسدسين الملقيين بينهما ليرد يوسف بصوته الغريب:

- لسة مصمم إني يوسف؟

- إيه اللي حصل لصوتك؟!

- نفس اللي حصل لكتفك.

أجاب شبح يوسف المبهم ساخرًا وجذب سهمه بعدما أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته وأطلق سحابة كبيرة، ثم سأله بثقة رام يعلم أنه لن يخطئ.

- الراس.. ولا القلب؟

- مش الفروض تولعلي سيجارة الأول؟

- الوقت بيهرب منك.

قالها موجهًا السهم لرأسه.

- القلب.

رد مؤمن بعدما قام بحسبته، فالمسدس يسقط على بعد متر ونصف منه، وذراعه اليمنى - القريبة من المسدس- معطلة تمامًا، فرصته في مناورة للقفز والدوران والتصويب وإصابة الهدف شبه معدومة، أضف لذلك الأعرج الذي زحف رويدًا رويدًا حتى اقترب من مسدسه كثيرًا، لقد كانت فرصته للنجاة مستحيلة، وقد تفهم عقله الأمر وتقبله.

- راجل شجاع! قليلين اللي بيقدروا يواجهوا الموت، مواجهة راجل لراجل.

أغمض مؤمن عينيه مستسلمًا، شد لوكي سهمه عن آخره، متقنًا رميته كعادته، وسيجارته لا تزال في فمه،

وأطلق السهم، يشق الهواء..يحمل الموت بين طياته..يعرف طريقه جيدًا..

استقر السهم بجانب صدر مؤمن، شعر مؤمن بأن شيئًا لم يخترق صدره، نظر بجانبه ليجده قد استقر في جانب الطاولة الخشبية، ثم نظر للوكي – أو يوسف كما يراه- ليجد السيجارة قد سقطت من فمه واتسعت عيناه..كأن هناك من طعنه من الخلف..

(شبح في سيجارة)

(هل فكرت مسبقًا في استخدام السجائر كسلاح؟)

ترنح بقوة ثم أمسك بجانب السلم المعدني مفلتًا قوسه، شق قميصه في ألم كأنه أراد أن يخرج قلبه من صدره، و...

سقط..

سقط من فوق القمة على السلالم المعدنية حتى استقر أمام مؤمن،ألمه رؤية وجهه وقد غطاه الدم تمامًا، لكنه تذكر الأعرج، والذي أصبح على بعد سنتيمترات قليلة من سلاحه، قام بقفزته ممسكًا بسلاحه، مقاومًا ألم كتفه ودمائه التي سالت، و.. أطلق طلقتين.

كانتا كفيلتين بأن يريحاه من ضحكاته المكتومة للأبد.

- مؤمن!

نطقها يوسف بصعوبة.

اقترب منه مؤمن رافعًا مسدسه في حذر.

- أنا فين يا مؤمن؟

- اهدى خالص ومتتكلمش.

- يارا فين؟ إلحقها يا مؤمن!

قالها وشهق شهقة عالية مخيفة بوجه أحمر متورم وحدقتين متسعتين، فمفعول السيانيد الذي اشتراه من الصيدلية التي تتاجر في الأدوية المهربة مؤلم للغاية، خصوصًا أن الكمية التي دخلت رئتيه عن طريق السجائر تكفي لقتل نصف سرية عسكرية بنجاح.

أمسك مؤمن بيده اليسرى يد يوسف الملطخة بالدماء، ليقول آخر كلماته بعدما ناوله مفكرته الصغيرة، وضغط على يده بقوة:

- الملك ينقذ الملكة..

قالها مبتسمًا بألم والدم يتساقط مع كلماته، كان يتنفس بصعوبة بالغة.

ثم أفلت يده.. ليفلت معها حبل الحياة بلا رجعة..

صمت مؤمن،، دمعت عيناه حزنًا وأسفًا،، أسدل جفونه بأنامله بذهول..ثم ناداه بصوت هادئ ولم يجبه،، انهار باكيًا ودفعه مرتين وصاح باسمه مجددًا لكن لم يرد عليه يوسف.

أفاقه ذلك الصوت الذي صدر من الطابق الأعلى، هم بالركض، سمع صوت طرقاتها وصرخاتها المكتومتين، بحث عن المفتاح، لم يجده، أمسك بمقص كبير وحاول قص طرف السهم المعلق بكتفه، فعلها بعنف وألم.

ثم قالها بكل حزم:

- إبعدي عن الباب!

زحفت بسرعة مبتعدة عنه، أطلق النار مرتين على القفل، فتح الباب، كانت تنطوي في أبعد نقطة ممكنة في ذعر، تبكي هيستيريًّا، ترتعد من مؤمن على الرغم من أنها شعرت بأنه جاء من أجلها، اقترب منها وجلس أمامها.. طمأنها وطلب منها أن تثق به، لمست يده برعب وترقب، أمسكت يده بكلتا يديها، تأكدت أنه هو بعدما لمست معالم وجهه، غير مصدقة أنها نجت، سيطرت عليها نوبة بكاء شديدة، في حين ظل هو متجمدًا، غير مصدق لما رآه، وما حدث.

* * *

(45)

بعدها بشهرين.

وقف مؤمن أمام قبره، بذراع معلقة في رباط طبي أزرق اللون، ينظر بعينه الجامدتين، غير مصدق أنه الآن ذكرى، يتذكر كيف كانت ابتسامته الساحرة تجذب الجميع حوله، يتذكر كيف ساعده وأنقذه من قبل، لقد أحبه كثيرًا في وقت قياسي، الصاحب الذي لم يتخل عنه.. حتى عندما اكتشف أنه ليس وحده في عالم تكسوه الوحدة بالظلام، ويكسوه المجهول بالخوف.

تقدمت أمامه.. ووضعت زهورها على قبره، كتب عليه

- يوسف عبد التواب أصلان عبد الله 1982- 2010.

عادت لتقف بجانب مؤمن، أمسكت يده اليسرى، واعتصرتها، تكتسب منها الدفء والقوة، مسحت دموعها وسألت بصوت مضطرب:

- مين اللي مدفون هنا ؟

سكت مؤمن للحظة ثم رد من دون أن ينظر لها:

- ضحية.

تقدم مؤمن خطوتين وجلس أمام القبر ولمسه بأطراف أنامله، قال شيئًا لم تسمعه يارا، ثم أخرج مفكرة يوسف الشخصية من جيبه،

رغرغت عيناه بالدموع في صمت، وضع المفكرة بجانب الورود مطوية على الصفحة الأخيرة، صفحة كتبها يوسف آخر كلماته بعدما خرج من مياه البحر مباشرة.. كتب فيها:

العالم لن يختفي لو أغمضت عينيك..

ماذا لو اختفى ولم تغلقهما بعد؟..

تلك الحرب بداخلك..

هل تضحي من أجلها؟..

ملك بملك!.

أتشعر بالعدل في لحظة ما؟..

هل مررت بذلك النفق الضيق فارتعدت خوفًا مثلي؟..

هو الأمر إذن.. تضع القطعة الأخيرة في الأحجية..فترى وجهك..

أرأيت ذلك الشبح في المرآة؟..شبحك!.

كان يجب أن أرى من البداية..

كان يجب أن أعلم أن كل شيء قد ينتهي إلى لا شيء..في اللحظة التي تحولت فيها الظلمة بداخلي لموت مطلق.

لأن أي شيء مطلق هو مستحيل.. والظلمة ليست بجبهة معادية، تقف وتشاهدها وأنت مطمئن أنك لست منها..

لأن معركة الباطل والحق لم تعد اختيارًا، والساكت عن الحق ليس من الضروري أن يكون شيطانًا أخرس.. لكن الأكيد أنه أعمي.. في اللحظة التي أغمض فيها عينيه.

لأن الرؤية الواضحة هي شيء شبه مستحيل... وطريق لا سراب فيه ليس بطريق..

لأن الألوان قد تتشابه.. والخير والشر لن يفصل بينهم خطًا واضحًا.. خط يمكنك أن تراه..

لكن من الممكن أن ترى كل المعاني وعكسها في تلك التجربة التي عايشتها وحاربت من أجلها بكل كيانك، أو تشاهد لون الخوف في مذكرات ملك شطرنج أبيض، نزل من فوق حصانه المنتشي ليشرب نخب الانتصار من نهر عذب بارد.

مشى وقد استساغ قلبه طعم الفوز.. وامتلكه هتاف الجماهير..

علم قيمته بعد معركته مع الظلام.. وأيقن الحقيقة في انعكاس صورته على الماء..

رأى وعلم كل شيء..

التاج لم يكن أبدًا أبيض..

و النهر لم يكن به ماء..

تلك الحرب موقعها أعماقه..

يوسف أصلان.

تمت



بعد سلسلة ناجحة من عموده الأسبوعي "خيوط و دلائل" يقرر يوسف أصلان - الصحفي المهووس بعلم الجريمة- أن ينشر مقالة عن أغرب جريمة عاينها خلال تاريخه.. جريمة قتل فريدة من نوعها وصفها بـ"الجريمة شبه الكاملة"، ليفاجأ بعدها بتغير درامي لأحداث حياته الهادئة بعدما قرأ القاتل تعليقه عنه و عن الجريمة.

"إثارة قاتل متسلسل.. كان آخر ما أحتاجه، لقد صنعت كابوسًا من العدم.. رميت حجرًا في بحر من الغضب.. أيقظت الشيطان ووقفت أمازحه.. أحيانًا يكون أعمق مخاوفك هو وقت لا تجد فيه شيئًا لتفعله.. النزهة الإجبارية التي يرغمك الوقت أن تحصل عليها مع عقلك، المشي بين الذكريات الشائكة و الصور المؤلمة عار القدمين، تدمي قدماك الخسائر كما تدميها أكسار الزجاج، ثم تحصل على وجبتك المجانية من الندم"!

أحمد حسين، كاتب من مواليد الإسماعيلية لعام 1985، تخرج في كلية العلوم - قسم البيولوجي عام 2007، أصدر بعض القصص القصيرة في عام 2011 ، منها: "خربش و اخسر" و " نزيف". درس كتابة السيناريو والحوار ، ثم تفرغ لكتابة رواية "6 إنش"، و التي استغرقت أربع سنوات متواصلة لتكتمل.







الدار المصرية اللبنانية